

بأخبار دار المصطفى

تأليف

نور الدين على بن أحمد السمهودى

المتوفى فى عام ٩١١ من الهجرة

حققه ، وفصله ، وعلق حواشيه

محمد محيى الدين عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يكافئ موفور نعمته ، والشكر له سبحانه على سوابغ فضله وعظيم مِنَّتِه ، وصلاة الله وسلامه على سيد وَلَدِ آدم ومُصْطفاه من بَرِيَّتِه ، محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب ، وعلى آله وصحبه وعترته .

أما بعد ، فهذا ثانى ثلاثة كتب صنفها الشيخ العلامة نور الدين على بن أحمد السمهودى ، المصرى ، نزيل المدينة المنورة ، المتوفى فى عام ٩١١ من الهجرة ، وموضوع الكتب الثلاثة واحد :

أولها : كتاب مُفَصَّل ذكر فيه ما أمكنه الوقوف عليه من تواريخ المدينة المنورة ، وما عاينه من أمور لم يظفر بها أحد من مؤرخيها ، وسلك فيه « طريقة الاستيعاب ، وجمع ما افترق من معانى تلك الأبواب ، وتلخيص مقاصد جميع تواريخ المدينة التى وقف عليها ، وإضافة ما اقتضى الحالُ أن يضاف إليها » وهو يسمى هذا الكتاب فى مطلع الكتاب الثانى « اقتفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » وكذلك يسميه صاحب شذرات الذهب ، ولكن حاجى خليفة يسميه « الوفا ، بما يجب لحضرة المصطفى » والمؤلف نفسه يسميه فى ثنايا كتابه الثانى وفى مطلع الثالث « الوفا » . ولم يظفر هذا الكتاب بالإتمام فضلاً عن الظهور والتداول ، فقد كان المؤلف تركه فى المسجد النبوى وسافر إلى مكة المكرمة فاحترق الكتاب فيما احترق بحريق أماكن من المسجد الشريف .

وثانيها : كتاب وَسِيطٌ صنفه استجابة لمن « طاعته غُنْم ، ومخالفته غُرم » وقصد به أن يختصر كتابه الأول « مع توسط غير مُفْرط » و « مع ما رأى فى ذلك من الإتحاف بأمورٍ لا توجَدُ فى غيره من المختصرات بل ولا المبسوطات ، سيما فيما يتعلّق بأخبار الحجرة الشريفة ، ومعالمها المنيفة ، فقد استفادَ ذلك عِياناً ،

وعلم أخبارها إيقانا ، بسبب ما حدث فى زمانه من العمارة ؛ لاشتمالها على تجديد ما كاد أن يَهِيَ فى الحجرة الشريفة من الأركان ، وإحكام ما أحاط بها من البنيان ، وتشرفه بالخدمة فى إعادة بنيانها ، وحُظْوَتِهِ بالوقوف على عرصَتِها ، وتَمَتُّعه بانتشاق تربتها » .

وهذا الكتاب هو الذى نقدمه بين يدى القارئ ، واسمه « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » بعد تحقيق أصله ، وتفصيله ، وضبط غرائبه ، والتعليق عليه تعليقا وجيزا يبين ما لا بد للقارئ المتوسط من معرفته من شرح كلمة غريبة أو بيان موضع أصبح اسمه فى ذمة التاريخ ، أو إشارة إلى خطأ وقع فى الأصول التى اعتمدناها فى إخراج هذا الكتاب ، أو نحو ذلك مما يعرض لنا .

وثالثها : كتاب مختصر « فى نحو نصف وفاء الوفا ، مع جمع مقاصده وتحسين وصفه » واسم هذا الكتاب « خلاصة الوفا ، بأخبار دار المصطفى » .

وقد طبع الكتابان الثانى — وهو هذا — والثالث ، مراراً ، طبعا غير مُفَصَّل ولا مضبوط ، وذلك شأن الوراقين فى كل ما كانوا ينشرونه من كتب العلم والأدب والتاريخ ، ولما أراد الشيخ محمد النمنكانى نزيل المدينة المنورة والكتبى بها أن يعيد طبع كتاب « الوفا » رغبَ إلىَّ فى تحقيقه وتفصيله ، وصادف ذلك منى رغبة خالصة لوجه الله تعالى ، رجاء أن يتقبل سبحانه هذا العمل الذى أحببت أن أتقرب به إليه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقمت بضبط غرائبه ، وتفصيل عباراته بوضع علامات الترقيم الحديثة ، ووضع عَنَاوِينَ مُوجَزَة على هامش النسخة ، والله سبحانه المرجُوُّ أن يجعل هذا العمل فى سجل الحسنات ، وأن ينفع به النَّفْعَ المرغوبَ فيه ، إنه ولى ذلك كله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

كتبه أبو رجاء ، المعتز بالله تعالى

محمد محيى الدين عبد الحميد

عن مصر الجديدة فى { سلخ جمادى الأولى سنة ١٣٧٤
المواقف ٢٣ من يناير ١٩٥٥

ترجمة مؤلف الكتاب

الشيخ العلامة على بن أحمد السمهودى ، رحمه الله !

(١) هو الإمام ، القدوة ، الحجة ، المفنن ، نور الدين ، أبو الحسن على بن القاضى عفيف الدين عبد الله ، بن أحمد بن على بن عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد ابن عيسى بن جلال الدين أبى العلياء بن أبى الفضل جعفر بن على بن أبى الطاهر ابن الحسن بن أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن حسن بن محمد بن إسحاق ابن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن الأكبر بن على بن أبى طالب ، الحَسَنِىُّ ، ويعرف بالسمهودى . نزيل المدينة المنورة ، وعالمها ، ومفتيها ، ومدرسها ، ومؤرخها ، الشافعى .

(٢) وُلد فى صفر الخير من سنة ٨٤٤ أربع وأربعين وثمانمائة ، فى سمهود ، ونشأ بها ، وحفظ القرآن الكريم ، والمنهاج الفَرْعى ، وكتبا ، ولازم والده حتى قرأ عليه المنهاج بَحْثًا مع شرحه لجلال الدين المحلى ، وشرح البهجة ، وجمع الجوامع ، وسمع عليه بعض كتب الحديث ، وقدم القاهرة معه غير مرة ، ولازَمَ الشمس الجوجرى فى الفقه وأصوله والعربية ، وقرأ على الجلال المحلى بعض شرحَيْه على المنهاج وجمع الجوامع ، ولازم الشريف المناوى وقرأ عليه الكثير ، وألبسه خرقة التصوف ، وقرأ على النجم بن قاضى عجلون تصحيحه للمنهاج ، وعلى الشيخ زكريا فى الفقه والفرائض ، وعلى السعد الديرى وأذن له فى التدريس هو واليامى والجوجرى ، وقرأ على مَنْ لا يُحْصَى مالا يُحْصَى ، وكان على خير كثير .

(٣) قطن بالمدينة المنورة من سنة ثلاث وسبعين ، ولازم فيها الشهاب الأبشيطى ، وقرأ عليه تصانيفه وغيرها ، وأذن له فى التدريس ، وأكثر من السماع هناك على أبى الفرج المراغى ، وسمع بمكة من كمالية بنت النجم المرجانى وشقيقها الكمال ، والنجم عمر بن فهد ، فى آخرين .

(٤) انتفع به جماعة الطلبة فى الحرمين الشريفين ، وألّفَ عدة تآليف ، منها « جواهر العقدين ، فى فضل الشرفين » ومنها كتاب « اقتفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » الذى ذكرناه فى التصدير ، و بينا أنه احترق قبل تمامه ، ومنها « الوفا ، بأخبار دار المصطفى » وهو الكتاب الذى نعانى إخراجه اليوم ، ومنها «خلاصة الوفا ، بأخبار دار المصطفى» ومنها حاشية على الإيضاح فى مناسك الحج للامام النووى سماها « الإفصاح » ومنها حاشية على الروضة فى فقه الشافعى سماها «أمنية المعتنين ، بروضة الطالبين» وصل فيها إلى باب الربا ، وجمع فتاويه فى مجلد ، وحصل كتبا نفيسة احترقت كلها وهو بمكة فى سنة ست وثمانين .

(٥) زار بيت المقدس ثم عاد إلى المدينة المنورة مستوطنا ، وتزوج بها عدة زوجات ، ثم اقتصر على السَّرَارى ، ومَلَكَ الدور ، وعَمَرَهَا .

(٦) قال الحافظ السخاوى : قلّ أن يكون أحد من أهل المدينة لم يقرأ عليه

(٧) وفى الجملة هو إمام مفنن ، متميز فى الأصلين والفقه ، مديم دراسة العلم والتأليف ، متوجه للعبادة والمباحثة والمناظرة ، قوىّ الجَلَادة ، قوىّ اليقين .

(٨) توفى بالمدينة المنورة يوم الخميس ثامن عشر ذى القعدة من عام أحد عشر وتسعمائة من الهجرة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأسبغ عليه ذيول فضله وكرمه ، آمين .

انظر شذرات الذهب ٨ / ٥٠ والضوء اللامع ٥ / ٢٤٥ .

فهرس الجزء الأول

من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى »

لنور الدين على بن أحمد السمهودى المتوفى فى عام ٩١١ هـ

وقد تمت فهرست الجزء الأول من كتاب « وفاء الوفا » للعلامة السمهودى ، والحمد لله تعالى فى مبدأ أمورنا كلها وفى خواتيمها ، ونسأله جلت قدرته ـ أن يوفق لإكماله ، وأن يسدد خطانا ، ويجعلنا بفضله من المقبولين .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه .

خطبة المؤلف

﴿أما بعد﴾ حمد الله على آلائه[1] ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف أنبيائه ، وعلى آله وأصحابه وأصفيائه ؛ فقد سألنى مَنْ طاعتُه غُنْم ، ومخالفته غُرْم ، أن أختصر تأليفى المسمى بـ «اقتفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى» ـ صلى الله عليه وسلم ! وزاده شرفا وفضلا لديه ! ـ اختصاراً مع توسطٍ غير مُفْرِط ، هذا مع كونه بعدُ لم يقدَّر إتمامه بتكامل أقسامه ؛ لسلوكى فيه طريقةَ الاستيعابِ ، وجمعِ ما افترق من معانى تلك الأبواب ، وتلخيص مقاصدِ جميع تواريخ المدينة التى وقفتُ عليها ، وإضافةِ ما اقتضى الحالُ أن يضاف إليها ، مع عُرُوضِ الموانع ، وترادف الشواغل والقواطع ، فأجبته إلى سؤاله ؛ لما رأيت من شَغَفِه[2] بذلك وإقباله ؛ مع ما رأيت فى ذلك من الإتحاف بأمور لا توجد فى غيره من المختصرات بل ولا المبسوطات ، سيما فيما يتعلق بأخبار الحُجْرَة الشريفة ، ومعالمها المنيفة ، فإنى قد استفدته عِيَاناً ، وعلمت أخبارها إيقانا ، بسبب ما حدث فى زماننا من العمارة التى سنشير إليها ، ونقف فى محلها عليها ؛ لاشتمالها على تجديد ما كاد أن يَهِيَ[3] فى الحجرة الشريفة من الأركان ، وإحكام ما أحاط بها من البنيان . وتشرفت بالخدمة فى إعادة بنيانها ، وتجنَّبت شُهُودَ نَقْض أركانها ، وَحَظِيتُ بالوقوف على عرصَتها ، وتمتعت بانتشاق[4] تُرْبتها ، ونعمت العين بالاكتحال

---

(١) الآلاء : النعم ، واحدها إلى ، بوزن رضا ، ومعنى الإلى : النعمة .

(٢) الشغف ـ بالتحريك ـ المحبة التى تخالط شغاف القلب .

(٣) وهى يهى ـ بوزن وعى يعى ـ ومعناه : سقط . (٤) انتشق التربة : شمها .

بأرضها الشريفة ، ومحالّ الأجساد المنيفة ، فامتلأ القلب حياء ومهابة ، واكتسى من ثياب الذال أثوابه ، هذا وقد جُبِلت القلوب[1] على الشغف بأخبار هذا المحل وأحواله ، كما هو دأب كل محب مغرم وَالِهٍ[2] ، ولله در القائل :

أَمْلِيانى حديثَ مَنْ سكن الْجِزْ ... عَ ولا تَكْتُبَاه إلا بِدَمْعِى

فَاتَنِى أن أرى الدِّيارَ بِطَرْفِى ... فَلَعَلِّى أرى الديار بسَمْعِى

ولعمرى إن الاعتناء بذلك وضَبْطه و إفادته من مهمات الدين ، و إن النظر فيه مما يزيد فى الإيمان واليقين ؛ لما فيه من معرفة مَعَاهد دار الإيمان ، ونَشْرِ أعلامها المُرْغِمة للشيطان ، وتذكرآياتها الواضحة التبيان ، والمرجُوُّ من الله تعالى أن يكون كتابُنا هذا تحفة لمُحِبِّى دار الأبرار ، ومَنْ سكن بها من الأخيار ، ووفَد عليها من الوُفَّاد ، وقد بذلت الجهد فى تهذيبه وتقريبه، رجاء دعوة تَمْحُو الأوزار[3] ، وتُقِيل العِثار ، ونظرة قبول من المصطفى المختار ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار ، وصحابته الأخيار ! .

وسميته « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » صلى الله عليه وسلم ، وشرف وعظم ! ورتبته على أبواب :

أبواب الكتاب

الباب الأول : فى أسماء هذه البلدة الشريفة .

الباب الثانى : فى فضائلها ، و بَدْء شأنها ، وما يَؤُول إليه أمرها ، وما يتعلق بذلك ، وفيه ستة عشر فصلا : الأول: فى تفضيلها على غيرها من البلاد، الثانى : فى الحثّ على الإقامة بها ، والصبر على لَأْوَائها[4] وشدتها ، وكونها تَنْفِى الخَبَثَ

(١) جبلت القلوب : فطرت وطبعت ، يريد أن ذلك طبيعتها وجبلتها وفطرتها التى فطرها الله تعالى عليها .

(٢) الواله : الذى اشتد حبه حتى قارب الجنون .

(٣) الأوزار : الذنوب ، واحدها وزر ، بكسر الواو وسكون الزاى .

(٤) اللأواء : الشدة ؛ فعطف الشدة عليه عطف تفسير .

والذنوب ، ووَعيدِ من أرادها وأهْلَهَا بسوء أوأحدث بها حَدَثاً أو آوى مُحْدِثا ، الثالث : فى الحثّ على حفظ أهلهـا و إكرامهم ، والتحريض على الموت بهـا ، واتخاذ الأصل[1] ، الرابع : فى بعض دعائه صلى الله عليه وسلم لها ولأهلها ، وما كان بها من الوَبَاء ، ودعائه بنَقْله ، الخامس : فى عصمتهـا من الدجّال والطاعون ، السادس : فى الاستشفاء بترابها وتمرها ، السابع : فى سَرْدِ خصائصها ، الثامن : فى صحيح ماورد فى تحريمها ، التاسع : فى بيان عَيْر وثَوْر اللذين وقع تحديدُ الحرم بهما ، العاشر : فى أحاديث أُخَرَ تقتضى زيادة الحرم على ذلك التحديد وأنه مقدر ببريد ، الحادى عشر : فى بيان مافى هذه الأحاديث من الألفاظ المتعلقة بالتحديد ، ومن ذهب إلى مقتضاها ، الثـانى عشر : فى حكمة تخصيص هذا المقـدار المعين بالتحريم ، الثالث عشر : فى أحكام هذا الحرم الـكريم ، الرابع عشر : فى بدء شأنهـا ، وما يؤول إليـه أمرها ، الخـامس عشر : فيما ذكر من وقوع ما ورد من خروج أهلها وتركهم لهـا ، السـادس عشر : فى ظهـور نار الحـجاز التى أنذر بهـا النبى صلى الله عليه وسـلم فظهرت من أرضها ، وانطفأها عند وصولها إلى حرمها .

الباب الثالث : فى أخبار سكانها فى سالف الزمان ، ومَقْدَمِه صلى الله عليه وسلم إليها ، وما كان من أمره بها فى سِنِى الهجرة ، وفيه اثنا عشر فصلا . الأول: فى سكانها بعد الطوفان ، وما ذكر فى سبب سكنى اليهود بها ، و بيان منازلهم ، الثانى : فى سبب سكنى الأنصار بها ، الثالث : فى نسبهم ، الرابع : فى ظهورهم على اليهود ، وما اتفق لهم مع تُبَّع ، الخامس : فى منازلهم بعد إذلال اليهود ، وشىء

---

(١) المراد بالأصل هنا المال ، وسيأتى تعليله بأن المال يحمل الإنسان على البقاء ؛ فكأن المقصود من اتخاذ الأصل الإقامة الدائمة بها .

من آطامهم[١] وحروبهم ، السادس : في ما كان بينهم من حرب بُعَاث ، السابع : في مبدأ إكرام الله لهم بهذا النبي الكريم ، وذكر العَقَبة الصغرى ، الثامن : في العقبة الكبرى وما أفْضَتْ إليه[٢] ، التاسع : في مبدأ هجرته صلى الله عليه وسلم ، العاشر : في دخوله صلى الله عليه وسلم أرضَ المدينة وتأسيس مسجد قُباء ، الحادى عشر : في قدومه باطن المدينة المنيفة ، وسكناه بدار أبي أيوب الأنصارى ، وخبر هذه الدار ، ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، الثانى عشر : في ما كان من أمره صلى الله عليه وسلم بها في سنين الهجرة[٣] .

الباب الرابع : فيما يتعلق بأمور مسجدها الأعظم ، والحُجُرَات المنيفات ، وما كان مُطِيفاً بها من الدور والبلاط ، وسوق المدينة ، ومنازل المهاجرين ، واتخاذ السور ، وفيه سبعة وثلاثون فصلا : الأول : في أخذه صلى الله عليه وسلم لموضع مسجده الشريف ، وكيفية بنائه ، الثانى : في ذَرْعِهِ وحدوده التي يتميز بها عن سائر مسجده اليوم ، الثالث : في مَقَامِهِ الذى كان يقوم به قبل تحويل القبلة وبعده ، وما جاء في تحويلها ، الرابع : في خبر الجِذْع ، واتخاذ المنبر ، وما اتفق فيه ، الخامس : في فضل المسجد الشريف ، السادس : في فضل المنبر المنيف والروضة الشريفة ، السابع : في الأساطين[٤] المنيفة ، الثامن : في الصُّفَّة وأهلها ، وتعليق الأقناء[٥] لهم بالمسجد ، التاسع : في حُجَره صلى الله عليه وسلم ، وبيان إحاطتها بمسجده إلا من جهة المغرب ، العاشر : في حجرة ابنته فاطمة رضى الله عنها ، الحادى عشر : في الأمر بسَدِّ الأبواب ، وبيان ما استثنى من ذلك ، الثانى عشر : في زيادة عمر رضى الله عنه في المسجد ، الثالث عَشَرَ : في البطيحاء التي بناها

---

(١) الآطام : الحصون ، واحدها أطم ، بضم الهمزة والطاء جميعا ، ووزانه عنق وأعناق .

(٢) أفضت إليه : آلت إليه ، يريد آثارها التي ترتبت عليها .

(٣) كذا ، والفصيح « في سنى الهجرة » .

(٤) الأساطين : جمع أسطوانة ، والمراد الأعمدة .

(٥) الأقناء : جمع قنو .

بناحيته ، ومنعه من إنشاد الشعر ورفع الصوت فيه ، الرابع عشر : فى زيادة عثمان رضى الله عنه ، الخامس عشر : فى المقصورة التى اتخذها به ، السادس عشر : فى زيادة الوليد على يد عمر بن عبد العزيز ، السابع عشر : فيما اتخذه عمر فيها من المحراب والشرُفات والمنَارات والحرس ، ومنعهم من الصلاة على الجنائز فيه ، الثامن عشر : فى زيادة المهدى ، التاسع عشر : فيما كانت عليه الحجرة المنيفة الحاوية للقبور الشريفة فى مبدأ الأمر، العشرون : فى عمارتها بعد ذلك ، والحائز[1] الذى أدير عليها ، الحادى والعشرون : فيما روى فى صفة القبور الشريفة بها ، وأنه بقى هناك موضع قبر لعيسى عليه الصلاة والسلام ، وتنزل الملائكة حافّينَ بالقبر الشريف ، وتعظيمه ، والاستسقاء به ، الثانى والعشرون : فيما ذكر من صفتها وصفة الحائز الدائر عليها ، وما شاهدناه مما يخالف ذلك ، الثالث والعشرون : فى عمارة اتفقت بها بعد ما تقدم ، على ما نقله بعضهم ، وما نقل من الدخول إليها وتأزيرها بالرخام ، الرابع والعشرون : فى الصندوق الذى فى جهة الرأس الكريم والمسمار الفضة المواجه للوجه الشريف ، ومقام جبريل عليه السلام ، وكسوة الحجرة وتَحْليتها ، الخامس والعشرون : فى قناديلها ومعاليقها ، السادس والعشرون : فى الحريق الأول القديم المستولى على تلك الزخارف المُحْدَثة بها وبالمسجد وسقفها وما أعيد من ذلك ، السابع والعشرون : فى اتخاذ القُبَّة الزرقاء تمييزاً للحجرة الشريفة والمقصورة الدائرة عليها ، الثامن والعشرون : فى عمارتها المتجددة فى زماننا ، على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل من إزالة هَدْم الحريق من ذلك والمحل الشريف ، ومَشاهد وضعه المنيف ، وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة ، التاسع والعشرون : فى الحريق الحادث فى زماننا بعد العمارة السابقة ، وما ترتب عليه أُلحقته هنا مع إلحاق ما تقدمت الإشارة إليه فى الفصول ؛ لحدوثه بعد الفراغ من مُسَوَّدة كتابنا هذا ، وفى آخره خاتمة فيما نقل من عَمَل نور الدين الشهيد

---

(١) الحائز : المراد به جدار يحيط بالحجرة .

الخندق مملوء من الرَّصَاص حَوْلَ الحجرة ، الثلاثون : فى تحصيب المسجد[1] ، وأمر البزاق فيه، وتَخْليقه[2] ، وإجماره ، وشيء من أحكامه ، الحادى والثلاثون : فيما احتوى عليه من الأرْوقَة والأساطين والبلوعات والسقايات والحواصل ، وغيرذلك، الثانى والثلاثون : فى أبوابه وخوخاته ، وما يميزها من الدور المحاذية لهـا ، الثالث والثلاثون : فى خوخة آل عمر رضى الله عنـه ، الرابع والثلاثون : فيما كان مطيفاً به من الدور ، الخامس والثلاثون : فى البـلاط وما حوله من منازل المهاجرين ، السادس والثلاثون : فى سوق المدينـة ، السابع والثلاثون : فى منازل القبائل من المهاجرين ، وما حدث من اتخاذ السور .

الباب الخامس : فى مُصَلَّى النبى صلى الله عليه وسلم فى الأعياد ، وغير ذلك من مساجد المدينة التى صلى فيها النبى صلى الله عليه وسلم أو جلس مما علمتْ عَيْنَه أوجِهَته ، وفضل مقابرها ، ومن سمى ممن دفن بها ، وفضل أُحدٍ والشهداء به ، وفيـه سبعة فصول : الأول : فى مُصَلَّى الأعياد ، الثانى : فى مسجد قباء ، وخبر مسجد الضِّرَار ، الثالث : فى بقية المساجد المعلومة العين فى زماننا ، الرابع : فيما علمت جهته من ذلك ، ولم يعلم عينه ، الخامس : فى فضـل مقابرها ، السادس : فى تعيين بعض من دفن بالبقيع من الصحابة وأهل البيت رضـوان الله عليهم ، والمَشَاهد المعروفة بها ، السابع : فى فضل أُحُدٍ والشهداء به .

الباب السادس : فى آبارها المباركات ، والعين والغراس والصـدقات ، التى هى للنبى صلى الله عليه وسلم منسوبات ، وما يُعْزَى إليه[3] من المساجد التى صلى فيها فى الأسفار والغزوات ، وفيه خمسة فصول : الأول : فى الآبار المباركات ، وفيـه تتمة فى العين المنسوبة للنبى صلى الله عليه وسـلم ، والعين الموجودة فى زماننا ، الثانى : فى صدقاته صلى الله عليه وسلم وما غَرَسَه بيده الشريفة ، الثالث : فيما

---

(١) تحصيب المسجد : فرشه بالحصباء ، وهى صغار الحصى .

(٢) تخليقه : أى مسه بالخلوق ــ بفتح الخاء ــ وهو ضرب من الطيب ، والمراد تطييب المسجد ، والمراد بإجماره تبخيره .

(٣) يعزى : ينسب .

ينسب إليه من المساجد التى بين مكة والمدينة بالطريق التى كان يسلكها صلى الله عليه وسلم ، الرابع : فى بقية المساجد التى بينهما بطريق ركب الحاج فى زماننا ، وطريق المشيان(١) ، وماقرب من ذلك ، الخامس : فى بقية المساجد المتعلقة بغَزَوَاته وعُمَرِه صلى الله عليه وسلم .

الباب السابع : فى أوْدِيَتِهَا وأحْمَائِها(٢) وبِقَاعِها وجبالها وأعمالها ومضافاتها ، ومشهور ما فى ذلك من المياه والأودية ، وضبط أسماء الأماكن المتعلقة بذلك ، وفيه ثمانية فصول : الأول : فى فضل وادى العَقِيقِ وَعرْصَته وحُدُوده ، الثانى : فيما جاء فى إقطاعه وابتناء القصور به وطريق أخبارها ، الثالث : فى العَرْصَة وقُصُورها ، وشىء مما قيل فيها وفى العقيق من الشعر ، الرابع : فى جماواته ، وأرض الشجرة ، وثَنِيَّة الشريد ، وغيرها من جهاته ، وفيه خاتمة فى سَرْدِ ما يدفع فيه من الأوْدِيَةِ ومابه من الغُدْرَان ، الخامس : فى بقية أوْدِيَةِ المدينة ، السادس : فيما سمى من الأحماء ومَنْ حَمَاها وشرح حال حِمَى النبى صلى الله عليه وسلم بالنقيع ، السابع : فى شرح بقية الأحماء ، وأخبارها ، الثامن : فى بقاع المدينة وأعراضها وأعمالها ومُضَافاتها وأندِيَتِهَا وجِبالهاوتِلاَعها(٣) ، ومشهورما فى ذلك من الآبار والمياه والأودية ، وضَبْط أسماء الأماكن المتعلقة بذلك وبالمساجد والآطام والغزوات ، وشرح حال مايتعلَّق بجهات المدينة وأعمالها من ذلك ، على ترتيب حروف الهجاء .

الباب الثامن : فى زيارته صلى الله عليه وسلم ، وفيه أربعة فصول : الأول : فى الأحاديث الواردة فى الزيارة نصا ، الثانى : فى بقية أدِلَّتها ، وبيان تأكد مشروعيتها ، وقربها من درجة الوجوب ، حتى أطلقه بعضُهم عليها ، وبيان حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى قبره ، وشَدِّ الرِّحَالِ إليه ، وصحة نَذْرِ زيارته ، والاستئجار للسلام عليه ، الثالث : فى توسُّلِ الزائر ، وتَشَفُّعه به صلى الله عليه وسلم

---

(١) كذا ، ولعله «المشاة» جمع ماش ، بزنة قاض وقضاة ورام ورماة .

(٢) الأحماء : جمع حمى . (٣) التلاع : جمع تلعة ، وهى ماارتفع من الأرض

إلى ربِّه تعالى ، واستقباله له صلى الله عليه وسلم فى سلامه وتوسله ودعائه، الرابع: فى آداب الزيارة والمجاورة، والتبرك بتلك المساجد والآثار ، وهذا الباب و إن كان من حقه التقديم ، لكنه لما كان كنتيجة الكتاب ، ومقدماتُه ما تقدمه من الأبواب ، ختمت به أقسامه ؛ ليكون المسكُ خِتَامَه ، وسِرُّ الوجود تمامه ، وتفاؤلا بأن يفتح لى به ثمانية أبواب الجنة ، و يعظم لى بسببه سوابغ المنة [1] ، و بالله لاسواه أعتصم ، وأسأله العصمة مما يصم [2] ، فهو حسبى ونعم الوكيل .

الباب الأول

فى أسماء هذه البلدة الشريفة

أعلم أن كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمى ، ولم أجد أكثر من أسماء هذه البلدة الشريفة ، وقد استَقْصَيْتُها بحسب القدرة حتى إنى زدت على شيخ مشايخنا المَجْدِ الشيرازى اللغوى ــ وهو أعظم الناس فى هذا الباب ــ نحوَ ثلاثين اسما ، فرقَمْتُ على ذلك صورة ليتميزوها ، وأنا أوردها مرتبة على حروف المعجم .

الأول : أثْرِب — كمسجد ، بفتح الهمزة وسكون المثلثة وكسر الراء و باء موحدة — لغة فى «يثرب» الآتى ؛ وأحد الأسماء كألمل و يلملم ، قيل : سميت بذلك لأنه اسم مَنْ سكنها عند تفرق ذرية نوح عليه السلام فى البلاد ، وهل هو اسم للناحية التى منها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو للمدينة نفسها ، أو لموضع مخصوص من أرضها ؟ أقوال، الأول لأبى عبيدة ، والثانى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ومشى عليه الزمخشرى، والثالث هو المُغْنِىُّ بقول محمدِ بن الحسن أحدِ أصحاب مالك و يعرف بابن [3] زَبَالة : وكانت يثرب أم قرى المدينة ، وهى ما بين طرف قناة أثرب

(١) المنة : العطية ، وسوابغها : جزيلها وعظيمها ، وأصل السابغ الثوب يغطى الجسم كله . (٢) وصمه يصمه ــ بوزن وصفه يصفه ــ أى عابه ونقصه .

(٣) زبالة ــ بزنة سحابة ــ اسم موضع منه محمد بن الحسن المعروف بابن زبالة قاله فى القاموس ، ويقال له أيضا « الزبالى » على النسبة ، وهو ممن روى عن مالك ابن أنس إمام دار الهجرة ، لكنه ليس بثقة ، قاله فى تهذيب التهذيب ٩ /١١٥ .

إلى طرف الجرف ، وما بين المال الذى يقال له البرنى إلى زبالة ، وقد نقل ذلك الجمالُ المطرى عنه ، وزاد فى النقل أنه كان بها ثلاثمائة صائغ من اليهود ، وابن زَبَالة إنما ذكر أن ذلك كان بزهوة ، وقد غايَرَ بينها وبين يثرب ، وكأن الجمال فَهِمَ اتّحادها ، وقد قال عقب نَقْله لذلك عنه : وهو يعنى يثرب معروفة اليوم بهذا الاسم ، وفيها نخيل كثيرة ملك لأهل المدينة وأوقاف للفقراء وغيرهم ، وهى غربى مشهد سيدنا حمزة ، وشرقى الموضع المعروف بالبركة مصرف عين الأزرق ، ينزلها الحاج الشامى فى وروده وصدوره ، وتسميها الحجّاجُ عيون حمزة ، وهى إلى اليوم معروفة بهذا الاسم ، أعنى يثرب ، وربما قالوا فيها « أثارب » بصيغة الجمع ، و به عبر البرهان ابن فَرْحُون فى مناسكه ، فلك أن تعده اسما آخر ، وهذا الموضع يثرب قال المطرى : كان به منازل بنى حارثة بَطْنٍ ضَخْم من الأوس ، قال : وفيهم نزلَ قولُه تعالى فى يوم الأحزاب: «وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُم فَارْجِعُوا[1] »ورجح به القول الثالث، وذلك أن قريشا ومَنْ معهم نزلوا يوم الأحزاب و يوم أحُدٍ أيضا على ما ذكره المطرى بِرومة وما والاها بالقرب من منازل بنى حارثة من الأوس ومنازل بنى سلمة من الخزرج ، وكان الفريقان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مركز الحرب ، ولذلك خافوا على ذَرَارِيهم وديارهم العدوّ يوم أحد ؛ فنزل فيها « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا[2] » قال عقلاؤهم : ما كرهنا نزولَهَا لتولّى الله إيانا ، ودفع الله عنهم ببركة النبى صلى الله عليه وسلم وصدق نياتهم ، وقيل : إن القائل لبنى حارثة « يا أهل يثرب لا مُقَامَ لكم » هو أوْسُ بن قَيْظِى ومَنْ معه ، وقيل : غير ذلك

قلت : و يرجِّحُ القولَ الثالث أيضا قولُ الحافظ عمر بن شَبَّةَ النميرى[3] : قال

---

(١) من سورة الأحزاب من الآية ١٣ (٢) من سورة آل عمران من الآية ١٢٢

(٣) عمر بن شبة — بفتح الشين وتشديد الباء الموحدة مفتوحة — بن عبيدة ، واسم شبة زيد ، البصرى، النميرى ، الأخبارى ، النحوى ، الأديب ، الحافظ ، وثقه الدارقطنى ، مات فى سنة ٢٦٢ من الهجرة ، وله ترجمة فى تهذيب التهذيب (٧/ ٤٦٠) وفى خلاصة الخزرجى (٢٨٣ بولاق) .

أبو غسان : وكان بالمدينة فى الجاهلية سوق بزَبَالة فى الناحية التى تدعى يثرب ، انتهى . ولا شك فى إطلاق يثرب على المدينة نفسها ، كما ثبت فى الصحيح ، وشواهدُه أشهر من أن تذكر ، وسيأتى فى الفصل الرابعَ عَشَرَ من الباب الثانى ما يقتضى أن الله تعالى سماها قبل أن تعمر وتسكن ، فإما أن يكون موضوعا لها ، أو هو من باب إطلاق اسم البعض على الكل ، أو من باب عكسه على الخلاف المتقدم .

وروى ابن زَبَالة وابن شبة نَهْيَه صلى الله عليه وسلم عن تسمية المدينة يثرب ، وفى تاريخ البخارى حديث «مَنْ قال يثرب مرة فَلْيَقُلْ المدينة عشر مرات» وروى أحمد وأبو يَعْلَى حديثا « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله ، وهى طابة » ورجاله ثقات ، وفى رواية « فَلْيَسْتَغْفِرِ الله ثلاثا » ولهذا قال عيسى بن دينار : من سمى المدينة يثرب كتبت عليه خطيئة ، وكره بعضُ العلماء تسميتها بذلك ، وما وقع فى القرآن من تسميتها به إنما هو حكاية عن قول المنافقين ، ووَجْهُ كراهة ذلك إما لأنه مأخوذ من الثَّرَب — بالتحريك — وهو الفساد ، أو لكراهة التثريب وهو المؤاخذة بالذنب ، أو لتسميتها باسم كافر ، وقد ينازع فى الكراهة بما فى حديث الهجرة فى الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم « فذهب وَهْلِى[1] إلى اليمامة أو هَجَر ، فإذا هى المدينة يثرب » وحديث مسلم « إنه وجهت إلى أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب » وكذا جاء فى غيرهما من الأحاديث ، وقد يجاب بأن ذلك كان قبل النهى .

أرض الله

الثانى « أرض الله » قال الله تعالى: «أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا[2] » ذكر مقاتل والثعلبى وغيرهما أن المراد به المدينة ، وفى هذه الإضافة من مزيد التعظيم ما لا يخفى .

الهجرة

الثالث « أرض الهجرة » كما فى حديث « المدينة قُبَّة الإسلام » .

---

(١) الوهل — بفتح الواو وسكون الهاء — الوهم .

(٢) من سورة النساء من الآية ٩٧ .

أكالة البلدان

الرابع « أكالة البلدان » لتسلطها على جميع الأمصار ، وارتفاعها على سائر بلدان الأقطار ، وافتتاحها منها على أيدى أهلها فغنموها وأكلوها .

أكالة القرى

الخامس « أكالة القرى » لحديث الصحيحين «أمرت بقرية تأكل القرى» وقد استدل به مُثبِتو الاسم قبله ، وهو أصْرَحُ فى هذا ؛ للفرق بين البلدة والقرية .

الإيمان

السادس « الإيمان » قال الله تعالى مُثْنِياً على الأنصار « وَالَّذِينَ تبوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ »(١) وأسند ابنُ زَبَالَة عن عثمان بن عبد الرحمن وعبد الله بن جعفر قالا : سمَّى الله المدينة الدار والإيمان ، وأسند ابن شَبَّة عن الثانى فقط . وقال البيضاوى فى تفسيره : قيل سمى الله المدينة بالإيمان لأنها مَظْهره ومَصِيره . وروى أحمد الدينورى فى كتابه المجالسة فى قصة طويلة عن أنس بن مالك « أن مَلَكَ الإيمان قال : أنا أسكن المدينة ، فقال مَلَكُ الحياء : وأنا مَعَكَ» فأجمعت الأمة على أن الإيمان والحياء ببلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى فى حديث «الإيمان يَأْرِزُ إلى المدينة كما تأرزُ الحيَّةُ إلى جُحْرِها»(٢) .

البارة والبرة

السابع « البارة» ، الثامن « البرة » هما مِن قولك : امرأة بارة وبَرَّة ، أى كثيرة البر ، سميت بذلك لكثرة برها إلى أهلها خصوصا وإلى جميع العالم عموما ؛ إذ هى مَنْبَع الأسرار وإشراق الأنوار ، وبها العيشة الهنية ، والبركات النبوية .

البحرة والبحيرة

التاسع «البَحْرة» بفتح أوله وسكون المهملة . العاشر «البُحَيْرة » تصغير ماقبله . الحادى عشر « البَحِيرَة » بفتح أوله — نقلتُ ثلاثَتها عن منتخب كراع ، والأولان عن معجم ياقوت ، والاستبحار : السَّعَة ، ويقال : هذه بَحْرَتُنا ، أى أرضنا أو بلدتنا ، سميت بذلك لكونها فى مُتسع من الأرض ، وفى الصحيح قول سعد فى قصة ابن أبىّ(٣) «ولقد اصْطَلَح أهلُ هذه البحيرة على أن يُتَوِّجُوه » رواه

(١) من سورة الحشر من الآية ٩ .

(٢) الإيمان يأرز : المراد يلجأ إليها ويعتصم بها ، وأرزت الحية إلى جحرها : أى لاذت به .

(٣) ابن أبى : هو عبد الله بن أبى ابن سلول ، أبوه أبى ، وسلول أمه ، وهو رأس المنافقين ، والذى يشير إليه هذا الحديث أن أهل المدينة كانوا قد أجمعوا قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يجعلوه ملكا عليهم .

ابن شبة بلفظ « أهل هـذه البحيرة » وقال عياض فى المشارق : البَحْرة مدينة النبي صلى الله عليه وسـلم ، ويروى البَحْرة ، والبُحَيْرة : بضم الباء مصغراً و بفتحها على غير التصغير ، وهى الرواية هنا ، ويقال « البحر » أيضاً بغير تاء ساكن الحاء ، وأصله القرى ، وكل قرية بحرة . انتهى .

البلاط الثانى عشر: « البَلاَط » بالفتح — نقل عن كتاب ليس لابن خالويه ، وهو لغـةً الحجارةُ التى تفرش على الأرض ، والأرض المفروش بها والمستوية الملساء ، فكأنها سميت به لـكثرته فيها ، أو لاشتمالها على مواضـع تعرف به كما سيأتى فى الباب الرابع إن شاء الله تعالى .

البلد الثالث عشر: «البلد » قال تعالى « لا أُقْسِمُ بِهٰذَا الْبَلَدِ[1] » قال الواسطى فيما نقله عن عياض : أى يحلف لك بهـذا البلد الذى شرفته بمكانك فيـه حياً و ببركتك ميتاً ، يعنى المدينة ، وقيل : المراد مكة ، ونقل عن ابن عباس ، و به استدل مَنْ ذكره فى أسمائها ، ورجَّحه عياض لـكون السورة مكية ، والبلد لغةً صدر القرى .

بيت الرسول الرابع عشر : « بيت الرسول » صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بالحق[2] » ، قال المفسرون : أى من المدينة لأنها مُهَاجَرُهُ ومسكنه [فهى] فى اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه ، أو المراد بيته بها .

ندد وتندر الخامس عشر : « تنـدد » بالمثناة الفوقيـة والنون و إهمال الدالين . السادس عشر : « تندر » براء بدل الدال الأخيرة مما قبله ، وسيأتى دليلهما فى يندد و يندر بالمثناة التحتية ، وأن المجد صَوَّبَ حذف ما عَدَا يندر بالتحتية .

الجابرة السابع عشر: « الجابرة » لعـده فى حديث «للمدينة عشرة أسماء» سميت به لأنها تَجْبُرُ الـكَسِير ، وتغنى الفقير ، وتجبر[3] على الإذعان لمطالعة بركاتها ، وشهود آياتها : وجَبَرَتِ البلادَ على الإسلام .

(١) من سورة البلد ، الآية ١ . (٢) من سورة الأنفال من الآية ٥

(٣) تجبر هنا بمعنى تقهر ، وأما التى قبلها فمن قولهم « جبرت الـكسير » أى أصلحت ما فسد منه .

جبار الثامن عشر « جَبَارِ » كحَذَامِ ، رواه ابن شبة بدل الجابرة فى الحديث المذكور .

الجبارة التاسع عشر « الجبارة » نقله صاحبُ كتاب أخبار النواحى مع الجابرة والمجبورة عن التوراة .

جزيرة العرب العشرون « جزيرة العرب » قال ابن زَبالة : كان ابن شهاب يقول : جزيرة العرب المدينة ، وسيأتى فى حديث ابن عباس « خرجْتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ، فالْتَفَتَ إليها وقال : إن الله بَرَّأ هذه الجزيرة من الشرك » ونقل الهروى عن مالك أن المراد من حديث « أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ » المدينةُ خاصةً ، والصحيحُ عن مالك كقولنا أن المراد الحجاز .

الجنة الحصينة الحادى والعشرون « الجُنَّةُ الحصينة » بضم الجيم ، وهى الوقاية ؛ لما حكاه بعضهم من قوله صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد « أنا فى جُنَّةٍ حَصِينة — يعنى المدينة — دَعُوهُمْ يَدْخُلُونَ نقاتلهم » وروى أحمد برجال الصحيح حديث « رأيت كأنى فى دِرْعٍ حصينة ، ورأيت بَقَرًا تُنْحَر ، فأولْتُ الدرعَ الحصينةَ المدينة » وهذا هو المذكور فى كتب السير .

الحبيبة الثانى والعشرون « الحبيبة » لحبه لها صلى الله عليه وسلم ، وقال « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينَةَ كحبنا مَكَّةَ أو أشد » وسيأتى مزيد بيان لذلك فى اسمها المحبوبة .

الحرم الثالث والعشرون « الحرم » بالفتح بمعنى الحرام ؛ لتحريمها ، وفى حديث مسلم « المدينة حرم » وفى رواية « إنها حرم آمن » .

حرم رسول الله الرابع والعشرون « حَرَمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم » لأنه الذى حرمها ، وفى الحديث « مَنْ أخاف أهْلَ حرمى أَخَافَهُ الله » ، وروى ابن زَبالة حديث « حرَمُ إبراهيم مكةُ وحَرَمى المدينةُ » .

حسنة — الخامس والعشرون « حَسَنَة » بلفظ مقابل السيئة ، قال تعالى : «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدنيا حَسَنَةً(١) » قال المفسرون : مَبَاءة حسنة(٢) ، وهى المدينة ، وقيل : حسنة اسم المدينة ، وقد اشتملت على الحُسْن الحسىّ والمعنوى .

السادس والعشرون « الخَيِّرة » بتشديد المثناة التحتية كالنيرة .

الخيرة — السابع والعشرون « الخَيْرَة » كالذى قبله إلا أن الياء مخففة، تقول : رجل خَيِّر وخَيْر ، وامرأة خَيِّرة وخَيْرة ، بالتشديد والتخفيف ، بمعنًى ، وهو الكثير الخير ، وإذا أردت التفضيل قلت : فلان خَيْرُ الناسِ ، وفى الحديث « والمدينة خَيْرٌ لَهُمْ لو كانوا يعلمون » وسيأتى حديث « المدينة خَيْرٌ من مكة » .

الدار — الثامن والعشرون «الدار» لقوله تعالى: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ»(٣) على ما سبق فى الإيمان ، سميت به لأَمْنِهَا والاستقرار بها وجَمْعها البناءَ والعَرْصة .

دار الأبرار — التاسع والعشرون « دار الأبرار » . الثلاثون « دار الأخيار » لأنها دار المصطفى المختار ، والمهاجرين والأنصار ، ولأنها تَنْفِي شِرَارها ومَنْ أقام بها منهم فليست فى الحقيقة له بدار، وربما نقل منها بعد الدفن على ما جاء فى بعض الأخبار .

دار الإيمان — الحادى والثلاثون « دار الإيمان » كما فى حديث « المدينة قُبَّةُ الإسلام ودار الإيمان » إذ منها ظهورُه وانتشاره ، وسيأتى فى حديث « الإيمان يأرِزُ إلى المدينة كما تأرِزُ الحيةُ إلى جُحْرِها »(٤)

دار السنة ونحوها — الثانى والثلاثون «دار السنة». الثالث والثلاثون «دار السلامة». الرابع والثلاثون «دار الفتح». الخامس والثلاثون «دار الهجرة»؛ ففى صحيح البخارى قولُ عبد الرحمن لعمر رضى الله عنهما « حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة » وفى رواية

---

(١) من سورة النحل من الآية ٤١

(٢) المباءة : المنزل ، وتقول : تبوأ فلان المكان ، تريد أنه اتخذه محلا يقيم فيه ، وبوأته إياه : أحللته

(٣) من سورة الحشر من الآية ٩ .

(٤) انظر الهامشة ٢ فى ص ١١ .

الـكشميهنى «والسلامة» وقد فتحت منها مكة وسائرالأمصار ، وكانت بها عصابة الأنصار ، ومُهَاجَرَة النبى المختار(١) ، صلى الله عليه وسلم ، والمهاجرين الأبرار ، ومنها انتشرت السنة فى الأقطار .

ذات الحجر — السادس والثلاثون « ذات الحُجر » لاشتمالها عليها ، قال أبو بكر رضى الله عنه مُثْنيا على الأنصار : ما وجَدْتُ لنا ولهذا الحىِّ من الأنصار مَثَلاً إلا ما قال طُفَيْلٌ الغَنَوِىُّ :

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَـا ... تُلَاقِى الَّذِى يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتِ
هُمُ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ وَأَوْلَجُوا ... إِلَى حُجُرَاتٍ أَدفأت وأظلّت

ذات الحرار — السابع والثلاثون « ذات الحِرَار » لـكثرة الحرار بها ، وفى قصة خُنافر ابن التوأم الحميرى الـكاهن(٢) عن رَئِيِّه من الجن وقد وصف له دين الإسلام ، فقال له خنافر : من أين أبغى هذا الدين ؟ قال : مِنْ ذاتِ الأَحَرِّينَ ، وَالنَّفَرِ الْمَيَامِين ، أَهْلِ الْمَاء وَالطِّينِ ، قلت : أَوْضِـحْ ، قال: الْحَقْ بيثربَ ذاتِ النَّخْلِ والحرة ذات النعل ، قال الأصمعى : أَحَرُّونَ وحِرَار جمع حَرَّة .

ذات النخل — الثامن والثلاثون « ذات النخل » وهو وذات الحجر مما استعمله المتأخرون فى أشعارهم ، وقد نسجت على مِنْوَالهم حيث قلت فى مطلع قصيدة :

أَشْجَانُ قَلْبِى بذاتِ النَّخْلِ والحُجَرِ ... وَأُخْتِهَا تِلْكَ ذَاتِ الحِجْرِ والحَجَرِ
تَقَسَّمَ الْقَلْبُ بَيْنَ البلدتين ؛ فَلَا ... أَنْفَكُ مِنْ لَهَبِ الأَشْوَاقِ فِى سُعُرِ

وفى أحاديث الهجرة « أُريتُ دارَ هجرتى ذَاتَ نخلٍ وحرة »(٣) ، وقال عمران ابن عامر الكاهن يصف البلاد لقومه : ومَنْ كان منكم يريد الراسخات فى الوحل ، الْمُطْعِمات فى الْمَحْلِ(٤) ، فليلحق بالحرة ذات النخل . وروى كما سيأتى : بيثرب ذات النخل

(١) المراد أنها موضع هجرته صلى الله عليه وسلم . (٢) انظر حديثه فى ترجمته فى الإصابة رقم (٢٣٤٢) . (٣) الحرة — بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين — الأرض ذات الحجارة السود التى كأنها محروقة بالنار .
(٤) المحل — بفتح الميم وسكون الحاء المهملة — الجدب والقحط .

السلقة

التاسع والثلاثون « السلقة » ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الإقشهرى فى أسمائها المنقولة عن التوراة ، ولم نضبطه ، وهو محتمل لفتح اللام وكسرها ، والسَّلَق بالتحريك: القاعُ الصَّفْصَف[1]، وسَلَقْتُ البيضَ: أغليته بالنار ، والمِسْلاَق : الخطيبُ البليغ ، وربما قيل للمرأةِ السليطة : سَلِقة ـ بكسر اللام ـ فتسميتها بذلك لاتساعها وبُعْدها عن جبالها ، أوللأوائها ، أو لشدة حرها وما كان بها من الحمى الشديدة ، أو لأن الله تعالى سَلَّط أهلَهَا على سائر البلاد فافتتحوها

سيدة البلدان

الأربعون « سيدة البلدان » لما أسنده الديلمى من الحِلية لأبى نعيم عن ابن عمر مرفوعا « يا طيبة يا سيدةَ البلدان »

الشافية

الحادى والأربعون « الشافية » لحديث « ترابها شفاء من كل داء » وذكر الجذام والبرص ، ولقد شاهدنا من استشفى بترابها من الجذام فنفعه الله به ، والاستشفاء بتربة صُعَيب[2] من الحمى مشهور، كما سيأتى، ولما صح فى الاستشفاء بتَمْرها ، وذكر ابن مسدى الاستشفاء من الحمى بكتابة أسمائها وتعليقها على المحموم ، وسيأتى أنها تنفى الذنوب فتشفى من دائها .

طابة وطيبة

الثانى والأربعون « طَابَة » بتخفيف الموحدة . الثالث والأربعون : « طَيْبَة » بسكون المثناة التحتية . الرابع والأربعون « طَيِّبَة » بتشديدها . الخامس والأربعون « طائب » ككاتب ، وهذه الأربعة مع اسمها المطيبة أخوات لَفْظاً ومعنًى ، مختلفات صيغة ومَبْنًى ، وقد صحّ حديث « إن الله سمى

---

(١) القاع : الأرض السهلة المطمئنة التى قد انفرجت عنها الجبال ، والصفصف — بوزن جعفر — المستوى .

(٢) فى خلاصة الوفا (ص ٢٨ ط الحلبى) نقلا عن طاهر بن يحيى العلوى « صعيب : وادى بطحان دون الماجشونية ـ أى الحديقة المعروفة اليوم بالمدشونية ـ وفيه حفرة مما يأخذ الناس منه . وهو اليوم إذا وبىء إنسان أخذ منه » اهـ وفى معجم ما استعجم للبكرى (ص ٨٣٤) « صعيب — على لفظ تصغير صعب — موضع فى ديار بلحرث » اهـ وانظر ما يأتى فى الفصل الرابع من هذا الباب فى الاستشفاء بترابها وبتمرها وما جاء فيه .

المدينة طابة » وفى رواية « إن الله أمرنى أن أسمى المدينة طابة » وروى ابن شَبَّة وغيره: كانوا يسمون يَـثْرِبَ، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة، وفى حديث « للمدينة عشرة أسماء هى المدينة وطيبة وطابة » ورواه صاحب النواحى بلفظ طابت بدل طيبة ، وعن وهب بن مُنَبِّه : والله إن اسمها فى كتاب الله ــ يعنى التوراة ــ طيبة وطابة ، ونقل عن التوراة تسميتها بالمطيبة أيضا ، وكذا بطابة والطيبة، وتسميتها بهذه الأسماء إما من الطَّيِّب بتشديد المثناة ، وهو الطاهر ؛ لطهارتها من أدناس الشرك ، أو لموافقتها من قوله تعالى «بريح طَيِّبة(١) » أو لحلول الطَّيِّب بها صلى الله عليه وسلم، أو لكونها كالكِير تنْفِي خَبَثها وينصع طِيبُهَا ، و إما من الطِّيبِ ــ بسكون المثناة ــ لطيب أمورها كلها ، وطيب رائحتها ، ووجود ريح الطيب بها ، قال ابنُ بَطَّال : مَنْ سكنها يجدُ من تربتها وحيطانها رائحةً حسنة ، وقال الإشبيلى : لتربة المدينة نَفْحَة ، ليس طيبها كما عهد من الطيب ، بل هو عجب من الأعاجيب ، وقال ياقوت : من خصائصها طيبُ ريحها ، وللعطر فيها رائحة لا توجد فى غيرها ، وما أحسن قَوْلَ أبى عبد الله العطّار :

بِطيبِ رَسُول الله طَابَ نَسِيمُهَا ... فَمَا المِسْكُ مَا الكَافُورُ مَا المَنْدَلُ الرَّطْبُ

السادس والأربعون «ظباب» ذكره ياقوت، ولم يضبطه، وهو إما بكسر المهملة أو بفتح المعجمة ؛ فالأول بمعنى القطعة المستطيلة من الأرض ، والثانى من ظبب(٢) وظبْظِبَ إذا حُمّ ؛ لأنها كانت لا يدخلها أحد إلا حُمّ ، قاله المجد . ظباب

السابع والأربعون « العاصمة » لأنها عَصَمَتِ المهاجرين ووَقَتْهُمْ أذى المشركين ، ولما تقدم فى « الجُنَّة الحصينة » ويحتمل أن يكون بمعنى المعصومة لعصمتها قديماً بجيوش موسى وداود عليهما السلام المبعوث إلى مَنْ كان بها من الجبابرة ، وحفظها حديثاً نبيُّ الرحمة صلى الله عليه وسلم حتى صارت حَرَماً آمناً ، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون ، ومَنْ أرادها بسوء أذابه الله . العاصمة

---

(١) من سورة يونس من الآية ٢٢ . (٢) لم أجد أول هذين الفعلين .

العذراء — الثامن والأربعون « العـذراء » بإهمال أوله وإعجام ثانيه ، منقول عن التوراة ، سميت به لحفظها من وَطْء العدو القاهر فى سالف الزمان ، إلى أن تسلَّمها مالـكُهَا الحقيقى سيد الأنام ، مع صعوبتها وامتناعها على الأعداء ، ولذلك سميت البكر بالعـذراء .

العراء — التاسع والأربعون « العَرَّاء » بإهمال أوله وثانيه وتشديده ، بمعنى الذى قبله ، قال أئمة اللغة : العراء الجارية العذراء ، كأنها شبهت بالناقة العراء التى لا سَنَام لها وصغر سنامها كصغر نَهْدِ العذراء أو عدمه ؛ فيجوز أن يكون تسمية المدينة بذلك لعدم ارتفاع أبنيتها فى السماء .

العروض — الخمسون « العرُوض » كصَبُور ، وقيل : هو اسم لها ولمـاحولها ؛ لانخفاض مواضع منها ومسايل أودية فيهـا ، وقال الخليل : العَرُوض : طريقٌ فى عرض الجبل ، وعَرَضَ الرجلُ إذا أتى المدينة(١) ؛ فإن المدينة سميت عروضا لأنها من بلاد نجد ، ونجـــد كلها على خط مستقيم طولانى والمدينة معترضة عنها ناحيةً على أنهـا نجدية .

الغراء — الحادى والخمسون « الغرَّاء » بالغين المعجمة — تأنيث الأغر ، وهو ذوالغُرَّة من الخيل : أى البياض فى مُقَدَّم وجهه ، والغرة أيضاً : خِيار كل شىء ، وغُرَّة الإنسان : وجْهُه ، والأغر : الأبيض من كل شىء ، والذى أخذتِ اللحيـةُ جميعَ وجهه إلا القليل ، ومن الأيام الشديدُ الحر ، والرجل الـكريم ، والغراء : نبت طيب الرائحة ، والسيدة الـكبيرة فى قبيلتها ؛ فسميت المدينـة بذلك لشرف معالمها ، ووضـوح مكارمها ، واشتهارها ، وسطوع نُورها ، و بياض نَوْرها ، وطيب رائحتها ، وكثرة نخلها ، وسيادتها على القرى ، وكرم أهلها ، ورفعة محلها .

غلبة — الثانى والخمسون « غلبـة » محركة بمعنى الغَلَب ؛ لظهورها واستيلائها على سائر البـلاد ، وهو اسم قديم جاهلى ، قال ابن زَبَالة : حدثنى داود بن مسكين

---

(١) ومنه قول عبد يغوث بن وقاص الحارثى ، وكان قد أسر فى يوم كلاب :

أيَا رَاكِباً إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... نَدَامَاىَ مِنْ نَجْرَانَ أنْ لاَ تَلاَقِيَا

الأنصارى عن مشيخته قالوا : كانت يثرب فى الجاهلية تدعى غَلَبَة ، نزلت اليهود على العماليق فغلبتهم عليها ، ونزلت الأوسُ والخزرجُ على اليهود فغلبوهم عليها ، ونزل الأعاجم على المهاجرين فغلبوهم عليها ، كذا فى النسخة التى وقفْتُ عليها من كتاب ابن زَبَالة ، ونقله المجد عن الزبير بن بكار راوى كتاب ابن زَبَالة ، وقال فيه بدل قوله ونزل الأعاجم : ونزل المهاجرون على الأوس والخزرج فغلبوهم عليها .

الفاضحة

الثالث والخمسون « الفاضحة » بالفاء والضاد المعجمة والحاء المهملة — نقله بعضُهم عن كُرَاع ، ومأخَذُها ما سيأتى فى معنى كونها تَنْفى خَبَثَها من أنها تميزه وتظهره فلا يُبْطِنُ بها أحدٌ عقيدةً فاسدةً أو يضمر أمراً إلا ظهر عليه ، وافتضح به ، بخلاف غيرها من البلاد ، وقد شاهدنا ذلك كثيراً بها .

القاصمة

الرابع والخمسون « القاصمة » بالقاف والصاد المهملة — نقل عن التوراة سميت به لقَصْمِها كل جبار عناها[1] ، وكسر كل متمرد أتاها ، ومن أرادها بسوء أذابه الله .

قبة الإسلام

الخامس والخمسون « قبة الإسلام » لحديث « المدينة قبة الإسلام » .

قرية الأنصار

السادس والخمسون «قرية الأنصار» قال ابن سِيدَةَ : القرية — بفتح القاف وكسرها — المصرُ الجامعُ ، من قَرَيت الماءَ فى الحوض ، إذا جمعته ، وقال أبو هلال العسكرى : العربُ تسمى كل مدينة صغرت أو كبرت قريةً ، قلت : وسيأتى فى معنى « المدينة » ما يقتضى أنه يعتبر فى مسماها زيادتها على القرية ونقصها على المصر ، وقيل : يطلق عليه ، والأنصار : واحدهم ناصر ، سموا بذلك لنصرهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وإيوائهم له وللمهاجرين ، فمدَحَهم اللهُ بقوله : « والذين آوَوْا ونَصَرُوا[2] » فسماهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ، وكان يقال لهم قبل ذلك الأوس والخَزْرَج ، وفى الحديث عن غَيْلان بن جرير

(١) عناها : قصدها ، والمراد قصدها بسوء ، ووقع فى المخطوطات « عتاها » بالتاء المثناة ، تطبيع .

(٢) من سورة الأنفال من الآية ٧٢ .

قال : قلت لأنس بن مالك : أرأيتم اسمَ الأنصار، كنتم تسمون به أم سماكم الله ؟ قال : بل سمانا الله . وسيأتى فى حديث « إن الله قد طهر هذه القرْيَة من الشرك » فلك أن تعده اسما آخر .

قرية رسول الله

السابع والخمسون « قرية رسول الله صلى الله عليه وسلم » لما سيأتى فى عصمتها من الدجال من قوله صلى الله عليه وسلم « ثم يسير حتى يأتى المدينة ، ولا يأذن له فيها ؛ فيقول: هذه قرية ذاك الرجل » يعنى النبى صلى الله عليه وسلم .

قلب الإيمان

الثامن والخمسون « قلب الإيمـان » أورده ابن الجوْزى فى الوفاء فى حديث « المدينة قبة الإسلام » .

المؤمنة

التاسع والخمسون « المؤمنـة » إما لتصديقها بالله حقيقةً كذوى العقول ؛ إذ

أيضا المبالغة فيما وصف[1] بجميل ، والمِخْبَار من الأرض : السريعةُ النباتِ الكثيرة الخيرات .

المحرمة

الثامن والستون « المحرمة » لما سيأتى فى تحريمها .

المحفوفة

التاسع والستون « المحفوفة » لأنها محفوفة بالبركات ، وملائكةِ السموات ، محفوظة من المخاوف والأوجال ، وعلى أبوابها وأنقابها[2] الملائكةُ يَحْرُسونها من الطاعون والدجال ، وسيأتى حديث « المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة ، على كل نَقْبٍ منها مَلَك ، لا يَدْخُلُها الدجال ولا الطاعون » .

المحفوظة

السبعون « المحفوظة » لأن الله تعالى حفظها من الدجال والطاعون وغيرهما ، وفى حديث « القرى المحفوظة أربع » وذكر المدينةَ منها ، وفى حديث آخر رويناه فى فضائل المدينة للمفضل الجندى « المدينة مشتبكة بالملائكة ، على كل نَقْب[2] منها مَلَك يحرسها » فلك أن تسميها المحروسة أيضا .

المختارة

الحادى والسبعون « المختارة » لأن الله تعالى اختارها للمختار من خلقه فى حياته ومماته .

مدخل صدق

الثانى والسبعون « مدخل صدق » قال الله تعالى « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ[3] » الآيةَ ، قال بعض المفسرين: مدخل صدق : المدينة ، ومخرجُ صدق : مكة ، وسلطاناً نصيراً : الأنصار ، وروى ذلك عن زيد بن أسلم ، ويَدُلُّ له ما رَوَاه الترمذى وصححه فى سبب نزول الآية .

المدينة، ومدينة الرسول

الثالث والسبعون « المدينة » . الرابع والسبعون « مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم » من مَدَنَ بالمكان إذا أقام ، أومن دَانَ إذا أطاع ، فالميم زائدة ؛ لأن السلطان يسكن المدن فتقام له طاعة فيها ، أو لأن الله تعالى يُطَاع فيها ، والمدينة : أبيات مجتمعة كثيرة تجاوز حد القرى كثرةً وعمارةً ، ولم تبلغ حد الأمصار ، وقيل : يقال لكل مصر . والمدينة و إن أطلق على أماكن كثيرة فهو علم مدينة

(١) فى المطبوعات « المبالغة فيما وصفه بجميل » تطبيع ، و قرأ عبارة المجد التى أثرناها لك فى تفسير كلمة «الحبرة» فى ص ٢١ . (٢) الأنقاب : جمع نقب ، والنقب ـ بفتح أو بضم فسكون ـ الطريق فى الجبل . (٣) من سورة الإسراء من الآية ٨٠ .

الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهُجِرَ كونُه علماً فى غيرها ، بحيث إذا أطلق لا يتبادر إلى الفهم غيرها ؛ ولا يستعمل فيها إلا معرفة ، قيل : لأنه صلى الله عليه وسلم سكنها ، وله دانت الأمم ولأمته ، والنكرة اسم لكل مدينة ، وقد نسبوا لكل مَدِينى ، وإلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم مَدَنى ، للفرق ، وتسميتها بذلك متكررة فى القرآن العظيم ، ونقل عن التوراة .

المرحومة

الخامس والسبعون « المرحومة » نقل عن التوراة ، سميت به لأنها دار المبعوث رحمة للعالمين ، ومحل تنزيل الرحمة من أرحم الراحمين ، وأول بلد رحمت بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

المرزوقة

السادس والسبعون « المرزوقة » لأن الله تعالى رَزَقَها أفضلَ الخلق فسكنها ، أو المرزوق أهلها أرزاقا حسية ومعنوية ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولا يخرج أحد منها رغبةً عنها إلا أبدلها الله خيرا منه كما جاء فى الحديث .

مسجد الأقصى

السابع والسبعون « مسجد الأقصى » نقله التادلى فى منسكه عن صاحب المطالع .

المسكينة

الثامن والسبعون « المسكينة » نقل عن التوراة ، وذكر فى حديث « للمدينة عشرة أسماء » وروى عن على يرفعه « إن الله تعالى قال للمدينة : يا طيبة ، يا طابة يا مسكينة ، لا تقبلى الكنوز ، أرفع أجَاجِيرَكِ على أجاجير(١) القرى » عن كعب أنه وجد ذلك فى التوراة ، والأجاجير : السطوح ، وأصل المسكنة الخضوع ، فسميت بذلك إما لأنَّ الله تعالى خَلَق فيها الخضوع والخشوع له ، وإما لأنها مسكَنُ المساكين ، سكَنَها كل خاضع وخاشع ، وفى الحديث « اللهمّ أحْيِنِي مسكيناً ، وأمِتْنِي مسكينا ، واحْشُرْنى فى زُمْرَةِ المساكين » .

المسلمة

التاسع والسبعون « المسلمة » كالمؤمنة ، وقد قدمناه ، والإسلام يطلق على

---

(١) الأجاجير : جمع إجار أو إجارة ــ بكسر الهمزة وتشديد الجيم ، وآخره راء مهملة ــ وهو السطح الذى لا سترة عليه ، ويقال فى الجمع « أجاجرة » ويقال فى المفرد « إنجار » بإبدال أول الجيمين نوناً .

الانقياد والانقطاع إلى الله تعالى ، فسميت بذلك إما لأن الله تعالى خَلَق فيها الانقياد والانقطاع إليه ، وإما لانقياد أهلها بالطاعة والاستسلام ، وفتح بلدهم بالقرآن ، لا بالسيف والسهام ، وانقطاعهم إلى الله ورسوله ، وتَبَتُّلهم لنصره وتحصيل سُولِهِ [1].

مضجع الرسول — الثمانون « مَضْجَع رسول الله صلى الله عليه وسلم » لما سيأتى فى حفظ أهلها وإكرامهم من قوله صلى الله عليه وسلم «المدينة مُهَاجَرِى ومَضْجَعِى فى الأرض» .

المطيبة — الحادى والثمانون « المطَيَّبة » بضم أوله وفتح ثانيه — تقدم مع أخواته فى الطيبة

المقدسة — الثانى والثمانون « المقدسة » لتنزُّهها ولطهارتها من الشرك والخبائث ، ولأنها يتبرك بها ويتطهر عن أرجاس الذنوب والآثام .

المقر — الثالث والثمانون « المقَرّ » بالقاف : من القرار كما رأيتُه فى بعض كتب اللغة وسيأتى فى دعائه صلى الله عليه وسلم لها قوله « اللهم اجعل لنا بها قَرَاراً ورِزْقاً حَسَناً»

المكتان — الرابع والثمانون « المكَّتَان » قال سعد بن أبى سَرْح فى حِصار عثمان :

أرَى الأمر لايَزْدَادُ إلاَّ تفاقُماً وأَنصَارُنا بالمَكَّتَيْنَ قَلِيلُ

وقال نصر بن حَجَّاج فيما كتب به إلى عُمَر رضى الله عنه بعد نفيه إياه من المدينة لما سمع امرأة تترنم به فى شعرها لجماله :

حَقَقْتَ بِى الظَّنَّ الذى لَيْسَ بَعْدَهُ مُقَامٌ ؛ فَمَا لِى بِالنَّدِىِّ كَلَامُ

فأصْبَحْتُ مَنْفِيًّا عَلَى غَيْرِ رِيبَةٍ وَقَدْ كَانَ لِى بالمَكَّتَيْنِ مُقَامُ

والظاهر أن المراد المدينة ؛ لأن قصة عثمان ونَصْر بن حجاج كانتا بها ، وأطلق ذلك لانتقال أهل مكة أو غالبهم إليها وانضمامهم إلى أهلها ، وقد ذكر البرهان القيراطى المكتين فى أسماء مكة ، قال التقى الفاسى : ولعله أخذه من قول وَرَقة بن نوفل :

---

(١) السول — بضم السين — أصله السؤل ، خفف بقلب الهمزة واوا ، وفى القرآن الكريم فى سورة طه من الآية ٢٦ : (قال قد أوتيت سؤلك يا موسى) والسول والسؤل والسؤال بمعنى واحد .

* ببطن المكتين على رجائى *

قال السهيلى : ثنّى مكة — وهى واحدة — لأن لها بطَاحاً وظَوَاهر[1] ، وإنما مقصد العرب فى هذه الإشارة إلى جانبى كل بلدة ، أو أعلى البلد وأسفلها ، فيجعلونها اثنين على هذا المعنى ، انتهى . ويحتمل أن تكون التثنية فيما استشهدنا به من قبيل التغليب[2] وأن المراد مكة والمدينة ، فيسقط الاستشهاد به .

المكينة — الخامس والثمانون « المَكِينة » لتمكنها فى المكانة والمنزلة عند الله تعالى .

مهاجر الرسول — السادس والثمانون « مُهَاجَرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم » ؛ لقوله : « المدينة مُهَاجَرِى[3] » .

الموفية — السابع والثمانون « المُوَفِّيَة » بتشديد الفاء — من التوفية ، ويجوز تخفيفها ، إذ التوفية والإيفاء بمعنى ؛ سُمِّيت به لتوفيتها حقّ الواردين ، وإحسانها نُزُلَ الوافدين حساً ومعنى ، أو لأن سكانها من الصحابة المُوفُونَ بما عَاهَدُوا الله عليه .

الناجية — الثامن والثمانون « الناجية » بالجيم من نجا إذا خَلَص أو أسرع ، أو من نَجَاهُ وَنَاجَاه سارّه[4] ، أو من النَّجْوة للأرض العالية ، سميت بذلك لنجاتها من العُتَاة والطاعون والدجّال ، ولإسراعها فى الخيرات ، وسَبْقها إلى حيازة السبق بأشرف المخلوقات ، ولارتفاع شأنها بين الوَرَى ، ورفع أجَاجِيرها[5] على أجاجير القُرَى .

نبلاء — التاسع والثمانون « نبلاء » نقل من كراع ، وأظنه بفتح النون وسكون الموحدة ممدودا ، من النُّبْل — بالضم والسكون — وهو الفضل والنجابة ، ويقال : امرأة نبيلة فى الحسن ، بَيِّنة النَّبَالة ، وأنْبَلَ النخلُ : أرْطَبَ ، والنُّبْلة — بالضم — الثواب والجزاء والعطية

النحر — التسعون « النحر » بفتح النون وسكون الحاء المهملة — سميت به إما لشدة

---

(١) الظواهر : ظهر مكة ، والبطاح : باطنها ، ويقال « قريش الظواهر » لمن سكن منهم ظاهرها ، و« قريش البطاح » لمن سكن منهم باطنها .

(٢) فى المطبوعات « التقليب » تطبيع

(٣) المهاجر — بضم الميم وفتح الجيم — موضع الهجرة .

(٤) فى المطبوعات «أو من نجاه ونجاه» تطبيع (٥) انظر الهامشة ١ فى ص ٢٣

حرها ، كما يقال : نَحْرُ الظهيرة ، ولذا شاركتها مكة فيه ، وإما لإطلاق النحر على الأصل ، وهما أساس بلاد الإسلام وأصلها .

الهذراء الحادى والتسعون « الهذراء » ذكره ابن النجار بدل العذراء نقلا عن التوراة ، وتبعه جماعة كالمطرى ؛ فلذلك أثبتناه ، وإن كان الصواب إسقاطه كما بيناه فى الأصل ، وقد رويناه فى كلام مَنْ أثبته بالذال المعجمة ، فالتسمية به لشدة حرها ، يقال : يوم هاذر شديد الحر ، أو لكثرة مياهها وسَوَانيها المُصَوِّتَةِ عند سَوْقها ، يقال : هذر فى كلامه ، إذا أكثره ، والهذر — محركا — الكثير الردىء ، ويحتمل أن يكون بالمهملة من « هَدَرَ الحمام » إذا صَوَّت ، والماء انْصَبَّ وانهمر ، والعُشْب طال ، وأرض هادرة : كثيرة النبات .

يثرب الثانى والتسعون « يثرب » لغة فى أثرب ، وقد تقدم الكلام عليه فيه ، وليست المذكورة فى قول الشاعر :

وَعَدْتَ وَكَانَ الْخُلْفُ مِنْكَ سَجِيَّةً ... مَوَاعِيدَ عُرْقُوبٍ أَخَاهُ بِيَتْرَبِ (١)

لأن المجد قال : أجمعوا فيه على تثنية التاء وفتح الراء ، وقال : هى مدينة بحضرموت ، قيل: كان بها عرقوب صاحب المواعيد ، مع أن المجد صَحَّح أنه من قُدَماء يهود مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى مشارق عياض قيل : إن يثرب المذكورة فى البيت مثل يثرب المدينة النبوية ، وقيل : قرية باليمامة ، وقيل : إنما هى يترب بمثناة فوقية وراء مفتوحة اسم تلك القرية ، وقيل: اسم قرية من بلاد بنى سعد من تميم ، كما اختلف فى عرقوب هذا ؛ فقيل : رجل من الأوس من أهل المدينة ، وقيل : من العَمَاليقِ أهلِ اليمامة ، وقيل : من بنى سعد المذكورين اه. وأما قول هند بنت عُتْبة :

لَنَهْبِطَنَّ يَثْرِبَهْ * بِغَارَةٍ مُنْشَعِبَهْ

---

(١) السجية : الطبيعة والخلقة ، والمواعيد : جمع ميعاد ، وهو الوعد ، و « أخاه » منصوب بمواعيد لأنه جمع المصدر الميمى ، وهو يعمل عمل فعله بإجماع المعتد بهم من النحاة ، وفعله ينصب المفعول به ؛ يقال « وعدته أعده وعداً وموعداً وميعاداً » .

فالظاهر أن الهاء فيه للسكت ، فليس اسماً آخر .

الثالث والتسعون « يندد » ذكره كراع هكذا بالمثناة التحتية ودالين ، وهو إما من النَّدّ وهو الطيب المعروف ، وقيل : العنبر ، أو من النَّد للتل المرتفع ، أو من الناد وهو الرزق(١) . يندد

الرابع والتسعون « يندر » بإبدال الدال الأخيرة من الاسم قَبْلَه راء ، ذكره المجدُ عند سَرْد الأسماء ، ولم يتكلم عليه بعد ، لما سنذكره ، وإثباته لوقوعه كذلك فى حديث « للمدينة عشرة أسماء » فى بعض الكتب ، وفى بعضها بمثناة فوقية ودالين ، وفى بعضها كذلك مع إبدال الدال الأخيرة راء ؛ فتحرر من مجموع ذلك أربعة أسماء : اثنان بالمثناة التحتية ، واثنان بالفوقية ، وذلك المستند فى تقديمها فى محلها ، وقال المجد : إن ذلك كله تصحيف ، وإن الصواب يندد بالمثناة التحتية ودالين(٢) ، وفيه نظر ؛ لأن الزركشى عند ذكر أسماء المدينة جمع بين اثنين من هذه الأربعة وقال : ذكرهما البكرى ؛ فيحتمل ثبوت الأخيرين ، وحديث « للمدينة عشرة أسماء » رواه ابن شَبَّة من طريق عبد العزيز بن عمران ، وَسَرَدَها فيه ثمانية فقط ، ثم روى من طريقه أيضاً عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب سَمَّى اللهُ المدينةَ الدارَ والإيمان ، قال : وجاء فى الحديث الأول ثمانية أسماء ، وجاء فى هذا اسمان ، فالله أعلم أهما تمام العشرة أم لا اهـ . ورواه ابن زَبَالة كذلك إلا أنه سَرَد تسعة فزاد اسم الدار ، وأسقط العاشر ، ونقل ابنُ زبالة أن عبد العزيز بن محمد الدراوردى قال : بلغنى أن للمدينة فى التوراة أربعين اسماً ، والله أعلم . يندر

---

(١) يقال « ليس لهؤلاء ناد » أى رزق ، قاله المجد .

(٢) قال المجد فى (ندد) ما نصه «ويندد : موضع ، ومدينة النبى صلى الله عليه وسلم» وقال فى (ندر) ما نصه « ويندر كحيدر : من أسماء المدينة ، أو هو بدالين » اهـ .

الباب الثانى

فى فضائلها ، و بَدْءِ شأنها وما يؤول إليه أمرها ، وظهور النار المنذَرِ بها من أرضها ، وانطفائها عند الوصول إلى حرمها ، وفيه ستة عشر فصلا

الفصل الأول

فى تفضيلها على غيرها من البلاد

مكة أفضل أم المدينة

قد انعقد الإجماع على تفضيل ما ضَمّ الأعضاء الشريفة ، حتى على الكعبة المنيفة ، وأجمعوا بعدُ على تفضيل مكةَ والمدينةَ على سائر البلاد ، واختلفوا أيهما أفضل ؛ فذهب عمر بن الخطاب وابنُه عبدُ الله ومالك بن أنس وأكثر المدنيين إلى تفضيل المدينة ، وأحْسَنَ بعضُهم فقال : محلُّ الخلافِ فى غير الكعبة الشريفة ، فهى أفضل من المدينة ماعدا ماضم الأعضاء الشريفة إجماعا ، وحكاية الإجماع على تفضيل ماضم الأعضاء الشريفة نقله القاضى عِياض ، وكذا القاضى أبو الوليد(1) الباجِىُّ قبله كما قال الخطيب ابن جملة ، وكذا نقله أبو اليمن ابن عساكر وغيرهم ، مع التصريح بالتفضيل على الكعبة الشريفة ، بل نقل التاجُ السبكى عن ابن عَقيل الحنبلى أن تلك البقعة أفضل من العرش .

وقال التاج الفاكهى : قالوا: لا خلاف أن البقعة التى ضمت الأعضاء الشريفة أفضلُ بِقاع الأرض على الإطلاق حتى موضع الكعبة ، ثم قال: وأقول أنا : أفضل بقاع السموات أيضا ، ولم أرَ من تعرض لذلك ، والذى أعتقده أن ذلك لو عُرِضَ على علماء الأمة لم يختلفوا فيه ، وقد جاء أن السموات تشرفت بمواطىء قدميه صلى الله عليه وسلم ، بل لو قال قائل إن جميعَ بقاع الأرض أفضلُ من جميع بقاع السماء شرفها لكون النبى صلى الله عليه وسلم حالاًّ فيها لم يبعد ، بل هو عندى الظاهر المتعين

---

(1) فى خلاصة الوفا (ص ١٠) « أبو الوليد الناجى » بالنون .

الأرض أفضل أم السماء؟

قلت : وقد صرح بما بحثه من تفضيل الأرض على السماء ابنُ العِمَادِ نقلا عن الشيخ تاج الدين إمام الفاضلية

قال : وقالوا : إن الأكثرين عليه ؛ لأن الأنبياء خُلِقوا من الأرض وعبَدوا الله فيها ، ودفنوا بها اه.

وقال النووى : المختار الذى عليه الجمهور أن السموات أفضل من الأرض ، وقيل : إن الأرض أشرف ؛ لأنها مُسْتقر(١) الأنبياء ومَدْفنهم ، وهو ضعيف

قلت : وكأن وجه تضعيفه للثانى أن الكلام عن مطلق الأرض ، ولا يلزم من تفضيل بعضها لكونها مدفَنَ الأنبياء تفضيلُ كلها ، وضعف أيضا بأن أرواح الأنبياء فى السموات والأرواح أفضل من الأجساد ، وجوابه ما سنحققه إن شاء الله تعالى من حياة الأنبياء فى قبورهم ، صلوات الله وسلامه عليهم

وقال شيخنا المحققُ ابن إمام الكاملية فى تفسير سورة الصف : والحق أن مواضع الأنبياء وأرواحهم أشرفُ من كل ما سواها من الأرض والسماء ، ومحلُّ الخلافِ فى غير ذلك كما كان يقرره شيخ الإسلام البلقينى

قال الزركشى : وتفضيلُ ماضم الأعضاء الشريفة للمجاورة ، ولهذا يحرم للمحدث مس جلد المصحف(٢) .

عود لتفضيل مكة أو المدينة

قال القرافى : ولما خفى هذا المعنى على بعض الفضلاء أنكر حكاية الإجماع على تفضيل ماضم الأعضاء الشريفة . وقال : التفضيلُ إنما هو بكثرة الثواب على الأعمال ، والعملُ على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم محرم ، قال : ولم يعلم أن أسباب التفضيل أعم من الثواب ، والإجماع منعقد على التفضيل بهذا الوجه

(١) المستقر : مكان الاستقرار ، واستقرار الأنبياء فى الأرض أما فى حياتهم فلأنها موطن دعوتهم والحاجة إليهم فيها ، وأما بعد وفاتهم فلأن مدفنهم بها .

(٢) قاس ما ضم الأعضاء على جلد المصحف ، فكما أعطى جلد المصحف حكم المصحف لعلة المجاورة أعطى ما ضم الأعضاء حكم الأعضاء لعلة المجاورة ، والقرافى جعل العلة هى كثرة الثواب فلم يصح عنده هذا القياس .

لا بكثرة الثواب ، ويلزمه أن لا يكون جِلْدُ المصحف — بل ولا المصحف نفسه — أفْضَلَ من غيره لتعذر العمل فيه ، وهو خرق للاجماع

قلت : وما ذكره من التفضيل بالمجاورة مُسَلَّم ، لكن ما اقتضاه من عدم التفضيل لكثرة الثواب فى ذلك ممنوع لما سنحققه .

كلام للعز ابن عبدالسلام

وأصلُ الإشكال لابن عبد السلام فإنه قال فى أماليه : تفضيلُ مكة على المدينة أو عكسه معناه أن الله يرتّب على العمل فى إحداهما من الثواب أكثر مما يرتبه على العمل فى الأخرى ؛ فيشكل قول القاضى عياض : أجمعت الأمة على أن موضع القبر الشريف أفضل ؛ إذ لا يمكن أحد أن يعبد الله فيه .

كلام للتقى السبكى

قال التقى السبكى : وقد رأيت جماعة يستشكلون نقل هذا الإجماع ، وقال لى قاضى القضاة السروجى الحنفى : طالعتُ فى مذهبنا خمسين تصنيفا فلم أجد فيها تعرضا لذلك ، قال السبكى : وقد وقفت على ماذكره ابن عبد السلام من أن الأزمان والأماكن كلها متساوية ، ويفضلان بما يقع فيهما ، لا بصفات قائمة بها ، ويرجع تفضيلها إلى ما يُنِيلُ اللهُ العبادَ فيهما ، وأن التفضيل الذى فيهما أن الله يجود على عباده بتفضيل أجر العاملين فيهما ، قال السبكى : وأنا أقول : قد يكون التفضيل لذلك ، وقد يكون لأمر آخر فيهما ، وإن لم يكن عمل ؛ فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة ، وله عند الله من المحبة ، ولساكنه ماتقصر العقول عن إدراكه ، وليس ذلك لمكان غيره ، فكيف لايكون أفضل الأماكن ؟ وليس محل عمل لنا ، فهذا معنى غير تضعيف(١) الأعمال فيه ، وأيضا فباعتبار ماقيل : إن كل أحد يدفن بالموضع الذى خلق منه(٢) ، وأيضا فقد تكون الأعمال مضاعفة فيها باعتبار أن النبى صلى الله عليه وسلم حى ، وأن أعماله مضاعفة أكثر من كل أحد ؛ فلا يختص التضعيف بأعمالنا نحن

(١) تضعيف الأعمال : أراد به تضعيف ثوابها ، بأن يعطيه الله على العمل فيهما أضعاف ما يعطيه على هذا العمل فى غيرها (والله يضاعف لمن يشاء) .

(٢) سيأتى ذكر هذه المسألة والاستدلال عليها ، انظر ص ٣٢ الآتية .

قلت : وهذا من النفاسة بمكان ، على أنى أقول : الرحمات والبركات النازلة بذلك المحل يعم فَيْضُها الأمة ، وهى غـير متناهية ؛ لدوام ترقياته عليه الصلاة والسلام ، وما تناله الأمة بسبب نبيها هو الغاية فى الفضل ، ولذا كانت خيرَ أمةٍ بسبب كون نبيها خير الأنبياء[1] ، فكيف لا يكون القبر الشريف أفضلَ البقاع مع كونه منْبَعَ فيض الخيرات ؟ ألا ترى أن الـكعبة على رأى مَنْ منع الصلاة فيها ليست محل عملنا ، أفيقول عاقل بتفضيل المسجد حولها عليها لأنه محل العمل مع أن الـكعبة هى السبب فى إنالة تلك الخيرات ؟ وأيضا فاهتمامه صلى الله عليه وسلم بأمر أمته معلوم ، و إقبال الله عليه دائم ، وهو بهذا المحل الشريف ، فتكثر شفاعته فيه لأمته وأمداده إياهم ، وقد ورد فى حديث « وَفَاتِى خيرٌ لـكم »[وجاء] بيان ذلك بأن «أعمالـكم تُعْرَضُ على ؛ فإن رأيت خيرا حمدت الله ، و إن رأيت غير ذلك استغفرت لـكم » وفى رواية «استوهَبْتُ اللهَ ذنوبكم » وله شواهد تُقَويه، وسيأتى فى الباب الثامن أن المجىء المذكور فى قوله تعالى « ولو أنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أنفسهم جاؤك[2] » الآيةَ حاصلٌ بالمجىء إلى قبره الشريف أيضا ، فزيارته والمجاورة عنده من أفضل القُربات ، وعنده تجاب الدعوات ، وتحصل الطلبات ، فقد جعله الله تعالى سببا فى ذلك أيضا ، فهو رَوْضَة من رياض الجنة ، بل أفضل رياضها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لقَابُ قَوْسٍ[3] أحدكم فى الجنة خير من الدنيا ومافيها» بل لو تعلق متعلق بما قررناه من كون القبر الشريف منبع جميع الخيرات وهو بالمدينة فتكون هى أفضل لـكان له وجه

.وقد قال الحـكيم الترمذى فى نوادره : سمعتُ الزبيرَبن بكار يقول : صَنَّفَ بعضُ أهل المدينة فى المدينة كتابا ، وصنف بعض أهل مكة فى مكة كتابا ، فلم

(١) وهذا بنص الـكتاب الـكريم ، قال الله تعالى فى سورة آل عمران من الآية ١١٠ (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)
(٢) من سورة النساء من الآية ٦٤ .
(٣) قاب قوس : مقداره .

يزل كل واحد منهما يذكر بقعته بفضيلة ، يريد كل واحد منهما أن يبرز[1] على صاحبه بها ، حتى برز المدنى على المكى فى خَلَّةٍ واحدة[2] عجزعنها المكى ، وان المدنى قال : إذ كل نفسٍ إنما خلقت من تربته التى يُدْفَنُ فيها بعد الموت ، وكان نفس الرسول إنما خلقت من تربة المدينة ؛ فحينئذ تلك التربة لها فضيلة بارزة على سائر الأرض

خلق الإنسان من تربة الأرض التى يدفن فيها

قلت : ويدل لما ذكر من أن النفس تخلق من تربة الدفن ما رواه الحاكم فى مستدركه وقال صحيح وله شواهد صحيحة عن أبى سعيد ، قال : « مرَّ النبىُّ صلى الله عليه وسلم عند قبر ، فقال : قَبْرُ مَنْ هذا ؟ فقالوا : فلان الحبشى يارسول الله ، فقال : لا إلهَ إلا الله ، سيق من أرضه وسمائه إلى التربة التى منها خلق » ورواه الحكيم الترمذى بنحوه عن أبى هريرة ، ورواه البزار عن أبى سعيد بنحوه ، وفيه عبد الله والد ابن المدينى وهو ضعيف ، وروى الطبرانى فى الأوسط نحوه عن أبى الدرداء ، وفيه الأحوص بن حكيم ، وثَّقه العِجْلى ، وضعفه الجمهور ، وروى فى الكبير أيضا نحوه عن ابن عمر ، وقال الذهبى فى بعض رواته : ضعفوه ، وأسند ابن الجوزى فى الوفاء عن كعب الأحبار : لما أراد الله عز وجل أن يخلق محمدا صلى الله عليه وسلم أَمَرَ جبريلَ فأتاه بالقَبْضَة البيضاء التى هى موضِعُ قبره صلى الله عليه وسلم ، فعُجِنت بماء التَّسْنيم ، ثم غمست فى أنهار الجنة ، وطِيفَ بها فى السموات والأرض ، فعرَفت الملائكة محمدا وفضله قبل أن تعرف آدم عليه السلام ، وسيأتى لهذا مزيدُ بيانٍ فى سَرْد خصائصها .

وقال الحكيم الترمذى فى حديث « إذا قضى الله لعبدٍ أن يموت بأرض جَعَلَ له إليها حاجةً » : إنما صار أجَله هنالك لأنه خُلِق من تلك البقعة ، وقد قال الله تعالى : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ[3] » الآية ، قال : فإنما يُعادالمرء من حيث بدىء منه ، قال : وروى أن الأرض عَجَّتْ[4] إلى ربها لما أخذت تربة آدم عليه السلام ، فقال لها : سأردُّها إليك ، فإذا مات دُفِنَ فى البقعة التى منها تربته

---

(١) يبرز : يتفوق . (٢) الخلة ــ بفتح الخاء ــ الخصلة .

(٣) من سورة طه من الآية ٥٥ . (٤) عجت : رفعت صوتها كأنها تصرخ .

وعن يزيد الجريرى قال : سمعت ابن سيرينَ يقول : لو حلَفْتُ حلفت صادقا بارا غير شاك ولا مُسْتَثْنٍ أن الله تعالى ما خلق نبيه صلى الله عليه وسلم ولا أبا بكر ولا عمر إلا من طينة واحدة ثم ردهم إلى تلك الطينة

وروى ابن الجوزى فى الوفاء عن عائشة قالت : لما قُبض النبى صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى دفنه ؛ فقالوا : أين يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال على : إنه ليس فى الأرض بقعة أكرمُ على الله من بقعة قبض فيها نفس نبيه صلى الله عليه وسلم ، وروى يحيى أن عليا قال لما اختلفوا : لا يُدْفَنُ إلا حيث توفاه الله عز وجل ، وأنهم رَضُوا بذلك .

قلت : ويؤخذ مما قاله على مستند نقل الإجماع السابق[1] على تفضيل القبر الشريف ؛ لسكوتهم عليه ، ورجوعهم إلى الدفن به .

ولما قال الناس لأبى بكر رضى الله عنه : يا صاحب رسول الله ، أين يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فى المكان الذى قَبَضَ الله تعالى روحه فيه ؛ فإن الله لم يقبض روحه إلا فى مكان طيب ، رواه الترمذى فى شمائله ، والنسائى فى الكبرى ، وإسنادُه صحيح ، ورواه أبو يعلى الموصلى ، ولفظه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا يقبضُ النبيُّ إلا فى أحب الأمكنة إليه» .

قلت : وأحبها إليه أحبها إلى ربه ؛ لأن حبه تابع لحب ربه إلا أن يكون حبه عن هوى نفس ، وما كان أحبَّ إلى الله ورسوله كيف لا يكون أفضل ، ولهذا أخذت تفضيل المدينة على مكة من قوله صلى الله عليه وسلم كما فى الصحيح «اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد» أى بل أشد ، أو وأشد ، كما روى به ، ومن إجابة دعوته صلى الله عليه وسلم كان يحرك دابته إذا رآها من حبها .

(١) أى لكونه رضى الله تعالى عنه قد قال عبارة تدل على أن أكرم بقعة فى الأرض هى التى قبضت فيها نفسه صلى الله عليه وسلم ، وقد دفن صلوات الله عليه حيث قبضت نفسه .

وقد روى الحاكم فى مستدركه حديث «اللهمّ إنك أخرجْتَنِي من أحب البقاع إلىّ ، فاسكنّى فى أحَبِّ البقاع إليك » وفى بعض طرقه أنه صلى الله عليه وسلم قاله حين خرج من مكة ، وفى بعضها أنه وقف بالحزورة[1] ، وفى بعضها بالحَجُون فقالَهُ ، وقد ضعفه ابن عبد البر

قيل : ولو سلمت صحته فالمراد أحبُّ البقاع إليك بعد مكة ؛ لحديث « إن مكة خير بلاد الله » وفى رواية « أحب أرض الله إلى الله » ولأنه قد صح لمسجد مكة من المُضَاعفة زيادة على ما صح لمسجد المدينة كما سيأتى

قلت : فيما قدمناه من دعائه صلى الله عليه وسلم بحبها أشَدَّ من حب مكة مع ما أشرنا إليه من إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم ، ومن أنه تعالى لا يجعلها أحبَّ إلى نبيه إلا بعد جعلها أحبَّ إليه تعالى غنيةٌ عن صحة هذا الحديث ، وكونُ المراد منه ما ذكر خلافُ الظاهر ، وما ذكر لا يصلح مستندا فى الصَّرْفِ عن الظاهر ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قَصَدَ به الدعاء للدار التى تكون هجرتُهُ إليها ، فطلب من الله أن يُصَيِرها أحبَّ البقاع إليه تعالى ، والحب من الله تعالى إنالة الخير والتعظيم للمحبوب ، وهذا يمكن تجدده بعد أن لم يكن ، وقوله « إن مكة خيرد بلاد الله وأحبها إليه » محمول على أنه صلى الله عليه وسلم قاله فى بَدْءِ الأمر قبل ثبوت الفضل للمدينة ، فلما طالت إقامته صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأظهر الله دينه ، وتجدد لها ما سيأتى من الفضائل حتى عاد نفعها على مكه ، فافتتَحَها الله وسائر بلاد الإسلام منها ؛ فقد أنالها الله تعالى وأنال بها من الخير مالم يُنِـلْه غيرَها من البلاد ، وظهر إجابة الدعوة الكريمة ، وأنها صارت خير أرض الله وأحبها إليه بعد ذلك ، ولهذا لم يَعُد النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد فتحها .

---

(١) الحزورة — بفتح فسكون — كانت سوق مكة ، ثم دخلت فى المسجد الحرام لما زيد فيه ، وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم «وقف بالحزورة ، فقال : يا بطحاء مكة ماأطيبك من بلدة ! ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك » والحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها .

فإن قيل : إنما لم يعد إليها لأن الله افترض عليه المقام بدار هجرته .

قلنا : لم يكن الله ليفترض عليه المقام بها إلا وهى أفضل؛ لكرامته عنده ، وقد حَثَّ صلى الله عليه وسلم على الاقتداء به فى سكناها والإقامة بها ، وقال : « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

فإن قيل : قال التقى الفاسى : ظن بعض أهل عصرنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن مكة خير بلادالله » حين خرج من مكة للهجرة ، وليس كذلك ؛ لأن فى بعض طرق الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك وهو على راحلته بالحزورة ، وهو لم يكن بهذه الصفة حين هاجر ؛ لأن الأخبار تقتضى أنه خرج من مكة مستخفيا ، ولو ركب بالموضع المشار إليه — وهو الذى يقول له عوام مكة عزوة — لأشعر ذلك بسفره .

قلنا : جاء فى رواية لابن زَبَالة أن النبى صلى الله عليه وسلم حين أمره الله بالخروج قال : « اللهم إنك أخْرَجْتَنِى » الحديثَ ، وقد وقع فى رواية لابن حبان فى حديث الهجرة « فركبا — يعنى هو وأبو بكر — حتى أتيَا الغار — وهو ثور — فتوارَيَا فيه » وسيأتى فى أحاديث الهجرة ما يقتضى أنهما توجها إلى الغار ليلا بعد أن ذَرَّ صلى الله عليه وسلم ترابا على رؤوس جماعة من الكفار كانوا يَرْصُدونه ، وقرأ أوائل يس يستتر بها منهم ، فلم يَرَوْهُ ، فلا يمتنع أن يكون راكبا فى هذا الموضع .

وأما أمر مَزيد المضاعفة لمسجد مكة ، فجوابه أن أسباب التفضيل لا تنحصر فى المضاعفة ، ألا ترى أن فعل الصلوات الخمسة للمتوجِّه إلى عرفات وظهر يوم النحر بمِنًى أفْضَلُ من فعلها بمسجد مكة ، وإن اشتمل فعلها بالمسجد على المضاعفة إذ فى الاتِّباع ما يَرْبو عليها ، ولهذا قال عمر رضى الله عنه بمزيد المضاعفة لمسجد مكة كما سيأتى مع قوله بتفضيل المدينة ، وغايته أن للمفضول مزية ليست للفاضل ، ويؤيد ذلك ما سيأتى من أن المضاعفة تعم الفرض والنفل ، وأن النفل بالبيت

أفضل ، على أنه إن أريد بالمسجد الحرام فى حديث المضاعفة الكعبة فقط كما ستأتى الإشارة إليه ، فالجواب أن الكلام فيما عداها ، مع أن دعاءه صلى الله عليه وسلم المدينة بضعفى ما بمكة من البركة ، ومع البركة بركتين شامل للأمور الدينية والدنيوية ، وقد يبارك فى العدد القليل فيربو(١) نفعه على الكثير ، ولهذا استدل به على تفضيل المدينة لأكثرية المدعو به لها من البركة الشاملة .

ولا يَرِدُ على ما قررناه ما جاء فى فضل الكعبة الشريفة ؛ إذ الكلام فيما عداها ، ولهذا روى مالك فى الموطأ (٢) أن عمر رضى الله عنه قال لعبد الله بن عياش المخزومى : أنت القائل لمكة خير من المدينة ؟ فقال عبد الله : هى حرم الله وأَمْنُه ، وفيها بيته ، فقال عمر : لا أقول فى حرم الله ولا فى بيت الله شيئا ، ثم قال عمر : أنت القائل لمكة خير من المدينة ؟ فقال عبد الله : هى حرم الله وأمنه ، وفيها بيته ، فقال عمر : لا أقول فى حرم الله ولا فى بيت الله شيئا ، ثم انصرف ، وفى رواية لرُزَين : فاشتد على ابن عياش ، فانصرف .

ولا يَرِدُ أيضا ما بمكة من مواضع النسك ؛ لتعلق النُّسُك بالكعبة ، وأيضا فقد عوّض الله المدينة عن العمرة ما سيأتى فى مسجد قباء ، وعن الحج ما سيأتى مرفوعا « مَنْ خرج لا يريد إلا الصلاة فى مسجدى حتى يُصَلى فيه كان بمنزلة حجة » ، وهذا أعظم ؛ لكونه أيسر ، ويتكرر فى اليوم والليلة مرارا ، والحج لا يتكرر ، ويؤخذ منه أنه يضاف إلى ما جاء فى المضاعفة بمسجدها الحجة لمن أخلص قصده للصلاة .

ولا يَرِدُ أيضا كونه صلى الله عليه وسلم أقام بمكة بعد النبوة أكثر من إقامته بالمدينة ، على الخلاف فيه ؛ لأن إقامته بالمدينة كان سببا فى إعزاز دين الله وإظهاره ، وبها تقررت الشرائع ، وفرضت غالب الفرائض ، وأكمل الله الدين ، واستقر بها صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة .

---

(١) يربو : يزيد .   (٢) انظر الموطأ (ص ٨٩٤ ط الحلبى سنة ١٣٧٠)

وقد ثبت فى محبته صلى الله عليه وسلم للمدينة ما لم يثبت مثله لمكة ، وحَثَّ عَلَى الإقامة والموت بها ، والصبر عَلَى لأوائها وشدتها ، كما ستقف عليه ، وسيأتى حديث « اللهم لا تجعل مَنَايانا بمكة » وحديث « ماعَلَى الأرض بقعة أحَبُّ إلىَّ من أن يكون قبرى بها منها » يعنى المدينة ، قالها ثلاث مرات .

وقد شرع الله لنا أن نحب ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ، وأن نعظم ما كان يعظمه ، وإذا ثبت تفضيل الموت بالمدينة ثبت تفضيل سكناها ، لأنه طريقه . هذا ، وقد روى الطبرانى فى الكبير والمفضل الجندى فى فضائل المدينة وغيرهما عن رافع بن خديج رضى الله عنه قال : أشهد سمعت — وفى رواية « لسمعت » — رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المدينة خير من مكة » ، وفى إسناده محمد بن عبد الرحمن الرداد ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : كان يخطىء ، وقال أبو حاتم : ليس بقوى ، وقال أبو زرعة : لين ، وقال الأزدى : لا يكتب حديثه ، وقال ابن عَدِى : روايته ليست محفوظة ، ولهذا قال ابن عبد البر : هو حديث ضعيف ، وفيما قدمناه غنية عنه .

وفى الصحيحين حديث « إن الايمان ليأرِز إلى المدينة كما تأرِزُ الحية إلى جحرها » ويأرز كمسجد[1] أى ينقبض ويجتمع وينضم ويلتجىء ، وقد رأينا كل مؤمن له من نفسه سائق إلى المدينة لحبه فى النبى صلى الله عليه وسلم ، فيشمل ذلك جميع الأزمنة ؛ لأنه فى زمنه صلى الله عليه وسلم للتعلم منه ، وفى زمن الصحابة والتابعين للاقتداء بهم ، ومن بعد ذلك لزيارته ، وفضل بلده ، والتبرك بمشاهدة آثاره ، والاتباع له فى سكناها .

وروينا فى فضائل المدينة للجندى حديث « يوشك الإيمان أن يأرِزَ إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » يعنى يرجع إليها الإيمان .

---

(١) قوله « كمسجد » الأولى أن يقال « كيضرب » ، وانظر ص ١١ الهامشة رقم ٢ .

وأسند ابن زَبَالة حديث « لا تقوم الساعة حتى يحاز الإيمان إلى المدينة كما يحوز السيلُ الدِّمَنَ » .

وقد تقدم فى الأسماء[1] حديث الصحيحين « أمِرْتُ بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب، وهى المدينة » قال ابن المنذر : يحتمل أن يكون المراد بأكلها القرى غَلَبة فضلها على فضل غيرها ؛ فمعناه أن الفضائل تضمحلُّ فى جنب عظيم فضلها حتى تكاد تكون عدما ، وهذا أبلغ من تسمية مكة « أم القرى » ؛ لأن الأمومة لا تنمحى معها ما هى له أم ، لكن يكون لها حق الأمومة ، انتهى .

وجزم القاضى عبد الوهاب بهذا الاحتمال .

وروى البزار عن علىّ رضى الله عنه حديث « إن الشياطين قد يئست أن تعبد ببلدى هذا » يعنى المدينة « وبجزيرة العرب ، ولكن التحريش بينهم» وله أصل فى صحيح مسلم من حديث جابر .

وروى أبو يَعْلى بسند فيه مَن اختلف فى توثيقه وبقية رجاله ثقات عن العباس رضى الله عنه قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة فالتفتَ إليها وقال : « إن الله قد بَرّأ هذه الجزيرة من الشرك » وفى رواية « إن الله قد طَهّر هذه القرية من الشرك ، إن لم تضلّهم النجوم ، قال : يُنزِلُ الله الغيثَ ، فيقولون : مُطِرْنا بِنَوْء[2] كذا وكذا » وقد تقدم فى الأسماء تسميتها بالمؤمنة والمسلمة ، وأنه لا مانع من إجرائه على ظاهره فهو مقتضٍ للتفضيل ، سيما وسببه ما سبق من كونه صلى الله عليه وسلم خُلِقَ من تربتها .

وقد استدل أبو بكر الأبهرى من المالكية على تفضيلها على مكة بما سبقت الإشارة إليه من أن النبى صلى الله عليه وسلم مخلوق من تراب المدينة ، وهو أفضل البشر ، فكانت تربته أفضل الترب . قال الحافظ ابن حَجَر : وكون تربته أفضل الترب لا نزاع فيه ، وإنما النزاع هل يلزم من ذلك أن تكون المدينة أفضل من

(١) انظر ص ١١ السطر ٣ .

(٢) النوء : أن يسقط نجم فى المغرب مع الفجر ويطلع رقيبه من ساعته .

مكة لأن المجاور للشيء لو ثبت له جميعُ مزاياه لـكان لجارِ ذلك المجاور نحوذلك ؛ فيلزم أن يكون ما جاور المدينة أفضـل من مكة ، وليس كذلك اتفاقاً ، كذا أجاب به بعض المتقدمين ، وفيه نظر ، انتهى .

قلت : لم يبين وجه النظر ، ولعل وجهه أن الأفضل لقوة أصالته في الفضل يفيد مجاوِرَه الأفضلية لمزية هذه المجاورة الخاصة ، وهى منتفية عن مجاور المجاور ، ألا ترى أن جلد المصحف قد ثبت له مزية التعظيم للمجاورة ، ولم يلزم من ذلك ثبوت نحوها لمجاوره ، وأيضاً فالمقتضى لتفضيل المدينة خلقه صلى الله عليه وسلم من تربتها ، وهذا لا يوجدلمجاورها ، والله أعلم .

الفصـــــــل الثانى

فى الحث على الإقامة بها ، والصبر على لأوائها وشدتها ، وكونها تنفى الخبث والذنوبَ ، ووعيدِ من أرادها وأهلَها بسوء أو أحدث بهاحدثاً أو آوى محدثاً .

رويِنا فى الصحيحين حديث « مَنْ صبر على لأوائها وشدتها كنتُ له شهيداً أو شـفيعاً يوم القيامة » . وعد من صبر على شدتها

وفى صحيح مسلم عن سعيد مولى المهرى أنه جاء إلى أبى سعيد الخدرى ليالى الحرة ، فاستشاره فى الجلاء من المدينة ، وشكا إليه أسعارها وكثرةَ عيالِه ، وأخبره أن لا صَـبْرَ له على جَهْد المدينة ولأوائها ، فقال : ويحك ! لا آمرك بذلك ، إنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يصبر » وفى رواية « لا يثبت أحَدٌ على لأوائهاوجَهْدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة » وفى رواية « فقال أبوسعيد: لا تفعل ، الزم المدينة » وذكر الحديث بزيادة قصة .

وفى مسلم وفى الموطأ والترمذى عن يُحَنِّس[(١)] مولى مصعب بن الزبير أنه كان

(١) يحنس : بضم الياء المثناة وفتح الحاء المهملة ، وبعدها نون مشددةمكسورة أو مفتوحة ، وآخره سين مهملة أو شين معجمة ، ووقع فى المطبوعات « يخيس » تطبيع (وانظر الموطأ ٨٨٥ وخلاصة الخزرجى ٤٤٢)

جالساً عندابن عمر فى الفتنة، فأتته مولاة[له] تسلم عليه، فقالت : إنى أردت الخروجَ يا أبا عبد الرحمن ، اشتدَّ علينا الزمان ، فقال لها عبدُ الله : اقعدى لـكَاعِ [1]، ولفظ الترمذى : اصْـبرِى لـكَاعِ [1] ؛ فإنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة » .

فإن قيل : ما معنى التردد فى قوله « شفيعاً أوشهيداً » ؟ وما معنى هذه الشفاعة مع عموم شفاعته صلى الله عليه وسلم ؟

قلنا : ذكر عياض ما ملخصه أن بعض مشايخه جعل «أو» للشك من الراوى، وأن الظاهر خلافه لـكثرة رواته بذلك ، بل الظاهر أنه من لفظه صلى الله عليه وسلم، فإما أن يكون أعلم بهذه الجملة هكذا ، و إما أن تـكون «أو» للتقسيم ، ويكون شفيعاً للعاصين وشهيداً للمطيعين ، أو شهيداً لمن مات فى حياته وشفيعاً لمن مات بعده ، قال : وهذه الشفاعة أو الشهادة زائدة على الشفاعة للمذنبين أو للعاملين فى القيامة وعلى شهادته على جميع الأمم ، فيكون لتخصيصهم بذلك مزية وزيادة منزلة وحُظْوة قال : ويحتمل أن يكون «أو» بمعنى الواو ، قلت : ويدلّ له ما رواه البزَّارُ برجال الصحيح عن عمر رضى الله عنه بلفظ « فمن صبر على لأوائها وشدتها كنت له شفيعا وشهيداً يوم القيامة » وأسنده ابن النجار بلفظ « كنت له شفيعا وكنت له شهيداً يوم القيامة » وأسنده المفضل الجندى فى فضائل المدينة عن أبى هريرة أيضا بلفظ « لا يصبر أحد على لأواء المدينة » وفى نسخة « وحرها إلا كنت له شفيعاوشهيداً » قال القاضى : وإذا جعلنا «أو» للشك فإن كانت اللفظة شهيداً فالشهادة أمر زائد على الشفاعة المجردة المدخرة لغيرهم من الأمة ، وإن كانت اللفظة شفيعا فهذه شفاعة غير العامة تـكون لأهل المدينة بزيادة الدرجات أو تخفيف الحساب أو بإكرامهم يوم

---

(١) لـكاع : كلمة تذكر لسب الأنثى ، وهى مبنية على الـكسر ، ومعناها : ياحمقاء ، أو يامن لا تتجهين لمنطق ولا غيره ، وفى الموطأ (٨٨٦)« اقعدى لـكع »

القيامة بأنواع من الكرامات كإيوائهم فى ظِلّ العرش أو كونهم فى روح[١] وعلى منابر أو الإسراع بهم إلى الجنة أو غير ذلك من خصوص الكرامات . قلت : ويحتمل أن يجمع لهم ببركة شفاعته صلى الله عليه وسلم أو شهادته الخاصة بين ذلك كله ؛ فالجاه عظيم ، والكرم واسع ، وتأكيد الوصية بالجار يؤيد ذلك ، ويحتمل أيضا أن يكون المراد مع ذلك البشرى بموتهم على الإسلام ؛ لأن شفاعته وشهادته صلى الله عليه وسلم المذكورة خاصة بالمسلمين ، وكفى بذلك نعمة ومزية ، وسيأتى الإشارة إلى نحو ذلك فى أول الباب الثامن .

وفى الموطأ والصحيحين حديث « تفتح اليمن فيأتى قوم يَبُسُّونَ فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » الحديث .

وقوله « يبسون » بفتح المثناة التحتية أوله وضم الباء الموحدة وكسرها ، ويقال أيضا بضم المثناة وكسر الموحدة — يسوقون بهائمهم سَوْقا شديداً ، وقيل : البَسُّ : سرعة الذهاب .

المدينة تنفى الخبث

وفى مسلم حديث « يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه أو قريبه : هَلُم إلى الرخاء ، هلم إلى الرخاء ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، والذى نفسى بيده لايخرج أحد رغبةً عنها إلا أخْلَفَ الله فيها خيراً منه ، ألا إن المدينة كالكير[٢] تخرج الخبث ، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارَها كما ينفى الكِيرُ خَبَثَ الحديد » .

وفى الصحيحين « أمرت بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناسَ كما ينفى الكيرُ خَبَثَ الحديد » وفى رواية لابن زَبَالة « إن المدينة تنفى خَبث الرجال » وفى رواية « خَبَثَ أهلها كما ينفى الكِيرُ خَبَثَ الحديد » .

---

(١) الروح ــ بفتح الراء وسكون الواو ــ الراحة والرحمة ، وقوله «على منابر» أى من نور كما ورد فى حديث .

(٢) الكير ــ بكسر الكاف ــ زق ينفخ فيه الحداد (المنفاخ)

وفى صحيح البخارى حديث « إنها طيبة تنفى الذنوبَ كما ينفى الكير خبث الفضة » .

وفى الصحيحين قصة الأعرابى الذى جاء من الغد محموما فقال : أقِلْنى بيعتى ، فأبى صلى الله عليه وسلم ، فخرج الأعرابى ، فقال صلى الله عليه وسلم « إنما المدينة كالكير تنفى خبثها وتَنْصَعُ طَيِّبَهَا » .

قوله « أقلنى بيعتى » أى انقض العهدَ حتى أرجع إلى وطنى ، وكأنه كان قد بايع على هجرة الإقامة . وقوله « تنفى خبثها » يحتمل أن يكون بمعنى الطرد والإبعاد لأهل الخبث ، وقصة الأعرابى المذكور ظاهرة فيه ، وخصه ابنُ عبد البر بزمنه صلى الله عليه وسلم ، والظاهر كما قال النووى عدم التخصيص ؛ ففى الصحيح « لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها » يعنى عند ظهور الدجال ، وسيأتى فى الفصل الخامس فى حديث أحمد وغيره برجال الصحيح قصة خروج مَنْ بالمدينة من المنافقين إلى الدجال ، ثم قال « وذلك يوم التخليص ، ذلك يوم تنفى المدينة الخبث » وقال عمر بن عبدالعزيز مشفقاً إذ خرج منها لمن معه : أتخشى أن نكون ممن نفت المدينة ؟ وقد طهرها الله تعالى ممن كان بها من أرباب الأديان المخالفين لدين الإسلام ، وأهْلَكَ من كان بها من المنافقين ، وهؤلاء هم أهل الخبث الكامل ، ومَنْ عداهم من أهل الخبث والذنوب قد يكون طرده و إبعاده إن استمر على ذلك بآخرة الأمر بنقل الملائكة له إلى غيرها من الأرض كما أشار إليه الأقشهرى قال : ويكون قوله « تنفى خبثها ، وتنفى الذنوب » أى أهل ذلك ، على طريقة حذف المضاف ، و يحتمل أن يكون بمعنى طرد أهل الخبث الكامل ، وهم أهل الشقاء والكفر ، لا أهل السعادة والإسلام ؛ لأن القسم الأول ليس قابلا للشفاعة ولا المغفرة ، وقد وعد صلى الله عليه وسلم مَنْ يموت بها بالشفاعة [لهذا] (١) وجب انتفاء القسم الأول منها ، و يحتمل أن يكون بمعنى تخليص النفوس من شرها وميلها إلى اللذات

---

(١) زيادة يستدعيها اتساق الكلام

بما فيها من اللأواء والشدة ، ويؤيده رواية « إنها طيبة تنفى الذنوب » الحديث ، ويكون نفيها للذنوب على ظاهره ، سيما وقد اشتملت على عظيم المضاعفات ، وتنوع المَثُوبات ، وتوالى الرحمات ، وقد قال تعالى : « إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبن السيئات »[1] مع ما لأهلها من الشفاعة والشهادة الخاصة ، وما بها من تضاعف البركات ، ويحتمل أن يكون بمعنى أنه لا يخفى حال من انطوى فيها على خَبَثٍ ، بل تظهر طويته كما هو مُشاهد بها ، ولم أر الآن مَنْ نَصَّ على هذا الاحتمال ، وهو فى حفظى قديماً ، ويؤيده ما فى غزوة أحد فى الصحيح من أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى أحد رَجَع ناس من أصحابه — أى وهم المنافقون — فقال صلى الله عليه وسلم : « المدينة كالكِيرِ » الحديثَ ، ولهذا سميت بالفاضحة كما قدمته ، مع أن الذى ظهر لى من مجموع الأحاديث واستقراء أحوال هذه البلدة الشريفة أنها تنفى خبثها بالمعانى الأربعة .

وقوله « وتنصع » بالفوقانية المفتوحة والنون والمهملتين كتمنع — أى تخلص ، والناصع : الخالص الصافى ، و « طيبها » بفتح الطاء والتشديد منصوبا على أنه مفعول هذا هو المشهور فيه ، والله أعلم .

وعيد من أراد أهلها بسوء

وفى صحيح مسلم من حديث جابر فى تحريم المدينة مرفوعا « ولا يريدُ أحَـدٌ أهْلَ المدينة بسوء إلا أذابه الله فى النار ذَوْبَ الرَّصَاصِ ، أو ذوب الملح فى الماء » .

قال عياض : قوله « فى النار » يدفع إشكال الأحاديث التى لم تذكر فيها هذه الزيادة ، ويبين أن هذا حكمه فى الآخرة . قال : وقد يكون المراد به أن مَنْ أرادها فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كُفِيَ المسلمون أمره ، واضمحل كيده كما يضمحل الرصاص فى النار . قال : ويحتمل أن يكون المراد مَنْ كادَهَا اغتيالا

---

(١) من سورة هود من الآية ١١٤ .

وطلبا لغرتها فلا يتم له أمر ، بخلاف مَنْ أتى ذلك جهارا . قال : وقد يكون فى اللفظ تقديم وتأخير : أى أذابه الله كذوب الرصاص فى النار ، ويكون ذلك لمن أرادها فى الدنيا فلا يمهله الله ولا يمكن له سلطانا ، بل يذهبه عن قرب ، كما انقضى شأن مَنْ حاربها أيام بنى أمية مثل مسلم بن عقبة[1]، فأهلك فى منصرفه منها . ثم هلك يزيد بن معاوية مُرْسِلُه على أثر ذلك ، وغيرهما ممن صنع صنيعهما ، انتهى .

وهذا الاحتمال الأخير هو الأرجح ، وليس فى الحديث ما يقتضى أنه لا يتم له ما أراد منهم ، بل الوعد بإهلاكه ، ولم يزل شأن المدينة على هذا حتى فى زماننا هذا لما تظاهرت طائفة العياشى بإرادة السوء بالمدينة الشريفة لأمر اقتضى خروجهم منها حتى أهلك الله تعالى عُتَاتَهم مع كثرتهم فى مدة يسيرة

وقد يقال : المراد من الأحاديث الجمع بين إذابته بالإهلاك فى الدنيا و بين إذابته فى النار فى الأخرى ، والمذكور فى هذا الحديث هو الثانى ، وفى غيره الأول ؛ ففى رواية لأحمد برجال الصحيح من جملةِ حديثٍ « من أرادها بسوء » يعنى المدينة « أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء » وكذا فى مسلم أيضاً ، وفى فضائل المدينة للجندى حديث « أيما جبَّارٍ أراد المدينة بسوء أذابه الله تعالى كما يذوب الملح فى الماء » وفى رواية لمسلم « مَنْ أراد أهْلَ هذه البلدة بسوء — يعنى المدينة — أذابه الله تعالى كما يذوب الملح فى الماء » وفى رواية له أيضا « مَنْ أراد أهْلَ هذه البلدة بدَهْمٍ أو بسوء » ، وروى البزار بإسنادٍ حَسَن حديثَ : « اللهم اكْفِهِمْ مَنْ

---

(١) مسلم بن عقبة المرى : هو الذى سموه فيما بعد « مسرفا » وهو الذى أرسله يزيد بن معاوية لحرب أهل المدينة ، وكانوا قد خلعوا يزيد ، وأخرجوا عامله عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، وأمروا عليهم عبيدالله بن حنظلة ، ووقعة مسلم بأهل المدينة تسمى « وقعة الحرة » وقد مات بالمشلل — وقيل : بثنية هرشى — منصرفه عن المدينة قاصداً مكة لقتال عبدالله بن الزبير بن العوام ، فى سنة ٦٤ من الهجرة .

دَهَمَهم ببأس » يعنى أهل المدينة « ولا يريدها أحَدٌ بسوء إلا أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء » .

وقوله « دهمهم » محركا أى غشيهم بسرعة ، وقوله فى الحديث قبله « بدهم » بفتح أوله وإسكان ثانيه — أى بغائلة وأمر عظيم ، ولذا قيل : المرادُ غازيا مُغيرا عليها .

وفى البخارى حديث « لا يكيد أهلَ المدينةِ أحَدٌ إلا انماع[١] كما يَنْماَع الملح فى الماء » وأسند ابن زَبَالة عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف على المدينة فرفع يديه حتى رؤى عُفرة إبطيه ثم قال « اللهم مَنْ أرادنى وأهلَ بلدى بسوء فعَجِّلْ هَلاَكه » وروى الطبرانى فى الأوسط برجال الصحيح حديث « اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخِفْهُ وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يُقْبَل منه صَرْف[٢] ولا عَدْل » وفى رواية لغيره « مَنْ أخاف أهل المدينة أخافه الله يوم القيامة ، وغَضِبَ عليه ، ولم يقبل منه صَرْفا[٣] ولا عدلا » وروى النسائى حديث « من أخاف أهل المدينة ظالما لهم أخافه الله ، وكانت عليه لعنة الله » الحديث ، ولابن حِبان نحوه ، وروى أحمد برجال الصحيح عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما أن أميرا من أمراء الفتنة قَدِمَ المدينة ، وكان قد ذهب بصرُ جابر ، فقيل لجابر : لو تنحَّيْتَ عنه[٣] ، فخرج يمشى بين ابنيه ، فنكب ، فقال : تَعِسَ مَنْ أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال ابناه ، أو أحَدُهما : يا أبَتِ ، فكيف أخاف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقد مات ؟ فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ أخاف أهْلَ المدينة فقد أخاف ما بين جَنْبَيَّ » .

---

(١) انماع ينماع : ذاب يذوب .

(٢) الصرف — بفتح فسكون — التوبة ، أو الفدية ، أو النافلة ، وسيأتى للشارح تفسيره ص ٤٧ .

(٣) تنحيت عنه : ابتعدت .

قلت : والظاهر أن الأمير المُشَار إليه هو بُسْر بن أرْطَاة

بسر بن أرطأة يغزو المدينة

قال القُرْطبي : ذكر فى رواية ابن عبد البر أن معاوية رضى الله عنه بعد تحكيم الحكمين أرسَلَ بُسْر بن أرْطَاة فى جيش ، فقدموا المدينة ، وعامِلُها يومئذٍ لعلى رضى الله عنه أبو أيُّوبَ الأنصاريُّ — رضى الله عنه ! — ففر أبو أيوب ولحق بعلى ، ودخل بُسْر المدينة ، وقال لأهلها : والله لولا ما عَهِدَ إلى أميرُ المؤمنين ما تركت فيها محتلماً (١) إلاَّ قتلته ، ثم أمر أهلَ المدينة بالبيعة لمعاوية ، وأرسل إلى بنى سلمة فقال : مالكم عندى أمان ولا مبايعة حتى تأتونى بجابر بن عبد الله ، فأخبر جابر ، فانطلق حتى جاء أم سلمة زَوْجَ النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : ماذا تَرَيْنَ فإنى أخشى أن أقتل ، وهذه بيعة ضلال ، فقالت : أرى أن تُبَايِع ، وقد أمرتُ ابْنِى عمر بن أبى سلمة أن يبايع ، فأتى جابر بُسرا فبايعه ، وهدم بسر دورا بالمدينة ، ثم انطلق .

وفى رواية ستأتى فى الفصل الخامس عشر أن أهل المدينة فرُّوا يومئذٍ حتى دخلوا الحرّةَ حَرَّةَ بَنِى سليم (٢) ، والله أعلم .

وفى الكبير للطبرانى حديث « مَنْ آذى أهل المدينة آذاه الله ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يُقْبل منه صَرْف ولا عَدْل » .

وروى ابن النجار حديث « مَنْ أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه الله ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صَرْفا ولا عدلا » والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

وعيد من أحدث بها حدثا

وفى الصحيحين فى أحاديث تحريم المدينة « فمن أحْدَثَ فيها حَدَثا أو آوى مُحْدِثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفا

---

(١) محتلما : أى بالغا .

(٢) وقع فى كل المطبوعات « بشر بن أرطأة » بالشين المعجمة فى كل المواضع — تطبيع ، وانظر ابن الأثير (الكامل ٣/١٦٦ بولاق) .

ولاَ عَدْلاً » ولفظ البخارى « لا يُقْبَلُ منه صرف ولا عدل » قيل : الصَّرْف الفريضة ، والعدل التطوع ، ونقل عن الجمهور ، وقيل عكسه ، وقيل : الصرف التوبة ، والعَدْل الفدية ، قيل : والمعنى لايقبل الله فريضته ونافلته أو توبته قبولَ رِضاً ، ولا يجد فى القيامة فداء يفتدى به من يهودى أو نصرانى ، بخلاف سائر المذنبين ، وقيل غير ذلك ، ومعنى هذا اللَّعْنِ المبالغةُ فى الإبعاد عن رحمة الله تعالى والطَّرْدِ عن الجنة أول الأمر لأنه كلَعْنِ الكفار .

قال القاضى : ومعنى قوله « مَنْ أحْدَثَ فيها حدثا إلى آخره » من أتى فيها إثما أو آوى مَنْ أتاه وضمه إليه وحَمَاه ، وآوى بالمد والقصر ، قال : واستدلوا به على أن ذلك من الكبائر ؛ لأن اللعنة لا تكون إلا فى كبيرة .

قلت : فيستفاد منه أن إثم الصغيرة بها كإثم الكبيرة بغيرها ؛ لِصِدق الإثم بها ، بل نقل الزركشى عن مالك رحمه الله ما يقتضى شمول الحديث المذكور للمكروه كما بيناه فى الأصل ، وذلك لأن الإساءة بحضور الملك ليست كالإساءة فى أطراف المملكة ، وفقنا الله تعالى لحسن الأدب فى هذه الحضرة الشريفة بمنه وكرمه ! !

الفصل الثالث

فى الحث على حفظ أهلها ، وإكرامهم ، والتحريض على الموت بها واتخاذ الأصل[1] .

روينا فى كتاب ابن النجار عن مَعْقل بن يَسَار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة مُهَاجَرِى ، فيها مَضْجَعِى ، ومنها مَبْعَثِى ، حَقِيقٌ على أمتى حفظ جيرانى ما اجتنبوا الكبائر ، مَنْ حفظهم كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة ، ومن لم يحفظهم سُقِىَ من طينة الخبَال » قيل للمزنى : ما طينة الخَبال ؟ قال : عُصارة أهل النار. قلت : قال بعضهم : المراد بالمزنى مَعْقِل بن يسار، وتفسير طينة الخبال بذلك رفَعه مسلم ، والحديث فى الكبير للطبرانى بسند فيه متروك ، الوصية بحفظ أهلها

(١) الأصل : المال ، وانظر ص ٣ الهامشة ١

ولفظه « المدينة مهاجرى[١] ومضجعى فى الأرض ، حق على أمتى أن يكرموا جيرانى ما اجتنبوا الكبائر ، فمن لم يفعل ذلك سقاه الله من طينة الْخَبَال » قلنا : يا أبا يَسَار، وما طينة الْخَبَال ؟ قال : عُصَارة أهل النار .

وروى القاضى أبو الحسن على الهاشمى فى فوائده عن خارجةَ بن زيد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المدينة مُهَاجَرِى[١] وفيها مَضْجَعى ، ومنها مَخْرَجِى ، حَقٌّ على أمتى حِفْظُ جيرانى فيها ، مَنْ حفظ وصيتى كنت له شهيداً يوم القيامة ، ومن ضَيَّعها أورده الله حوض الخبال ، قيل : وما حوض الخبال يارسول الله ؟ قال: حوض من صَدِيدِ أهل النار » .

وروى ابن زَبَالة عن عطاء بن يسار وغيره حديث « إن الله جعل المدينة مُهَاجَرِى[١] ، وبها مضجعى ، ومنها مبعثى ، فحقّ على أمتى حفظ جيرانى ما اجتنبوا الكبائر ، فمن حفظ فيهم حرمتى كنت له شفيعاً يوم القيامة ، ومن ضيع فيهم حرمتى أورَدَه الله حوض الْخَبَال » . وفى رواية له « المدينة مُهَاجرى[١] ، وبها وفاتى ، ومنها مَحْشَرى ، وحَقِيقٌ على أمتى أن يحفظوا جيرانى ما اجتنبوا الكبيرة ، مَنْ حفظ فيهم حرمتى كنت له شهيد أو شفيعاً يوم القيامة » .

وفى مَدارك عِياض قال محمد بن مسلمة : سمعت مالكا يقول : دخلت على المهدىّ فقال : أوصِنِى ، فقلت : أوصيك بتَقْوَى الله وحْدَهُ ، والعَطْفِ على أهل بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيرانه ؛ فإنه بَلَغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المدينة مُهَاجَرِى[١] ، ومنها مبعثى ، وبها قبرى ، وأهلُها جيرانى ، وحقيقٌ على أمتى حفظ جيرانى ؛ فمن حفظهم فىّ كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة ، ومن لم يحفظ وصيتى فى جيرانى سقاه الله من طينة الخبال » .

---

(١) مهاجرى — بضم الميم وفتح الجيم — موضع هجرتى

وروى مالك فى الموطأ أن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالساً وقَبْرٌ يُحْفَرُ بالمدينة ، فاطَّلَعَ رجل فى القبر فقال : بئس مضجع المؤمن ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بئس ما قلت » قال الرجل : إنى لم أرد هذا ، إنما أردتُ القتلَ فى سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا مِثْلَ للقتل فى سبيل الله ، ما على الأرض بُقْعَة أحب إلىّ من أن يكون قبرى بها منها » يعنى المدينة ، ثلاث مرات[1] .

وروى ابن شَبَّة فى أخبار مكة عن سعيد بن أبى هند قال : سمعت أبى يذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان إذا دخل مكة قال : اللهم لا تجعل منايانا[2] بمكة حتى تخرج منها » ورواه أحمد فى مسنده برجال الصحيح عن ابن عمر مرفوعاً ، إلا أنه قال « حتى تُخْرِجَنَا منها » .

وروى مالك والبخارى ورُزَين العَبْدَرِى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اللهم ارزقنى شهادةً فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك ، زاد رزين أن ذلك كان من أجلّ[2] دعاء عمر .

وسَبَقَ ما جاء فى أن الإنسان يُدْفَن فى التربة التى خلق منها ؛ فالنبى صلى الله عليه وسلم وأكثر أصحابه وأفضلهم خلقوا من تربة المدينة ، وقد ثبت حديث « من مات بالمدينة كنت له شفيعاً يوم القيامة » ورواه البيهقى بلفظ « من استطاع أن يموت بالمدينة فَلْيَمُتْ ، فمن مات بالمدينة كنت له شفيعاً وشهيداً » وفى رواية له « فإنه مَنْ يَمُتْ بها أَشْفَعْ له ، أو أشهد له » وقد ذكر هذه الرواية ابنُ حِبَّان فى صحيحه .

وروى الترمذى وابن حبان فى صحيحه وابن ماجَةَ والبيهقى وعبد الحق

---

(١) انظر الموطأ (ص٦٢ ٤ ط الحلبى) قال ابن عبدالبر : هذا الحديث لا أحفظه مسندا ، ولكن معناه موجود من رواية مالك وغيره .

(٢) المنايا : جمع منية ، وهى الموت . (٢) أجل دعاء عمر : أكثره وأعظمه .

وصححه حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمُتْ بهـا ، فإنى أشفع لمن يموت بها » ولفظ ابن ماجة « فإنى أشهد » بدل « فإنى أشفع » ورواه الطبرانى فى الـكبير بسند حسن ، ولفظه « من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت ؛ فإنه من مات بها كنت له شهيداً — أو شفيعاً — يوم القيامة » ورواه ابن رزين بنحوه ، وزاد « وإنى أول من تَنْشَقُّ عنه الأرض ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم آتى أهل البقيع فيحشرون ، ثم أنتظر أهل مكة فأحشر بين أهل الحرمين » وفى روايه لابن النجار « فأخرج أنا وأبو بكر وعمر إلى البقيع فيبعثون ، ثم يبعث أهل مكة » .

وروى الطبرانى حديث « أول من أشفع له من أمتى أهل المدينة ، ثم أهل مكة ، ثم أهل الطائف » وأخرجه الترمذى بالواو بدل ثم ، وسيأتى فى فضل البقيع زيادة تتعلق بذلك .

وبالجملة فالترغيب فى الموت فى المدينة لم يثبت مثلُه لغيرها ، والسكنى بها وُصلة إليه ؛ فيكون ترغيباً فى سكناها ، وتفضيلا لها على غيرها ، واختيـار سكناها هو المعروف من حال السلف ، ولا شك أن الإقامة بالمدينة فى حياته صلى الله عليه وسلم أفضلُ إجماعاً ، فنستصحب ذلك بعد وفاته حتى يثبت إجماع مثله برفعه .

وأسند ابن شَبَّة فى أخبار مكة عن إسماعيل بن سالم قال : سألت عامراً عن فُتْيا أفتى بها حبيب بن أبى ثابت ، فقال : ألا يفتى حبيب نفسه حيث نزل مكة وهى قرية أعرابية ، ولأن أنزل دوران[1] أحب من إلىّ من أن أنزل مكة ، وهى قرية هاجر منها النبى صلى الله عليه وسلم .

وعن الشعبى أنه كان يكره المقام بمكة ، ويقول : هى دار أعرابية ، هاجر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : ألا يفتى حبيب نفسه حيث يجاور بمكة وهى دار أعرابية ، وقال عبد الرزاق فى مصنفه : كان أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم يحجون ثم يرجعون ، ويعتمرون ثم يرجعون ، ولا يجاورون .

---

(١) دوران كحوران : عند طرف قديد ، ذكره المصنف فى خلاصة الوفا ٢١ .

قلت: ولم أظفر عن السلف بنقل فى كراهة المجاورة بالمدينة الشريفة ، بخلاف مكة ، لـكن اقتضى كلام النووى فى شرح مسلم حكاية الخلاف فيها ، وكأنه قاس المدينة على مكة من حيث إن علة الـكراهة وهى خوف الملل وقلة الحرمة للأنس وخوف ملابسة الذنوب لأن الذنب بها أقبح ، ونحوه موجود بالمدينة ، ولهذا قال : والمختار أن المجاورة بهما جميعاً مستحبة إلا أن يَغْلِبَ على ظنه الوقوع فى المحذورت المذكورة .

وقال الزركشى عقب نقل كلام النووى : إن الظاهر ضعف الخلاف فى المدينة : أى لما قدمناه من الترغيب فيها ، ولأن كل من كره المجاورة بمكة استدل بترك الصحابة الجوار بها ، بخلاف المدينة فكانوا يحرصون على الإقامة بها ، وقد روى الطبرانى فى الأوسط حديث « من غاب عن المدينة ثلاثة أيام جاءها وقلبه مُشْرَبٌ جَفْوَةً » وأسـند ابن أبى حثمة حديث « من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به ، ومن لم يكن له بها أصل فليجعل له بها أصلا ولو قَصَرَةً » قال ابن الأثير: القصرة محركة أصل الشجرة ، أى ولو نخلة واحـدة ، والقصرة أيضـاً : العنق ، وقال الخطابى: القصرة النخلة ، وقرأ الحسن «إنها ترمى بشرر كالقصر» وفسروه بأعناق النخل ، ورواه الطبرانى فى الـكبير بلفظه إلى قوله « فليجعل له بها أصلا » وقال عقبهُ: « فليأتين على الناس زمان يكون الذى ليس له بها أصل كالخارج منها المجتاز إلى غيرها» ورواه ابن شبة أيضا بنحوه ، ثم أسند عن الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاتتخذوا الأموال بمكة ، واتخذوها فى دار هجرتكم ؛ فإن المرء مع ماله » وأسند أيضا عن ابن عمر حديث « لاتتخذوا من وراء الروحاء مالا ، ولا تردوا على أعقابـكم بعد الهجرة ولا تُنْـكِحُوا بناتكم طُلَقَاء أهل مكة ، وأنكحوهن بأترابهن فأترابهن» أى مستويات فى السن فى ثلاث وثلاثين سنة .

وهذا كله متضمن للحث على سكنى المدينة وتفضيله على سكنى مكة ، وهى جديرة بذلك ؛ لأن الله تعالى اختارها لنبيه صلى الله عليه وسلم قَرَارا ، وجعل أهلَها

شيعةً له وأنصارا ، وكانت لهم أوطانا ، ولو لم يكن إلا جواره صلى الله عليه وسلم بها وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما زال جبريل يوصيني بالجار » الحديث[1] ، ولم يخصَّ جارا دون جار ، ولا يخرج أحد عن حكم الجار وإن جارَ، ولهذا اخترتُ تفضيلَ سكناها على مكة ، مع تسليم مزيد المضاعفة لمكة ؛ إذ جهة الفضل غير منحصرة في ذلك ؛ فتلك لها مزيد العَدَد ، ولهذه تضاعُف البركة والمدد ، ولتلك جوار بيت الله ، ولهذه جوار حبيب الله وأكرم الخلق على الله ، سر الوجود ، والبركة الشاملة لكل موجود

قال عياض في المدارك : قال مُصْعَب : لما قدم المهديُّ المدينةَ استقبله مالك وغيره من أشرافها على أميال ، فلما بصر بمالك انحرف المهديُّ إليه فعانقه وسلم عليه وسايره ، فالتفت مالك إلى المهدي فقال : ياأميرالمؤمنين، إنك تدخل الآن المدينة فتمرُّ بقوم عن يمينك ويسارك ، وهم أولاد المهاجرين والأنصار ، فسلِّم عليهم ؛ فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة ، ولا خير من المدينة ، قال : ومن أين قلت ذلك يا أبا عبد الله ؟ فقال : إنه لا يعرف قبر نبيّ اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن كان قبر محمد صلى الله عليه وسلم عندهم فينبغي أن يعرف فضلهم على غيرهم ، ففعل المهدي ما أمره به ، فأشار مالك — رحمه الله — إلى أن المقتضيَ للتفضيل هو وجود قبر النبي صلى الله عليه وسلم بها ، ومجاورة أهلها له

الفصل الرابع

حب النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة

في بعض دعائه صلى الله عليه وسلم لها ولأهلها ، وما كان بها من الوباء ، ونَقْله

روينا في الصحيحين حديث « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » ورواه رزين العبدري والجندي بالواو بدل «أو» مع أن أو في تلك الرواية بمعنى بل ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم في محبة المدينة مالم يرد مثله لمكة ؛ ففي صحيح

(١) تتمته « حتى ظننت أنه سيورثه » .

البخارى وجامع الترمذى حديث «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سَفر فنظر إلى جُدران المدينة أوْضَعَ راحلته[1]، و إن كان على دابةٍ حركها من حبها» وفى روايه لابن زبالة «تباشُراً بالمدينة» ، وفى رواية له «كان إذا أقبل من مكة فكان بالأثاية طرح رداءه عن منكبيه وقال : هذه أرواح طَيْبة» وقد تكرر دعاؤه صلى الله عليه وسلم بتحبيب المدينة إليه كما سيأتى ، والظاهر أن الإجابة حصلت بالأول ، والتكرير لطلب الزيادة ، وفى كتاب الدعاء للمحاملى وغيره عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه «كان إذا قدم من سفر من أسفاره فأقبل على المدينة يسير أتم السير ، و يقول : اللهم اجعل لنا بها قَرَاراً ، ورزقا حسنا»

دعاؤه صلى الله عليه وسلم للمدينة بالبركة

وفى الصحيحين حديث «اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَىْ ما جعلت بمكة من البركة» . وفى مسلم «اللهم بارك لنا فى تمرنا ، و بارك لنا فى مدينتنا ، و بارك لنا فى صاعِنا ، و بارك لنا فى مُدِّنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، و إنى عبدك ونبيك ، و إنه دعاك لمكة ، وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه» وفيه أيضا «اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، اللهم بارك لنا فى صاعِنا ، اللهم بارك لنا فى مدِّنا ، اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، اللهم اجْعَلْ مع البركة بركتين» وفيه أيضا وفى الترمذى حديث «كان الناسُ إذا رأوا أولَ الثمرة جاءوا به إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا أخذه قال : اللهم بارك لنا فى تمرنا ، و بارك لنا فى مدينتنا ، و بارك لنا فى صاعنا ، و بارك لنا فى مدنا» الحديثَ ، وهو يقتضى تكرر هذا الدعاء بتكرر ظهور الثمرة والإتيان بأولها ، وفى الترمذى ــ وقال : حسن صحيح ــ عن على رضى الله عنه «خَرَجْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بحرة السقيا التى كانت لسعد بن أبى وَقّاصٍ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتونى بوَضُوء ، فتوضأ ثم قام فاستقبل القبلة فقال : اللهم إن إبراهيم كان عبدك

(١) الإيضاع : الإسراع ، والمراد أنه كان يحملها على السرعة .

وخليلك ، ودعاك لأهل مكة بالبركة ، وأنا عبدُك ورسولُكَ أدعوك لاهل المدينة أن تبارك لهم فى مُدِّهم وصاعهم مِثْلَىْ ما باركت لأهل مكة ، مع البركة بركتين » ورواه ابن شَبَّة فى أخبار مكة بنحوه ، إلا أنه قال: « حتى إذا كنا بالحرة بالسقيا التى كانت لسعد بن أبى وقاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتونى بوَضُوء ، فلما توضأ قام فاستقبل القبلة ثم قال » الحديثَ بنحوه ، ورواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد ، ولفظه « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كنا عند السقيا التى كانت لسعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك دعاك لأهل مكة بالبركة ، وأنا محمد عبدك ورسولك و إنى أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى صاعهم ومدهم مثل ما باركت لأهل مكة ، واجعل مع البركة بركتين » هكذا فى النسخة التى وقعت لنا ، ولعله « مِثْلَىْ » كما فى الرواية السابقة ، و يؤخذ منه الإشارة إلى أن المدعو به ستة أضعاف ما بمكة من البركة ، وفى حديث رواه ابنُ زَبَالة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم « خرج إلى ناحية من المدينة ، وخرجتُ معه ، فاستقبل القبلة ورفع يديه حتى إنى لأرَى بياضَ ما تحت منكبيه ، ثم قال : اللهم إن إبراهيم نبيك وخليلك دعاك لأهل مكة ، وأنا نبيك ورسولك أدعوك لأهل المدينة ، اللهم بارك لهم فى مُدِّهم وصاعِهم ، وقليلهم وكثيرهم ، ضِعْفَىْ ما باركت لأهل مكة ، اللهم من هٰهنا وهٰهنا وهٰهنا ، حتى أشار إلى نواحى الأرض كلها ، اللهم مَنْ أرادهم بسوء فأذِبْهُ كما يذوب الملح فى الماء » وفى الأوسط للطبرانى ورجالُه ثقاتٌ عن ابن عمر قال : « صَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفَجْرَ ، ثم أقبل على القوم فقال : اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى مدنا وصاعنا » الحديثَ ، وفى الكبير له ورجالُه ثقاتٌ عن ابن عباس نحوه ، وروى أحمد والبزار و إسناده حسن عن جابر قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر يوما إلى الشام فقال: اللهم أقْبِلْ بقلوبهم ، ونظر إلى العراق فقال : اللهم مثل ذلك ، ونظر قبل كل أفق فَفَعَلَ ذلك ، وقال :

اللهم ارْزُقنا من ثمرَاتِ الأرض ، وبارك لنا فى مدنا وصاعنا » وفى الصحيحين حديث « اللهم بارك لهم فى مِكْيَالهم، وبارك لهم فى صاعهم ، و بارك لهم فى مدهم » قال القاضى فى الكلام عليه : البركة هنا بمعنى النُّمُوّ والزيادة ، وتكون بمعنى الثبات ، فقيل : يحتمل أن تكون هذه البركة دينية ، وهى ما تتعلق بهذه المقادير فى الزكاة والكفارات ؛ فتكون بمعنى الثباتِ لثبَاتِ الحكم بها و بقائه ببقاء الشريعة ، ويحتمل أن تكون دنيوية من تكثير الكيل والقَدْر بهذه الأكيال حتى يكفى منه مالا يكفى من غيره فى غير المدينة ، أو ترجع البركة إلى كثرة مايكال بها من غَلاَّتها وثمراتها ، وفى هذا كله ظهر إجابة دعوته صلى الله عليه وسلم ، وقال النووى : الظاهر أن المراد البركة فى نفس المكيل فى المدينة ، بحيث يَكفى المد فيها لمن لا يكفيه فى غيرها . قلت : هذا هو الظاهر فيما يتعلق بأحاديث الكيل ، وأما غيرها فعلى عمومه فى سائر الأمور الدينية والدنيوية . وروينا فى فضائل المدينة للجندى حديث : « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ ، كحبنا مكةَ وأشد ، وصَحِّحْها لنا ، وبارك لنا فى مُدِّها وصاعها ، وانقل حُمَّاها ، واجعلها بالُجحْفة » وروى أحمد برجال الصحيح عن أبى قتَادة أن النبى صلى الله عليه وسلم « صَلَّى بأرض سعد بأصل الحرة عند بيوت السقيا ، ثم قال : اللهم إن إبراهيم خليلك وعبدك ونبيك دعاك لأهل مكة ، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مِثْلَ مادعاك به إبراهيم لمكة ، أدعوك أن تبارك لهم فى صاعهم ومدهم وثمارهم ، اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة ، واجعل مابها من وباء بَخُمّ »[1] الحديثَ ، وقوله «بخم» بضم الخاء المعجمة وتشديد الميم ـ مكان قرب الُجحْفة كما سيأتى فى موضعه ، وروى ابن زبالة حديث « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ وُعِكَ فيها أصحابه » وفيه « فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، ثم رفع يده ، ثم قال : اللهم انْقُلْ عنا الوباء » فلما أصبح قال :

(١) فى القاموس : «وغدير خم موضع على ثلاثة أميال بالجحفة بين الحرمين ، أوخم اسم غيضة هناك بها غدير ماء سم لم يولد بها أحد فعاش إلى أن يحتلم إلا أن ينتقل منها» .

أتيت هذه الليلة بالحمى ، فإذا بعجوز سوداء مُلَبَّبة فى يدَى الذى جاء بها ، فقال : هذه الحمى ، فما ترى فيها ؟ فقلت : اجعلوها بُخَمّ » .

الدعاء بنقل وبائها

وفى مسلم حديث عن عائشة رضى الله عنها : « قدمنا إلى المدينة وهى وَبِيئة فاشتكى أبو بكر ، واشتكى بلال ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوى أصحابه قال : « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كما حببت مكة أو أشد ، وصححها ، و بارك لنا فى صاعها ومدها ، وحَوِّلْ حُمَّاها إلى الْجُحْفَة » .

وهو فى البخارى بلفظ « لما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وُعِك أبو بكر و بلال — رضى الله عنهما ! — وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كُلُّ امرىء مُصَبَّحٌ فى أهله والموت أدنى من شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا قلع عنه يرفع عَقِيرتَه[1] و يقول :

ألا لَيْتَ شِعْرِى هل أبيتَنَّ ليلةً بوادٍ وحولى إذْخِرٌ وجَلِيلُ
وهل أرِدَنْ يوما مياه مِجَنَّةٍ وهل يَبْدُوَنْ لى شَامَة وطَفِيلُ

اللهم الْعَنْ شَيْبة بن ربيعة وعُتْبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كحبنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لنا فى صاعنا وفى مُدِّنا ، وصححها لنا ، وانقل حُمَّاها إلى الْجُحْفة » قالت : وقدمنا المدينة وهى أو بأ أرض الله ، وكان بطحان يجرى نجلا ، تعنى ماء آجنا[2] .

ورواه فى الموطأ بزيادة : « وكان عامر بن فهيرة يقول :

قدْ ذُقْتُ طعم الموتِ قبلَ ذَوْقِهِ إن الجبانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

ورواه ابن إسحاق بزيادة أخرى ، ولفظه « لما قَدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة قَدِمها وهى أو بأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابَهُ منها بلاء وسَقَم ، وصرفه الله عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، قالت : فكان أبو بكر وعامر

---

(١) قلع عنه : ذهب عنه بحران الحمى ، ورفع عقيرته : رفع صوته .
(٢) بطحان : واد بالمدينة ، والماء الآجن : المتغير لونه وطعمه .

ابن فهيرة و بلال مولى أبى بكر مع أبى بكر فى بيتٍ واحد ، فأصابتهم الحمى ، فدخلتُ عليهم أعُودُهم ، وذلك قبل أن يُضْرَب الحجاب ، ولهم مالا يعلمه إلا الله من شـدَّة الوَعْك ، فدنوت من أبى بكر ، فقلت : كيف تجدك يا أبت ؟ أى كيف تجـد نفسك ، فقال * كل امرىء * البيت المتقدم ، فقلت : والله ما يدرى أبى ما يقول ، ثم دنوتُ إلى عامر بن فهيرة ، فقلت : كيف تجـدك ياعامر ؟ فقال :

لقد وَجدْتُ الموتَ قبـل ذَوْقِهِ   إن الجبان حَتْفُه من فَوْقِهِ
كل امرىء مُجاهِـدٌ بطوْقِهِ   كالثور يحمى جِـلْدَهُ برَوْقِهِ (١)

قالت : فقلتُ مايدرى عامر مايقول ، وقالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عَقِيرته وقال : * ألا ليت شعرى * البيتين .

ورواه ابن زَبَالة بلفظ « لما قَدِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ وُعِكَ أصحابه ، فخرج يعود أبا بكر، فوجده يَهْجُر (٢) ، فقال : يا رسول الله * لقد لَقيتُ الموتَ قبل ذَوْقِهِ * البيتَ المتقدم ، فخرج من عنـده ، فدخل على بلال فوجده يَهْجُر وهو يقول * ألا ليت شعرى * البيتين المتقدمين ، ودخل على أبى أحمد بن جَحْش فوجده مَوْعُوكا ، فلما جلس إليه قال :

واحبـذا مَـكَّةُ مِنْ وَادِى   أرض بهـا تَـكْـثُرُ عُوّادِى
أرْضٌ بها تُضْرَبُ أوتادى   أرض بها أهـلى وأولادى
* أرض بها أمشى بلا هَادِى *

فخرج رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، فدعا أن يُنْقَلَ الوَبَاء من المدينة فيجعله بخم .

وفى رواية له أنه « أمَرَ عائشة بالذهاب إلى أبى بكر ومَوْلَيَيْه ، وأنها رجعت

---

(١) روق الثور ـ بفتح الراء وسكون الواو ـ قرنه ، وسيذكره المؤلف .
(٢) يهجر ـ بوزن ينصر ـ أى يهذى ويخلط فى كلامه .

وأخبرته بحالهم ، فـكره ذلك ، ثم عمد إلى بقيع الخيل ــ وهوسوق المدينة[1] ــ فقام فيه ووجْهُه إلى القبلة ، فرفع يديه إلى الله فقال : « اللهمَّ حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لأهل المدينة فى سُوقهم ، و بارك لهم فى صاعهم ، و بارك لهم فى مُدِّهم ، اللهم انقل ما كان بالمدينة من و باء إلى مهيعة »

قوله « رفع عقيرته » أى صوته ، وقوله « بواد » روى « بفخ » وهو وادى الزاهر، والجليل ــ بالجيم ــ الثمام، ومجنة ــ بكسر الميم وفتحها ــ سوق بأسفل مكة ، وقال الأصمعى : بمر الظهران ، وشامة وطفيل : جبـلان يُشْرِفانِ على مجنة ، قاله ابن الأثير ، قال : و يقال « شابة » بالباء الموحدة ، وهوجبل حجازى ، قال المحب الطبرى : وروايته بالباء الموحدة بخط شيخنا الصاغانى ، وكتب عليها صح ، وقال الطبرى : والأشهر أنهما جَبَلان على مراحل من مكة من جهة اليمن ، وقال الخطابى : عينان . وقوله « بطَوْقِهِ » أى بطاقته ، وقوله « برَوْقِهِ » أى بقَرْنه ، و « مهيعة » هى الجحفة أحَدُ المواقيت المشهورة ، وخم : بقربها ، و إنمـا دعا صلى الله عليه وسلم بنقل الحمى إليها لأنها كانت دار شرك ، ولم تزل من يومئذ أكثر بلاد الله حمى ، قال بعضهم : و إنه ليُتقى شرب الماء من عينها التى يقال لها عين خم ، فقلَّ مَنْ شرب منها إلا حُمَّ .

وروى البيهقى حديث عائشة من طريق هشام بن عُروة عن أبيه ، وفيه «قال هشام : فكان المولود يُولدُ بالجحفة فلا يبلغ الحلم حتى تُصْرِعَه الحمى[2] »

وقال الخطابى : كان أهل الجحفة إذ ذاك يهودا ، وقيل : إنه لم يبق أحد من أهلها إلا أخذته الحمى .

قال النووى : وهذا عَلَمٌ من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، فإن الجحفة من يومئذ وَبِيَة ، ولا يشرب أحد من مائها إلا حم .

---

(١) بقيع الخيل ، وهو سوق المدينة ، هو الذى يعرف اليوم بسوق المناخة (مكى)

(٢) تضرعه : تخضعه وتذله ، والمراد أنها تضعفه أشد الضعف .

و بطحان : من أودية المدينة كما سيأتى ، والماء الآجن : المتغير الطعم واللون .

الوباء بالمدينة جاهلى قديم

واتفق أهل الأخبار أن الوباء بالمدينة كان شديداً ، حتى روى ابن إسحاق عن هشام ابن عُرْوة قال : كان وباؤها معروفاً فى الجاهلية، وكان الإنسان إذا دخلها وأراد أن يَسْلَم من وبائها قيل له : انهق ، فينهق كما ينهق الحمار .

وفى دلائل النبوة من طريق هشام عن أبيه عن عائشة قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةوهى أو بأأرض الله ، ووادیها بُطْحَانُ نَجِلٌ يجرى عليه الأثل» قال هشام : وكان وباؤها معروفاً فى الجاهلية ، وكان إذا كان الوادى وَبِيًّا فأشرف عليه الإنسان قيل له : انهق نهيقَ الحمارِ ، فإذا فعل ذلك لم يضره وباء ذلك الوادى ، قال الشاعر حين أشرف على المدينة :

لعمرى لئن عشّرت من خِيفَةِ الرَّدَى * نهيقَ الحمار إننى لَجَزُوعُ

قالت عائشة : فاشتكى أبو بكر ، الحديثَ .

ثنية الوداع

وروى ابن شَبَّة عن عامر بن جابر قال : كان لا يدخل المدينة أحد إلا من طريق واحد ، من ثَنِيَّة الوَداع ، فإن لم يُعَشِّرْ بها — أى: يَنْهقُ كالحمار عشرة أصوات فى طَلَقٍ واحد — مات قبل أن يخرج منها ، فإذا وقف على الثنية قيل : قد ودع ، فسميت ثنية الوَدَاع ، حتى قدم عُرْوة بن الوَرْد العبسى ، فقيل له : عشر بها ، فلم يعشر ، وأنشأ يقول :

لعمرى لئن عشّرت من خشية الردى * نُهَاقَ الحمار إننى لجزوع

ثم دخل فقال : يا معشر يهود ، ما لكم وللتعشير؟ قالوا : إنه لا يدخلها أحد من غير أهلها فلم يُعَشِّرْ بها إلا مات ، ولا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع إلا قتله الْهزَال ، فلما ترك عروة التعشير تركه الناس ودخلوا من كل ناحية .

تحويل الوباء من دلائل النبوة

وتحويل الوباء من أعظم المعجزات ؛ إذ لا يقدر عليه جميع الأطباء ، وفى البخارى حديث « رأيتُ امرأةً سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة ، فتأولتها أن وباء المدينة نُقِل إلى مهيعة » وفى الأوسط للطبرانى نحوه ، وفى

كتاب ابن زَبالةَ «أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فجاءه إنسان كأنه قدم من ناحية طريق مكة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هل لقيت أحداً ؟ قال: لا ، إلا امرأة سوداء عُرْيانةً ثائرة الشعر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الحمى ، ولن تعود بعد اليوم أبداً » وفيه أيضاً حديث « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة ، وانقل وباءها إلى مهيعة ، وما بقى منه فاجعله تحت ذنب مشعط » وحديث « إنْ كان الوباء فى شىء من المدينة فهو فى ظل مشعط » . قال المجد : هو جبل أو موضع بالمدينة . قلت : سيأتى عن ابن زبالة فى المنازل أن بنى حُدَيلة ابتنوا أُطُمَيْن أحدهما يقال له «مشعط» كان موضعه فى غربى مسجد بنى حُدَيلة[1] ،وفى موضعه بيت يقال له بيت أبى نبيه ، ثم أورد عقبه الحديث المذكور ، فأفاد أنه هو المراد ، وفيه أيضاً حديث « أصح المدينة من الحمى ما بين حَرَّة بنى قريظة والعريض » وهو يؤذن ببقاء شىء من الحمى بالمدينة ، وأن الذى نقل عنها أصلا ورأساً سلطانها وشدتها ووباؤها وكثرتها بحيث لا يعد ما بقى بالنسبة إليه شيئاً ، ويحتمل أنها رفعت أولا بالكلية ، ثم أعيدت خفيفة لئلا يفوت ثوابها كما أشار إليه الحافظ ابن حجر ، ويدل له ماروى أحمد برجال الصحيح وأبو يَعْلىٰ وابن حِبَّان فى صحيحه عن جابر « استأذَنَتِ الحمّى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : مَنْ هذه ؟ فقالت : أم مِلْدَم ، فأمر بها إلى أهل قباء ، فَلَقُوا ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، فأتوه فشكوا ذلك إليه ، فقال : ما شئتم ، إن شئتم دعوت الله ليكشفها عنكم ، وإن شئتم تكون لكم طَهُورا ، قالوا: أو تفعل؟ قال : نعم، قالوا : فَدَعْهَا » ورواه الطبرانى بنحوه ، وقال فيه « إن شئتم تركتموها وأسقطت بقية ذنوبكم ، قالوا : فَدَعْهَا يارسول الله » وروى أحمد ورجاله ثقات حديثَ « أتانى جبريل بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة ، وأرسلت الطاعون بالشام ، فالطاعون شهادة لأمتى ورحمة لهم ورجْزٌ على الكفار » والأقرب أن هذا كان فى آخر الأمر بعد نقل

(١) مسجد بنى حديلة : داخل البقيع على يمين الداخل من بابه متصل بسورة؛ يكون فى زقاق سيدنا إسماعيل (مكى) .

الحمى بالـكلية ، لـكن قال الحافظ ابن حجر : لما دخل صلى الله عليه وسلم المدينة كان فى قلة من أصحابه ، فاختار الحمى لقلة الموت بها على الطاعون لما فيها من الأجر الجزيل ، وقضيتها إضعاف الأجساد ، فلما أمر بالجهاد دعا بنقـل الحمى إلى إلى الجُحفة ، ثم كانوا من حينئذ مَنْ فاتته الشهادة بالطاعون ربما حصلت له بالقتل فى سبيل الله ، ومن فاته ذلك حصلت له الحمى التى هى حظ المؤمن من النار ، ثم استمر ذلك بالمدينة ، يعنى بعد كثرة المسلمين تمييزاً لها على غيرها ، انتهى ، وهو يقتضى عود شىء من الحمى إليها بآخرة الأمر ، والمشاهد فى زماننا عدم خلوها عنها أصلا ، لـكنه كما وصف أولا ، بخلاف الطاعون ، فإنها محفوظة عنه بالـكلية كما سيأتى ، والأقرب أنه صلى الله عليه وسلم لما سأل ربه تعالى لأمته أن لا يلبسهم شِيَعاً ولا يُذِيق بعضَهم بأسَ بعض فمنعـه ذلك فقال فى دعائه « فحمى إذا أو طاعوناً » أراد بالدعاء بالحمى للموضع الذى لا يدخله طاعون كما سنشير إليه فى الفصل الآتى ؛ فيكون ما بالمدينة اليوم ليس هو حمى الوباء ، بل حمى رحمةٍ بدعائه صلى الله عليه وسلم كما سنوضحه ، والله أعلم .

الفصل الخامس

فى عصمتها من الدجال والطاعون

حراسة المدينة من الدجال والطاعون

روينا فى الصحيحين وغيرهما حديث « على أنقابِ المدينة[1] ملائكة يحرسونها ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » وفيهما أيضا حديث « ليس من بلد إلا سيطؤها الدجال ، إلا مكة والمدينة ، ليس نَقْبٌ[1] من أنقابها إلا عليه ملائـكة صافين يحرسونها ، فينزل السبخة ، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، فيخرج إليه كل كافر ومنافق » وفى رواية « فيأتى سبخة الجُرف ، فيخرج إليه كل منافق ومنافقة » وفى البخارى حديث « لا يدخل المدينة رُعْبُ المسيخ ، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب مَلَـكَانِ » وفى مسلم حديث « يأتى المسيخ من قبل المشرق

---

(١) الأنقاب : جمع نقب ، وهو الطريق فى الجبل .

وهمته المدينة حتى ينزل دبر أحد ، ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام ، وهناك يهلك » وفى الصحيحين « قصة خروج الرجل الذى هو خير الناس ، أو من خير الناس ، من المدينة إلى الدجال إذا نزل بعض سباخها فيقول له : أشهد أنك الدجال الذى حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » الحديثَ بطوله .

قال معمر فيما رواه أبو حاتم : يرون هذا الرجل هو الخضر عليه السلام .

وروى أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: «أشْرَفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على فَلَق [1] من أفلاق الحرة ونحن معه ، فقال : نعم الأرض المدينة ، إذا خرج الدجال ، على كل نَقْبٍ من أنقابها مَلَكٌ لا يدخلها ، فإذا كان ذلك رجفت المدينة بأهلها ثلاث رجفات لا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، وأكثرهم – يعنى من يخرج إليه – النساء ، وذلك يوم التخليص ، ذلك يوم تنفى المدينة الخبثَ كما ينفى الكيرُ خبثَ الحديد ، يكون معه سبعون ألفاً من اليهود ، على كل رجل منهم ساج وسيف محلًّى ؛ فيضرب قبته بهذا المضرب الذى بمجتمع السيول» الحديثَ بطوله ، ولفظ الطبرانى « يا أهل المدينة ، اذكروا يوم الخلاص ، قالوا : وما يوم الخلاص ؟ قال : يُقْبِلُ الدجال حتى ينزل بذباب ، فلا يبقى فى المدينة مشرك ولا مشركة ، ولا كافر ولا كافرة ، ولا منافق ولا منافقة ، ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، ويخلص المؤمنون ، فذلك يوم الخلاص » وروى أحمد برجال الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوم الخلاص ، وما يوم الخلاص ؟ ثلاثا ، فقيل له : وما يوم الخلاص ؟ قال : يجىء الدجال فيصعد أحدا فيقول لأصحابه : أترون هذا القصر الأبيض ؟ هذا مسجد أحمد ، ثم يأتى المدينة فيجد بكل نَقْبٍ منها ملكا مُصْلِتاً ، فيأتى سبخة الجرف ، فيضرب رِواقه ، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات ، فلا يبقى منافق ولا منافقة ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، فذلك يوم الخلاص» وقال الحافظ

(١) الفلق – بالتحريك – المطمئن من الأرض بين ربوتين ، ويجمع على فلقان.

ابن حجر : إن أحمد والحاكم أخرجا من رواية محجن بن الأدرع رفعه « يجىء الدجال فيصعد أحدا فيطلع فينظر إلى المدينة فيقول لأصحابه : ألا ترون إلى هذا القصر الأبيض ؟ هذا مسجد أحمد ، ثم يأتى المدينة فيجد فى كل نَقْب من أنقابها مَلَكا مُصْلِتا سيفَه » و بقيته بلفظ الحديث المذكور ، إلا أنه قال فى آخره : « فتخلص المدينة ، فذلك يوم الخلاص » والمراد بالرواق الفُسْطَاط ، ولابن ماجة من حديث أبى أمامة « ينزل عند الطريق الأحمر عند منقطع السبخة » ولأحمد من حديث ابن عمر « ينزل الدجال فى هذه السبخة بِمَرّقَنَاة » أى ممرها ، وفى عقيق المدينة للزبير بن بكار عن أبى هريرة « ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجتمع السيول، فقال : ألا أخبركم بمنزل الدجال من المدينة ؟ ثم قال : هذا منزله ، يريد المدينة ، لا يستطيعها ، يجدها متمنطقة بالملائكه ، على كل نَقْبٍ من أنقابها مَلك شاهر سلاحه ، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون ، فيزلزل بالمدينة و بأصحاب الدجال زلزلة ، لا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، وأكثر من يتبعه النساء ، فلا يعجز الرجل أن يمسك سفيهته » .

قلت : يستفاد منه أن المراد من قوله فى الأحاديث المتقدمة : فترجف المدينة يعنى بسبب الزلزلة ؛ فلا يشكل بما تقدم من أنه لا يدخل المدينة رُعْبُ المسيخ الدجال فيستغنى عما جمع به بعضهم من أن الرعب المنفى هو أن لا يحصل لمن بها بسبب قربه منها خوف ، أو هو عبارة عن غايته ، وهو غلبته عليها ، والمراد بالرجفة إشاعة مجيئه وأن لا طاقة لأحد به ؛ فيتسارع حينئذ عليه مَنْ كان يتصف بالنفاق أو الفسق ، قاله الحافظ ابن حجر ، وما قدمناه أولى .

وفى الأوسط للطبرانى حديث « ينزل الدجال حَذْوَ المدينة(١) ، فأول من يتبعه النساء والإماء » وفى حديث رواه أحمد والطبرانى واللفظ له ورجاله ثقاة فى وصف الدجال « ثم يسير حتى يأتى المدينة ، ولا يؤذن له فيها ، فيقول : هذه قرية ذاك

---

(١) حذو المدينة — بفتح الحاء وسكون الدال — إزاءها .

الرجل ، ثم يسير حتى يأتى الشام فيهلكه الله عز وجل عند عقبة أفيق[1] » وروى أبو يعلى حديث الجسّاسة المشهور فى الصحيح بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح وزاد فيه « هو المسيخ تطوى له الأرض فى أربعين يوما ، إلا ما كان من طَيْبَةَ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وطيبة المدينة ، ما بابٌ من أبوابها إلا ومَلَكٌ مُصْلِتٌ سيفَه يمنعه ، وبمكة مثل ذلك » وفى البخارى والترمذى حديث « المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله تعالى » .

وروى أحمد ورجاله ثقاة وابن شبة برجال الصحيح حديث « المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة ، على كل نَقْب منها ملك لا يدخلها الدجال ولا الطاعون » ، وروى أحمد مرسَلا وابنُه متصلا وكذا الطبرانى ورجاله ثقاة حديث « ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجل خرج من بعض الأرياف ، حتى إذا كان قريبا من المدينة ببعض الطريق أصابه الوباء ؛ ففزع الناس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأرجو أن لا يطلع علينا نِقَابها » يعنى المدينة ؛ ونقَابها وأنقابها : طرقها وفجاجها ؛ واحدها نِقْب ، بكسر النون[2] .

وقوله فى الرواية المتقدمة « فلا يقربها الدجال ولا الطاعون » فيقتضى جواز دخول الطاعون المدينة ، ويرده الجزم فى سائر الأحاديث ، والصواب حفظها منه كما هو المشاهد

وقد استشكل قرن الدجال بالطاعون مع أن الطاعون شهادة ورحمة فكيف يُتمدح بعدمه ؟

والجواب من وجوه : أحدها : أن كونه كذلك ليس لذاته ، وإنما المراد ترتب ذلك عليه ، وقد ثبت تفسيره من رواية أحمد « بوَخْزِ أعدائكم من الجن » ؛ فيكون الإشارة بذلك إلى أن كفار الجن وشياطينهم ممنوعون من الطعن ، كما

(١) أفيق ــ بالهمزة أوله مفتوحة ــ قرية من حوران فى طريق الغور فى أول العقبة التى تعرف بعقبة أفيق ، والعامة تقول « فيق » بغير همزة ، والغور : هو الأردن.
(٢) الذى فى القاموس أنه بفتح النون

أن الدجال ممنوع منها ، ألا ترى أن قتل الـكافِرِ المسلِمَ شهادَةٌ ، ولو ثبت لمحل أن الـكفار لا تُسَلَّط عليه لحاز بذلك غاية الشرف ، ثانيها : أن أسباب الرحمة لم تنحصر فى الطاعون ، وقد عوضهم صلى الله عليه وسلم عنه الحمى حيث اختارها عند ما عُرِضاَ عليه كما تقدم ، وهى مطهرة للمؤمن وحظه من النار ، والطاعون يأتى فى بعض الأعوام ، والحمى تتـكرر فى كل حين ، فيتعادلان ، وفيه نظر؛ لأن تـكثير أسباب الرحمة مطلوب ، ولأنه لا يدفع إشكال التمدح بعدمه ، ثالثها : أنه وإن اشتمل على الرحمة والشهادة فقد ورد أن سببه أشياء تقع من الأمة كظهور بعض المعاصى ، وقد روى أحمد بأسانيد حسانٍ وصحاح عن شرحبيل بن حسنة وغيره « أنه ــ يعنى الطاعون ــ رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم » وروى أحمد أيضا تفسير كونه دعــوة نبيكم عن أبى قلابة بأنه صلى الله عليه وسـلم « سأل ربه عز وجل ألاَّ يهلك أمته بسنة ، فأعطيها ، وسأله ألاَّ يسلِّط عليهم عدوا من غيرهم ، فأعطيها ، وسأله ألاّ يلبسهم شِيَعاً ويُذِيقَ بعضَهم بأسَ بعض ، فمنعـه ، فقال صـلى الله عليه وسـلم فى دعائه : فحمى إذاً أو طاعوناً » كرره ثلاثا ؛ فقد تضمن الطاعون نوعا من المؤاخذة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم دعا به ليحصل كفاية إذاقة بعضهم بأس بعض ، ويكون هلاكهم حينئذ بسبب لا يعصون به ، بل يثابون ؛ فحفظ الله تعالى بَلَدَ نبيه صلى الله عليه وسلم من الطاعون المشتمل على الانتقام إكراما لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وجعل لهم الحمى المضعِفة للأبدان عن إذاقة بعضهم بأس بعض والمطهرة لهم ؛ فقوله صلى الله عليه وسلم « فحمى إذا » أى للموضع الذى لا يدخله الطاعون ، بل عصم منه وهو جواره الشريف ، وقوله « أو طاعونا » أى للموضع الذى لم يعصم منه ، وهو سائر البلاد ، هذا ما ظهر لى فى فهم هذه الأحاديث ، وهو يقتضى شرف الحمى الواقعة بالمدينة وفضلها ؛ لأنها دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسـلم ، ورحمة ربنا أيضا ؛ لأنها من لازم دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولأنها جعلت فى مقابلة

الطاعون الذى هو رحمة لغيرهم ؛ فتكون الحمى رحمة لهم ؛ فهى غير حمى الوباء الذاهبة من المدينة ، رابعها — ذكره الحافظ ابن حجر نقلا عن القرطبى — وهو أن المعنى لا يدخل إلى المدينة من الطاعون مثل الذى وقع فى غيرها كطاعون عَمَوَاس (١) ، قال الحافظ ابن حجر : وهو يقتضى أن الطاعون يدخلها فى الجملة ، وليس كذلك ؛ فقد جزم ابن قتيبة وتبعه جمع جَمٌّ من آخرهم النووى بأن الطاعون لا يدخل المدينة أصلا ، ولا مكة أيضا ، لكن نقل جماعة أنه دخل مكة فى الطاعون العام سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، بخلاف المدينة فلم يذكر أحد قط أنه دخلها أصلا ، ثم ذكر الحافظ ابن حجر الحديثَ المتقدم المشتمل على ذكر مكة أيضا ، ثم قال: وعلى هذا فالذى نقل أنه وجد بمكة ليس كما ظن ناقله كونه طاعونا ، بل وباء ، وهو أعم من الطاعون ، أو يجاب بجواب القرطبي المتقدم ، قال : ولعله بَنَى جوابَه على أن الطاعون ما ينشأ عن فساد الهوى فيقع به الموت الكثير ، وليس كذلك ؛ ففى الصحيح قولُ أبى الأسود : قدمتُ المدينةَ وهم يموتون بها موتا ذَرِيعا ؛ فهذا وقع بالمدينه وهو وَبَاء ، ولكن الشأن فى تسميته طاعونا ، قال : والحق أن المراد بالطاعون فى هذه الأحاديث الذى ينشأ عن طَعْن الجن فيهيج به الدم فى البدن فيقتل ، فهذا لم يدخل المدينة قط . قلت : نقل الزركشى عن القرطبى أنه فسر الطاعون بالموت العامّ الفاشى ، وهو صريح فى أنه أراد ما فهمه عنه الحافظ ابن حجر ، ويرده قوله فى الحديث المتقدم « حتى إذا كان قريبا من المدينة ببعض الطريق أصابه الوباء فأفزع الناس » فإن المراد فيه بالوباء الطاعون المعروف بعلاماته عندهم ، وإلا فموت الشخص الواحد لا يفزع ولا يسمى موتا عاما ، ويبعد جعل الموت العام بمجرده شهادةً ، وقد أخبر بعضُ الأولياء بمشاهدة الجن يقظةً يطعنون الناس فى بعض سنى الطاعون ، ورأيته أنا كذلك مناما ، ورأيت أن بينى

---

(١) عمواس — بفتح العين والميم جميعا ، أو بكسر العين وسكون الميم — كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس ، ومنها كان ابتداء الطاعون فى أيام عمر بن الخطاب ، ثم فشا فى بلاد الشام ومات به خلق كثير منهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح .

و بينهم حائلا ، فحمانى الله منه فى تلك السنة ، على أنه لو سلم أن المراد ما ذكره القرطبى فالإشكالُ المتقدمباقٍ ؛ إذ يقال : لِمَ لَمْ يكثر بالمدينة وهو رحمة ؟ فالحق ما قدمناه ، وهذا ــ كما قال بعضهم ــ من المعجزات العظيمة المستمرة التى هى من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم لأن الأطباء بأجمعهم قد عَجَزوا عن دفع الطاعون عن بلد ما فى دهر من الدهور ، وقد امتنع الطاعون عن المدينة هذه الدهور الطويلة ، مع أنه يقع بالحجاز الشريف ، و يدخل قرية الينبع وجدة والفرع والصفراء والجيف وغير ذلك من الأماكن القريبة من المدينة ، ولا يدخلها هى كما شاهدنا ذلك فى طاعون أواخر سنة إحدى وثمانين وثمانمائة مع أوائل التى بعدها ؛ فإنه عم أكثر الأماكن القريبة من المدينة ، وكثر بجدة ، واختلف فى دخوله مكة ، والذى تحققناه كثرة الموت بها فى ذلك الزمان، وكثرت الحمى بالمدينة ، لكن لم يكثر بها موت ، و بالجملة فهى محفوظة منه أتم الحفظ ؛ فلله الحمد والمنة .

الفصل السادس

فى الاستشفاء بترابها ، و بتَمْرِها ، وما جاء فيه

ما جاء فى أن ترابها شفاء

روينا فى كتاب ابن النجار والوفاء لابن الجوزى حديث «غُبَارالمدينة شفاء من الجُذَام» وفى جامع الأصول لابن الأثير وَبَيَّضا لمخرجه عن سعد(١) رضى الله عنه قال « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تَبُوك تلقَّاه رجال من المخلَّفين من المؤمنين ، فأثاروا غباراً ، فخمر ــ أو فغطَّى ــ بعضُ مَنْ كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفه ، فأزال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللثام عن وجهه ، وقال : والذى نَفْسِى بيده إنَّ فى غبارها شفاء من كل داء » قال : وأراه ذكر « ومن الجُذَام والبَرَص » وقد أورده كذلك رُزَين العبدرى فى جامعه ، وهو مستند ابن الأثير فى إيراده ، قال الحافظ المنذرى : ولم أره فى الأصول .

(١) عبارة «و بيضا لمخرجه عن سعد» ليست فى نسخة خلاصة الوفا للمؤلف المطبوعة ، وقد جاء فى تعليقات المكى «عن سعد رضى الله عنه قال لما رجع ، كذا فى هامش نسخة بخط ثقة»

وروى رزين أيضاً عن ابن عمر نحوه ، إلا أنه قال « فمدَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يده فأماطه عن وجهه ، وقال : أما علمت أن عَجْوَةَ المدينة شفاء من السقم ، وغبارها شفاء من الجُذَام » ورواه ابن زَبالة مختصراً عن صيفى بن أبى عامر ، ولفظه « والذى نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة ، وإنها شفاء من الجذام » وروى أيضاً عن أبى سلمة : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « غبار المدينة يطفى الجذام » قلت : وقد رأينا من استشفى بغبارها من الجذام ، وكان قد أضَرَّ به كثيراً ؛ فصار يخرج إلى الكومة البيضاء ببُطْحَان بطريق قباء ويتمرغ بها ويتخذ منها فى مرقده ، فنفعه ذلك جداً . وروى ابن زَبالة ويحيى بن الحسن ابن جعفر العَلَوى وابن النجار كلاهما من طريقه « أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بَلْحَارث ، فإذا هم رَوْبَى[1] ، فقال: مالكم يابنى الحارث رَوْبَى ؟ قالوا : أصابتنا يا رسول الله هذه الحمى ، قال : فأين أنتم عن صُعَيْب ؟ قالوا : يا رسول الله ما نصنع به ؟ قال : تأخذون من ترابه فتجعلونه فى ماء ، ثم يتفل عليه أحدكم ويقول : بسم الله ، ترابُ أرضنا ، بريق بعضنا ، شفاء لمريضنا ، بإذن ربنا ، ففعلوا ، فتركتهم الحمى » قال ابن النجار عقبه : قال أبو القاسم طاهر بن يحيى العلوى : صعيب : وادى بطحان دون الماجشونية ، وفيه حفرة مما يأخذ الناس منه ، وهو اليوم إذا وبأ إنسان أخذ منه . قلت : قد رأيت ذلك فى نسخة كتاب يحيى التى رَوَاها ابنُه طاهر بن يحيى عنه ، والماجشونية هى الحديقة المعروفة اليوم بالمدشونية ، وقال ابن النجار عقبه : وقد رأيت أنا هذه الحفرة اليوم ، والناس يأخذون منها ، وذكروا أنهم قد جربوه فوجدوه صحيحاً ، قال : وأخذت أنا منه أيضا . قلت : وهذه الحفرة موجودة اليوم ، مشهورة سلفاً عن خلف ، يأخذ الناس منها وينقلونه للتداوى ، وقد بعثت منها لبعض الأصحاب أخذا مما ذكروه فى أخذ نبات الحرم للتدارى ، ثم رأيت الزركشى قد قال : ينبغى أن يستثنى من منع نقل تراب الحرم

الاستشفاء بتراب صعيب

---

(١) روبى : جمع روبان ، مثل عطشان وعطشى وسكران وسكرى ؛ وهو الخاثر النفس الشديد الإعياء المختلط العقل .

تربة حمزة رضى الله عنه ؛ لإطباق السلف والخلف على نقلها للتداوى من الصداع، فقلت عند الوقوف عليه : أين هو من تراب صُعَيب لما قدمناه فيه ؟ بخلاف ما ذكره إذ لا أصل له ، وذكر المجد أن جماعة من العلماء ذكروا أنهم جربوا تراب صُعَيْب للحمى فوجدوه صحيحا ، قال : وأنا بنفسى سقيتُه غلاما لى مريضاً من نحو سنة تواظبه الحمى ، فانقطعت عنه من يومه ، وذكر المجد أيضاً فى موضع آخر كيفية الاستشفاء به أنه يجعل فى الماء ويغتسل به ، وكذا ذكره الجمال المطرى عند ذكر صعيب فقال : وفيه حفرة يؤخذ من ترابها ويجعل فى الماء ويغتسل به من الحمى. قلت : فينبغى أن يجعل فى الماء ثم يتفل عليه ، وتقال الرقية الواردة ، ثم يجمع بين الشرب والغسل منه ، ويستأنس للغسل بما رويناه عن جزء وأبى مسعود بن الفرات الرازى عن ثابت بن قيس « أن النبى صلى الله عليه وسلم عاده وهو مريض فقال : أذْهِبِ البَاسَ رَبَّ الناس[1] ، عن ثابت بن قيس بن شماس ، ثم أخذ كفا من بطحاء ، فجعله فى قَدَح من ماء ، ثم أمر فصب عليه » وفى الصحيحين حديث « كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى الإنسانُ أو كانت به قرحة أو جرح قال بأصبعه هكذا ، ووضع سفيانُ سَبَّابته بالأرض ثم رفعها، وقال : بسم الله ، تربة أرضنا ، بريق بعضنا ، يشفى سقيمنا ، بإذن ربنا » ورواه أبوداود بنحوه ؛ وفى رواية « يقول بريقه ، ثم قال به فى التراب : تربة أرضنا » وروى ابن زَبَالة « أن رجلا أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرجله قرحة ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم طرف الحصير، ثم وضع أصبعه التى تلى الإبهام على التراب بعد ما مَسَّها بريقه ، وقال : بسم الله ، ريق بعضنا ، بتربة أرضنا ، ليشفى سقيمنا ، بإذن ربنا ، ثم وضع أصبعه على القرحة ، فكأنما حُلَّ من عِقَالٍ » وروى أيضاً حديث « تراب أرضنا ، شفاء لقرحنا ، بإذن ربنا » وأن أم سلمة كانت تنعت من القرحة تراب الضبة .

(١) الباس : الشدة ، وأصله البأس ــ بالهمز ــ فسهلت الهمزة بقلبها ألفاً لانفتاح ما قبلها ، وهى لغة لقريش

ما جاء فى أن تمرها شفاء

وفى مسلم حديث « مَنْ أكل سبعَ تمراتٍ مما بين لابتيها حين يصبح لم يضره شىء حتى يمسى » وفى الصحيحين حديث « من تَصَبَّحَ بسبع تمرات عَجْوة لم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر » ورواه أحمد برجال الصحيح بلفظ « مَنْ أكل سبع تمرات عجوة مما بين لَابَتَيِ المدينة على الريق لم يضره يومه ذلك شىء حتى يمسى » قال فليح : وأظنه قال « وإن أكلها حين يُمسى لم يضره شىء حتى يصبح » ورواه ابنُ زبالة بلفظ « من تصبَّحَ بسبع تمرات من العجوة » لا أعلمه إلا قال « من العالية لم يضره يومئذ سم ولا سِحر » وفى صحيح مسلم حديث « إن فى عجوة العالية شفاء، أو إنها ترياق أول البُكرة » وروى أحمد برجال الصحيح حديثاً فيه « واعلموا أن الكمأة دواء العين ، وأن العجوة من فاكهة الجنة » وروى النسائى وأبو داود الطيالسى والطبرانى فى الثلاثة بسند جيد حديث « الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين ، والعجوة من الجنة ، وهى شفاء من السم » وقد صح فى سنن أبى داود عن سعد بن أبى وقاص قال « مرضْتُ مرضاً ، فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يَعُودُنِى ، فوضع يده بين ثديى حتى وجدت بَرْدَهَا على فؤادى ، فقال : إنك رجل مفؤد ، ائت الحارثَ ابن كَلَدَة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبب ، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة ، فليجأهن [1] ثم ليَلُدَّكَ بهن » ورواه الطبرانى لكن عن سعد بن أبى رافع .

قوله « فليجأهن » أى فليدقهن ، قال عياض : وقال ابن الأثير فليجأهن أى فليدقهن ، و به سميت الوجيئة ، وهو تمر يبل بلبن ثم يدق حتى يلتئم [2] ، ومنه الحديث « أنه دعا سعداً فوصف له الوجيئة » وقوله « ثم ليلدك » أى يسقيك ، يقال : لدّه باللَّدُود ، إذا سقاه الدواء فى أحد جانبى الفم .

وفى كامل ابن عَدِى حديث « ينفع من الدُّوَّام أن يأخذ سَبْعَ تمرات من عجوة المدينة كل يوم يفعل ذلك سبعة أيام » وفى غريب الحديث للخطابى عن عائشة رضى الله عنها

---

(١) فى مجمع البحار « فليجأهن مع نواهن : أى يدقهن مع النوى حتى يتكسر النوى ويعجن » (مكى) (٢) قال المجد « الوجيئة : تمر أو جراد يدق ويلت بسمن أو زيت فيؤكل » .

« أنها كانت تأمر للدُّوَّام والدُّوَار بسبع تمرات عجوة فى سبع غدوات على الريق » والدؤام والدوار: ما يأخذ الإنسان فى رأسه فيدومه ، ومنه تدويم الطائر، وهو: أن يستدير فى طيرانه، قال الخطابى : كون العجوة عُوذَة من السم والسحر إنما هو من طريق التبرك بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا لأن طبعها يفعل شيئاً ، وقال النووى : فى تخصيصها دون غيرها وعدد السبع من الأمور التى علمها الشارع ، ولا نعلم نحن حكمتها ؛ فيجب الإيمان بها ، واعتقاد فضلها ، وما ذكره المازرى والقاضى فى هذا باطل ، وقصدت بذلك التحذير من الاغترار به ، انتهى . وأشار به لقول القاضى فى أثناء تعليل ذلك : إنه لتأثير فى الأرض أو الهواء ، ولقول المازرى : لعل ذلك كان لأهل زمنه صلى الله عليه وسلم خاصة، أو لأكثرهم؛ إذ لم يثبت استمرار وقوع الشفاء فى زمننا غالباً ، و إن وجد ذلك فى الأكثر حُمِلَ على أنه أراد وصف غالب الحال، انتهى.

وقد جعله ابن التين احتمالا ، وزاد عليه آخَرَ أعْجَبَ منه ، فقال : يحتمل أن يكون المراد نخلا خاصاً من المدينة لا يعرف الآن ، و يحتمل أن يكون ذلك خاصاً بزمانه صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وهو مردود ؛ لأن سَوْقَ الأحاديث و إيراد العلماء لها و إطباق الناس على التبرك بعجوة المدينة وتمرها يرد التخصيص بزمنه صلى الله عليه وسلم ، مع أن الأصل عدمه ، ولم تزل العجوة معروفة بالمدينة يأثرها الخلف عن السلف ، يعلمها كبيرهم وصغيرهم علما لا يقبل التشكيك .

وقال الداودى: هى من أوسط التمر كما هو المشاهد اليوم . وقال غيره : هى من أجود تمر المدينة ، ومراده أنها ليست من رديه . وقال ابن الأثير: العجوة ضرب من التمر أكبر من الصَّيْحَانى يضرب إلى السواد ، وهو مما غرسه النبى صلى الله عليه وسلم بيده بالمدينة .

وذكر هذا الأخيرَ البزارُ أيضاً ، فلعل الأوْداء [1] التى كاتب سلمان الفارسى أهله عليها وغَرَسَها صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة بالفُقَيْر أو غيره من العالية

(١) الأوداء : جمع ودى — على زنة غنى وعلى — وهو صغير النخل .

كانت عجوة ، والعجوة[1] توجد بالفقير إلى يومنا هذا ، ويبعد أن يكون المراد أن هذا النوع إنما حدث بغرسه صلى الله عليه وسلم وأن جميع ما يوجد منه من غرسه كالا يخفى .

وروى ابنُ حِبَّان عن ابن عباس ل « كان أحب التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة » وفى حديث ضعيف «خير تمركم البرنى ، يخرج الداء ، ولا داء فيه » ورواه ابن شيبة بنحوه خطابا لوفد عبد القيس فى ثمارهم ، وكذا الحاكم فى مستدركه ، وفى مسلم حديث « يا عائشة بيت لا تمر فيه جِيَاعٌ أهله » قالها مرتين أو ثلاثاً ، وفيه أيضاً حديث « لا يجوع أهل بيت عندهم التمر » وفى الكبير والصغير للطبرانى ورجال الصغير رجال الصحيح عن ابن عباس « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أُتِىَ بالباكورة من الثمار وضعها على عينيه ثم قال : اللهم كما أطعمتنا أوله فأطعمنا آخره ، ثم يأمر به للمولود من أهله » ولفظ الكبير « كان إذا أتى بالباكورة من التمر قَبَّلها وجعلها على عينيه » الحديثَ ، وفى نوادر الحكيم الترمذى عن أنس بن مالك قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالباكورة من كل شىء قَبَّلها ووضعها على عينه اليمنى ثلاثاً ، ثم على عينه اليسرى ثلاثاً ، ثم يقول : اللهم » الحديثَ بنحوه .

وروى البزار بسند فيه ضعيف حديث « يا عائشة إذا جاء الرطب فهنيني » ورويناه فى الغيلانيات ، وفيها أيضاً حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يُفطِر على الرطب فى أيام الرطب ، وعلى التمر إذا لم يكن رطب ، ويختم بهن ، ويجعلهن وتراً ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً » وفيها حديث « كلوا التمر على الريق ؛ فإنه يقتل الدود »

وأنواع تمر المدينة كثيرة ، ذكرنا ما أمكن جمعه منها فى الأصل فبلغ مائة وبضعاً وثلاثين نوعاً : منها النوع المسمى بالصَّيْحانى[2] ، وقد أسند

---

(١) لعل هذا النوع كان فى زمن المؤلف ، وأما فى زماننا فهى غير معروفة ، والناس مختلفون فيها ؛ فبعضهم يقول : هى الجلبة ، وبعضهم يقول : هى الجادى ، وبعضهم يعين نوعا آخر (مكى)

(٢) هذا النوع غير معروف اليوم (مكى)

الصَّدْرُ إبراهيم بن محمد بن مؤيد الحموى فى كتابه فضل أهل البيت عن جابر رضى الله عنه قال « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم يوما فى بعض حيطان المدينة ، ويَدُ علىّ فى يده ، قال : فمررنا بنخل ، فصاح النخل : هـذا محمد سيد الأنبياء ، وهـذا علىّ سيد الأولياء أبو الأئمة الطاهرين ، ثم مررنا بنخـل فصاح النخل : هذا محمد رسول الله ، وهذا علىّ سيف الله ، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى علىّ ، فقال له : يا على سَمِّه الصَّيْحَانى ، فسمى من ذلك اليوم الصيحانى » وهو حديث غريب ؛ فكان هذا سبب تسمية ذلك النوع بهـذا الاسم ؛ لأن تلك النخلات كانت منـه ، ويحتمل أن يكون المراد تسمية ذلك الحائط بهذا الاسم ، وبالمدينة اليوم موضع بجفاف يعرف بالصيحانى .

وروى بعضُهم هذا الحديث عن على بألفاظ فيها نكارة ، وفى آخره « يا على سَمِّ نخلَ المدينة صيحانياً لأنهن صِحْنَ بفضلى وفضلك » .

الفصل السابع

فى سَرْدِ خصائصها

وهى كثيرة لا تكاد تنحصر ، وها أنا ذاكر ما حضرنى منها الآن وإن شاركَتْهَا مكةُ فى بعضه ، فأقول وبالله التوفيق :

الخاصة الأولى : ما تقدمت الإشارة إليه من كونه صلى الله عليه وسلم خُلق من طينتها ، وكذا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وأكثر الصحابة والسلف ممن دفن بها وروى أن الله تعالى بعث جبريل وميكائيل ليقبضا قَبْضَـةً من الأرض ، فأبَتْ ، حتى بعث الله تعالى عزرائيل فقبض منها قبضة ، وكان إبليس قد وطئ الأرض بقدميه ، فصار بعضُ الأرض بين قدميه وبعضُ الأرض موضع أقدامه ، فخلقت النفسُ مما مسّ قدم إبليس ؛ فصارت مأوى الشر ، ومن التربة التى لم يصل إليها قدمُ إبليس أصل الأنبياء والأولياء .

قال فى العوارف : وكانت درة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يمسها قدمُ إبليس .

وقيل: [لما](١) خاطب الله السموات والأرض بقوله «ائتيا طوعًا أو كرها(٢)» الآية أجاب من الأرض موضع الكعبة ومن السماء ما يحاذيها .

وعن ابن عباس : أصلُ طينة النبى صلى الله عليه وسلم من سرة الأرض بمكة ، يعنى الكعبة ، وهو مُشْعر بأن ما أجاب من الأرض درته صلى الله عليه وسلم ، ومن الكعبة دُحِيت الأرض ؛ فصار صلى الله عليه وسلم هو الأصل فى التكوين .

قال فى العوارف عقبهُ : وتربة الشخص مدفنه ، فكان مقتضى ذلك أن يكون مدفنه هناك ، لكن قيل : لما تموج الماء رَمَى الزَبَدَ إلى النواحى ، فوقعت جوهرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى ما يحاذى تربته الشريفة بالمدينة ، فكان مكيا مدنيا .

قلت : فلمكة الفضل بالبداية ، وللمدينة بالاستقرار والنهاية .

الثانية : اشتمالها على البقعة التى انعقد الإجماع على تفضيلها على سائر البقاع ، كما تقدم تحقيقه .

الثالثة : دفن أفضل الأمة بها والكثير من الصحابة الذين هم خير القرون .

الرابعة : أنها محفوفة بأفضل الشهداء الذين بَذَلوا نفوسهم فى ذات الله بين يَدَىْ نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فكان شهيداً عليهم

ونقل عياض فى المدارك وابن الجوزى فى منسكه أن مالكا كان يقول فى فضل المدينة : هى دار الهجرة والسنة ، وهى محفوفة بالشهداء ، وبها خيار الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) زيادة يحتاج إليها اتساق الكلام (٢) من سورة فصلت من الآية ١١ .

الخامسة : أن الله تعالى اختارها داراً وقراراً لأفضل خلقه وأكرمهم عليه صلى الله عليه وسلم .

السادسة : أن الله تعالى اختار أهلها للنصرة والإيواء .

السابعة : أن سائر البلاد افتتحت بالسيف ، وافتتحت هى بالقرآن ، كما هو مروى عن مالك ، ورفعه ابنُ زَبَالة من طريقه .

الثامنة : أن الله تعالى افتتح منها سائر بلاد الإسلام ، حتى مكة المشرفة ، وجَعَلها مظهر دينه القويم .

التاسعة : ما ذكره عياض من الاتفاق على وجوب الهجرة إليها قبل فتح مكة ، ووجوب سكناها لنصرة النبى صلى الله عليه وسلم ومواساته بالأنفُس ، قال: ومن هاجر قبل الفتح فالجمهور على منعه من الإقامة بمكة بعد الفتح ، ورخص له فى الإقامة ثلاثة أيام بعد قضاء نسكه .

العاشرة : أنه يبعث أشراف هذه الأمة يوم القيامة منها ، على مانقلة عياض فى المدارك عن مالك فى ضمن أشياء فى فضل المدينة ، قال : وهذا لايقوله مالك من عند نفسه .

الحادية عشرة : ماتقدم فى الأسماء من تسميتها بالمؤمنة والمسلمة ، وإن ترتبتها لمؤمنة ، وأنه لامانع من أن الله خلق ذلك فيها .

الثانية عشرة : إضافتها إلى الله تعالى فى قوله : « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً »(١) على ماتقدم فى الأسماء ، وقد جاءت الأرض غير مضافة إلى الله تعالى والمراد بها مكة ، وذلك فى قوله تعالى : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فى الأرض(٢) » .

الثالثة عشرة : إضافة الله إياها إلى رسوله بلفظ البيت فى قوله : « كما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ(٣) » على ماتقدم فى الأسماء .

---

(١) من سورة النساء من الآية ٩٧ (٢) من سورة الأنفال من الآية ٢٦

(٣) من سورة الأنفال من الآية ٥

الرابعة عشرة : إقسام الله تعالى بهـا فى قوله «لاأُقْسِمُ بِهٰذَا البَلَدِ[١]» على ماسبق فى الأسماء ، أى نحلف لك بهـذا البلد الذى شرفته بك ، و «لا» زائدة للتأكيد ، ويدل عليه قراءة الحسن والأعمش « لَأُقْسِمُ » .

الخامسة عشرة : أن الله بدأبها فى قوله : « وقُلْ رَبِّ أدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ، وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صدقٍ[٢]» فمدخل صدق هى، ومخرجه مكة كما تقدم ، مع أن القياس البداءة بالمخرج لموافقة الواقع . فإن قيل : التقديم للاهتمام بأمر المدخل ، قلنا : فى الاهتمام به كفاية .

السادسة عشرة: تسميتها فى التوراة بالمرحومة ونحوه، ومخاطبة الله إياها كماتقدم .

السابعة عشرة : دعاؤه صلى الله عليه وسلم بحبها كمكة وأشد ، وتسميتها بالحبيبة وغيره مما تقدم ، ودعاؤه أن يجعل الله له بها قراراً ورزقاً حسناً .

الثامنة عشرة: تحريكه صلى الله عليه وسلم دابته أو إيضاعها إذا أبصر جدرانها عند قدومها ، وأنه كان إذا أقبل من مكة فكان بالأثاية[٣] طرح رداءه عن منكبيه وقال « هذه أرواح طَيْبة » كما تقدم .

التاسعة عشرة : اهتمامه صلى الله عليه وسلم بأمر الدعاء لها بالبركة وغير ذلك .

العشرون : تحريمها على لسان أفضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه إكراماً له ، وكونه لاجزاء فيها على القول به دليلُ عظيمِ حرمتها حيث لم يشرع فيها جابر .

الحادية والعشرون : تأسيس مسجدها الشريف على يده صلى الله عليه وسلم ، وَعَمَلُه فيه بنفسه ، ومعه خير الأمة المهاجرون الأولون والأنصار المقدمون .

الثانية والعشرون : اختصاصها بالمسجد الذى أنزل الله فيه « لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه[٤] » .

الثالثة والعشرون : كون ما بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة ، وفى

(١) من سورة البلد من الآية ١ (٢) من سورة الإسراء من الآية ٨٠

(٣) الأثاية : موضع بين مكة والمدينة فيه مسجد نبوى ، أو بئر دون العرج عليها مسجد نبوى (٤) من سورة التوبة من الآية ١٠٨

رواية «ما بين منبرى وهذه الحُجَرِ» يعنى حُجَرَه صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى بيان أن ذلك يعم مسجده صلى الله عليه وسلم على ما هو المشهور بين الناس فى تحديد المسجد الشريف ؛ ولهذا قال بعضهم : هذا المسجد هو المسجد الذى لا تُعرف بقعة فى الأرض من الجنة غيره .

الرابعة والعشرون : كون منبره الشريف على تُرْعة من تُرَع الجنة ، وأن قوائمه رواتب فى الجنة ، وفى رواية « ومنبرى على حوضى » .

الخامسة والعشرون : ما ورد فى مسجده الشريف من المضاعفة الآتى بيانها .

السادسة والعشرون : حديث « مَنْ صَلَّى فى مسجدى هذا أربعين صلاة كتب له براءة من النار ، وبراءة من العذاب ، وبَرِىء من النفاق » رواه الطبرانى فى الأوسط .

السابعة والعشرون : ما سيأتى أن مَنْ خرج على طُهْر لا يريد إلا الصلاة فيه كان بمنزلة حَجَّة ، وأن الخارج إليه من حين يخرج من منزله فرِجْلٌ تكتب حسنةً ورجل تحط خطيئة .

الثامنة والعشرون : أن إتيان مسجد قباء يعدل عمرة كما سيأتى .

التاسعة والعشرون : حديث « صيام شهر رمضان فى المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها ، وصلاة الجمعة فى المدينة كألف صلاة فيما سواها » فسائر أفعال البر كذلك كما قيل به فى مكة ، وبه صرح أبو سليمان داود الشاذلى فى الانتصار ؛ ثم رأيته فى الإحياء ، قال : إن الأعمال فى المدينة تتضاعف ، قال صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا » الحديثَ ، ثم قال : فكذلك كل عمل بالمدينة بألف انتهى ، وقال ابن الرفعة فى المطلب : وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الصيام بالمدينة أفضل من الصلاة ، والصلاة بمكة أفضل من الصيام ، مراعاة لنزول فرضيتهما(١) ، انتهى

---

(١) يريد أن الصلاة شرعت بمكة فيكون فعلها بها أفضل من الصيام بها ، وأن الصيام شرع فى المدينة ففعله بها أفضل من الصلاة بها .

قلت : ويؤخذ من هذه العلة أن كل عبادة شرعت بالمدينة فهى بها أفضل منها بمكة ، ولك أن تعد هذا خاصة مستقلة .

الثلاثون : حديث «لا يَسْمَعُ النداء فى مسجدى هذا ثم يخرج منه إلا لحاجة ثم لا يرجع إليه إلا منافق » .

الحادية والثلاثون : تأكد التعلم والتعليم بمسجدها كما سيأتى .

الثانية والثلاثون : اختصاصه بمزيد الأدب وخَفْض الصوت ؛ لكونه بحضرة سيد المرسلين[1] ، واختصاصه عند بعضهم بمنع آكل الثوم ونحوه من دخوله ؛ لاختصاصه بملائكة الوحى .

الثالثة والثلاثون : أنه لا يجتهد فى مِحْرَابه ؛ لأنه صواب قطعاً ؛ فلا مَجَال للاجتهاد فيه حتى باليَمْنة واليَسْرة ، بخلاف محاريب المسلمين ، والمراد مكان مُصَلاَّه صلى الله عليه وسلم ، قال الرافعى : وفى معناه سائر البقاع التى صلى فيها صلى الله عليه وسلم إذا ضبط المحراب ، قلت : وفى ضبطه بغيرها عسر أو تعذر .

الرابعة والثلاثون : أن ما بين منبره صلى الله عليه وسلم ومسجد المصلى روضة من رياض الجنة ، وهذا جانب كبير من هذه البلدة .

الخامسة والثلاثون : حديث « أُحُدٌ على تُرْعة من تُرَع الجنة » وحديث « أحد جبل يحبنا ونحبه » .

السادسة والثلاثون : حديث « إن بُطْحَان على ترعة من ترع الجنة » .

السابعة والثلاثون : وصف العقيق بالوادى المبارك ، وأنه صلى الله عليه وسلم يحبه ، وفى رواية « يحبنا ونحبه » .

الثامنة والثلاثون : حثه صلى الله عليه وسلم على الإقامة بها .

التاسعة والثلاثون : حثه على اتخاذ الأصل بها .

الأربعون : حثه على الموت بها ، والوعد على ذلك بالشفاعة أو الشهادة أوهما .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) من سورة الحجرات من الآية ٢ .

الحادية والأربعون : حرصه صلى الله عليه وسلم على موته بها .

الثانية والأربعون : كون أهلها أول من يشفع لهم ، واختصاصهم بمزيد الشفاعة والإكرام كما تقدم .

الثالثة والأربعون : بَعْث الميت بها من الآمنين على ماسيأتى .

الرابعة والأربعون : أنه يبعث مِنْ بَقِيعها سبعونْ ألفاً على صورة القمر يدخلون الجنة بغير حساب ، ومثله فى مقبرة بنى سلمة ، وتوكل ملائكة بمقبرة البقيع كُلّما امتلأت أخذوا بأطرافها فكفؤُها فى الجنة .

الخامسة والأربعون : بَعْثُ أهلها من قبورهم قبل سائر الناس .

السادسة والأربعون : شهادته – أو شفاعته – صلى الله عليه وسلم لمن صبر على لأوائها وشدتها .

السابعة والأربعون : وجوب شفاعته صلى الله عليه وسلم لمن زاره بها .

الثامنة والأربعون : استجابة الدعاء بها عند القبر الشريف ، ويقال : إنه مستجاب عند الأسطوان المخلق ، وعند المنبر ، وفى زاوية دار عقيل بالبقيع ، وبمسجد الفتح بعد صلاة الظهر يوم الأربعاء ، واستجابة الدعاء بمسجد الإجابة ومسجد السقيا وبالمصلى عند القدوم ، وعند بركة السوق فى يوم العيد ، وعند أحجار الزيت وبالسوق ، لما سيأتى عند ذكر هذه الأماكن من ورود ذلك عنه صلى الله عليه وسلم بها .

التاسعة والأربعون : كونها تنفى خبثها .

الخمسون : كونها تنفى الذنوب كما تنفى النار خَبَثَ الفضة .

الحادية والخمسون : الوعيد الشديد لمن ظلم أهْلَها أو أخافهم .

الثانية والخمسون : مَنْ أرادها وأهلَها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء، وفى رواية أذابه الله فى النار ، ويؤخذ من ترتيب الوعيد على الإرادة مساواة المدينة لحرم مكة فى هذا ، وفيه قال تعالى : «وَمَنْ يُرِدْ فيه بإلحاد بظلم»(١) الآية ،

---

(١) من سورة الحج من الآية ٢٥ .

ويتمسك للمساواة أيضاً بقوله صلى الله عليه وسلم « كما حرم إبراهيم مكة » فقولُ ابن مسعود : ما من بلدة يؤاخذ العبد فيها بالهمِّ قبل الفعل إلا مكة وتلا الآية مُشْكِلٌ ، وأيضا فالهمُّ العارضُ الوارد من غير عَزْم لا مؤاخذة به مطلقاً بالاتفاق ، وأما الثابت الذى يصحبه التَّصْمِيم فالعبد مؤاخذ به بمكة و بغيرها ، و إنما خصوصيةُ الحرم تعظيمُ العذاب لمن هَمَّ فيه لجرأته ؛ ولذا روى أحمد فى معنى الآية بإسناد صحيح مرفوعا «لوأن رجلا هَمَّ فيه بإلحاد وهو بعَدَن أَبْيَنَ[1] لأذاقه الله عذاباً أليما » .

الثالثة والخمسون: الوعيد الشديد لمن أحدث بها حدثا أو آوى محدثاً ، وتقدم تفسير الحديث بالإثم مطلقاً ، وأنه دالّ على أن الصغيرة بها كبيرة ؛ وللوعيد الشديد فى ذلك ؛ لأنها حَضْرَةُ أشرفِ المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وسوء الأدب على بساط الملك ليس كالإساءة فى أطراف المملكة .

قال بعض السلف : إياك والمعصية فإن عصيت ولا بد فليكن فى مواضع الفجور ، لا فى مواضع الأجور ؛ لئلا يتضاعف عليك الوزر ، أو تعجل لك العقوبة .

فإن قيل : هذا قول بتضعيف السيئات فى الحرم ، والراجح خلافه ؛ لقوله تعالى « وَمَنْ جاء بالسيئة فلا يُجزَى إلا مثلها[2] » .

قلنا : تحرير النزاع أن القائل بالمضاعفة أراد مضاعفة مقدارها : أى عظمها ، لا العدد ، فإن السيئة جزاؤها سيئة ، لكن السيئات قد تتفاوت عقوبتها باختلاف الأشخاص والأماكن ، كما أن تقدير كل أحد بما يليق به فى الزجر ، فجزاء السيئة مثلها ، ومن المماثلة رعاية ما اقترن بها مما دل على جرأة مرتكبها ، ولا تكتب إلا واحدة ، والله أعلم .

الرابعة والخمسون : الوعيد لمن لم يُكرم أهلها ، وأن إكرامهم وحفظهم حَقٌّ على

---

(١) عدن أبين — على الإضافة — جزيرة باليمن ، أقام بها أبين ، وعدن لاعة : قرية بقربه .

(٢) من سورة الأنعام من الآية ١٦٠

الأمة ، وأنه صلى الله عليه وسلم شفيع — أو شهيد — لمن حفظهم فيه .

الخامسة والخمسون : حديث « من أخاف أهلَ المدينة فقــد أخاف ما بين جَنْبَيَّ » .

السادسة والخمسون : حديث « مَنْ غاب عن المدينــة ثلاثة أيام جاءها وقلبه مُشْرَبٌ جَفْوَةً [(١)] » وإنه «لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أخلف الله تعالى فيها خيراً منه » كما فى حديث مسلم ، قال المحب الطبرى : فيه إشعار بذم الخروج منها ، وذهب بعضهم إلى أنه مخصوص بمدة حياته صلى الله عليه وسـلم ، فأما بعد وفاته فقـد خرج نفر كثير من كبار الصحابة ، وذهب آخرون إلى أنه عام أبداً ، قال الطبرى : وهو ظاهر اللفظ ، نعم هو مخصوص بالمستوطن ، لا مَنْ نَوَى الإقامة بها مدة ثم ينقلب [(٢)] إلى وطنه .

السابعة والخمسون : إكرام الله لها بنَقْلِ وبائها وتحويل حُمَّاها .

الثامنة والخمسون : الاستشفاء بترابها ، وما تقدم فى ثمارها .

التاسعة والخمسون : عصمتها من الطاعون .

الستون : عصمتها من الدجال ، وخروج الرجل الذى هو خير الناس — أو من خير الناس — إليه منها ، وقوله له : أشهد أنك الدجال ، وأنه لا يُسَلَّط عليه بآخرة الأمر ، وبهذا تتميز على مكة ، والسر فيه أن سيد المرسلين — وهو حجة الله على العباد — بالمدينة .

الحادية والستون : ما فى حديث الطبرانى من قوله صلى الله عليه وسلم « وحق على كل مسلم زيارتها » .

الثانية والستون : سماعُه صلى الله عليه وسـلم سلامَ من سلم وصلاةَ من صلى عليه عند قبره الشريف ، ورده عليه .

الثالثة والستون : اختصاصها بِمَلَكِ الإيمان والحياء ، كما تقدم فى الأسماء .

---

(١) مشرب جفوة — على زنة اسم المفعول — أى خالطه الجفاء .

(٢) ينقلب : يرجع ويعود

الرابعة والستون : كون الإيمان يأْرِزُ إليها .

الخامسة والستون : اشتباكها بالملائكة وحِراستهم لها .

السادسة والستون : كونها أولَ أرضٍ اتخذ بها مسجد لعامة المسلمين فى هذه الأمة .

السابعة والستون : كون مسجدها آخِرَ مساجدِ الأنبياء ، وآخر المساجد التى تُشَدُّ إليها الرِّحالُ ، وكونه أحق المساجد أن يزار كما سيأتى .

الثامنة والستون : كثرة المساجد والمَشَاهِدِ والآثار بها ، بل البركة عامة منبثّة بها ، ولهذا قيل لمالك : أيما أحب إليك المقام هنا يعنى المدينة أو بمكة ؟ فقال : ههنا ، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلا سلك عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام ينزل عليه من عند رب العالمين فى أقل من ساعة ؟.

التاسعة والستون : ما يوجد بها من رائحة الطيب الزكية ، على ما تقدم فى الأسماء

السبعون : طِيبُ العيش بها ، على ما تقدم هنالك أيضاً .

الحادية والسبعون : استحقاق مَنْ عاب تربتها للتعزير ؛ فقد أفتى مالك فيمن قال « تربة المدينة رديئة » بأن يضرب ثلاثين دِرّةً ، وأمر بحبسه ، وكان له قَدْر ، وقال : ما أحْوَجَه إلى ضرب عنقه ، تربةٌ دُفن فيها النبى صلى الله عليه وسلم يزعم أنها غير طيبة ؟

الثانية والسبعون : الوعيد الشديد لمن حلف يميناً فاجرة عند منبرها .

الثالثة والسبعون : استحبابُ الدخول لها من طريق والرجوع فى أخرى ، لما سيأتى فى مسجد المعرَّس (١) .

الرابعة والسبعون : استحباب الاغتسال لدخولها .

الخامسة والسبعون : استحباب الدعاء والطلب من الله الموتَ بها .

---

(١) المعرس — بزنة المكرم — هو والتعريس بمعنى النزول ليلا .

السادسة والسبعون : أنها دار إسلام أبداً ؛ لحديث «إن الشياطين قد يُئِسَتْ أن تعبد ببلدى هذا » .

السابعة والسبعون : أنها آخر قُرَى الإسلام خرابا ، رواه الترمذى وقال : حسن غريب ، ورواه ابن حبان بلفظ « آخر قرية فى الإسلام خرابا المدينة »

الثامنة والسبعون : تخصيص أهلها بأبعد المواقيت وأفضلها ؛ تعظيما لأجورهم .

التاسعة والسبعون : ذهب بعض السلف إلى تفضيل البداءة بالمدينة قبل مكة ، وهى مسألة عزيزة ، وممن نص عليها ابن أبى شيبة فى مُصَنفه فروى عن علقمة والأسود وعمرو بن ميمون أنهم بدؤا بالمدينة قبل مكة ، وأن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يبدؤن بالمدينة ، وفى المناسك الكبير للإمام أحمد رواية ابنه عنه : سُئل عمن يبدأ بالمدينة قبل مكة ، فذكر بإسناده عن عبد الرحمن بن يزيد وعطاء ومجاهد قالوا : إذا أردت مكة فلا تبدأ بالمدينة وابدأ بمكة ، فإذا قضيت حجك فامرر بالمدينة إن شئت ، وعن إبراهيم النخعى ومجاهد : إذا أردت مكة للحج والعمرة فاجعل كل شىء لها تبعاً ، ثم روى أن نَفَرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يبدؤن بالمدينة إذا حجوا ، يقولون : نبدأ من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وهذا أرجح ؛ لتفضيل ميقات المدينة ، و إتيانُ المدينة أولاً وُصلةٌ إليه ، مع ما فيه من البداءة بزيارة النبى صلى الله عليه وسلم و إيثارها ، ولعله السبب عند مَنْ بدأ بالمدينة ممن تقدم ذكره من التابعين كما قال السبكى . ونقل الزركشى عن العبدى شارح الرسالة من المالكية أنه قال : المشىُ إلى المدينة لزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم أفضل من الكعبة ومن بيت المقدس ، انتهى . والخلاف فيما إذا لم تكن المدينة على طريقه ؛ لأن مأخذ مَنْ رجّح البداءة بمكة المبادرة إلى قضاء الفرض ، ولهذا قال الموفق ابن قدامة : قال أحمد : و إذا حج الذى لم يحجج قط — يعنى من غير طريق

الشام – لا يأخذ على طريق المدينة ؛ لأنى أخاف أن يحدث به حدث ، فينبغى أن يقصد مكة من أقصر الطرق ولا يتشاغل بغيره ، قال السبكى : وهو فى العمرة متجه ؛ لإمكان فعلها متى وصل ، وأما الحج فله وقت مخصوص فإذا كان متسعاً لم يفت بمروره بالمدينة شىء . قلت : ومع ذلك فهو فى الفرض ، ولهذا قال فى الفصول : نقل صالح وأبو طالب : إذا حج للفرض لم يمر بالمدينة ؛ لأنه إن حدث به حدثُ الموتِ كان فى سبيل الحج ، وإن كان تطوعا بدأ بالمدينة ، انتهى . وممن نص على المسألة أيضاً الإمامُ أبو حنيفة على ما نقله أبو الليث السمرقندى ، وقال : إن الأحسن البداءة بمكة .

الثمانون : اختصاص أهلها فى قيام رمضان بستة وثلاثين ركعة ، على المشهور عند الشافعية ، قال الرافعى والنووى : قال الشافعى : رأيت أهل المدينة يقومون بتسع وثلاثين ركعة ، منها ثلاث للوتر ، قال أصحابنا : وليس لغير أهل المدينة ذلك ؛ لشرفهم بمُهَاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره ، ثم قال الرافعى : وسببُ فعلِ أهل المدينة ذلك أن الركعات العشرين خمس ترويحات ، وكان أهلُ مكة يطوفون بين كل ترويحتين أسبوعا[1] ، ويُصَلُّون ركعتى الطواف أفراداً ، وكانوا لا يفعلون ذلك بين الفريضة والتراويح ولا بين التراويح والوتر ، فأراد أهل المدينة أن يساووهم فى الفضيلة ، فجعلوا مكان كل أسبوع — أى مع كل ركعتيه — ترويحة ؛ فحصل أربعُ ترويحاتٍ هى ستةَ عَشَرَ ركعةً ، انتهى .

ونقل الرويانى فى البحر هذا السبب عن الشافعى . وقال القاضى أبو الطيب الطبرى : قال الشافعى : لا يجوز لغير أهل المدينة أن يماروا أهل مكة ولا ينافسوهم لأن الله فضَّلهم على سائر البلاد ، انتهى . وحاصل التوجيه أن الحسد فى الخير مطلوب ، وهو فى الحقيقة غبطة كما حَسَدَ المهاجرون – لما لم يكن لهم ما يتصدقون به – الأنصارَ فقالوا : ذهبَ أهلُ الدُّثُور بالأجور[2] ، فأثبت أهل المدينة هذا العدد

---

(١) يريد سبعة أشواط (٢) يعنى ذهب الأغنياء بالثواب ؛ لأنهم يتمكنون من الصدقة بسبب مالهم ، وهى مستوجبة للأجر ، ولا يستطيعها الفقراء .

بضرب من الاجتهاد ليلحقوا بأهل مكة ، وقد تشارك البَلَدانِ فى الفضائل حتى اختلف فى تفضيل كل منهما على الأخرى ، وجعل لأهل المدينة ما يحصل به ثواب الاعتمار والحج ، وامتازت المدينة بالمهاجر والقبر ، فجعل لأهلها طريق إلى تحصيل تلك الفضيلة السابقة مع إقامتهم بها ، ولعله لو لم يشرع لهم ذلك لحملتهم الرغبة فى الخير على الانتقال إلى مكة ، وسكنى المدينة مطلوبٌ ، وأما غيرهم فليس له شىء من هذا الفضل ، فكيف يتأتى له مساواة أهل مكة ؟ فلم يشرع لهم ذلك ، هذا ، وإجماع أهل المدينة حجة عند مالك ، والقيام بهذا العدد بالمدينة باقٍ إلى اليوم إلا أنهم يقومون بعشرين ركعة عقب العشاء ، ثم يأتون آخر الليل فيقومون بستة عشر[1] ركعة ، فوقع لهم خَلَل فى أمر الوتر نبَّهنا عليه فى كتاب « مصابيح القيام ، فى شهر الصيام » وكنت قد ذكرت لهم ما يحصل به إزالة ذلك ، ففعلوه مدة ، ثم غلبت الحظوظ النفسية على بعضهم فعاد الأمر كما كان .

الحادية الثمانون : زيادة البركة بها ، على مكة المشرفة ، وقد قدمنا حديثاً يشير إلى أن المدعو به لها ستة أضعاف ما بمكة من البركة ، والمصرح به فى الأحاديث « ضعفى ماجعلت بمكة من البركة » وفى بعضها « مثل ما جعلت بمكة من البركة ومع البركة بركتين » .

الثانية والثمانون : نقل عن مالك أن خبر الواحد إذا عارضه إجماع أهل المدينة قدم إجماعهم ، ولهذا روى حديث خيار المجلس ثم قال : وليس لهذا عندنا حدمعلوم ولا أمر معمول به ؛ لمااختص[2] به أهلُ المدينة من سكناهم مَهْبِطَ الوحى ومعرفتهم بالناسخ والمنسوخ ، فمخالفتهم تقتضى علمهم بما أوجب ترك العمل من ناسخ أو دليل راجح ، والمحققون على أن البقاع لا أثر لها فى ذلك ، وقد بلغ ابنَ أبى ذئب — وهو من أقران مالك — مخالفتُه للحديث فأغلظ فى ذلك لأن العصمة إنما

---

(١) كذا ، وحق العربية أن يقول « بست عشرة ركعة » .

(٢) هذا تعليل لتقديم إجماع أهل المدينة .

تثبت فى إجماع جميع الأمة ، ويؤخذ من كلام مالك اختصاصُ ذلك بعمل أهل ذلك العصر من أهل المدينة[1] .

الثالثة والثمانون : حديث النسائى والبزار والحاكم واللفظ له « يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدوا عالما أعْلَمَ من عالم المدينة» وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقد كان ابنُ عُيَيْنة يقول : نرى هـذا العالم مالك بن أنس، انتهى . قال الزركشى : وفيماحكاه عن سفيان نظر ؛ لما فى صحيح ابن حِبَّان أن إسحاق بن موسى قال : بلغنى عن ابن جُرَيج أنه كان يقول : نرى أنه مالك ابن أنس ، فذكرت ذلك اسفيان بن عُيَينة فقال : إنمـــا العالم مَنْ يخشى الله ، ولا نعلم أحداً كان أخشى لله من العمرى ، قال التوربشتى فى شرح المصابيح : يعنى عبدالله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب ، كان من عباد الله الصالحين المشائين فى بلاده وعباده بالنصيحة . بلغنا أنه كان يخرج إلى البادية ليتفقد أهلها شفقة عليهم وأداء لحق النصيحة فيهم ، وقد أخرج الترمذى الحديث وحَسَّنه ، وتكلم ابن حزم فيه ، ثم قال : ولم يتعين هذا فى مالك ؛ لأنه كان فى عصره جماعة لايفضل على واحد منهـم ، وكان بالمدينة مَنْ هو أجل منه كسعيد بن المسيب ؛ فهذا الحديث أولى به . وقال ابن عيينة : ولوسئل : أىُّ الناس أعلم؟ لقالوا : سفيان الثورى ، قال ابن حزم : وإن صح هذا الحديث فإنما يكون إذا قرب قيام الساعة وأرِزَ الإيمان إلى المدينة وغلب الدجال على الأرض خلا مكة والمدينة ، وأما حتى الآن فلم يأت صفة ذلك الحديث ؛ لأن الفقه انقطع من المدينة جملةً ، واستقر فى الآفاق ، انتهى . ولا يخلو عن نزاع .

الرابعة والثمانون : تحريمُ نقل أحجار حرمها وترابه كما سيأتى بيانه .

---

(١) لأن أهل ذلك العصر هم الذين شاهدوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأوا مايفعلون ومايتركون ؛ فإذا اتفقوا على فعل شىء أو تركه دل على أنه لم يكن فى الصحابة من يخالف ذلك ، وإلا لوجد من يعمل على غرار عمل المخالف من الصحابة .

الخامسة والثمانون : لو نذر تطييبَ مسجد المدينة وكذا الأقصى ففيه تردد لإمام الحرمين ؛ لأنا إن نظرنا إلى التعظيم ألحقناهما بالكعبة ، أو إلى امتياز الكعبة بالفضل فلا ، وكلام الغزالى فى آخر باب النذر يقتضى اختصاصه بالمسجدين كما فرضناه ، لا فى غيرهما من المساجد ، والإمام طَرَدَه فى الكل ، وحيث كان الملحظ ما ذكر فينبغى أن لا يتوقف فيما لو نذر تطييب القبر الشريف .

السادسة والثمانون : إذا نذر زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم لزمه الوفاء بذلك وجهاً واحداً ، وفى وجوب الوفاء فى زيارة قبر غيره وجهان ، قاله ابن كَجّ ، وأقره عليه الرافعى والنووى وغيرهما .

السابعة والثمانون : قيامُ مسجدها مقام المسجد الأقصى كالمسجد الحرام فيما لو نذر الصلاة أو الاعتكاف فى الأقصى ؛ فإن الأصح لزومه به ، وأجزأ مسجد المدينة لزيادة فضله ، ولو نذرهما بمسجد المدينة لم يجزه فعل ذلك بالأقصى ويجزيه بالمسجد الحرام .

الثامنة والثمانون: الاكتفاء بزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن نذر إتيان مسجد المدينة ، كما قال الشيخ أبو على تفريعاً على القول بلزوم إتيانه كما قاله الشافعى والبُوَيْطى وعلى أنه لابد من ضم قربة إلى الإتيان كما هو الأصح تفريعاً على اللزوم ، وعلله الشيخ أبو على بأن زيارته صلى الله عليه وسلم من أعظم القربات ، وتوقف فى ذلك الإمام من جهة أنها لا تتعلق بالمسجد وتعظيمه ، قال : وقياسه أنه لو تصدق فى المسجد أو صام يوماً كفاه ، وفيه نظر ، على أن الصحيح ما نص عليه فى المختصر من عدم لزوم الإتيان ، وإن كان اللزوم أرجَحَ دليلا ، ورجح الرافعى تفريعاً على اللزوم ضم صلاة أو اعتكاف ، وكذا إذا نذر إتيان الأقصى ، فإن نفس المرور لما لم يكن فى نفسه مزية انصرف النذر إلى ما يقصد فيه من القُرَبِ وبهذا يترجح ما قاله الشيخ أبو على ؛ لأن إتيان مسجد المدينة يقصد للصلاة والاعتكاف والزيارة بخلاف غيره

التاسعة والثمانون : قال ابن المنذر: إذا نذر أن يمشي إلى مسجد الرسول والمسجد الحرام لزمه الوفاء به لأنه طاعة ؛ ومن نذر أن يمشي إلى بيت المقدس كان بالخيار : إن شاء مشى إلى المسجد الأقصى ، و إن شاء مشى إلى المسجد الحرام ؛ لحديث أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنى نذرت إن فَتَحَ الله عليك مكة أن أصلى فى مسجد بيت المقدس ، قال صلى الله عليه وسلم «صَلِّ هنا ، ثلاثاً » انتهى . و يعلم مما تقرر فى إجزاء مسجد المدينة عن الأقصى فى الإتيان والصلاة إجزاؤه هنا كالمسجد الحرام ، والذى اقتضاه كلام البغوى تصحيح عدم لزوم المشى فى مسجد المدينة والأقصى ، وهو الذى رجحوه .

التسعون : قوله صلى الله عليه وسلم فى أحاديث تحريمها « ولا يُحْمَلُ فيها سلاح لقتال » .

الحادية والتسعون : قوله فيها أيضاً « ولا تلتقط لقطته إلا لمن أشاد بها [1] » .

الثانية والتسعون : إذا قلنا بضمان صَيْدها وقطع شجرها فالصحيح أنه يُسْلَبُ الصائد كما يسلب قَتيلُ الكفار ، وهذا أبلغ فى الزجر من الجزاء [2] .

الثالثة والتسعون : جواز نقل ترابها للتداوى .

الرابعة والتسعون : ظهور نار الحجاز التى أخبر بها صلى الله عليه وسلم مما حولها ؛ لأنها للإنذار ، فاختصت ببلد النَّذِير ، ثم لما بلغت الحرم وكان مُحَرِّمه المبعوث بالرحمة خمدت وطفئت ، على ماسيأتى .

الخامسة والتسعون : دعاؤه صلى الله عليه وسلم بالبركة فى سُوقها .

السادسة والتسعون : ماسيأتى فى سوقها من أن الجالب إليه كالمجاهد فى سبيل الله .

السابعة والتسعون : أن المحتكر فيه كالملحد فى كتاب الله .

الثامنة والتسعون : ماسيأتى فى بئر غرس من أنه صلى الله عليه وسلم « رأى

---

(١) أشاد بها : عرفها ونوه بها ، والمراد أنه لايجوز التقاطها للتملك .

(٢) قد شرع الله جزاء لمن قتل صيد مكة وهو محرم .

أنه أصبح على بئر من آبار الجنة ، فأصبح على بئر غرس » ورؤيا الأنبياء حق ، عليهم الصلاة والسلام ! .

التاسعة والتسعون : ماسبق فى ثمارها من أن العَجْوة من الجنـة ؛ فقد اشتملت المدينة على شىء من أرض الجنة ومياهها وثمارها ، والله أعلم .

الفصـــــل الثامن

فى الأحاديث الواردة فى تحريمها ، وهى كثيرة

روينا فى الصحيحين منها حديث عبد الله بن زيد « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها » ، وفى لفظ « ودعا لأهلها ، وإنى حرمت المدينة كما حَرَّمَ إبراهيم مكة » الحديثَ .

وفى البخارى حديث أبى هريرة رضى الله عنه « حرم ما بين لاَبَتَى[1] المدينة على لسانى » قال : وأتى النبى صلى الله عليه وسلم بنى حارثة فقال : « أراكم يابنى حارثة قد خرجتم من الحرم، ثم التفت فقال : بل أنتم فيه » وسيأتى بيان منازلهم[2] ، وفيه أيضاً عنه : لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذَعَرْتُها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مابين لابتيها[1] حرام » وهو فى مسلم بزيادة ، ولفظه « حرم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما بين لابتى[1] المدينة » قال أبو هريرة : فلو وجدت الظباء ما بين لابتيها[1] ما ذَعَرْتُها ، وجعل اثنى عشر ميلا حول المدينة حِمًى .

وفى مسلم أيضاً عن عاصم الأحول : « سألت أنسا أحرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ؟ قال : نعم، هى حرام : لا يُخْتَـلَى خَلاَها[3] ، فمن فعل ذلك فعليه لعنة الله والملائـكة والناس أجمعين » .

وفيه أيضاً حديث رافع بن خديج رضى الله عنه « إن إبراهيم حرم مكة ، وإنى أحرم ما بين[1] لابتيها » يريد المدينة .

---

(١) اللابتان : مثنى لابة ، وهى الحرة على ماسيأتى للمؤلف (ص ٩١) .

٢ انظر ص ٩١ .

(٣) لايختلى : أى لايجز ولا يقطع ، والخلى : الرطب من النبات .

وفيه أيضاً حديث جابر « إن إبراهيم حرم مكة ، و إنى حرمت المدينة ما بين لابَتَيْهَا : لا تقطع عِضَاهُها ، ولا يصاد صيدها » .

وفيه أيضاً من حـديث أبى سعيد الخدرى « اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً ، و إنى حرمت المدينة حراماً ما بين مأزمَيْها ، أن لا يُهَرَاقَ فيها دم ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يُخْبَطَ[1] فيها شجرة إلا لعلف » الحديث .

وفيه أيضاً من حديث أنس « اللهم إنى أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم إبراهيم عليه السلام مكة » .

قلت : المراد بجبليها عَيْر وثَوْر ، وهما المعبر عنهما فى الحديث قبله بمأزميها على ما صوّبه النووى، ونسبة تحريم مكة لإبراهيم عليه السلام دليل لماذهب إليه جماعة من أنها لم تَزَلْ حلالا كغيرها إلى زمن إبراهيم عليه السلام ، فحرمت ، والثانى — وصححه النووى ، ونقل عن الأكثرين — أنها لم تزل حراماً منذ خلق الله السموات والأرض ، ثم أظهر الله تعالى ذلك على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام . قال الزركشى : وفيه جمع بين الأحاديث . قلت : الأحكام قديمة ؛ لأنها خطاباته تعالى ، والحادث إنما هو تعلقاتها بالمكلفين ، فإذا كان ظهور تحريمها على لسان إبراهيم عليه السلام فذلك أول تعلق الحكم التكليفى ، فما معنى ما يقوله الثانى من تحريمها يوم خلق الله السموات والأرض مع انتفاء التعلق التكليفى حينئذ ؟ و يجوز أن يكون بمعنى أن الله تعالى أظهر ذلك لملائكته يوم خلق السموات والأرض وعرفهم به ، وتأخر تعلق التكليف به حتى ظَهَرَ على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام وهذا لا يأباه القول الأول ، بل يسلمه ، وهو حسن ، و به يجتمع معنى الأحاديث ، ولا يخفى أن خطاب الله تعالى بتحريم المدينـة قديم أيضاً ، وتأخره من حيث التكليف إلى أن أظهره النبى صلى الله عليه وسلم ليس فيه حط لرتبتها ، بل دليل كمالها حيث ادّخَر الله ذلك حتى جعله على لسان أشرف المرسلين صلوات الله

---

(١) لا يخبط شجرها : أى لا تشد أغصانها وينفض ورقها .

وسلامه عليه ، مع أنهم ذكروا فى معنى تحريم إبراهيم لها احتمالين : أحدهما : أنه بأمر الله تعالى له ، والثانى : أنه دَعَا لها فحرمها الله بدعوته ، ويقال مثله فى تحريمه صلى الله عليه وسلم للمدينة .

وقوله : « ما بين لابَتَيْها » أى حَرَّتيْها الشرقية والغربية والمدينةُ بينهما ، ولهـا أيضاً حَرَّة بالقِبْلة وحَرَّة بالشام ، لكنهما يرجعان إلى الشرقية والغربية لاتصالها بهما ، ولهـذا جمعها صلى الله عليه وسلم كلها فى اللابتين كما نبه عليه الطبرى .

قال النووى : وهو حد الحرم من جهة المشرق والمغرب ، وما بين جبليها بيان لحده من جهة الجنوب والشمال ، قال : ومعنى قوله « مابين لابتيهـا » اللابتان وما بينهما ، والمراد تحريم المدينة ولابتيها .

قلت : ويؤيده أن اللابتين شرقا وغربا فى محاذاة أحد الجبلين الآتى بيانهما ، وأن منازل بنى حارثة فى محاذاة اللابة الغربية على ما اقتضـاه كلام المطَرى فيما قدمناه عنه من الباب الأول فى ترجمة أثرب ، والذى ترجح عندى أن منازلهم كانت باللابة الشرقية ممـا يلى العُرَيض وما قارب ذلك ؛ لأن الإسماعيلى روى الحديث المتقـدم بلفظ « ثم جاء بنى حارثة وهم فى سَنَدالحرة » أى الجانب المرتفع منها ، وسيأتى فى منازلهم ما يبين أن المراد الحرة الشرقية ، وليس الموضع الذى ذكره المطرى فى سَنَد واحدة من الحرتين ، والله أعلم . ويؤيد أيضاً ماقاله النووى أن البيهقى روى فى المعرفة حديثَ الصحيفة عن على بلفظ « إن إبراهيم حرم مكة ، وإنى أحرم المدينة مابين حرتيها وجِمَامها[1] : لا يُخْتَلَى خَلاَها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها » يعنى أنشد « ولا يقطع شجرها إلا أن يعلف

---

(١) جمام المدينة — بكسر الجيم فى أوله — هى ثلاثة أجبل فى وادى العقيق على يمين الذاهب إلى مكة ويسار الذاهب فى المسيل إلى جهة القبلتين والجرف ، وهى مشهورة بالجماوات (مكى) .

رجل بعيرا ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال » الحديث ، ورواه أحمد كذلك أيضاً ، وهو حديث صحيح ، وجمام المدينة ثلاثة كما سيأتى ، وهى مما يلى حرتها الغربية من جهة المغرب والحرة بين الجمام والمدينة .

وروى مسلم حديثَ الصحيفة بلفظ « المدينة حَرَم ما بين عَيْر إلى ثَوْر » والبخارى بلفظ « المدينة حرم ما بين عاير إلى كذا » وأبو داود بلفظ « المدينة حرام ما بين عاير إلى ثور » ثم زاد فيه وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يختلى خَلاَها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يلقط لقطتها إلا من أشاد بها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ، ولا أن يقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره » ورواه الطبرانى برجال موثَّقين مختصرا ، ولفظه عن أبى جُحيفة أنه دخل على علىّ رضى الله عنه فدعا بسَيْفه ، فأخرج من بطن السيف أدما عربياً ، فقال : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً غير كتاب الله الذى أنزل إلا وقد بلغته غير هذا ، فإذا : بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد رسول الله قال : « لكل نبى حَرَم وحرمى المدينةُ » .

الفصل التاسع

فى بيان عَيْر وثور

وهما المراد بجبليها كما تقدم .

موقع جبل عير — أما عَيْر — بفتح العين المهملة وسكون الياء آخر الحروف بلفظ العير مرادِف الحمار ، ويقال : عاير — فجبل كبير مشهور فى قبلة المدينة بقرب ذى الحُلَيفة ميقاتِ المدينة .

موقع جبل ثور — وأما ثور — بالمثلثة بلفظ الثور فَحْلِ البقر — فجبل صغير خاف أحد كما سنحققه ، فإنه خفى على جماعة من فحول العلماء فاستشكلوا الحديث ، وقالوا : ليس بالمدينة ثور ، إنما هو بمكة ، ولهذا فى أكثر روايات البخارى من عاير إلى كذا ، وفى بعضها من عير إلى كذا ، ولم يبين النهاية ، فكأنه يرى أن ذكر ثور وهم فأسقطه ،

وترك بعض الرواة موضع ثور بياضا ليتبين الوهم ، وضرب آخرون عليه .

الاختلاف في وجود جبل ثور بالمدينة

وقال المازرى : نقل بعض أهل العلم أن ذكر ثور هنا وَهم من الراوى ؛ لأن ثورا بمكة ، والصحيح « إلى أحد » .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : عير وثور جبلان بالمدينة ، وأهل المدينة لا يعرفون بها جبلا يقال له ثور ، وإنما ثور بمكة ، قال : فإذاً نرى أن الحديث أصله « ما بين عير إلى أحد » .

قلت : وكذا رواه الطبرانى برجال ثقات ، بلفظ « ما بين عير وأحد حرام ، حَرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وهو كذلك فى رواية لابن زَبَالة .

وقال الحازمى : الرواية الصحيحة « ما بين عير إلى أحد » وقيل : « إلى ثور » وليس له معنى ، وتكلف بعضهم فقال : إلى بمعنى مع ، كأنه جعل المدينة مضافة إلى مكة فى التحريم لأن ثورا بها .

وقال الموفق بن قُدَامة : يحتمل أن المراد تحريم قَدْر ما بين ثور وعير اللذين بمكة ، أو سمى النبى صلى الله عليه وسلم الجَبَلَيْنِ اللذين بطرفى المدينة عيرا وثورا ارتجالا ، انتهى . وهو يقتضى إنكار وجود عير بالمدينة أيضا .

وقد قال الزركشى : نقل عياض عن بعضهم أنه ليس بالمدينة ولا ما يقرب منها جبل يعرف بأحد هذين الاسمين ، أعنى عيرا وثورا . قال ياقوت فى معجمه : وهذا وهم ، فإن عَيْرًا جبل مشهور بالمدينة ، وقال ابن السِّيد : عَيْر جبل بقرب المدينة ، وعبارة عياض فى المشارق : عير وعاير المذكوران فى حَرَم المدينة فى أكثر الروايات عير ، وفى حديث علىّ عاير ، قال الزبير بن بكّار : هو جبل بالمدينة ، وقال عمه مصعب : لا يعرف بالمدينة عير ولا ثور ، انتهى .

وقال فى المطالع : أكثر رواة البخارى ذكروا عيرا ، وأما ثور فمنهم من كَنَى عنه بكذا ، ومنهم من ترك مكانه بياضا ، والأصلُ فى هذا التوقفِ قولُ

مصعب الزبيرى: ليس بالمدينة عير ولا ثور، وأثبت غيره عيرا، ووافقه على إنكار ثور.

قلت : سيأتى فى ترجمة عير من فصل البقاع عن مصعب الزبيرى ما يقتضى إثباته له ، وشهرة عير غير خافية بين العلماء ، إنما الغرابة فى ثور .

وقال النووى عقب نقل الحازمى المتقدم : ويحتمل أن ثورا كان اسما لجبل هناك : إما أحد ، وإما غيره ، فخفى اسمه .

وقال صاحب البيان والانتصار : قد صحت الرواية بلفظ ثور ؛ فلا ينبغى الإقدام على توهيم الرواة بمجرد عدم العرفان ، فإن أسماء الأماكن قد تتغير ، أو تنسى ولا يعلمها كثير من الناس ، قال : وقد سألت بمكة عن وادى مُحَسِّر وغيره من أماكن تتعلق بالنُّسُك ، فلم أخبر عنها مع تكرر مجىء الناس إليها ، فما ظنك بغيرها ؟ وأيضا فقد يكون للشىء اسمان فيعرف أحدهما دون الآخر .

وقال المجد : لا أدرى كيف وقعت المسارعة من هؤلاء الأعلام إلى إثبات وَهَم فى الحديث المتفق عَلَى صحته ، بمجرد ادعاء أن أهل المدينة لا يعرفون جبلا يسمى ثورا ، وذكر احتمال طرق التغيير فى الأسماء والنسيان لبعضها ، قال : حتى إنى سألت جماعة من فقهاء المدينة وأمرائها وغيرهم من الأشراف عن فَدَك[1] ومكانها فكلهم أجابوا بعدم معرفة موضع يسمى بذلك فى بلادهم ، مع أن هذه القرية لم تبرح فى أيدى الأشراف والخلفاء يتداولونها إلى أواخر الدولة العباسية ، فكيف بجبل صغير لا يتعلق به كبير أمر ، مع أنه معروف بين أهل العلم بالمدينة ، ونقل بعض الحفاظ وَصْفَه بذلك خلفا عن سلف ؟ اهـ .

قلت : قد حكى البيهقى فى المعرفة قول أبى عبيد : أهل المدينة لا يعرفون جبلا يقال له ثور ، ثم قال البيهقى : وبلغنى عن أبى عبيدة أنه قال فى كتاب الجبال : بلغنى أن بالمدينة جبلا يقال له ثور ، انتهى .

---

(١) فدك : قرية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى التى طالبت فاطمة الزهراء أبا بكر الصديق بأن يورثها إياها ؛ فروى لها حديث « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

ونقل المجد فى ترجمة عير عن نصر أنه قال : عير جبل يقـابل الثنية المعروفة بشعب الجوز ، وثور جبل عند أحد ، انتهى . فدل على أن ما اشتهر فى زماننا وقبله من وجود ثور بالمدينة له أصل فى الزمن القديم ، وإن خفى على بعضهم ، وقد أخبرنى بوجوده جماعة كثيرة من الخواص ، وأرونى إياه خلف أحد ، ونقل جماعة عن المحدث أبى محمد عفيف الدين عبد السلام بن مزروع البصرى نزيل المدينـة المشرفة أنه رآه غير مرة ، وأنه لمـا خرج رسولا من صاحب المدينة إلى العراق كان معه دليل يذكر له الأماكن والأجْبُلَ ، فلما وصلا إلى أحُدٍ إذا بقُرْبِهِ جبلٌ صغير ، فسأله : ما اسم هذا الجبل ؟ فقال له : يسمى ثورا ، وقد حكى عنه نحو هذا القطبُ الحلبى فى شرح البخارى ، وقال المحب الطبرى : أخبرنى الثقة الصدوق الحافظ العالم المجاور بحرم رسول صلى الله عليه وسلم عبدُ السلام البصرى أن حِذَاء أحُد عن يساره جانحا إلى ورائه جبل صغير يقال له ثور ، وأخبر أنه تكرر سؤاله عنه لطوائف من العرب العارفين بتلك الأرض وما فيها من الجبال ، فكل أخبر أن ذلك الجبل اسمه ثور ، قال الطبرى : فعلمنا بذلك أنّ ماتضمنه الحديث صحيح ، وعدم علم أكابر العلماء به لعدم شهرته وعدم بحثهم عنه ، انتهى .

وقد رد الجمال المطرى فى تاريخه عَلَى من أنكر وجود ثور ، وقال : إنه خَلْفَ أحُد من شماليه ، صغير مدور ، يعرفه أهل المدينة خَلَفٌ عن سلف .

وقال الأقشهرى : وقد استقصينا[1] من أهل المدينة تحقيق خبر جبل يقـال له ثور عندهم ، فوجدنا ذلك اسم جبل صغير خلف جبل أحد يعرفه القـدماء دون المحدثين من أهل المدينة ، والذى يعلم حجةٌ على من لا يعلم ، اه .

وقال العلامة أبو العباس بن تيمية : عير جبل عند الميقات يشبه العير ، وهو الحمار ، وثور جبل فى ناحية أحد ، وهو غير جبل ثور الذى بمكه .

وروى بعض شراح المصابيح أن الله تعالى لمـا كلم موسى عليه السلام على الجبل

(١) استقصينا : تتبعنا ، يريد أنه بالغ فى سؤالهم عنه فعلم من أجوبتهم أن القدامى هم العارفون بموضعه .

تقطع سِتَّ قطع ، فصارت ثلاث بمكة : حراء ، و ثَبير ، وثور ، وثلاث بالمدينه : عير ، وثور ، ورَضْوَى ، وكأن ثورا سمى باسم فَحْلِ البَقَر لشبهه به ، وهو إلى الحمرة أقرب ، وقد صح بما قدمناه أن أحُداً من الحرم ؛ لأن ثورا حده من جهة الشام كما أن عيرا حده من جهة القبلة ، ويقوم ذلك على الرواية التى فيها ذكر أحد بدل ثور ، لما فى ذلك من الزيادة عليها ، وأنها من باب ذكر فَرْدٍ مما شمله ذلك العموم بحكم العموم فلا تخصص ، مع إفادتها لإدخال ماحاذى أطراف أُحُدٍ شرقا وغربا ، وماوقع فى الشرحين والروضة وغيرهما من التحديد بما بين اللابتين و بما بين عَـيْر وأُحُد مبنى على ماتقدم من أن الرواية الصحيحة « أُحُد » لعدم وجود ثور ؛ فقد اتضح الحال ، ولله الحمد .

الفصل العاشر
فى أحاديث تقتضى زيادة الحـرم
على ذلك التحديد ، وأنه مقدر ببريد

أعلم أن قوله فى حديث مسلم « وجعل اثنى عشر ميلا حول المدينة حِمًى » ظاهر فى التحريم لذلك القدر ؛ إذ حول المدينة إنما هو حرمها ، وحمى النبى صلى الله عليه وسلم الذى ليس بحرم لم يكن حول المدينة على ما سيأتى بيانه ، ولأن التقى السبكى قال : إن فى سنن أبى داود تحديد حرم المدينة ببريد من كل ناحية ، قال : و إسنادُه ليس بالقوى ، والذى رأيته فى أبى داود عن عدى بن يزيد « حَمَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كل ناحية من المدينة بريدا بريدا ، لا يُخْبَط شجره ، ولا يُعْضَد إلا ما يساق به الجمل » رواه البزار بنحوه ، ورواه ابن زبَالة بلفظ « حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم شجر المدينة بريدا فى بريد منها ، وأذن فى المَسَد[1] والمنجدة ومتاع الناضح أن يقطع منه » والمنجدة : عصا الناضح[2]

وروى المفضل الجندى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه قال ، فى

---

(١) المسد : مرود البكرة ، وسيفسره المؤلف بهذا فى الفصل التالى .

(٢) المنجدة : عصا صغيرة تحث بها الدابة على السير ، أو ينفش بها الصوف ، وعود يحشى به حقيبة الرجل .

قصة العبد الذي وجده يعضد ـ أو يخبط ـ عضاها بالعقيق : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ وجد من يَعْضِد أو يخبط[1] شيئاً من عِضَاهِ المدينة بريدا فى فى بريد فله سَلَبه ، فلم أكن لأرد شيئاً أعطانيه رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وروى البزار عن جابر قال : « حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بريدا من نواحيها ».

وفى الأوسط للطبرانى – وفيه ضعيف – عن كعب بن مالك قال : « حَرَّم رسول الله، صلى الله عليه وسلم الشجر بالمدينة بريدا فى بريد ، وأرسلنى فأعلمت على الحرم: على شرف ذات الجيش ، وعلى شريب ، وعلى أشراف مخيض » .

ورواه ابن النجار بلفظ « حَرَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة بريدا فى بريد ، وأرسلنى فأعلمت على الحرم : على شرف ذات الجليس ، وعلى مشيرب ، وعلى أشراف المجتهر ، وعلى تيم » ورواه ابن زبالة بهذا اللفظ ، إلا أنه أسقط أشراف المجتهر ، وأبدل تيم بثيب ، وزاد « وعلى الحفياء ، وعلى ذى العشيرة » .

وروى أيضا عن كعب بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم « حمى الشجر ما بين المدينة إلى وعيرة ، و إلى ثنية المحدث ، و إلى أشراف مخيض ، و إلى ثنية الحفياء ، و إلى مضرب القبة ، و إلى ذات الجيش : من الشجر أن يقطع ، وأذن لهم فى متاع الناضح أن يقطع من حمى المدينة »

وروى أيضا عن سلمان بن كعب الدينارى أن النبى صلى الله عليه وسلم «نَزَلَ بمضرب القبة وقال : مابينى و بين المدينة حمى لا يُعْضَد، فقالوا: إلا المسد ، فأذن لهم فى المسد» .

وروى أيضا من طريق مالك بن أنس عن أبى بكر بن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى الحمى : « إلى مضرب القبة» قال مالك : وذلك نحو من بريد[2] .

---

(١) يعضد : يقطع ويجز ، ويخبط : يؤخذ ورقه ، وهذا هو الفرق بين اللفظين فى المعنى ، والعضاه : كل شجر عظيم له شوك .

(٢) سيتكلم المؤلف فى الفصل التالى عن أسماء الأماكن التى فى هذه الأحاديث

وروى أيضا عن جابر مرفوعا « كل دافعة دفعت علينا من هذه الشِّعَابِ فهى حرام أن تعضد — أو تخبط ، أو تقطع — إلا لعصفورِ قَتَبٍ أو مَسَدِ مَحَالَةٍ أو عصا حديدة »[1] .

وفى الأوسط للطبرانى بإسناد حسن عن الحسن بن رافع أنه سأل جابر بن عبد الله فقال : لنا غنم وغلمان ، ونحن وهم بثرير ، فهم يخبطون على غنمهم هذه الثمرة ، يعنى الُحْبلَةَ — قال خارجة : وهى ثمر السَّمُرِ — قال جابر : لا يخبط ولا يعضد حِمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن هشوا هشا ، ثم قال جابر : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمنع أن يقطع المَسَد ، قال خارجة : والمسد مرود البكرة .

وروى ابن زَبَالة عن أبى سعيد الخدرى قال : بعثتنى عمتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذنه فى مَسَد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ عمتك السلام ، وقل لها : لو أذنت لكم فى مَسَد طلبتم ميزابا ، ولو أذنت لكم فى ميزاب طلبتم خشبة ، ثم قال : حِمَاىَ من حيث اسْتَاقَت[2] بنو فزارة لقاحى » .

الفصل الحادى عشر

فى بيان ما فى هذه الأحاديث من الألفاظ المتعلقة بالتحديد ، وَمَنْ ذهب إلى مُقْتَضَاها

ذات الجيش قوله : «شرف ذات الجيش» قال ابن زَبالة : ذات الجيش : لقب ثنية الحفيرة من طريق مكة والمدينة ، وقال المطرى : هى وسط البيداء ، والبيداء هى التى إذا رَحَل الُحجَّاج من ذى الُحلَيفة استقبلوها مُصْعِدين إلى جهة الغرب ، وهى على جادَّة الطريق.

قلت : ويؤيده قول ياقوت : ذات الجيش موضع بعقيق المدينة ، أراد بقربه ، أو لأن سَيْلَها يدفع فيه كما سيأتى ، وقد رأيته يُطْلِق ذلك على

(١) القتب : رحل البعير ، وعصفوره : أحد أعواده ، والمسد : مرود البكرة كما قال المؤلف ، أو حبل مفتول من لحاء الشجر ، وعصا الحديدة : مثل خشبة الفأس والقدوم

(٢) فى المطبوعات هنا « من حيث اتسقت » وفيما يأتى (ص ١٠١) « من حيث ابتسقت » وكلاهما تطبيع فيما نرى .

مايدفع فى العقيق و إن بَعُدعنه . وقال أبوعبد الله محمد بن أحمد الأسدى فى وصف الطريق بين مكة والمدينة : إن من ذى الُحلَيفة إلى الحفيرة ستة أميال ، قال : وهى متعشا ، و بها بئر طيبة وحوض ، وعمر بن عبد العزيز هو الذى حفر البئر ، و بها أبيات ومسجد ، اه . ومقتضاه أن يكون ثنية الحفيرة بعد البئر ، فلعلها ثنية الجبل المسمى اليوم بمفرح ، وهناك وادٍ قبل وادى تربان يسمونه سُهمان ينطبق عليه الوصف المذكور ، وهو موافق لقول من قال : ذات الجيش وادٍ بين ذى الحليفة وتربان . فأطلق اسمها على الوادى التى هى فيه ، ولقول عياض : ذات الجيش على بريد من المدينة ، وهو ظاهر رواية الطبرانى المتقدمة ، لكنه مخالف لما سيأتى فى معنى التحديد بالبريد ، وهناك حُبِس النبىُّ صلى الله عليه وسلم فى ابتغاء عِقْد عائشة رضى الله عنها ، ونزلت آية التيمم ، والترديد فى حديث عائشة « حتى إذا كنا بالبيداء[أو] بذات الجيش» كأن سببه قرب الموضعين ، وهوظاهر فى المغايرة بينهما . وقال أبو على الهجرى : ذات الجيش : شعبة على يمين الخارج إلى مكة بحذاء الحفيرة ، قال : وصدر الحفيرة وما قبَل من الصُّلصُلين يدفع فى بئر أبى عاصية ، ثم يدفع فى ذات الجيش ، وما دبر منها يدفع فى البطحاء ، ثم تدفع البطحاء من بين الجبلين فى وادى العقيق ، وذات الجيش تدفع فى وادى أبى كبير ، وهو فوق مسجد الحرم والمعرس ، وطرف أعظم الغربى يدفع فى ذات الجيش ، وطرفه الثانى يدفع فى البطحاء .

قلت : وأعظم — ويقال عظم كما سيأتى — جبل معروف اليوم على جادة مكة ، قال المطرى : وهو فى شامى ذات الجيش ، و يشهد له ماسبق عن الهجرى .

شريب قوله « شريب » الظاهر أنه مشيرب تصغير مشرب كما فى الرواية الأخرى ، وهو مابين جبال فى شامى ذات الجيش ، بينها و بين خلائق الضبوعة ، والضبوعة منزل عند يَلْيَل [1] .

---

(١) يليل — بفتح الياءين بينهما لام ساكنة — موضع قرب وادى الصفراء .

أشراف مخيض — قوله : « أشراف مَخِيض » بلفظ المخيض من اللبن — هى جبال مخيض من طريق الشام ، قاله ابن زبالة ، وقال الهجرى : مخيض وادٍ يصب فى أضم على طريق الشام من المدينة ، انتهى ؛ فكأنه يطلق على الجبال وواديها ، وقال المطرى : جبل مَخِيض هو الذى على يمين القادم من طريق الشام ، حين يُفْضِى من الجبال إلى البركة التى هى مَوْرِدُ الحجاج من الشام ، ويسمونها عيون حمزة .

أشراف المجتهر — قوله : « أشراف المجتهر » كذا رواه ابن النجار ، وتبعه المطرى ، ولم يبيناه ، وقال المجد : هكذا وقع بالجيم والهاء المفتوحة ، فإن صح فهو اسم موضع بالمدينة ، وإلا فيحتمل أن يكون تصحيف « المحيصر » بالحاء والصاد المهملتين تصغير « المحصر » موضع قريب من المدينة . قلت : الأقرب أنه تصحيف المخيض ؛ لمجيئه بدله فى بقية الروايات .

الحفياء — قوله « الحفْيَاء » قال ابن زَبَالة : هى بالغابة فى شامى المدينة ، وقال الهجرى : وراء الغابة بقليل ، وسيأتى فى ترجمتها أن بينها وبين المدينة نحو ستة أميال .

ذو العشيرة — قوله : « ذى العُشَيْرَة » تصغير عشرة من العدد ، قال ابن زبالة : شرقى الحفياء ، وقال المطرى : نقب فى الحفيَاء .

ثيب — قوله : « ثَيْب » بفتح المثلثة ثم مثناة تحتية ساكنة ثم موحدة — كذا فى النسخة التى وقعت عليها من ابن زَبَالة ، وقال : إنه جبل فى شرقى المدينة ، وكذا هو فى العقيق للزبير بن بكار ، وكذا رأيته مضبوطاً بالقلم فى أصل معتمد من تهذيب ابن هشام ؛ فإنه قال فى غزوة السويق : فخرج أبو سفيان حتى نزل بصَدْر قَنَاة إلى جبل يقال له ثَيْب من المدينة على بريد أو نحوه ، وكذا هو فى العقيق لأبى على الهجرى ، إلا أنه قال عقبهُ : ثيئب كتيعب ، فاقتضى أن الياء الساكنة بعدها همزة ، ويشهد لذلك ماسيأتى فى أسماء البقاع فى ترجمة الشظاة من شعر عباس بن مرداس ، وفى كتاب ابن شَبَّة فى حديث سلمة الآتى أول الباب السابع : فقلت يارسولَ

الله ، تباعد الصيد ، فأنا أصيد بصدور قناة نحو تَيْيب ، كذا رأيته مضبوطاً بالقلم من غير همزة ، لكنه بالمثناة من فوق ، ووقع في كتاب ابن النجار وتبعه المطرى تيم بفتح المثناة الفوقية والتحتية وبالميم . قلت : وفي شرقيّ المدينة جبل يعرف اليوم بهذا الاسم ، وقال المجد : إنه تصحيف ، والصواب يتيب ، بلفظ مضارع تاب (١) إذا رجع ، فهو بالتاء المثناة من فوق ، ولذا ذكره في مادتها من القاموس ، وقال في مادتها أيضاً تيأب كفعلل موضع . ولم يتعرض لذلك في الثاء المثلثة .

وعيرة — قوله : «وَعِيرة» — بفتح أوله من الوعورة ، وهي خشونة الأرض — جبل شرقيّ ثور ، وهو أكبر من ثور وأصغر من أحد .

ثنية المحدث — وقوله : « ثنية المحدث » لم أر من تكلم عليه من مؤرخي المدينة وغيرهم ، والعجب من المجد كيف أهمله مع إيراده الحديث في كتابه .

مضرب القبة — قوله : «مضرب القبة » قال المجد كالمطرى : ليس اليوم معروفا ، ولا تُعلم جهته ، قال : والذي يظهر [أنه] ما بين ذات الجيش من غربيّ المدينة إلى مخيض .

قلت: قال أبو على الهجرى: مضرب القبة بين أعظم و بين الشام نحو ستة أميال، أى من المدينة ، وقد تقدم قول مالك عقب التحديد به : وذلك نحو من بريد ، ولعله يريد مجموع الحرم .

ثرير — قوله : « بثرير » لم أر من تكلم عليه حتى المجد .

غزوة ذى قرد — قوله : « من حيث استاقت (٢) بنو فَزَارة لقاحى» كانت لِقَاحُه صلى الله عليه وسلم ترعى بالغابة وما حولها ، فأغار عليها عُيَيْنة بن حِصْن الفَزَارى يوم ذى قَرد ، واتفق لسَلَمة بن الأكوَع ما اتفق من استنقاذ اللِّقَاح ووصول الفرسان إليه وهو يقاتلهم ويرميهم بالنبل ، وسميت غزوة ذى قَرد بالموضع الذى كان فيه القتال .

والتحديدُ بهذه الأماكن مؤيِّد لكون مجموع الحرم بريداً ، ولذلك قال

---

(١) لو كان مضارع تاب بمعنى رجع لقيل « يتوب »

(٢) في المطبوعات هنا « ابتسقت » تطبيع ، وانظر (ص ٩٨)

ابن زَبالة عقب ما تقدم عنه : وذلك كله يشبه أن يكون بريدا فى بريد ، انتهى. ويحمل عليه قول أبى هريرة فى حديث مسلم « وجعل اثنى عشر ميلا حول المدينة حمى » لأن ذلك هو البريد : أى ستة أميال من جهة قبلتها ، وستة أميال من جهة شاميها ، وكذلك فى المشرق والمغرب ، ومثلُه حديث « حمى كل ناحية من المدينة بريداً » أى من القبلة إلى الشمال بريداً ، ومن المشرق إلى المغرب بريدا ، وقد أخذ بذلك مالك رحمه الله ، لكن فرّق بين حرم الشجر وحرم الصيد ، وجعل البريد حرم الشجر ، وما بين اللابتين حرم الصيد .

قال عياض فى الإكمال : قال ابن حبيب : تحريم ما بين اللابتين مخصوص بالصيد ، قال : وأما قطع الشجر فبريد فى بريد فى دور المدينة كلها ، بذلك أخبرنى مطرف عن مالك ، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن وهب ، انتهى . وحكى الباجى فى المنتقى مثله عن ابن نافع ، ونقل ابن زبالة عن مالك أنه قال : الحرمُ حَرَمَانِ ؛ فحرم الطير والوحش من حرة واقم — أى وهى الحرة الشرقية — إلى حرة العقيق — أى وهى الغربية — وحرم الشجر بريد فى بريد ، وقال البرهان ابن فرحون : حرم الصيد ما بين حِرَارِها الأربع ، وسماها أربعاً لوجود الحرتين المذكورتين فى الجهات الأربع ؛ لانعطاف بعض الشرقية والغربية من جهة الشمال والقبلة ، ولم يُعَوِّلْ أصحابنا فى تحديد الحرم على البريد مع ما فيه من الزيادة ؛ لأن أدلته ليست بالقوية ، فعولوا على ما اشتملت عليه الأحاديث الصحيحة من الجبلين واللابتين ، على أن إطلاق أحاديث التحريم مقتضٍ لعدم الفرق بين حرم الشجر وحرم الصيد ، سواء كان الحرم بريداً أو دونه ، غير أن فى أحاديث البريد مايشعر بأنه للشجر ، مع أن ابن زبالة — ومحلّه من الضعف معلوم[1] — رَوَى عن ابن بشير المازنى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحَرِّمُ ما بين لابتيها — يعنى المدينة — من

---

(١) انظر ما تقدم لنا عنه فى (ص ٨ هـ ٣)

الصيد ، وعن أبى هريرة وغيره نحوه ، وفى رواية له «من الطير أن يُصَادَ بها » وقد يقال : هو من باب إفراد فردٍ مما حرم بالذكر .

فإن قيل : قوله فى حديث مسلم « حرم ما بين لا بَتَيْها ، وجَعَل اثنى عشر ميلا حول المدينة حِمًى » دال على الفرق المذكور .

قلنا : ممنوع ؛ لأن غايته أن يراد بالحمى الحرم ، فكأنه قال : وجعل اثنى عشر ميلا حولها حرماً ؛ إذ ليس فيه أنه جعله حمى الشجر .

مقدار البريد والفرسخ والميل

تتمة : البريد أربع فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع بذراع اليد على الأصح ، كما صححه ابن عبد البر وغيره ، وهو الموافق لاختيار ما ذكره من المسافات فى الحرم المكى وغيره ، وذراع اليد — على ما ذكره المحب الطبرانى والنووى وغيرهما — أربعة وعشرون أصبعاً ، كلُّ أصبع ست شعيرات مضمومة بعضها إلى بعض ، وغلّط النووى القلعى فى قوله « ثلاث شعيرات » ومقدار الذراع المذكور من ذراع الحديد المستعمل فى القماش بمصر الآن ذراع إلا ثمن ذراع ، كما اعتبرته أنا وغيرى ، ومشى عليه التقى الفاسى فى تاريخ مكة المشرفة ، وليكن ذلك على ذُكْرٍ منك إذا مررت بشىء مما ضبطناه فى المسافات فى كتابنا هذا ، وقيل : الميل ستة آلاف ذراع ، ومشى عليه النووى ، وهو بعيد ، ولعل قائله هو الذى يجعل الإصبع فى الذراع ثلاث شعيرات فقط ، وقيل : الميل ألفا ذراعٍ ، والصوابُ ما قدمناه ، والله أعلم .

الفصل الثانى عشر

فى حكمة تخصيص هذا المقدار المعين بالتحريم

حكمة التخصيص

اعلم أن المفهوم من تحريم ذلك تشريفُ المدينةِ الشريفة وتعظيمها به لحلول أشرف المخلوقين صلوات الله وسلامه عليه ، وانتشار أنواره وبركاته بأرضها ، وكما

أن الله تعالى جعل لبيته حرماً تعظيما له جعل لحبيبه وأكرَم الخلق عليه ما أحاط بمحله حرماً : تلتزم أحكامه ، وتُنَال بركاته ، ويوجد فيه من الخير والبركة والأنوار المنتشرة والسلامة العاجلة والآجلة ما لا يوجد فى غيره ، ولهذا حثّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بنى حارثة على السكون به كما أشار إليه بقوله « أراكم يا بنى حارثة قد خرجتم من الحرم » ثم التفت فقال « بل أنتم فيه » وذلك لخصوصية السكون فيه على السكون خارجه ، وتخصيصُ ذلك المقدار إما أن يكون لما شاهده صلى الله عليه وسلم فيه من أمر رَبّانى ، وسر روحانى بثه الله فيه إلى تلك الحدود المتقدمة، وقد ذكر أهلُ الشهود أنهم يشاهدون الأنوار مُنْبثة فى الحرم وأهله إلى حدوده ، ولها منابع تفيض عنها ، وذلك فى الحرمين جميعاً ، فترتبت الأحكام الظاهرة على تلك الحقائق الباطنة ، ولهذا لما بلغت النار الآتى ذكرُها طرفَ هذا الحرم الشريف طَفِئت كما سيأتى ، وإما أن يكون بمقتضى أمر إلـهى ، ووحى ربانى لا ندركه نحن؛ إذ العقول البشرية قاصرة عن إدراك معانى الأحكام المتَلقَّاة عن النبوة ، وإنما يظهر لها لايحه من شوارق مطالعها عند التأييد والتسديد ، هدانا الله لإدراكها بمنه وكرمه .

وجوه تذكر فى حكمة التحديد

وقد قيل فى حكمة تحديد الحرم المكى أشياء يمكن مثلها هنا ؛ فقيل : لما أهبط آدم إلى الأرض أرسل الله ملائكة حَفّوا بمكة من كل جانب ووقفوا فى موضع أنصاب الحرم يَحْرُسُون آدم عليه السلام ، فصار ذلك حرماً . وقيل : لما وضع الخليل عليه السلام الحجَرَ الأسود فى الكعبة حين بناها — وهو من أحجار الجنة — أضاء الحجر من الجهات الأربع ، فحرم الله تعالى الحرم من حيث انتهى النور . وقيل : إن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن ينزل بياقوتة من الجنة ، فنزل بها ، فمسح بها رأس آدم ، فتناثر الشعر منه ، فحيثُ بلَغ نورها صار حرماً ، وهو من جنس ما قبله . وقيل غير ذلك ؛ وحينئذ فيحتمل أن تكون الملائكة الموكلة بحراسته صلى الله عليه وسلم وحراسة بلده الشريف قائمة بتلك الحدود ، فانتهى الحرم

إليها ، ويحتمل أن درته الشريفة التى خلق منها لما كان مأخذها موضع قبره الشريف ، وهو أعظم رياض الجنة ، واشتمل مسجده أيضاً على روضة من رياض الجنة، انبثت الأنوار من ذلك إلى ما لا يعلم غايته إلا الله ، ولكن أبصار الناظرين لها غايات ؛ فقد يكون انتهاؤها إلى تلك الحدود فانتهى الحرم إليها ، ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم يوم قدومه إلى المدينة انتشرت الإضاءة ، وشوهد وصولها إلى تلك الحدود ، وسيأتى قولُ أنس بن مالك فى وَصْفِ يومِ قدومه صلى الله عليه وسلم : ما رأيت مثل ذلك اليوم قط ، والله لقد أضاء منها كل شىء ، يعنى المدينة، والله أعلم .

الفصـــــل الثالث عشر

فى أحكام هذا الحرم الشريف ، وفيه مسائل

القول فى تحريم الصيد وقطع الشجر

الأولى : اتفق الشافعى ومالك وأحمد على تحريم صَيْد حرم المدينـة ، واصطياده ، وقطع شجره . وقال أبو حنيفة : لا يحرم شىء من ذلك ، والأحاديث الصحيحة الصريحة حجة عليه ، وقد قدمنا جملة منها ، ولو لم يكن إلا قوله صلى الله عليه وسلم « كما حرم إبراهيم مكة » لـكان كفاية ؛ فإنه يتمسك به فى كلّ ما لم يقم دليل على افتراق الحرمين فيه . وروى أبو داود[1] — وسكت عليه ، قال النووى : وهو صحيح أو حسَن ، أى كما هو قاعدته فيما يسكت عليه — أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أخذ رجلا يَصِيدُ فى حرم المدينة الذى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلبه ثيابه ، فجاء مَوَاليه فـكلموه فيه ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم «حَرَّم هذا الحرم ، وقال : مَنْ أخذ أحداً يَصِيد فيه فَلْيَسْلُبْهُ فلا أرد عليكم طعمة أطعمنيها رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، ولـكن إن شئتم

(١) قد أثر المؤلف حديث سعد رضى الله تعالى عنه عن المفضـل الجندى ، (وانظر ص ١٠٦ وما بعدها) .

دفعت إليكم ثمنه » وسيأتى عنه نحوه فى قطع الشجر ، وفى الموطأ عن أبى أيوب الأنصارى أنه وجد غلمانا قد ألجئوا ثعلبا إلى زاوية ، فطردهم عنه ، قال مالك : لا أعلم إلا أنه قال : أفى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع[١] هذا ؟ وروى الطبرانى برجال الصحيح مثله عن زيد بن ثابت بدل أبى أيوب ، وفى الموطأ أيضاً أن رجلا قال : دخل علىّ زيدُ بن ثابت وأنا بالأسواف[١] ، وقد اصطدت نُهَسًا[٢] فأخذه من يدى ، فأرسله[١] . ورواه الطبرانى أيضاً مع تسمية المبهم ، ولفظه : عن شرحبيل بن سعيد قال : أخذت نُهَسًا[٢] — يعنى طائراً — بالأسواف ، فأخذه منى زيد بن ثابت فأرسله ، وقال : أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حَرَّمَ ما بين لَابَتَيْها . وفى رواية له « أتانا زيدُ بن ثابت ونحن فى حائط لنا ، ومعنا فِخَاخ ننصب بها ، فصاح وطردنا ، وقال : ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيدها . ورواه أحمد أيضا — وكذا الشافعى فى حرملة — عن شرحبيل بن سعد ، وقد وثقه ابن حبان وضعفه غيره ؛ ولفظه : دخل علينا زيد بن ثابت حائطا ونحن غلمان ننصب فِخَاخاً للطير ، فطردنا وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيدها » . ورواه ابنُ زَبَالة بلفظ : كنت مع بنى زيد بن ثابت بالأسواف[١] ، فأخذوا نُهَساً[٢] ، فاستفتح زيد بن ثابت وهو فى أيديهم ، فدفعوه فى يدى وفرّوا ، فدخل زيد ، فأخذه من يدى فأرسله ، ثم لطم فى قفاىَ وقال : لا أم لك ، ألم تعلم ، وذكر الحديث المتقدم . وروى الطبرانى عن حاجب مولى زيد بن ثابت قال : دخل علىّ زيد بن ثابت وأنا بالأسواف[١] قد اصطدت نُهَساً[٢] ، فأخذ بأذُنِى من قفاىَ وقال : تصيد هاهنا وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين لابتيها ؟ .

والنُّهَس ، كصُرَد : طائر يشبهه[٢] وليس بالصرد ، وقيل : إنه اليمام .

وفى الكبير للطبرانى برجال ثقات عن عبدالله بن عباد الزرقى — قال الهيثمى :

---

(١) انظر موطأ الإمام مالك (٨٩٠ ط الحلبى) والأسواف : موضع ببعض أطراف المدينة بين الحرتين . (٢) النهس : هو أبو براقش.

ولم أجد من ترجمهُ — قال : كنت أصيد العصافير فى بئر أهاب ، وكانت لهم ، قال : فرآنى عُبَادة بن الصامت وقد أخذت العصفور ، فينزعه منى فيرسله ، ويقول : أى بُنَىَّ ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم مابين لابَتَيْهَا كما حرم إبراهيم مكة .

وروى ابن زَبَالة ومن طريقه البزار عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : اصطدت طيرا بالقنبلة[1] ، فلقينى أبى عبدُ الرحمن ، فَعَرَكَ أذنى ، ثم أخذه منى فأرسله ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيد ما بين لابتيها .

وفى أبى داود عن مولى لسعد ، أن سعداً وجد عَبِيداً من عبيد المدينة يقطعون شجراً من شجر المدينة ، قال : فأخذ مَتَاعهم ، وقال يعنى لمواليهم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَنْهَى أنْ يُقْطَعَ من شجر المدينة شىء ، وقال : مَنْ قطع شيئاً فلمن أخذه سَلَبه » ورواه مسلم عن إسماعيل بن محمد بن عامر بن سعد ، ولفظه : أن سعداً ركب إلى قَصْره بالعقيق ، فوجد عبداً يقطع شجراً ، أو يخبطه ، فسَلَبه ، فلما رجع سعد جاءه أهلُ العبد فكلموه أن يرد على غلامهم — أو عليهم — ما أخذ من غلامهم ، فقال : « معاذ الله أن أرد شيئاً نفّلنيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم » ورواه المفضل الجندى عنه ، ولفظه : أن سعداً ركب إلى قصر له بالعقيق ، فوجد عبداً يقطع شجرة ، فأخذ سلبه ، وذكره بنحوه . ورواه أيضاً عن عبد الله بن عمر ، ولفظه : أن سعداً وجد إنساناً يَعْضِدُ ، أو يخبط ، عِضَاهَا بالعقيق ، فأخذ فأسه ونِطَعَه وشيئاً سوى ذلك ، فاطلع العبد إلى ساداته فأخبرهم الخبر ، فركبوا إلى سعد فقالوا : الغلام غلامنا ، فاردد إليه ما أخذت منه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر ما قدمناه عنه فى الفصل العاشر ، وقال فى آخره « فلم أكن لأردَّ شيئاً أعطانيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورواه ابنُ زَبَالة من طرق بنحوه . وفى بعضها أن سعد بن أبى وَقَّاص وجد جارية لعاصية السلمية تقطع الحمى

(١) القنبلة — بضم القاف والباء بينهما نون ساكنة — مصيدة يصطاد بها النهس — بوزن صرد — وهو أبو براقش .

فضربها وسلبها شملة لها وفأسا كانت معها ، فدخلت عاصية السلمية إلى عُمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستعدت على سعد ، فقال: اردد إليها يا أبا إسحاق شملتها وفأسها ، فقال : « لا ، والله لا أرد إليها غنيمة غنمنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول : مَنْ وجدتموه يقطع الحمى فاضربوه واسلبوه » واتخذ من فأسها مِسْحَاة فما زال يعمل بها حتى لقى الله . وفى بعضها : أخذ سعد بن أبى وقاص جارية لعاصيه السلمية تقطع شجراً بالعقيق ، فنزع سلبها ، وذكر نحوه . وروى أيضا عن سعد قال : غَنَّمَنَا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ وجدناه يقطع من شجر حرم المدينة الرطب منه . وعن زيد بن أسلم نحوه . وروى الجندى عن عبد الكريم بن أبى المخارق قال : أتى عمرُ بن الخطاب ناحية من المدينة فوجد غلاما لبعضهم فى حائط ، فقال: هل يأتيك ههنا أحد يحتطب؟ قال: نعم ، فقال له عمر: إن رأيت منهم أحداً فخذ فأسه وحَبْله ، قال: وثوبه؟ قال: فأبى ، وفى نسخة فأفتى ، وفى رواية عنه : أن عمر قال لغلام قدامة بن مظعون : أنت على هؤلاء الحطابين ، فمن وجدته احتطب فيما بين لابَتَى المدينة فلك فأسه وحبله ، قال : وثوباه ؟ قال عمر: ذلك كثير .

وقد اختلف القائلون بالتحريم فى حرم المدينة بالنسبة إلى الضمان بالجزاء ، فعن أحمد روايتان ، وللشافعى أيضاً قولان كالروايتين : الجديدُ منهما عدمُ الضمان وهو قول مالك ؛ لأنه ليس بمحل نُسُك ، فأشبه مواضع الحمى ووجّ الطائف [1] ، والقديمُ الضمانُ ، وهو المختار كما قاله النووى وغيره ؛ لحديث سعد المتقدم ، والجواب عنه مشكل ، وعلى هذا فالأصح أنه يسلب الصائد وقاطع الشجر والكلأ كما يسلب القتيل من الكفار حتى يؤخذ فرسه وسلاحه ، وقيل : الثياب فقط ، ويكون ذلك للسالب على الأصح ، وقيل : لفقراء المدينة كما أن جزاء صيد مكة لفقرائها ، وقيل : يوضع فى بيت المال وسبيله سبيل السهم المُرْصَد للمصالح . قال الشيخ أبو محمد : ويعطى المسلوبُ إزاراً يستر به عورته ، فإذا قدر على ما يستر به

(١) وج : واد بالطائف ، كما قاله المجد ، وقيل : هو الطائف نفسه ، وقيل : واد بينه وبين مكة .

عورته أخذه منه ، واختار الرويانى أنه يترك له ، وصوبه النووى . قال الرافعى : والذى يسبق إلى الفهم من الحديث وكلام الأئمة أنه يسلب إذا اصطاد ، ولا يشترط الإتلاف ، ولفظ الغزالى فى الوسيط : لا يسلب حتى يصطاد أو يرسل الكلب ، ويحتمل التأخير إلى الإتلاف ، انتهى . ولا فرق فى هذا بين صيد وصيد ، ولا بين شجرة وشجرة ، وكأن السلَب فى معنى العقوبة لمتعاطى ذلك . قال السراج البلقينى : ولو كان الصائد أو قاطع الشجر فى حرم المدينة عبداً هل يسلب ثيابه كما اتفق لسعد بن أبى وقاص ؟ قال : والذى يقتضيه النظر أنه لا يسلب العبد ؛ فإنه لا ملك له ، وكذلك لو كان على الصائد ثوب مستأجر أو مستعار فإنه لا يسلب ، ولم أر من تعرض له ، انتهى . قلت : التحقيق التفصيل بين ما إذا أمره السيد أو من فى معناه بذلك و بين ما إذا لم يأمره ، ويُحمَل ما اتفق لسعد على الأول ، ولو كان على الصائد والمحتطب ثياب مغصوبة لم تسلب بلا خلاف ، كما نقله فى شرح المهذب ، ونقله فى المطلب عن البحر ، ثم قال : و ينبغى أن تكون المستعارة كذلك ، ولو لم يشاهده أحد يصطاد فالظاهر أنه يجب عليه حَمْلُ السلب إلى نائب الإمام ، ولو تحدث بحضرة أحد فسمعه فهل يجوز له أن يسلبه ؟ الظاهر عندى لا ، انتهى . ولو أدخل إلى حرم المدينة صيدا لم يلزمه إرساله ، وله ذبحه به اتفاقا ، وكذا حرم مكة عندنا . وقد روى البيهقى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقدمون مكة فيرون بها فى الأقفاص القَمَارِىّ واليعاقيب[1] ، وهذا محمل حديث «يا أبا عُمَير ، ما فعل النُّغَيْر[2]» أو أنه كان قبل تحريم المدينة ؛ لأنه فى أول الهجرة ، وتحريمُ المدينة كان بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من خَيْبَر ، كما أوضح ذلك الحافظ ابن حجر . وقد تمسك أبو حنيفة بقصة أبى عمير فيما ذهب إليه من عدم تحريم صيد المدينة ؛ لذهابه فى حرم مكة إلى وجوب الإرسال على مَنْ أدخل إليه صيداً من خارجه ، قال : فلو حرم النبى صلى الله عليه وسلم صيد المدينة لما أقر النُّغير فى يد أبى

(١) القمارى : جمع قمرى ، وهو ضرب من الحمام ، واليعاقيب : جمع يعقوب ، وهو ذكر الحجل (٢) النغير : مصغر النغر — بزنة صرد — وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار ، وأبو عمير : أخو أنس .

عمير . وجوابه ما تقدم ، قال البيهقي : والذاهب إلى عدم تحريم الصيد وغيره بالمدينة زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد بقاء زينة المدينة و بهجتها لتستوطن كما منع من هَدْم آطام المدينة لذلك ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هَدْم آطام المدينة ، وقال : إنها زينة المدينة ، أى فالنهى للتنزيه . قال البيهقى : والنهى عندنا على التحريم حتى تقوم دلالة على التنزيه ، قال : واستدل المخالف بحديث سلمة « أما إنك لو كنت تصيد بالعقيق لشيَّعتك إذا ذهبت وتلقيتك إذا جئت ، فإنى أحب العقيق » قال البيهقى : وهو حديث ضعيف ، ومن يَدَّعى العلم بالآثار لا ينبغى له أن يعارض الأحاديث الثابتة فى حرم المدينة لهذا الحديث الضعيف ، وقد يجوز أن يكون الموضع الذى كان سلمة يصيد فيه خارجا من حرم المدينة ، والموضع الذى رأى فيه سعد بن أبى وقاص غلاما يقطع شجراً من حرم المدينة داخله ، حتى لا يتنافيان ، ولو اختلفا كان الحكم لرواية سعد لصحة حديثه وثقة رجاله ، دون حديث سلمة . قلت : مع أن الذى فى الصحيح من حديث سعد لا تعرض فيه لأن القطع كان بالعقيق ، وركوبه إلى قصره بالعقيق لا يقتضى أن القطع كان به ، بل يقتضى أن القطع فى موضع من الحرم خارج ، على أن ما يلى ذا الحليفة من العقيق ليس من الحرم عندنا لخروجه عما بين اللابتين ، والمالكية و إن اعتبروا البريد لحرم الصيد عندهم ما بين اللابتين كما تقدم ، مع امتداد العقيق إلى النقيع[1] ؛ فبعضه خارج عن الحرم بكل حال ، فصح ما قاله البيهقى ، وقصر سعد مع قصور العقيق فى الطرف الداخل منه فى الحرم عندنا ؛ لكونه بالحرة الغربية . هذا ، مع احتمال حديث سلمة لكونه كان قبل تحريم المدينة ، والله أعلم .

ما يستثنى مما يحرم

الثانية — استثنى المطرى تبعاً لابن النجار جواز أخذ ما تدعو الحاجة إليه للرحل — بالحاء المهملة — والوسائد ، من شجر حرم المدينة ، وما تدعو الحاجة

(١) النقيع : موضع قريب من المدينة كان يستنقع فيه الماء أى يجتمع ، وقد حمى عمر رضى الله عنه غرز النقيع لنعم الفيء وخيل المجاهدين فلا يرعاه غيرها .

ليه من حشيشه للعلف ، بخلاف مكة ، هكذا قالاه ، وسبقهما إليــه ابن الجوزى من الحنابلة فقال فى منسكه : إن المدينة تفارق مكة فى أنه يجوز أن يؤخذ من شجر المدينة ما تدعو الضرورة إليه للرحل وشبهه ، انتهى ، ومأخذهم فى ذلك ما تقدم فى الفصل العاشر فى بعض تلك الأحاديث المشتملة على الترخيص فى ذلك ونحــوه ، مع ما رواه ابنُ زَبَالة من حديث : يا رسول الله ، إنا أصحاب عمل ونَضْح ، وإنا لا نستطيع أن ننتاب أرضا ، فرخص لهم فى القائمتين والوسادة والعارضة والأسنان، فأما غير ذلك فلا يعضد ولا يخبط ، والكلامُ أولا فى توجه الاستدلال بذلك من حيث الإســناد ، مع أنا قدمنا فى غضون تلك الأحاديث ما يقتضى المنع ، سيما حديث الطبرانى بإسناد حسن إذ فيــه قول جابر : لا يخبط ولا يعضد حمى رسول الله صلى الله عليه وســلم ، ولــكن هُشُّوا هشا ، ثم قال جابر : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمنع أن يقطع المسد . قال خارجة : والمسد مرود البكرة ، ومن تأمل كلام أصحابنا الشافعية لا يفهم منــه سوى استواء الحرمين فى ذلك ؛ لقولهم : إنه يجوز أخذ حشيش حرم مكة لعلف الدواب على الأصح . وقد قال النووى فى الكلام على قوله صلى الله عليه وســلم فى حديث مسلم المتقدم « ولا يخبط شجره إلا لعلف » : إن فيه جواز أخذ أوراق الشــجر للعلف ، بخلاف خبط الأغصان وقطعها فإنه حرام ، انتهى . وقد قال هو وغيره فى شجر مكة: إنه يجوز أخذ أوراقها لــكنها لا تهش حذراً من أن يصيب لحاها . وفى شرح المهذب : يجوز أخذ ورقها والأغصان الصغيرة للسواك ونحوه ، انتهى ؛ فقد استوى الحرمان فى ذلك . وقد قال الغزالى فى البسيط والوسيط فى حرم مكة : إنه لو قطع منه لحاجة التى يقطع لها الإذخر[1] كتسقيف البيوت ونحوه ففيه الخلاف فى قطعه للدواء : أى والأصح جوازه ، وتبعه على ذلك صاحب الحاوى الصغير ؛ فجوز القطع للحاجة مطلقاً ، ولم يخص الدواء ، وقل من تعرض للمسألة ، ومنه يؤخذ جواز ما استثناه المطرى ، لــكن

---

(١) الإذخر : حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب .

مع استواء الحرمين فى ذلك . وقال القاضى عياض : قال المهلب : قَطَعَ النبى صلى الله عليه وسلم النخل من المدينة حين بنى مسجده ، وذلك يدل على أن النهى لا يتوجه لقطع شجرها للعمارة وجهة الإصلاح ، وأن يقطع شجرها ليتخذ موضعه جناناً وعمارة ، وأن توجه النهى إنما هو لقطع الإفساد واستبقاء بهجة المدينة(١) وخضرتها فى عين الوارد إليها ، انتهى . ونحوه ما روى ابنُ زَبَالة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لبنى حارثة فى طرف من الحمى « أعطيكم على أنه مَنْ قطع شجرة غرس مكانها نخلة » ومحل ابن زبالة من الضعف معروف ، والنبى صلى الله عليه وسلم إنما قطع النخل وهو شجر يستنبته الآدميون ، وفيه خلاف ؛ فالذى ذهب إليه المالكية والحنفية جواز قطعه فى حرم مكة فضلا عن المدينة ، وهو أحد القولين عندنا ، لكن الأصح إلحاقه بالذى ينبت بنفسه ، والجواب عنه باحتمال كونه قبل تحريم المدينة ، أو أنه قطعه لحاجة العمارة ؛ فإن المتجه جوازه كما تقدم عن الغزالى ، ولم يزل أهل المدينة يسقفون بيوتهم بما يقطعون من نخلها . وقد نقل الواقدى فى الحرم المكى عن ابن الزبير الترخيصَ فى قطع شجر الحرم المكى للعمارة لكن مع الفداء ، على أن الماوردى قال فيما يستنبته الآدميون : محل الخلاف فيما أنبت فى مَوَات الحرم ، فإن أنبته فى أملاكه لم يحرم بلا خلاف ، انتهى . وأما ما يستنبت من غير الشجر كالحنطة والخضْرَوَات فيجوز قطعه بلا خلاف ، وكذا ما يتغذَّى به مما ينبت بنفسه كالرجلة المسماة بالبقلة الحمقاء ونحو ذلك ؛ لأنه فى معنى الزرع ، صرح باستثنائه المحب الطبرى فى شرح التنبيه ، وهو ظاهر ؛ لأنه إذا جاز الأخذ لإطعام البهائم فالآدمى أولى .

الثالثة — ما ذكروه فى الأخذ للدواء ونحوه يتناول تحصيله وادخاره لذلك الغرض ، وإن لم يكن السبب قائما ، إلا أن عبارة الروضة : ولو احتيج إلى شىء من نبات الحرم للدواء . وفى شرح المهذب أنه يجوز أخذ النبات للعلف ، ولو

(١) فى المطبوعات « واستبقاء لهجة المدينة — إلخ » تطبيع

أخذه ليبيعه ممن يعلف به لم يجز ، ومقتضاه أن الدواء كذلك ، وظاهر إطلاق الماوردى الجواز مطلقاً ، وهو ظاهر استناد بعضهم إلى نقل السنا المكى من غير نكير.

دية القتل الخطأ فى المدينة مغلظة

الرابعة — تُغَلَّظُ الدية فى الخطأ على القاتل فى حرم المدينة كمكة فى وَجْهٍ الصحيحُ خلافه ، ومأخَذُهُ عموم قوله « كما حرم إبراهيم مكة » .

وقد اختار السراج البلقينى هذا الوجه ، قال : لأن الخلاف فى ذلك مبنى على الخلاف فى ضمان صيدها ، والمختار عند النووى ضمان صيدها بسلب الصائد . قلت : وما قاله متجه ؛ لعموم قوله « كما حرم إبراهيم مكة » و إنما اختصت مكة بمنع الكافر من دخولها مطلقا ، بخلاف المدينة فيجوز أن يدخلها بإذن الإمام أو نائبه للمصلحة ؛ لأن المشركين أخرجوا منها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاقبهم الله بالمنع من دخولها بكل حال تعظيما لرسوله صلى الله عليه وسلم ، واستحسن الرويانى فى البحر التسويةَ بين مكة والمدينة فى أن مَنْ مات من الكفار بهما يخرج ويدفن خارجهما ، وعلى القول باختصاصه بمكة موجِبُهُ ماقدمناه .

حكم لقطة حرم المدينة

الخامسة — سوّى صاحبُ الانتصار من أصحابنا بين حرم مكة والمدينة فى أن لقطتهما لا تحل للتملك ، بل للحفظ أبداً ، وقال الدارمى : لا تلحق لقطة حرم المدينة بحرم مكة فى ذلك . قلت : والذى يقتضيه الدليل ترجيح الأول ؛ للنص على ذلك فى الأحاديث المتقدمة فى الفصل الثامن ، وإن كان الأصحاب خصوا مكة بالذكر .

حكم المقاتلة فى حرم المدينة

السادسة : مقتضى قوله صلى الله عليه وسلم فى الأحاديث المتقدمة أيضا « ولا يحمل فيها سلاح لقتال » أن يأتى فيها ما نقل من الخلاف فى حرم مكة من أن المقاتلة الجائزة فى غيره تحرم فيه كقتال البغاة به [1] ، بل يُضَيِّق عليهم إلى أن يخرجوا

---

(١) البغاة : جمع باغ ، والبغاة : جماعة من المسلمين لهم شوكة خرجوا عن طاعة الإمام على تأويل لهم .

أو يفيئوا[١] كما ذهب إليه جماعة . وقال الجمهور: يقاتلون ؛ لأن هذا القتال من حقوق الله ، وحفظها فى الحرم أولى ، والحرم لا يعيذ عاصيا . وذهب الحسن البصرى إلى أنه لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة ؛ للنهى عن القتال فيه ، فلا يحمل ما هو من أسبابه ، ولقوله صلى الله عليه وسلم « لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة » رواه مسلم .

حكم الاستنجاء بحجارة الحرم

السابعة : حكى الماوردى وجهين فى جواز الاستنجاء بحجارة الحرم ، قال : ظاهرُ المذهب سقوطُ الفرض بذلك مع تأثيمه . قلت : ينبغى حمله على مَنْ نقله من الحرم ليستنجى به فى الحل مثلا ، وإلا فهو مشكل ؛ إذ لا خلاف فى إباحة البَوْل فى الحرم ، فالاستنجاء بالحجارة كذلك ، وعبارة شرح المهذب فى النقل عن الماوردى بعد حكاية الوجهين فى سقوط فرض الاستنجاء بالذهب والديباج : وطردهما الماوردى فى الاستنجاء بحجارة الحرم ، انتهى . وهى محتملة لما قررناه ، وقد نقل النووى عدمَ جواز الأكل فى الأوانى المعمولة من تراب الحرم ، على ما قاله الدميرى ، ولا شك أنه إنما عنى به المنع منه لمن أخرجها من الحرم كما لا يخفى .

حكم نقل تراب الحرم المدنى

الثامنة : جزم النووى بتحريم نقل تراب الحرم المدنى وأحجاره ، اكتفاء بما ذكره من الخلاف فى الحرم المكى ، وصحح فيه التحريم ، والرافعى الكراهة ، ونقلها النووى عن كثيرين أو الأكثرين ، ونقلها القاضى أبو الطيب عن نص الشافعى فى القديم ، ونقل التحريم عن نصه فى الجامع الكبير ؛ وقال فى الأم فى حجارة الحرم وترابه : لا خير فى أن يخرج منها شىء إلى الحل ، لأن له حرمةً بايَنَ بها ما سواها من البلدان ، فلا أرى — والله أعلم — أن جائزا لأحد أن يزيله من الموضع الذى بايَنَ به البلدان ؛ إذ يصير كغيره .

وروى الشافعى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهما كراهة ذلك . قال الشافعى : وقال غير واحد من أهل العلم : لا ينبغى أن يُخْرَجَ من الحرم شىء إلى

(١) يفيئوا : يرجعوا إلى الطاعة .

غيره . وحكى الشافعى عن أبى يوسف أنه قال : سألت أبا حنيفة عن ذلك فقال : لا بأس به . قال أبو يوسف : وحدثنا شيخ عن رُزَين مولى على بن عبد الله بن عباس أن عليا كتب إليه أن يبعث إليه بقطعة من المروة[1] فيتخذه مُصَلًّى يسجد عليه ، ونقل القاضى أبو الطيب عن الشافعى أنه قال : رخص بعضُ الناس فى ذلك ، واحتج بشراء البِرَام من مكة ، وهو غلط ؛ فإن البِرَام ليست من حجارة الحرم ، بل تحمل من مسيرة يومين وثلاثة من الحرم ، وحكى فى شرح المهذب اتفاقَ الأصحاب على أن الأولى أن لا يحمل تراب الحِلّ وأحجاره إلى الحرم ؛ لئلا يحدث لها حرمة لم تكن ، قال : ولا يقال « إنه مكروه » مع إطلاقه فى الروضة والمناسك كراهته ، فكأنه أراد بها معنى خلاف الأولى . وقولُ صاحب البيان «قال الشيخ أبو إسحاق : لا يجوز إدخالُ شيء من تراب الحل وأحجاره إلى الحرم» محمولٌ على نفى الإباحة بمعنى استواء الطرفين ، كما وقع مثله فى مواضع ، و بناء آدم البيتَ من أجْبُـلٍ ليست من الحرم كلُبْنَان وطورسيناء : إما لأن تحريم الحرم إنما تعلق حكمه وظهر على لسان إبراهيم عليه السلام ، و إما لأن شَرْعه اقتضى ذلك ، مع أن الظاهر استثناء نقل حجارة الحل لمصلحة يقتضيها الحال ، وما نقله أهلُ السير من أنهم كانوا يأخذون من تراب قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمرت عائشة رضى الله عنها بجِدَارٍ فضُرِب عليهم ، لا مُتَمَسَّكَ فيه ؛ إذ لم يعرف الفاعل ، بل الظاهر أنه ممن لا يحتج بفعله ، وأمْرُ عائشة بضرب الجدار يقتضى المنع من ذلك ، على أنه ليس فيه أنه كان يؤخذ للنقل من الحرم ، وقد نقل أبو المعلى السبتى — وكذا خليل والتادلى المالكيون — كلامَ النووى فى المنع من نقل تراب الحرم وأقرُّوه ؛ فالظاهر أنه جارٍ على قواعدهم ؛ إذ منها سَدُّ الذرائع . وقد قيل فى سبب عبادة الأصنام : إن بعضَهم كان يصحب معه الحجر من الحرم ليتبرك به ، واستشكله البرهان بن فَرْحُون بأمور : منها ماتقدمت الإشارة إلى جوابه ، ومنها

---

(١) المرو : الحجارة البيض البراقة ، واحدها مروة .

الإجماع على نقل ماء زمزم واستهداء النبى صلى الله عليه وسلم له من سُهَيْل بن عمرو فبعث إليه منه ، وجوابه أن ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم ، مع أنه يخلف ؛ فأشبه الحشيش الذى يخلف ، ولهذا قال الشافعى : فأما ماء زمزم فلا أكره الخروج به ، والماء ليس بشىء يزول ولا يعود ، انتهى . مع أن المحذور المتقدم فى الأحجار لايتوقع مثله فى الماء ؛ إذ المقصود من نَقْله شُرْبُه وهو ظاهر ، بخلاف الحجر وشبهه ؛ فإن القصد التبرك به ، وهو شىء لم يأذن به الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولذا أقول : إن من نقل من فخار الحرم كالكرار يز(١) لحاجة استعمالها جاز له ، ويُحْمَل كلام مَنْ أطلق المنع على مايراد للتبرك أو مع عدم الحاجة إليه ، وإذا جاز أخذ حشيش الحرم للتداوى فهذا أولى ، وإذا كان الاحتياج إلى آنية الذهب والفضة يجوّز استعمالها فهذا أولى ، فإن أريد نقل ذلك لحاجة متوقّعة فى المستقبل فينبغى تخريجه على ما تقدم فى أخذ نبات الحرم للدواء ونحوه ، وقد قدمنا فيما جاء فى ترابها استثناء تربة صُعَيْب لما جاء فيها من التداوى ، وأن الزركشى استثنى تربة حمزة رضى الله عنه لإطباق الناس على نقلها للتداوى بها من الصُّداع ، وحكى البرهان ابن فرحون عن الإمام العالم أبى محمد عبدالسلام بن إبراهيم بن ومصال الحاحانى ، قال : نقلت من كتاب الشيخ العالم أبى محمد صالح الهزميرى قال : قال صالح بن عبدالحليم : سمعت أبا محمد عبدالسلام بن يزيد الصنهاجى يقول : سألت أحمد بن يكوت عن تراب المقابر الذى كان الناسُ يحملونه للتبرك هل يجوز أو يمنع؟ فقال : هو جائز ، وما زال الناسُ يتبركون بقبور العلماء والشهداء والصالحين ، وكان الناس يحملون تراب قبر سيدنا حمزة بن عبد المطلب فى القديم من الزمان . قال ابن فرحون عَقِبه : والناسُ اليومَ يأخذون من تربة قريبة من مشهد سيدنا حمزة ، ويعملون منها خرزا يشبه السبح ، واستدل ابن فرحون بذلك على جواز نقل تراب المدينة ، وقد علمت مما تقدم أن نقل تربة حمزة رضى الله عنه إنما هو للتداوى ؛

(١) الكراريز : جمع كراز — بزنة رمان ، ويقال بتخفيف الراء أيضا بزنة دخان — وهو القارورة ، وقيل : كوز ضيق الرأس ، قال ابن دريد : تكلموا به ولا أدرى أعربى أم عجمى .

ولهذا لا يأخذونها من نفس القبر ، بل من المَسِيل الذى عنده المسجد[(١)] ، ولئن صح مشروعية التبرك بتراب قبور الصالحين فهو أمر خاص بها لا دلالة فيه على جواز نقل مطلق تراب الحرم ، وهو أمر لم يأذن به الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، والخيرُ كله فى الاتّباع ، وقد قالت الحنابلة أيضاً : يكره نقل حَصَى الحرم وترابه إلى غيره ، ولا يدخل غيره إليه ، ونقلوا عن أحمد أنه قال : الإخراج أشد ، انتهى . ويجب على من أخرج شيئاً من تراب الحرم أو حجره أن يرده إليه ، ولا ضمان عليه فى ترك الرد ، قال الكمال الدميرى : و إذا نقل تراب أحد الحرمين إلى الآخر هل يزول التحريم — أى فينقطع وجوب الرد — أو يفرق بين نقله للأشرف وعكسه ؟ فيه نظر ، والله أعلم .

الفصل الرابع عشر
فى ذكر بدء شأنها ، وما يَؤُل إليه أمرها

روى ابن لَهيعة بسنده إلى عائشة مرفوعاً « إن مكة بلد عَظَّمه الله ، وعَظَّم حرمته ، خلق مكة وحَفَّها بالملائكة قبل أن يخلق شيئاً من الأرض كلها بألف عام ، ووصلها بالمدينة ، ووصل المدينة ببيت المقدس ، ثم خلق الأرض كلها بعد ألف عام خلقا واحداً » قال العلامة المقدسى فى بعض تأليفاته : هذا حديث غريب جداً ، بل منكر .

وعن سليمان عن أبى عمرو الشيبانى عن على رضى الله عنه : كانت الأرض ماء ، فبعث الله ريحاً فمسحت الأرض مسحاً ، فظهرت على الأرض زبدة ، فقسمها أربع قِطَع ، خلق من قطعة مكة ، والثانية المدينة ، والثالثة بيت المقدس ، والرابعة الكوفة . وهو أثر وَاهٍ .

وروينا فى الكبير للطبرانى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله

---

(١) المسيل الذى كان به مصرع حمزة رضى الله عنه هو المسيل الذى من جهة أحد ، لا من القبلة (مكى) .

عز وجلّ اطلع إلى أهل المدينة وهى بطحاء قبل أن تعمر ليس فيها مَدَر ولا بَشَر ، فقال : يا أهـل يثرب ، إنى مشترط عليكم ثلاثاً وسائق إليكم من كل الثمرات : لا تَعْصِى ، ولا تَعْلِى ، ولا تَـكَبَّرِى ، فإن فعلت شيئاً من ذلك تركتك كالجزور لا يمنع مَنْ أكله .

وأخرج النسائى من رواية يزيد بن أبى مالك عن أنس فى حديث الإسراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أُتِيتُ بدابة فوق الحمار ودون البغل » الحديثَ ، وفيه « فركبت ومعى جبريل ، فسرت فقال : انزل فَصَلِّ ، ففعلت ، فقال : أتدرى أين صليت ؟ صليتَ بطيبة وإليها المُهَاجَرُ » يعنى بفتح الجيم .

ووقع فى حديث شداد بن أوس عند البزار والطبرانى أنه [قال] « أول ما أُسْرِىَ به صلى الله عليه وسلم مَرَّ بأرض ذات نخل ، فقال له جبريل : انزل فَصَلِّ ، فنزل فصلى ، فقال : صليت بيثرب » الحديثَ .

وروى رزين عن أنس يَرْفعه « لمـا تجلّى الله لجبل طور سيناء تَشَظَّى ستة أشظاظ(١) » وفى رواية غير رزين « شظايا ، فنزلت بمكة ثلاثة : حِرَاء ، وثَبِير ، وثَوْر ، وفى المدينة : أُحُد ، وعَيْر ، وورقان » وفى رواية « ورَضْوَى » بدل عير ، ولا يشكل ذلك بكون رَضْوَى بينبع ؛ لأن الينبع من توابع المدينة ومضافاتها كما سيأتى ، ورواه بعضُ شراح المصابيح بلفظ « عير ، وثور ، ورضوى » ومنه يؤخذ حكمة أخرى فى تحديد الحرم بعير وثور ، وسيأتى بيانُ أول من سكنها بعد الطوفان فى أخبار سكانها .

وروينا فى الأم للشافعى حديث « أسكنت أقل الأرض مطرا ، وهى بين عينى السماء عين الشام وعين اليمن » ورواه ابن زبالة بزيادة « فاتخذوا الغنم على خمس ليال من المدينة » .

وروى أيضاً حديث « يامعشر المهاجرين إنـكم بأقلّ الأرض مطرا ، فأقلوا من الماشية ، وعليكم بالزرع ، وأكثروا فيه من الجماجم » .

---

(١) تشظى : تفرق شظايا ، والأشظاظ : الفلق كل فلقة شظ أو شظية كقضية .

وروى الشافعى أيضاً حديث «توشك المدينة أن تُمْطر مطرا لا يُـكِنّ أهلَها(١) البيوتُ ، ولا يكنهم إلا مَظالُّ الشعر » .

وروى أيضاً «توشك المدينة أن يصيبها مطر أربعين ليلة لا يكنّ أهلها(١) بيت من مَدَر » .

وروى ابن زبالة حديث « كيف بكِ ياعائشةُ إذا رجع الناسُ بالمدينـة وكانت كالرمانة المحشوة ؟ قالت: فمن أين يأكلون يانبى الله ؟ قال : يطعمهم الله من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن جنات عدن » .

وأورد المرجانى فى كتابه أخبار المدينة عن جابر مرفوعاً « ليعودَنَّ هـذا الأمر إلى المدينة كما بدأ منها ، حتى لا يكون إيمان إلا بها » الحديثَ .

وروى أحمد برجال ثقات « يوشك أن يرجع الناسُ إلى المدينة حتى يصير مَسَالحهم بسَلاَح » ومسالحهم : جمع مَسْلَح ، وهم القوم الذين يحفظون الثغور . وسَلاَح ـ كقطام ـ موضع بقرب خيبر(٢) .

وفى مسلم حديث « تبلغ المساكن أهاب أو يهاب » بكسر المثناة التحتية .

وروى أحمد فى حديث طويل أنه صلى الله عليه وسلم « خَرَجَ حتى أتى بئر الأهاب ، قال : يوشك البنيان أن يأتى هذا المكان » وبئر أهاب : سيأتى أنها بالحرة الغربية .

وروى أبو يعلى عن زيد بن وهب قال : حدثنى أبو ذر رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ البناء ـ أى بالمدينة ـ سَلْعاً فارتحل إلى الشام » فلما بلغ البناء سَلْعاً قدمتُ الشام .

وروى ابن زبالة حديث « ليُوشِكَنَّ الدينُ أن ينزوىَ إلى هذين المسجدين ، ويوشكن أن يتشاحُّوا على موضع الوتد بالحى كشح أحدكم أن ينقص من داره

---

(١) لا يكنهم : لا يسترهم ولا يقيهم .

(٢) والمعنى على ذلك : حتى يصير القوم الذين يرقبون عدوهم مقيمين فى هذا الموضع ؛ لاتساع رقعة المدينة وكثرة أهلها .

إلى جانب المسجد ، وليوشكن أن يبلغ بنيانهم يهيقاً » قالوا : يا رسول الله ، فمن أين يأكلون ؟ قال « من هنا وههنا » يشير إلى السماء والأرض .

ويهيقا أوله آخر الحروف : موضع بقرب المدينة على ما سيأتى عن المجد آخر الباب السابع

وذكر ابن زبالة الشجرة التى يضاف إليها مسجد ذى الحليفة ، ثم روى عن أبى هريرة رضى الله عنه « لاتقوم الساعة حتى يبلغ البناء الشجرة » .

وروى أيضاً عنه « أَرْبِتَكَ شَرَفَ السيالة وشرف الروحاء ؛ فإنه منازل أهل الأردن إذا أجيز الناس إلى المدينة » .

وفى الكبير للطبرانى حديث « سيبلغ البناء سلعاً ، ثم يأتى على المدينة زمان يمر السَّفْرُ[(١)] على بعض أقطارها فيقول: قد كانت هذه مدةً عامرةً من طول الزمان وعفو الأثر » .

وروى النسائىّ عن أبى هريرة حديث « آخر قرية من قرى الإسلام خرابا المدينة » ورواه الترمذى بنحوه ، وقال : حسن غريب ، ورواه ابن حبان بلفظ « آخر قرية فى الإسلام خرابا المدينة » .

وروى أبو داود عن معاذ مرفوعا « عُمْرَانُ بيتِ المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال » .

وروى أبو داود أيضاً عنه مرفوعاً « الملحمة الكبرى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال فى سبعة أشهر » .

وفى ابن شبة عن أبى هريرة « ليخرجَنَّ أهلُ المدينة من المدينة خير ما كانت ، نصفاً زَهْوًا[(٢)] ، ونصفا رطباً ، قيل: مَنْ يخرجهم منها يا أباهريرة ؟ قال : أمراء السوء » .

وفيه أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا نحوه ، وأن عبد الله بن عمر كان يردُّ عليه ، فقال له أبو هريرة : لِمَ تردُّ على؟ فوالله لقد كنت أنا وأنتَ فى

(١) السفر : الجماعة المسافرون ، ونظيره ركب وتجر وشرب

(٢) الزهو : البسر الملون .

بيت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم « يخرج منها أهلها خير ما كانت » فقال ابن عمر : أجَلْ ، قد كنتُ أنا وأنت في بيت ، ولكن لم يقله ، إنما قال «أعمر ما كانت » ولو قال « خير ما كانت » لكان ذلك وهو حي وأصحابه ، فقال أبو هريرة : صدقت والذي نفسي بيده ، وفيه عنه أيضاً « ليجيئَنَّ الثعلبُ حتى يقيلَ في ظل المنبر ، ثم يروح لا يُنَهْنِهُهُ(١) أحد » .

وفي رواية عنه « لا تقوم الساعة حتى يجيء الثعلبُ فَيَرْبِضَ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينهنهه أحد(١) » وفيه أيضاً عن شريح بن عبيد أنه قرأ كتابا لكعب « ليغشيَنَّ أهلَ المدينة أمرٌ يفزعهم حتى يتركوها وهي مُذَلَّلة(٢) ، وحتى يبول السنانيرُ على قطايف الخز ما يروعها شيء ، وحتى يخرق الثعالب في أسواقها ما يروعها شيء » .

وفي الصحيحين حديث « لتتركون المدينة » ولفظُ مسلمٍ « لتتركُنَّ المدينةَ على خير ما كانت مذللة(٢) ثمارها لا يغشاها إلا العوافي » يريد عوافي الطير والسباع « وآخر من يحشَرُ منها راعيان من مُزَينة يُريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحوشاً » ولفظ مسلم « حتى إذا بلغا ثنية الوَدَاع خرَّا على وجوههما » وهو في الموطأ بلفظ « لتتركُنَّ المدينةَ على أحسن ما كانت حتى يدخل الكلبُ أو الذئب فيغذي على بعض سواري المسجد » .

ورواه ابن شبة ولفظه « فيغذي على سواري المسجد أو المنبر »

ويغذي ـ بالغين والذال المعجمتين ـ أي يبول عليها دفعة دفعة ، يقال : غذّت المرأة ولدها بالتشديد ، إذا أبالته ، وبالتخفيف إذا أطعمته .

وفي ابن زبالة ـ وتبعه ابن النجار ـ حديث « لا تقوم الساعة حتى يغلب على مسجدي هذا الكلابُ والذئابُ والضباع فيمر الرجل ببابه فيريد أن يصلي فيه فما يقدر عليه » .

---

(١) ما ينهنهه : ما يخيفه وما يفزعه وما يردعه .

(٢) مذللة : سهلة لا شقة في المعيشة بها .

وفى ابن شـبة بسند صحيح حديث « أما والله لَتَدَعُنَّها مذللة أربعين عاما للعوافى ، أتدرون ما العوافى ؟ الطير والسباع » ورواه ابن زبالة بنحوه .

وروى أحمد برجال الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم « صَعَدَ أُحُداً ، فأقبل على المدينة وقال : ويل أمها قرية ، يَدَعُها أهلُها كأينع ما تكون » الحديثَ ، وفى رواية له « ويل أمك قرية ، يَدَعُك أهلُكِ وأنت خيرما تكونين »

ورُوِىَ أيضاً بإسناد حَسَن حديثُ للبشير بن راكب فى حب وادى المدينة « فليقولُنَّ لقد كان فى هذه مرة حاضرة من المؤمنين » .

وروى أيضاً برجال ثقات حديث « المدينة يتركها أهلها وهى مُرْطِبة ، قالوا : فمن يأكلها ؟ قال : السباع والعائف » .

الفصل الخامس عشر

فيما ذكر من وقوع ما أخبر به صلى الله عليه وسلم من خروج أهلها وتركها ، وذكر كائنة الحرَّة المقتضية لذلك

قد اختلف الناسُ : متى يكون هذا الترك ؟ فقال القاضى عياض : إن هذا جَرَى فى العصر الأول ، وإنه من المعجزات (١) ، فقد تُركت المدينةُ على أحسن ما كانت حين انتقلت الخلافة إلى الشام والعراق ، وذلك أحسن ما كانت من حيث الدين والدنيا : أما الدين فلكثرة العلماء بها ، وأما الدنيا فلعمارتها واتساع حال أهلها ، قال : وذكر الأخباريون فى بعض الفتن التى جرت بالمدينة وخاف أهلها أنه رَحَلَ عنها أكثرُ الناسِ ، وبقيت ثمارها للعوافى (٢) ، وخَلَتْ مدة ، ثم تراجع الناسُ إليها .

وحكى البدر ابن فَرْحُون فى شرح الموطأ ، ومِنْ خطه نقلت ، عن القاضى أيضاً أنه قال : وقد حكى قوم كثيرون أنهم رأوا ما أنذر به النبى صلى الله عليه وسلم من تغذية الكلاب على سَوَارى مسجدها ، انتهى .

---

(١) أى لكونه إخباراً من النبى صلى الله عليه وسلم عما سيكون من بعده بإعلام الله تعالى إياه .

(٢) العوافى : المراد الطير ، كما فى الأحاديث التى مرت قريباً .

وقال النووى : الظاهر المختار أن الترك للمدينة يكون آخر الزمان عند قيام الساعة ، و يوضحه قصة الراعيين من مُزَيْنة ، فإنهما يَخِرّان على وجوههما حين تدركهما الساعة ، ولفظ مسلم واضح فى ذلك ؛ فإنه قال « ثم يحشر راعيان » و يؤيده كونُها آخرَ قرى الإسلام خرابا .

قلت : و يؤيده رواية ابن شبة المتقدمة « ليَدَعُنَّها مذللة أربعين عاما للعوافى » وهذا لم يقع اتفاقا ، على أنه ورد ما يقتضى أن الترك للمدينة يكون متعدداً ، فلعل ما ذكره القاضى هو المرة الأولى ، و بقى الترك الذى يكون آخر الزمان ؛ لأن ابن شبة روى حديث « ليخرجَنّ أهلُ المدينة من المدينة ، ثم ليعودُنَّ إليها ، ثم ليخرجُنَّ منها ، ثم لا يعودون إليها ، وليَدَعُنَّهَا وهى خير ما يكون مونعة[1] » .

وروى أيضا عن عمر مرفوعا « يخرج أهلُ المدينة منها ثم يعودون إليها فيعمرونها حتى تمتلىء وتبنى ، ثم يخرجون منها فلا يعودون إليها أبداً »

وروى ابن شبة عن أبى هريرة قال : « آخر من يحشر رجلان رجُلٌ من جُهَينة وآخر من مُزَينة فيقولان : أين الناس ؟ فيأتيان المدينة فلا يَرَيَان إلا الثعلب ، فينزل إليهما ملَكان فيسحبانهما على وجوههما حتى يلحقاهما بالناس »

وروى أيضا عن حذيفة بن أسيد قال : « آخر الناس مَحْشَرًا رجلان من مُزَيْنة يفقدان الناس ، فيقول أحدهما لصاحبه : قد فَقَدْنا الناسَ منذ حين ، أنطلق بنا إلى شخص من بنى فلان ، فينطلقان فلا يجدان بها أحدا[2] ، ثم يقول : انطلق بنا إلى المدينة ، فينطلقان فلا يجدان بها أحدا ، ثم يقول : انطلق بنا إلى منزل قريش ببقيع الغَرْقَد ، فينطلقان فلا يريان إلا السباع والثعالب ، فيوجهان نحو البيت الحرام » .

قلت : وكأنهما إذا توجها نحو البيت الحرام ينزل إليهما الملكان قبل ذهابهما ؛ فلا يخالف ما تقدم ، فالظاهر أن ما ذكره القاضى هو الترك الأول ، وسببهُ فيما

(١) مونعة : اسم الفاعل من « أينع الزرع » إذا أدرك وطاب وحان قطافه .

(٢) كذا ، ولعل كلة «بها» مقحمة فى هذا الموضع .

يظهر كائنة الحرة ، وقد تقـــدم من حديث أبى هريرة أنه قيل له : مَنْ يخرجهم منها يا أبا هريرة ؟ قال : أمراء السوء ، وروى الشيخان — واللفظ لمسـلم — عن أبى هريرة مرفوعا « يهلك أمتى هذا الحى من قريش ، قالوا: فما تأمرنا ؟ قال : لو أن الناس اعتزلوهم » .

وروى مسلم عن حذيفة رضى الله عنه قال : «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ما ترك شيئاً يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَدث به ، حَفِظه مَنْ حَفِظه ونسِيه مَنْ نَسِيه » الحديث ، وفى رواية عنه : أخبرنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بما هو كائن إلى أن تقوم القيامة ، فما من شىء إلا قد سألته ، إلا أنى لم أسأله ما يُخْرِجُ أهل المدينة من المدينة ، وروى الترمذى حديثاً « إذا مشت أمتى المطيطا ، وخدمتهم بنات فارس والروم ، رَدَّ الله بأسهم بينهم ، وسَلَّط شِرَارهم على خيارهم » . وروى ابن شبة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «والذى نفسى بيده ليكونَنَّ بالمدينة مَلْحَمَة يقال لهـا الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر ، ولـكن حالقة الدين ، فاخْرُجُوا من المدينة ولو على قدر بريد » .

وروى ابن أبى شيبة عنه أنه قال : اللهم لا تدركنى سـنة ستين ، ولا إِمْرَةُ الصبيان ، يشير إلى أن أول الأغيلمة كان فى سـنة ستين ، وهو كذلك ، كما قاله الحافظ ابنُ حجر ؛ فإن يزيد بن معاوية اسْتُخْلِفَ فيها ، فأشـار إلى دولة يزيد وفيها كانت وقعت الحرة ، وتسمى حَرَّة واقم ، وحرة زهرة

وروى الواقدى فى كتاب الحرة عن أيوب بن بشير المعادى أن النبى صلى الله عليه وسلم «خرَجَ سَفَراً من أسفاره، فلما مر بحرة زهرة وقف واسترجع ، فَسِيء بذلك مَنْ معه ، فظنُّوا أن ذلك من أمر بسفرهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسـول الله ، ما الذى رأيت ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما إنَّ ذلك ليس من سـفركم هذا ، قالوا : فما هو يا رسول الله ؟ قال : يُقْتَلُ فى هــــذه الحرة خِيار أمتى بعد أصحابى » .

---

(١) المطيطاء ـ بفتح الميم وكسر الطاء ممدودا ـ والمطيطى ـ بضم ففتح ممدودا أو مقصورا ـ التبختر ومد اليدين فى المشى .

وروى أيضا عن سفيان بن أبى أحمد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أشرف على بنى عبد الأشهل أشار بيده ، فقال : «يقتل بهذه الحرة خيار أمتى » وروى أيضا عن كعب قال : نجد فى التوراة أن فى حرة شرقىّ المدينة مقتلة تضىء وجوهُهم يوم القيامة صنعا » وروى أيضا أنه ذكر عند ابن عباس قتلى الحرة ، فقال ابن عباس : يرحمهم الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقتل بحرة زهرة خيار أمتى » .

وروى البيهقى فى الدلائل خبر أيوب بن بشير المتقدم ، ثم قال : هذا مرسل وقد روى عن ابن عباس فى تأويل قوله تعالى « وَلَوْ دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثم سُئِلُوا الفتنَةَ لآتوها[1] » قال: لأعطَوْهَا ، يعنى إدخال بنى حارثة أهلَ الشامِ على أهل المدينة . ورواه بالسند إلى ابن عباس وقال : إنه مؤكد لمرسل ابن بشير ، وسيأتى فى حرة واقم ما رواه ابن زبالة من أن السماء مطرت على عهد عمر رضى الله عنه ، فخرج مع أصحابه حتى أتوا حَرَّةَ واقم وشِرَاجُهَا تطرد ، فقال كعب : أما والله يا أمير المؤمنين لتسيلنَّ هذه الشراجُ بدماء الناس كما تسيل بهذا الماء ، فدنا منه ابن الزبير فقال : يا أبا إسحاق ومتى ذلك ؟ فقال : إياك أن تكون على رجلك أو يدك ! .

وروى ابن زبالة عن كعب أيضاً : إنا نجد فى كتاب الله : حَرَّةٌ شرقىّ المدينة يُقْتَلُ بها مقتله تضىء وجوههم يوم القيامة كما يضىء القمر ليلة البدر .

قلت : وسياق كلام القرطبي يقتضى أنها هى السبب فى خروج أهل المدينة المذكور فى كلام عياض ؛ فإنه ذكر نحو كلام عياض ، وقال : فلما انتهى حالها — يعنى المدينة — كمالا وحسنا تناقص أمرها إلى أن أقفرت جهاتها ، وتوالت الفتن فيها ؛ فخاف أهلها ، فارتحلوا عنها ، ووجَّه يزيدُ بن معاوية مسلم بن عقبة المرى فى جيش عظيم من أهل الشام ، فنزل بالمدينة ، فقاتل أهلها ، فهزمهم

وقعة الحرة

(١) من سورة الأحزاب من الآية ١٤

تلهم بحرة المدينة قتلا ذريعا[1]، واستباح المدينة ثلاثة أيام ، فسميت وقعة الحرة لذلك ، ويقال لها : حرة زهرة ، وكانت الوقعة بموضع يعرف بواقم على ميل من المسجد النبوى ، فقُتِلَ بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين، وهم ألف وسبعمائة، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ، وقتل بها من حَمَلَة القرآن سبعمائة رجل ، ومن قريش سبعة وتسعون قتلوا ظلما فى الحرب صَبْرًا ، قال : وقال الإمام الحافظ ابن حزم فى المرتبة الرابعة : وجالت الخيلُ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالت ، وراثت بين القبر والمنبر أدام الله تشريفها وأكرهوا الناس أن يبايعوا ليزيد على أنهم عبيد له إن شاء باع وإن شاء أعتق ، وذكر له يزيد بن عبد الله بن زمعة البيعة على حكم القرآن والسنة ، فأمر بقتله ، فضربت عنقه صبرا ، وذكر الأخباريون أنها خَلَتْ من أهلها ، وبقيت ثمارها للعوافى كما قال صلى الله عليه وسلم ، وفى حال خلائها غذت الكلابُ على سوارى المسجد ، انتهى كلام القرطبى .

سبب نقمة يزيد بن معاوية على أهل المدينة

وروى الطبرانى فى خبر طويل عن عروة بن الزبير قال : لما مات معاوية رضى الله عنه تثاقل عبدُ الله بن الزبير عن طاعة ابنه يزيد ، وأظهر شَتْمه ، فبلغ ذلك يزيد ، فأقسم لا يؤتى به إلا مغلولاً ، وإلا أرسل إليه ، فقيل لابن الزبير : ألا نصنع لك أغلالا من فضة تلبس عليها الثوب وتبر قسمه فالصلح أجمل بك ؟ قال : فلا أبَرَّ الله قسمه ، ثم قال :

ولا أَلِينُ لغير الحق أسأَلُهُ * حتى يَلِينَ لِضِرْسِ الماضغِ الحَجَرُ

ثم دعا إلى نفسه ، فوجَّه إليه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المرىّ فى جيش أهل الشام ، وأمرهم بقتال أهل المدينة ، فإذا فرغ من ذلك صار إلى مكة ، قال : فدخل مسلم بن عقبة المدينة ، وهَرَبَ منه يومئذ بقايا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاث فيها[2] ، وأسرف فى القتل ، ثم خرج منها ، فلما كان فى بعض

---

(١) قتلا ذريعا : شديدا كثيرا مع فظاعة (٢) عاث : أفسد

الطريق مات واستخلف حصين بن نمير الكندى ، ثم ذكر حصاره ابن الزبير، ورَمْيَه بالمَنْجَنِيق ، واحتراقَ الكعبة ، قال : و بلغ حصين بن نمير موت يزيد ابن معاوية فهرب .

قلت : وسببُ أمر يزيد بقتال أهل المدينة ما ذكره الإمام ابن الجوزى قال : لما دخلت سنةُ اثنين وستين ولّى يزيدُ عثمان بن محمد بن أبى سفيان المدينةَ ، فبعث إلى يزيد وَفْدًا من المدينة ، فلما رجع الوفد أظهروا شَتْمَ يزيد ، وقالوا : قدمْنَا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، و يعزف بالطنابير ، و يلعب بالكلاب ؛ و إنا نشهدكم أنا قد خلعناه . وقال المنذر : أما والله لقد أجازنى مائة ألف درهم ، ولا يمنعنى ما صنع أن أصدقكم عنه ؛ والله إنه يشرب الخمر ، و إنه ليسكر حتى يَدَعَ الصلاة ؛ ثم بايعوا لعبد الله بن حَنْظَلة الغسيلِ ؛ وأخرجوا عثمان ابن محمد عامل يزيد ؛ وكان ابنُ حنظلة يقول : يا قوم ؛ ما خرجنا على يزيد حتى خِفْتُ أن نُرْمى بالحجارة من السماء ؛ والله لو لم يكن معى أحدٌ من الناس لأبْلَيْتُ الله فيه بلاء حسناً ؛ وكانت قصة الحرة سنة ثلاث وستين ؛ وفى هذه السنة أخرج أهلُ المدينة عامل يزيد المتقدم ذكره .

قلت : وفى كتاب الحرة للواقدى ما ملخصه : أن أول ما هاج أمر الحرة أن ابن ميناء كان عاملا على صَوَافِى[1] المدينة — و بها يومئذ صواف كثيرة — حتى كان معاوية يجدُ بالمدينة وأعراضها مائةَ ألفِ وَسْقٍ وخمسين ألفَ وَسْقٍ ، ويحصد مائة ألف وَسْق حنطة ، واستعمل يزيدُ على المدينة عثمانَ بن محمد بن أبى سفيان ؛ وأن ابن ميناء أقبل بشرج له من الحرة يريد الأموال التى كانت لمعاوية ؛ فلم يزل يسوقه ولا يصده عنه أحد حتى انتهى إلى بَلْحَارث بن الخزرج ، فنقب النقيب فيهم ، فقالوا : ليس ذلك لك ، هذا حدث وضرر علينا ، فأعلم الأمير عثمان بن محمد بذلك ، فأرسل إلى ثلاثة من بَلحارث ، فأجابوه إلى أن يمر به ، فأعلم ابن ميناء فغدا بأصحابه

(١) الصوافى : جمع صافية ، وهى النخلة الكثيرة الحمل ، لكن المستعمل المنصوص عليه فى كتب اللغة الصفية وجمعها الصفايا . مثل قضية وقضايا .

فَذَبُّوهم[١]، فرجع إلى الأمير فقال: اجمع لهم مَنْ قَدَرْتَ ، و بعث معه بعض جند ، وقال : مر به ولو على بطونهم ، فغدا ابن ميناء مُتَطاولا عليهم ، وعدا من يذبهم من الأنصار ، ورفَدَتهم قريش[٢] فذبُّوهم حتى تفاقم الأمر ؛ فرجع ولم يعمل شيئاً . وكتب عثمان بن محمد إلى يزيد يخبره بذلك ، و يحرضه على أهل المدينة جميعا ؛ فاستشاط غضبا ؛ وقال : والله لأبعثن إليهم الجيوش ، ولأوطئنها الخيل : انتهى.

وقال ابن الجوزى : قال أبو الحسن المداينى — وكان من الثقات — : أتى أهل المدينة المنبر فخلعوا يزيد ، فقال عبد الله بن أبى عمرو بن حفص المخزومى : قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتى ، ونزعها عن رأسه ، إنى لأقول هذا وقد وَصَلنى وأحْسَنَ جائزتى ، ولكن عدو الله سِكِّير . وقال آخر : قد خلعته كما خلعت نعلى ؛ حتى كثرت العمائم والنِّعَال .

ثم ولَّوْا على قريش عبدَ الله بن مطيع ؛ وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة . ثم حاصر القوم مَن كان بالمدينة من بنى أمية فى دار مروان . فكتب مروان ومن معه إلى يزيد : إنا قد حُصِرْنا ومُنِعْنَا العذب ، فيا غَوْثاه . فوصل الكتاب إليه . فبعث إلى مسلم بن عُقْبة — وهو شيخ كبير — فجاء حتى دخل عليه ، وقال له : اخرُجْ وسِرْ بالناس ، فخرج مناديه ، فنادى : أن تسيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كَمَلاً ومعونة مائة دينار توضع فى يد الرجل من ساعته . فانتدَب لذلك اثنا عشر ألف رجل . وكتب يزيد إلى ابن مَرْجَانة[٣] أن اغزُ ابنَ الزبير، فقال : لا والله لا أجمعها للفاسق أبداً قَتْلَ ابنِ رسول الله صلى الله عليه وسلم و إغزاء البيت وقال يزيد لمسلم : إن حَدَثَ بك حادث فاستخلف حُصَين بن نمير السكونى . وقال له : ادعُ القومَ ثلاثا ، فإن هم أجابوك و إلا فقاتلهم ، و إذا ظَهَرْتَ عليهم فأبِحْهَا ثلاثا بما فيها من مال أو سلاح أو طعام فهو للجند ، فإذا مضت الثلاث فاكفف

(١) ذبوهم : منعوهم وطردوهم. (٢) رفدتهم : أعانتهم .

(٣) ابن مرجانة : هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ، وكان على الجيش الذى قتل الحسين بن على سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عنهم ، وانظر على بن الحسين فاسْتَوْصِ به ؛ فإنه لم يدخل فى شىء مما دخلوا فيه ، فلما بلغ أهلَ المدينة إقبالُ الحصين وثبوا على من كان محصوراً من بنى أمية ، وقالوا : لا نكف عنكم حتى نضرب أعناقكم أو تعطونا عهد الله وميثاقه ألا تبغوا غائلة[1] ، ولا تدلُّوا لنا على عَوْرة ، ولا تظاهروا علينا عدوا ، فأعْطَوْهم العهدَ على ذلك ، فأخرجوهم من المدينة ، فخرجوا حتى لَقُوا مسلم بن عقبة ، وأرسل إليه مروان ابنَه عبدَ الملك فأشار عليه أن يأتيهم من ناحية الحرة ، وأن ينتظرهم ثلاثاً ففعل ، فلما مضت الثلاث قال : ياأهل المدينة ، ماتصنعون؟ قالوا : نحارب ، قال : لا تفعلوا وادخلوا فى الطاعة ، قالوا : لا نفعل ، وكانوا قد اتخذوا خندقا ، فنزل منهم جماعة ، وحمل ابنُ الغسل[2] على الخيل حتى كشفها ، وقاتلوا قتالا شديداً ، وجعل مسلم يحرض أصحابه ، وكان به مرض ؛ فنصب له سرير بين الصفين وقال: قاتلوا عن أميركم ؛ وأباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناس و يأخذون الأموال ، ورفعوا على النساء ؛ وقاتل عبد الله بن مطيع حتى قتل هو و بَنُونَ له سبعة ؛ و بعث برأسه إلى يزيد ؛ فأفزع ما جرى مَنْ بالمدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونقل الواقدىّ أن القوم لما قربوا تشاور أهلُ المدينة فى الخندق خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ و شَكُّوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ؛ وعملوا فى الخندق خمسة عشر يوما ، وكان لقريش ما بين راتج إلى مسجد الأحزاب ، والأنصار ما بين مسجد الأحزاب إلى بنى سلمة ، وللموالى ما بين راتج إلى بنى عبد الأشهل ، فلما وصل القوم عسكروا بالْجُرْف ، و بعثوا رجالا من رجالهم ، فأحدقوا بالمدينة من كل ناحية ، فما يجدون مَدْخَلا ، والناس متلبسون السلاح قد قاموا على أفواه الخنادق يرمون بالنبل والحجارة ، وجلس مسلم بناحية واقم ، فرأى أمراً هائلا ، فاستعان بمروان وكان وَعَده بوجه فى ذلك لما لقيه بوادى القرى ؛ فخرج مروان

(١) الغائلة : الداهية والفساد والشر . (٢) فى المطبوعات كلها « وحمل ابن القتيل » تطبيع ، وابن الغسيل: هو عبدالله بن حنظلة الذى ولاه الأنصار عليهم .

حتى جاء بنى حارثة ، فكلم رجلا منهم ورغبه فى الصنيعة(١) ، وقال : تفتح لنا طريقا فأكتُبَ بذلك إلى يزيد فيَصِلَ أرحامكم ، ففتح لهم طريقاً من قبلهم حتى أدخل له الرجال من بنى حارثة إلى بنى عبد الأشهل ، وجاء الخبرُ عبدَ الله بن حنظلة وكان بناحية الصورين فى أصحابه ، وأقبل عبد الله بن مطيع وكان من ناحية ذباب ، وأقبل ابن هريرة فى الموالى يطوف بهم على الخنادق ، وأقبل ابن ربيعة وكان من ناحية بُطْحان ، فاجتمعوا جميعاً من حيث يدخل أهل الشام ، قال محمود ابن لبيد : قد حضرتُ يومئذ ، فإنما أُتينا من قومنا بنى حارثة ، وكان مروان حين أخرج عمل به عمل قبيح ، فكلم رجلا فأدخله ومعه فارس ثم جعلت الخيل تتحدر على أثره ، وقد وقفنا ببنى عبد الأشهل فقاتلنا ما وجدنا حتى عاينا الموت وكثرت القوم وتفرق الناس فقتلوا فى كل وجه .

وروى الواقدى أيضاً أن قصر بنى حارثة كان أمانا لمن أراد أهلُ الشام أن يُؤَمِّنوهُ ، وكانت بنو حارثة آمنين ، وأولُ دارٍ انْتُهِبَتْ والحرب بعد لم ينقطع دار بنى عبد الله الأشهل ، انتهى .

وأخرج ابن أبى خيثمة بسند صحيح إلى جُوَيرية بن أسماء : سمعت أشياخَ أهلِ المدينة يتحدثون أن معاوية رضى الله عنه لما احتضر دعا يزيد فقال له : إن لك من أهل المدينة يوما ، فإن فعلوا فَارْمِهِمْ بمُسْلم بن عقبة فإنى عرفت نصيحته ، فلما ولى يزيد وفد عليه عبدُ الله بن حَنظلة وجماعة ، فأكرمهم وأجازهم ، فرجع فحرَّضَ الناسَ على يزيد ، وعابه ، ودعاهم إلى خلع يزيد ، فأجابوه ، فبلغ ذلك يزيد ، فجهز إليهم مسلم بن عقبة ، فاستقبلهم أهلُ المدينة بجموع كثيرة ، فهابهم أهلُ الشام وكَرِهُوا قتالهم ، فلما نشب القتالُ سمعوا فى جوف المدينة التكبير ؛ وذلك أن بنى حارثة أدخَلُوا قوماً من الشاميين من جانب المدينة ، فترك أهلُ المدينة القتالَ ، ودخلوا المدينة خوفا على أهليهم ، فكانت الهزيمة ، وقُتل من

---

(١) الصنيعة : أصلها الإحسان ، ويقال « فلان صنيعة فلان » أى أنه هو الذى خرجه ورباه واختصه بالجميل .

قتل ، وبايع مسلم الناس على أنهم خَوَلٌ (١) ليزيد يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم بما شاء ، انتهى .

وأخرج يعقوب بن سفيان فى تاريخه بسند صحيح عن ابن عباس قال : جاء تأويل هذه (٢) الآية على رأس ستين سنة « ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثم سُئِلوا الفتنةَ لآتَوها » يعنى إدخال بنى حارثة أهلَ الشام على أهل المدينة فى وقعة الحَرَّة ، قال يعقوب : وكانت وقعة الحرة سنة ثلاث وستين ، اه .

قالوا : وكلمت امرأةٌ مسلمَ بن عقبة فى ولدها ، وقالت : أنا مولاتك ، وابنى فى الأسْرِ ؛ فقال : عجلوه لها ؛ فضربت عنقه وقال : أعطوها رأسَه ، أماتَرْضَيْنَ أن لاتقتلى حتى تكلمى فى ابنك ؟! .

قلت : وسموه مُسْرِفًا لإسرافه فى القتل .

ونقل الواقدى فى كتاب الحرة أن يزيد دخل على مُسْرِف وكان قد جعله فى عِلِّيَّةٍ لمرضه ؛ فقال له : لولا مرضُك لكنت أنت صاحب هذا الأمر ، لما أعرف نصيحتك ، قال مسرف : أنشُدُكَ الله يا أمير المؤمنين ألاَّ (٣) تولى أمرهم غيرى ؛ فإنى والله أنا صاحبهم ، رأيت فى النوم شجرةَ غرقدٍ تصيح بأغصانها : يا ثارات عثمان ، فأقبلت وجعلت الشجرة تقول : على يَدَىْ مسلم بن عقبة ، حتى جئتها فأخذتُها ، فعبَّرْتُ ذلك أنى أكون القائم بأمر عثمان ؛ فهم قَتَلَتُه ، قال يزيد : فسِرْ إليهم على بركة الله ، فأنت صاحبهم ، وانظر إذا قدمتَ المدينة ، فمن عاقَكَ عن دخولها أو نَصَب لك حَرْبًا فالسيفَ السيفَ ، لا تُبْقِ فيهم ، وأَنْهِبْهَا ثلاثا ، وأجهز على جريحهم ، واقتل مُدْبِرهم ، وإياك أن تُبْقِى عليهم ، وإن لم يعرضوا لك فامض إلى ابن الزبير .

وروى ابن الجوزى من طريق المداينى عن جويرية أن مسلما نظر إلى قتلى الحرة فقال : لَئِنْ دخلت النار بعدها إنى لَشَقِىٌّ (٤) ، وأسر أسرى فحبسهم ثلاثة

(١) الخول — بالتحريك — الخدم والعبيد .

(٢) من سورة الأحزاب من الآية ١٤ (٣) فى المطبوعات « أن تولى أمرهم غيرى » تطبيع (٤) فى المطبوعات « لأن دخلت النار بعدها ولا إنى لشقى » تطبيع وانظر ص ١٣٦ .

أيام لم يطعموا ، وجاءوا بسعيد بن المسيب[1] فقالوا : بايع ، فقال : أبايع على سيرة أبى بكر وعمر ، فأمر بضرب عنقه ، فشهد رجلٌ أنه مجنون ، فخلى عنه .

عدد القتلى فى وقعة الحرة

وعن المداينى أيضاً عن شيخ من أهل المدينة قال : سألت الزهرى : كم كانت القتلى يوم الحرة ؟ قال : سبعمائة من وجوه الناس قريش والأنصار والمهاجرين ، ومن وجوه الموالى وممن لا يعرف من عبد وحر وامرأة عشرة آلاف ، وكانت الوقعة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين .

وفى كتاب الحرة للواقدى قال : حدثنى عبد الله بن جعفر قال : سألت الزهرى : كم قتل من الناس يومئذ ؟ قال : أما من وجوه الناس فأكثر من سبعمائة من قريش والأنصار ووجوه الموالى ، ثم عَدَّدَ علىّ من قتل حتى ما كنت أرى أنه بقى أحد إلا قتل يومئذ ، ثم قال الزهرى : ولقد قتل ممن لا يعرف من الموالى والعبيد والصبيان والنساء أكثر من عشرة آلاف ، ودخلوها لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين .

قلت : وقال القرطبى لليلتين بقيتا من ذى الحجة ، وعن الأقشهرى عن أبى معشر والواقدى أنها يوم الأربع لليلتين خلتا من ذى الحجة ، قلت : ولم أره فى كتاب الواقدى ، ولعله سبق قلم ، والله أعلم .

وذكر المجد أنهم سَبَوُا الذرية ، واستباحوا الفروج ، وأنه كان يقال لأولئك الأولاد من النساء اللاتى حملن : أولاد الحرة ، قال : ثم أُحْضِر الأعيان لمبايعة يزيد ، فلم يرض إلا أن يبايعوه على أنهم عبيدُ يزيدَ ، فمن تلكأ أمر بضرب عنقه ، وجاءوا بعلى بن عبد الله بن عباس ، فقال الحصين بن نمير : يا معشر اليمن عليكم ابنَ أختكم ، فقام معه أربعة آلاف رجل ، فقال لهم مسلم : أخلعتم أيديكم من الطاعة ؟ فقالوا : أما فيه فنعم ، فبايعه على أنه ابنُ عم يزيد ، انتهى .

وعن المداينى أيضاً عن محمد بن عمر قال : قال ذَكْوَان مولى مروان : شرب

---

(١) سعيد بن المسيب : رأس علماء التابعين وفردهم وفقيههم ، مات فى سنة ٩٣ ، وقال الواقدى : فى سنة ٩٤ من الهجرة .

مسلم بن عقبة دواء بعد ماأنهب المدينة ، ودعا بالغداء ، فقال له الطبيب : لاتَعْجَلْ فإني أخاف عليك إن أكلت قبل أن تكمل الدواء ، قال : ويحك ! إنما كنت أحبُّ البقاء حتى أشفي نفسي من قَتَلة عثمان ، فقد أدركت ما أردت ، فليس شيء أحب إلي من الموت على طهارتي ؛ فإني لا أشك أن الله قد طَهَّرَني من ذنوبي بقتل هؤلاء الأرجاس .

قلت : هذا من عظيم حُمْقِه ، قاتله الله وأشقاه ! فإن هذا مما يزيد في عظيم جرمه .

من قتل من الصحابة يوم الحرة

وممن قتل صبرا يومئذ من الصحابة : عبدُ الله بن حنظلة الغسيل — قال ابن حزم : قتل مع ثمانية من بنيه — وعبد الله بن زيد حَاكِي وضوء النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعقل بن سنان الأشجعي — وكان شهد فتح مكة ، وكان معه راية قومه يومئذ — وفيه يقول الشاعر :

ألا تلكمُ الأنصارُ تَبْكي سَرَاتَها وأشْجَعُ تبكي مَعْقِلَ بن سِنَانِ

ومحمد بن عمرو بن حَزْم الأنصاري ، وقد ذكر ابن جرير الطبري الإمام أن عبد الله بن الغسيل كان يقول :

بعداً لمن رام الفَسَادَ وطَغَى وجانَبَ القَصْد وأسباب الهُدَى

لايبعدِ الرحمن إلا مَنْ عَصَى

ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، وقتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري ، وأبوه كان خطيبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وَرَدَ وَفْدُ تميم ، وجعل مسلم بن عقبة يطوف على القتلى ومعه مروان بن الحكم ، حتى مر على عبد الله بن الغسيل وهو مادٌّ أصبعَهُ السبَّابَةَ ، فقال مروان : أما والله لئن نَصَبْتَها ميتاً لطالما نصبتها حياً .

وروى عن محمد بن كعب القرظي(١) قال : قال مروان لعبد الله بن حنظلة

---

(١) في المطبوعات «محمد بن كعب القرطبي» تطبيع ، ومحمد بن كعب القرظي ، أحد العلماء الأكابر ، مدني ، كوفي ، قال ابن سعد : كان ثقة ورعا كثير الحديث ، مات في سنة ١١٩ ، وقيل : في سنة ١٢٠ من الهجرة .

الغسيل وقد رآه مشيرا بأصبعه وقد يبست : لئن أشرْتَ بها ميتاً لطالما دَعَوْتَ وتضرعْتَ بها إلى الله تعالى ، فقال رجل من أهل الشام : إن كان هو(١) كما تقول فما دعوتنا إلا لقتل أهل الجنة ، فقال مروان : خالفوا ونكثوا .

وفى الذيل على ابن النجار للعراقى : ذكر محمد بن سعد فى الطبقات أن مروان ابن الحكم كان يُحَرِّضُ مسلم بن عقبة على أهل المدينة ، وجاء معه معيناً له حتى ظفر بهم ، وانتهبت المدينة ، فلما قدم مروان على يزيد شكر له ذلك وأدناه .

وروى ابن الجوزى بسنده إلى سعيد بن المسيب قال : ما أصلى لله تعالى صلاة إلا دعوت على بنى مروان

وبسنده أيضا إليه قال : لقد رَأيْتنِي ليالى الحرة ما فى المسجد أحَدٌ من خَلْق الله غيرى ، وإن أهل الشام لَيَدْخُلون زُمَراً يقولون : انظروا إلى هذا الشيخ المجنون ، ولا يأتى وقت صلاة إلا سمعتُ أذَاناً من القبر ، ثم أقيمت الصلاة فتقدمت فصليت وما فى المسجد أحد غيرى .

وبسنده أيضاً إلى المداينى عن أبى قرة قال : قال هشام بن حسان : وَلَدَتْ بعد الحرة ألفُ امرأةٍ من غير زَوْج .

وعن المداينى أيضاً عن أبى عبد الرحمن القرشى عن خالد الكندى عن عمته أم الهيثم بنة يزيد قالت : رأيت امرأة من قريش تطوف ، فعَرَض لها أسودُ فعانقته وقبلته ، فقلت : يا أمة الله ، أتفعلين هذا بهذا الأسود ؟ فقالت : هو ابنى ، وَقَع علىّ أبوه يوم الحرة .

ونقل العراقى فى ذيله عن شيخه أبى المظفر السمعانى أنه روى بسنده إلى أبى غزية الأنصارى قال : كان قوم من أهل المدينة يجتمعون فى مجلس لهم بالليل يسهرُون فيه ، فلما قتل الناس قتلوا ونجا منهم رجل فجاء إلى مجلسه فلم يحسّ منهم أحداً ، ثم جاء الليلة الثانية فكذلك ، ثم جاء الثالثة فكذلك ، فتمثل بهذا البيت :

(١) فى المطبوعات « إن كان مولا كما تقول » تطبيع لا معنى له .

ألا ذَهَبَ الـكُماةُ وخلَّفُونِي كفى حَزَنًا بذكرى للكماة

قال : فنودى من المجلس :

فَدَعْ عنك الـكُماةَ فقدتَوَلَّتْ ونفْسَكَ فَابْكِها قبلَ المماتِ

فـكلُّ جماعـةٍ لابدَّ يوماً يُفرِّقُ بينها شعبُ الشَّتَاتِ

وروى الطبرانى عن أبى هارون العبدى قال : رأيت أبا سعيد الخُدْرى رضى الله عنه مُمَعَّط اللحية (١) ، فقلت : تعبث بلحيتك ؟ قال : لا ، هذا مالقيتُ من ظَلَمَة أهل الشام ، دخلوا زَمَن الحرة ، فأخذوا ما كان فى البيتِ من متاع أو خُرْثِىّ (٢) ، ثم دخلت طائفة أخرى فلم يجدوا فى البيت شيئاً فأسفُوا أن يخرجوا بغير شىء ، فقالوا : أضْجِعُوا الشيخ ، فجعل كل يأخذ من لحيتى خصلة .

حرق مسلم بن عقبة والخلاف فيه

وروى أيضا عن محمد بن سعيد خبرا قال فيه : فلما جاء يزيد خلافُ ابنِ الزبير ودعاؤه (٣) إلى نفسه دعا مسلم بن عقبة المرى وقد أصابه الفالج وقال : إن أمير المؤمنين — يعنى أباه — عهد إلىَّ فى مرضه إن رَابَنِى من أهل الحجاز رَيْبٌ أن أوجِّهك إليهم ، وقد رابنى ، فقال : إنى كما ظنَّ أميرُ المؤمنين ، أعْقِدْ لى وعَبِّ الجيوش ، قال : فورد المدينة فأباحها ثلاثا ، ثم دعا إلى بيعة يزيد على أنهم أعْبُدٌ له قِنٌّ فى طاعة الله ومعصيته ، فأجابوه إلى ذلك ، إلا رجلا واحدا من قريش أمه أم ولد ، فقال له : بايع ليزيد على أنك عبدٌ فى طاعة الله ومعصيته ، قال : بل فى طاعة الله ، فأبى أن يقبل ذلك منه ، فقتله ، فأقسمَتْ أمه قسماً لئن أمكنها من مسلم حيًّا أو ميتاً أن تحرقه بالنار ، فلما خرج مسلم بن عقبة من المدينة اشتدَّتْ علتُـه فمات ، فخرجت أم القرشى بأعْبُدٍ لها إلى قبر مسلم ، فأمرت به أن يُنْبَشَ من عند رأسه فلما وصلوا إليه إذا بثعبان قد التوى على عنقه قابضاً بأرْنَبَةِ أنفه يمصُّها ، قال : فَـكَاعَ (٤) القوم عنه ، وقالوا : يامولاتنا انصرفى فقد كفاكِ الله شره ، وأخبروها ، فقالت : لأوفِيَنَّ الله بما وعدته ، ثم قالت : أنبشوه من عند الرجلين ، فنبشوا ، فإذا

(١) ممعط اللحية : ساقط شعرها (٢) الخرثى : أردأ المتاع .

(٣) فى المطبوعات « ودعا به إلى نفسه » تطبيع (٤) كاعوا : نكصوا وتأخروا

بالثعبان لاو ذنبه برجليه ، قال : فتنحَّتْ وصلَّتْ ركعتين ، ثم قالت : اللهم إنك تعلم [أنى] إنما غضبت على مسلم بن عقبة اليوم لك فخَلِّ بينى و بينه ، ثم تناولت عوداً فمضت إلى ذنب الثعبان فانسلّ من مؤخر رأسه فخرج من القبر ، ثم أمرت به ؛ فأخرج من القبر ثم أحرق بالنار .

قلت : وفى كتاب الحرة للواقدى أن الثابت بالبلد عندنا أن مُسْرِفا لما دفن بثنية المشلَّل(١) وكانت أم ولد ليزيد بن عبدالله بن ربيعة تسير وراء العسكر بيومين أو ثلاثة حتى جاءها الخبر بذلك ، فانتهت إليه ، فنبشته ثم صلبته على المشلَّل(١) ، قال الضحاك : فحدثنى من رآه مَصْلوبا يُرْمَى كما يرمى قبر أبى رِغال(٢) .

وحدثنى عبدُ الرحمن بن أبى الزنادِ عن عبد الرحمن بن الحارث قال : والله ما خلصت إليه ، ولقد نبشت عنه ولكنها لما انتهت الى لَحْدِهِ وجدت أسْوَدَ من الأساود مُنْطَويا على رقبته فاتحا فاه ، فانصرفت عنه .

وقال ابن الجوزى : لما دخلت سنة أربع وستين ـ وقد فرغ مسلم من قتال أهل المدينة ـ سار متوجها إلى مكة ، واستخلف على المدينة روح بن زنباع ، وسار إلى ابن الزبير ؛ فمات فى الطريق .

قلت : وذلك مِصْدَاق ما جاء فى مَنْ يقصد أهل المدينة بسوء ؛ فأهلكه الله سريعاً .

قال القرطبى : أهلكه الله مُنْصَرَفَهُ عن المدينة ، ابتلاه الله بالماء الأصفر فى بطنه ؛ فمات بقَدَيد بعد الوقعة بثلاث ليال .

وقال الطبرى : مات بِهَرْشَى بعد الوقعة بثلاث ليال ، وكان لحماقته الموفرة يقول عند موته : اللهم إنى لم أعمل عملا قطُّ بعد شهادة أن لا إلَهَ إلا الله أحب إلىّ من قتال أهل المدينة ، ولئن دخلتُ النار بعدها إنى لشقى ، ثم دعا حصين ابن نمير السكونى وقال له : أمير المؤمنين وَلاَّكَ بعدى ، فأسْرِعِ السير ، ولا تؤخر

---

(١) المشلل : جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر .

(٢) فى المطبوعات «أبى دغال» تطبيع ، وقبر أبى رغال فى طريق الطائف ، وانظر القاموس (رغل — غمس) وفى شعر جرير يهجو الفرزدق :

إذا مات الفرزدق فارجموه كما يرمون قبر أبى رغال

ابن الزبير ، وأمره أن يَنصِبَ المجـانيق على مكة ، وقال : إن تَعَوَّذُوا بالبيت فارْمِهِ ، وحاصر مكة أربعة وستين يوما جرى فيها قتال شديد ، وقذفت الكعبة بالمجانيق يوم السبت ثالث ربيع الأول ، وأخذ رجل قَبَسًا فى رأس رُمْح فطارت به الريح فاحترق البيت ، فجاءهم نعى يزيد بن معـاوية إهْلَالَ ربيع الآخر ، وكان بين الحرة وبين موته ثلاثة أشهر ، وقال القرطبى : دون ثلاثة أشهر ؛ لأنه توفى بالذبحة وذات الجنب فى نصف ربيع الأول ، فلقد ذاب ذَوْبَ الرصاص ، واجترأ أهلُ المدينة وأهلُ الحجاز على أهل الشام ، فذلوا حتى كان لا ينفرد منهم رجل إلا أخذ بلجام دابته فنكس عنهـا ، فقال لهم بنو أمية : لا تبرحوا حتى تحملونا معكم إلى الشام ، ففعلوا ، ومضى ذلك الجيش حتى دخلوا الشام

وكانت وقعة الحرة ، وقتل الحسين ، ورمى الكعبة بالمنجنيق مِن أشْنَعِ شىء جرى فى أيام يزيد .

وقال عبد الرحمن بن سعيد بن زيد أحد العشرة رضى الله عنهم :

فإن تَقْتُلُونَا يوم حَـرَّةِ وَاقِـمٍ ... فنحنُ على الإسلام أولُ مَن قُتِلْ

ونحن قتلنـــاكم ببَدْرٍ أذلةً ... وأبْنَا بأسلاب لنـا منكم نَفَلْ

فإن يَنْجُ منها عائذُ البيت سالمـاً ... فكلُّ الذى قد نابنا منكم جَلَلْ[1]

يعنى بعائذ البيت عبدَ الله بن الزبير .

وهذه الكائنة غير الإغزاء المذكور فى حديث البيداء ؛ ولهذا روى ابنُ شبة عن أبى المهزم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : يجىء جيش مِنْ قِبَل الشام حتى يدخل المدينة ، فيقتلون المقاتلة ، ويَبْقُرون بطون النساء ، ويقولون : الحبلى فى البطن : اقتلوا صُبَابة الشر ، فإذا عَلَوُا البيداء من ذى الحُلَيفة خسف بهم فلا يدرك أسفلهم أعلاهم ولا أعلاهم أسفلهم ، قال أبو المهزم : فلما جاء جيشُ ابن ذبحـة قلنا : هم ، فلم يكونوا هم[2] .

---

(١) جلل ، هنا : بمعنى يسير سهل ، وهو من الأضداد .

(٢) فى هذا الخبر ألفاظ لم يستقم لى أمرها .

قلت : وقد جاء فى بعض الأخبار بيان أن ذلك الجيش جيش السفيانى ، يبعثه لقتال المهدى .

وقال يحيى بن سعيد : لم تترك الصلاة فى هذا المسجد منذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة أيام : يوم قتل عثمان ، و يوم الحرة ، قال مالك : ونسيت الثالث ، وفى العُتْبية عن مالك أنه بلغه ذلك عن سعيد بن المسيب بمعناه ، قال ابن رشد : واليوم الثالث الذى ذكر مالك أنه نسيه ، قال محمد بن عبد الحكم : هو يوم خرج به أبو حَمْزَة الخارجى، وكان خروجه ـ فيما ذكروا ـ فى دولة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بنى أمية .

مسير أبى حمزة إلى المدينة

قال خليفة بن خياط[١] : سار أبو حمزة فى أول سنة ثلاثين ومائة ، يُرِيدُ المدينةَ ، واستخلف على مكة إبراهيم بن الصباح الحميرى ، وجعل على مُقَدّمته فلح بن عقبة السعدى ، وخرج أهل المدينة والتقوا بقُدَيد يوم الخميس لتسع خلون من صفر سنة ثلاثين ومائة ، وفلح فى ثلاثين ألف فارس ، فقال لهم : خَلُّوا طريقنا فنأتى هؤلاء الذين بَغَوْا علينا وجاروا فى الحكم فإنا لا نريد قتالكم ، فأبوا ؛ فقاتلوهم فانهزم أهل المدينة ، وجاءهم أبو حمزة فقال له على بن الحصين : اتبع هؤلاء القوم، وأَثْخِنْ على جريحهم ، فإن لكل زمان حكما ، والإثخان فى مثل هؤلاء أَمْثَلُ ، قال : ما أرى ذلك ، ومضى أبو حمزة إلى المدينة فدخلها يوم الاثنين لثلاث عشر خلت من صفر ، ففى يوم دخوله إياها ـ والله أعلم ـ خُلِّىَ مسجد النبى صلى الله عليه وسلم من أن يجمع فيه ، وأصيب من قريش يومئذ ثلثمائة رجل ، ومن آل الزبير اثنا عشر رجلا ، فما سمع الناس بَوَاكِىَ أوجع للقلوب من بواكى قُدَيْد ، ما بقى بالمدينة أهل بيت إلا فيهم بكاء ، وقالت نائحة تبكيهم :

ما للزمان وَمَا لِيَهْ   أفْنَى قديد رِجَالِيَهْ
فلأَبكينّ سَرِيرَةً   ولأبكين عَلاَنِيَهْ

---

(١) انظر خبر هذه الوقعة فى تاريخ الطبرى (١٠٦/٩ ط الحسينية) وتاريخ ابن الأثير (١٥٧/٥) والبداية لابن كثير (٣٥/١٠) والنجوم الزاهرة (٣١١/١) .

قلت : وذكر الذهبيُّ عن خليفة بن خياط فى خبر أبى حمزة هذا ما ملخصه : أن عبد الله بن يحيى الأعور الكندى المسمى طالب الحق - بعد أن ملك حضرموت وصنعاء - بعث إلى مكة أبا حمزة الخارجى الأباضى المذكور ، فخاف عبدُ الواحد ابن سليمان بن عبد الملك - وكان والياً على مكةَ والمدينةِ - وخذلهُ أهلُ مكة ، ففارقها فى النفر الأول ، وقصد المدينة ، فغلب أبو حمزة على مكة ، ثم سار منها بعد أن استخلف عليها ، فَلَقِيَ بقُدَيد الجيشَ الذى أرسله عبدُ الواحد بن سليمان لقتاله ، فظفر أبو حمزة ، وسار إلى المدينة فدخلها ، وقتل فيها جماعة منهم أربعون رجلا من بنى عبد العزى ، وجهز إليه مروان عسكرا ، فلقِيَ بوادى القرى فلحا ، وهو على مقدمة أبى حمزة ، فاقتتلوا ، فقتل فلح وعامة أصحابه ، ثم أدركوا أبا حمزة بمكة ، فقتلوه فى خلق من أصحابه ، ثم ساروا لطالب الحق فقتلوه ، انتهى ملخصا .

قلت : ويحتمل أنَّ مَا نقل عن الأخباريين فى الخروج من المدينة إنما كان فى هذه الكائنة أو قبل ذلك كله فى كائنة بُسْر (١) بن أرطاة ، فإن القرطبى قال : وذكر أبو عمرو الشيبانى قال : لما وجَّه معاوية رضى الله عنه بسر بن أرطاة لقتل شيعة على رضى الله عنه سار إلى أن أتى المدينة ، فقتل ابنى عبيد الله بن العباس رضى الله عنهما ، وفر أهلُ المدينة حتى دخلوا الحرة حرة بنى سُلَيم ، ولكنه بعيد ، والأقرب ما قدمناه ، والله أعلم .

الفصل السادس عشر

فى ظهور نار الحجاز التى أنذر بها النبى صلى الله عليه وسلم ، فظهرت بأرض المدينة وأطفأها الله تعالى عند وصولها إلى حرمها ، كما سنوضحه .

الأحاديث الواردة فى هذه النار

روينا فى مسند أحمد برجال ثقاتٍ عن أبى ذر قال : أقبلنا مع رسول الله صلى

(١) فى المطبوعات كلها «بشر بن أرطاة» بالشين المعجمة - تطبيع .

الله عليه وسلم ، فرأينا ذا الحليفة ، فتعجَّلَ رجالٌ إلى المدينة ، وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبتنا معه ، فلما أصبح سأل عنهم ، فقيل : تعجلوا إلى المدينة ، فقال : « تعجَّلوا إلى المدينة والنساء ، أما إنهم سَيَدَعُونها أحْسَنَ ما كانت » ثم قال : « ليت شعرى متى تخرج نار بأرض اليمن من جبل الوراق تضيء منها أعناقُ الإبل ببُصْرَى بروكا كضوء النهار » ورواه ابن شبة من غير ذكر « بأرض اليمن » ولفظه « ليتركُنها أحْسَنَ ما كانت ، ليت شعرى متى تخرج نار من جبل الوراق تضيء لها أعناق الإبل ببُصْرَى بروكا كضوء النهار » .

وأخرج الطبرانى فى آخر حديث لحذيفة بن أسد : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من رومان — أو ركوبة — تضيء منها أعناق الإبل ببُصْرَى » .

قلت : وركوبة كما سيأتى : ثنية قريبة من ورقان ، ولعله المراد بجبل الوراق ، قال الحافظ ابن حجر : ورومان لم يذكره البكرى : ولعل المراد رومة البئر المعروفة بالمدينة ، ثم نقل عن البكرى أن ركوبة بين المدينة والشام ، وسيأتى رده .

وهذه النار مذكورة فى الصحيحين فى حديث « لا تقوم الساعة حتى تظهر نار بالحجاز » ، ولفظ البخارى : « تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى » .

وروى الطبرانى بسند فيه ضعيف عن عاصم بن عدى الأنصارى قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حِدْثَانَ ما قَدِمَ ، فقال : « أين حُبْسُ سيل[1] ؟ » قلنا : لا ندرى ، فمر بى رجل من بنى سُلَيم ، فقلت : من أين جئت ؟ فقال : من حُبْسِ سيل[1] ، فدعوت بنعلى ، فانحدرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، سألتنا عن حبس سيل[1] ، فقلنا : لا علم لنا به ، وإنه

(١) فى المطبوعات كلها كما فى خلاصة الوفا « حبس وسيل » تطبيع ، والصواب بغير واو كما فى مجمع البحار ، ومعجم البلدان ، ونهاية ابن الأثير ، وقع فيما سيأتى (فى ص ١٤٢) على الصواب ، واقرأ الهامشة الآتية فى ص ١٤١ .

مَرَّ بي هذا الرجل فسألته فزعم أن به أهله ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أين أهلك » ؟ فقال : بحبس سيل [1] ، فقال: «أَخْرِجْ أَهْلَكَ منها ؛ فإنه يُوشِكُ أن تخرج منه نار تضيء أعناق الإبل ببصرى » .

وحديث «يوشك نار تخرج من حبس سيل [1] تسير سَيْرَ بطيئةِ الإبل ، تسير النهار وتقيم الليل » الحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية رافع بن بشير السلمى عن أبيه . قال الحافظ الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير رافع ، وهو ثقة ، انتهى .

وفى مسند الفردوس عن عمر حديث «لا تقوم الساعة حتى يسيل وادٍ من أودية الحجاز بالنار يضيء له أعناق الإبل ببصرى» وأخرجه ابن عدىّ فى كامله من طريق عمر بن سعيد التنوخى عن ابن شهاب عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رفعه ، وعمر بن سعيد ذكرهُ ابن حبان فى الثقات، وكتبه ابن عدى والدارقطنى

وقد ظهرت هذه النار بالمدينة الشريفة كما سنبينه ، ولا إشكال فى كون المدينة حجازية ، وأما كونها يمانية فقد نص عليه الشافعى . قال البيهقى فى المعرفة : قال الشافعى : ومكة والمدينة يمانيتان . قلت : وقد ذكر الشافعى فى الأم حديث « أتاكم أهلُ اليمن هم أليَنُ قلوبا » الحديثَ ، ثم روى « أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف على ثنية تَبُوك فقال : ما ههنا شام ، وأشار بيده إلى جهة الشام ، وما ههنا يَمَنٌ ، وأشار بيده إلى جهة المدينة » هكذا نقلته من الأم بهذا اللفظ ، وهو فى مسند الشافعى بلفظ « ماههنا شام ، وأشار بيده إلى الشام ، ومن هُهُنا يمن ، وأشار بيده إلى جهة المدينة » قال ابن الأثير فى شرحه : الغرض منه بيانُ حد الشام واليمن ، وقد جعل المدينة من اليمن ، اهـ . والعجب أن النووى قال فى فتاويه :

بيان أن المدينة يمانية كما أنها حجازية

(١) فى المطبوعات «حبس وسيل» والصواب « حبس سيل » بغير واو ، قال ياقوت : قال الزمخشرى : الحبس ــ بالضم ــ جبل لبنى قرة ، وقال غيره : الحبس بين حرة بنى سليم والسوارقية، وفى حديث عبدالله بن حبشى : تخرج نار من حبس سيل ، قال أبو الفتح نصر : حبس سيل ــ ورواه بالفتح ــ إحدى حرتى بنى سليم ، وهما حرتان بينهما فضاء كلتاهما أقل من ميلين ، اهـ . وانظر أيضا النهاية لابن الأثير (١٩٦/١).

مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ليست يمانية ولاشامية ، بل هى حجازية ، قال : وهذا لا خلاف فيه بين العلماء ، وكأنه لم يقف على هذا

وأما حبس سيل فقد قيل : إن حبس ـ بالضم ثم السكون ـ بين حرة بنى سليم والسوارقية ، وقد كان إقبال هذه النار من المشرق فى جهة طريق السوارقية كما سيأتى ، وقال نصر : حبس سيل ـ بالفتح ـ إحدى حرتى بنى سليم . قلت : وأهـل المدينة اليوم يسمون السد الآتى وصفهُ فيما أحدثته هـذه النار بالحبس . وفى كلام ياقوت ما يقتضى أنه كان يسمى بالسد قبل هذه النار ؛ فإنه لم يُدْرِكها ، ومع ذلك قال : إن أعْلى وادى قناة عند السد يسمى بالشظَاة ، اﻫ .

وظهور النار المذكورة بالمدينة الشريفة قد اشتهر اشتهارا بلغ حد التواتر عند أهل الأخبار ، وكان ظهورها لإنذار العباد بما حدث بعدها ؛ فلهذا ظهرت على قرب مرحلة من بلد النـذير صلوات الله وسلامه عليـه ، وتقدمها زلازل مهولة ، وقد قال تعالى: « وما نُرْسِلُ بالآيات إلا تخويفا[1] » وقال تعالى : « ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون[2] » ولما ظهرت النار العظيمة الآتى وصفها ، وأشفق منها أهل المدينة غاية الإشفاق ، والتجئوا إلى نبيهم المبعوث بالرحمة ، صُرِفَتْ عنهم ذاتَ الشمال ، وزاحت عنهم الأوجال ، وظهرت بركة تربته صلى الله عليه وسلم فى أمته ، ولعل الحكمة فى تخصيصها بهذا المحل ــ مع ما قدمناه من كونه حضرة النذير ـ الرَّحمةلهذه الأمة فإنها لو ظهرت بغيره وسلطان القهر والعظمة التى هى من آثاره قائم لربما استولَتْ على ذلك القطر ولم تجد صارفا ؛ فيعظم ضررها على الأمة ، فظهرت بهذا المحل الشريف لحكمة الإنذار ، فإذا تمت قابلتها الرحمة فجعلتها بَرْداً وسلاما ، إلى غير ذلك من الأسرار

ابتداء الزلزلة التى حدثت بالمدينة

وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة الشريفة مُسْتَهَلَّ جُمَادى الآخرة أوآخر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين وستمائة ، لـكنها كانت خفيفة لم يدركها بعضهم مع تـكررها بعد ذلك ، واشتدت فى يوم الثلاثاء على ما حكاه القطب القسطلانى ،

(١) من سورة الإسراء من الآية ٥٩ (٢) من سورة الزمر من الآية ١٦ .

وظهرت ظهورا عظيما اشترك فى إدراكه العامُّ والخاصُّ ، ثم لما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر أو رابعه فى الثلث الأخير من الليل حدث بالمدينة زلزلة عظيمة أشفق الناس منها ، وانزعجت القلوب لهيبتها ، واستمرت تزلزل بقية الليل ، واستمرت إلى يوم الجمعة ولها دوىٌّ أعظم من الرعد ، فتَمُوجُ الأرض ، وتتحرك الجدارات ، حتى وقع فى يوم واحد دون ليلِهِ ثمانية عشر حركة على ما حكاه القسطلانى

وقال القرطبى : قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة ، وكان بدؤها زلزلة عظيمة فى ليلة الأربعاء بعد العَتَمة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ، واستمرت إلى ضُحى النهار يوم الجمعة فسكنت ، وظهرت بقريظه بطرف الحرة ، ترى فى صفة البلد العظيم ، عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج ومواذن ، وترى رجال يقودونها ، لا تمر على جبل إلا دكَّتْه وأذابته ، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوىٌّ كدوىِّ الرعد ، يأخذ الصخور بين يديه ، وينتهى إلى محط الركْبِ العراقى ، واجتمع من ذلك رَدْم صار كالجبل العظيم ، فانتهت النار إلى قرب المدينة ، ومع ذلك فكان يأتى المدينةَ نسيمٌ بارد ، وشوهد لهذه النار غَلَيان كغَلَيَان البحر ، وقال لى بعض أصحابنا : رأيتها صاعدة فى الهواء من نحو خمسة أيام ، وسمعت أنها رُؤيت من مكة ومن جبال بُصْرَى ، اهـ .

وقال النووى : تواتر العلمُ بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام

ونقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضى المدينة الشريفة وغيره أن فى ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة فى الثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها وباتت فى تلك الليلة تزلزل ، ثم استمرت تزلزل كل يوم وليلة مقدار عشر مرات — وفى كتاب بعضهم أربعَ عشرةَ[1] مرة — قال : والله لقد زلزلت مرة ونحن حول الحجرة فاضطرب لها المنبر إلى أن سمعنا منه صوتا للحديد الذى فيه ، واضطربت قناديل الحرم الشريف ، زاد القاشانى : ثم فى اليوم الثالث — وهو يوم الجمعة — زلزلت الأرض زلزلة عظيمة ، إلى أن اضطربت منام

(١) فى الأصل «أربعة عشر مرة» والعربية تقتضى ما أثبتناه .

المسجد ، وسمع لسقف المسجد صرير[١] عظيم ، قال القطب : فلما كان يوم الجمعة نصف النهار ظهرت تلك النار ، فثار من محل ظهورها فى الجودُخانٌ متراكم غشى الأفُقَ سواده ، فلما تراكمت الظلمات وأقبل الليل سطَع شعاعُ النار، فظهرت مثل المدينة العظيمة فى جهة المشرق ، والحكمة فى ظهورها فى يوم الجمعة غير خافية ، فنى الحديث « من أفضل أيامكم يوم الجمعة: فيه خلق آدم، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة على » الحديث ، وفى الحديث أيضاً « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة : فيه خلق آدم ، وفيه أهبط ، وفيه تِيبَ عليه، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهى مُصِيخة[٢] حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة ، إلا الجن والإنس ، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه » رواه أبو داود ، وهو اليوم الذى أدخره الله لهذه الأمة ، وأكمل فيه دينهم ؛ فأراد الله أن يخوف عباده فيه بذلك ليردهم إليه ، فتلك النار نعمة فى صورة نقمة ، ولهذا وجِلَتْ[٣] منها القلوب وأشفقت ، وأيقن الناس أن العذاب قد أحاط بهم . قال القاضى سنان : وطلعت إلى الأمير ـ وكان عز الدين منيف بن شيحة ـ وقلتُ له : قد أحاط بنا العذاب ، ارْجِعْ إلى الله ، فأَعْتَقَ كلَّ مماليكه ، وردَّ على الناس مظالمهم ـ زاد القاشانى : وأبطل المكس ـ ثم هبط الأمير للنبى صلى الله عليه وسلم ، وبات فى المسجد ليلة الجمعة وليلة السبت ، ومعه جميعُ أهل المدينة حتى النساء والصغار ، ولم يبق أحد فى النخل إلا جاء إلى الحرم الشريف ، وبات الناس يتضرعون ويبكون ، وأحاطوا بالحجرة الشريفة كاشفين رؤسهم مُقِرِّين بذنوبهم مبتهلين مستجيرين بنبيهم صلى الله عليه وسلم . قال القطب : ولما عاين أميرُ المدينة ذلك أقلع عن المخالفة ، واعتبر ، ورجع عما كان عليه من المظالم وانزجر ، وأظهر التوبة والإنابة ، وأعتق جميع مماليكه ، وشرع فى رد المظالم ، وعزم أهلُ المدينة

---

(١) الصرير : الصوت (٢) مصيخة : منصتة .
(٣) وجلت القلوب توجل : خافت أشد الخوف .

على الإقلاع عن الإصرار وارتكاب الأوزار ، وفزِعوا إلى التضرع والاستغفار ، وهبط أميرهم من القلعة مع قاضيهم الشريف سنان وأعيان البلد ، والتجؤا إلى الحجرة الشريفة ، و باتوا بالمسجد الشريف بأجمعهم حتى النساء والأطفال ؛ فصرف الله تعالى عنهم تلك النار العظيمة ذات الشمال ، ونجوا من الأوجال ، فسارت تلك النار من مَخْرجها وسالت ببحر عظيم من النار ، وأخذت فى وادى أُحَيْليَين وأهلُ المدينة يشاهدونها من دورهم كأنها عندهم ، ومالت من مخرجها إلى جهة الشمال واستمرت مدة ثلاثة أشهر على ما ذكره المؤرخون .

مدة النار

وذكر القطب القسطلانى[1] فى كتابٍ أفرده لهذه النار ، وهو ممن أدركها ، لكنه كان بمكة فلم يشاهدها : أن ابتداءها يوم الجمعة السادس من شهر جمادى الآخرة ، وأنها دامت إلى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب ، ثم خمدت ، فجملة ما أقامت اثنان وخمسون يوماً ، لكنه ذكر بعد ذلك أنها أقامت منطفية أياماً ، ثم ظهرت ، قال : وهى كذلك تسكن مرة وتظهر أخرى ؛ فهى لا يؤمن عَوْدُها ، وإن طفىء وقودها ، انتهى ؛ فكأن ما ذكره المؤرخون من المدة باعتبار انقطاعها بالكلية ، وطالت مدتها ليشتهر أمرها فينزجر بها عامة الخلق و يشهدوا من عظمها عنوان النار التى أنذرهم بها حبيب الحق .

قوة النار

وذكر القسطلانى[1] عمن يثق به أن أمير المدينة أرسل عدة من الفرسان إلى هذه النار للاتيان بخبرها ، فلم تجسر الخيل على القرب منها ، فترجَّلَ أصحابُها وقربوا منها ، فذكروا أنها ترمى بشَرَر كالقَصْر ، ولم يظفروا بجلية أمرها ، فجرد عزمه للاحاطة بخبرها ، فذكر أنه وصَل منها إلى قدر غَلْوتين بالحجر ولم يستطع

(١) من نافلة القول أن ننبه هنا إلى أن قطب الدين القسطلانى الذى ينقل عنه المؤلف غير شهاب الدين القسطلانى شارح البخارى ؛ فإن شارح البخارى متأخر عن المؤلف ؛ إذ وفاة شارح البخارى فى سنة ٩٢٣ — ويقال : ٩٢٢ من الهجرة — وذلك بعد وفاة السمهودى بأحد عشر ، أو — اثنى عشر — عاما ، ثم إن النار كانت فى سنة ٦٥٤ ، والقسطلانى المنقول عنه قد أدركها ، والمؤلف يصرح فى غير موضع بذلك .

أن يجاوز موقفه من حرارة الأرض وأحجار كالمسامير تحتها نار سارية ومقابله ما يتصاعد من اللهب ، فعاين ناراً كالجبال الراسيات ، والتلال المجتمعة السائرات ، تقذف بزَبَد الأحجار كالبحار المتلاطمة الأمواج ، وعَقَد لهيبُهَا فى الأفق قتَاما حتى ظن الظان أن الشمس والقمر كسفا إذ سُلبا بهجةَ الإشراق فى الآفاق ، ولولا كفاية الله كَفَّتْها لأكلت ما تُقدِم عليه من الحيوان والنبات والحجر ، انتهى .

وذكر الجمال المطرى ما يخالف بعض هذا ؛ فإنه قال : أخبرنى علم الدين سنجر العِزِّىُّ من عتقاء الأمير عزالدين منيف بن شيحة صاحب المدينة قال : أرسلنى مولاى الأمير عز الدين بعد ظهور النار بأيام ، ومعى شخص من العرب ، وقال لنا ونحن فارسان : أقربا من هذه النار ، وانظرا هل يقدر أحد على القرب منها ، فإن الناس يهابونها لعظمها ، فخرجت أنا وصاحبى إلى أن قربنا منها ؛ فلم نجد لها حراً ، فنزلت عن فرسى ، وسرت إلى أن وصلت إليها ، وهى تأكل الصخر والحجر ، فأخذت سهماً من كنانتى ، ومددت به يدى إلى أن وصل النصلُ إليها فلم أجد لذلك ألمًا ولا حراً ، فَعَرِق النصل ولم يحترق العود ، فأدَرْتُ السهمَ وأدخلت فيها الريش فاحترق الريش ولم يؤثر فى العود .

وذكر المطرى قبل ذلك أنها كانت تأكل كلَّ ما مرت عليه من جبل وحجر ، ولا تأكل الشجر ، قال : وظهر لى فى معنى ذلك أنه لتحريم النبى صلى الله عليه وسلم شَجَرَ المدينة ؛ فمنعت من أكل شجرها لوجوب طاعته صلى الله عليه وسلم على كل مخلوق .

قلت : وذكر القسطلانى أن هذه النار لم تزل مارة على سبيلها حتى اتصلت بالحرة ووادى الشَّظَاة ، وهى تَسْحَقُ ماوَالَاها[1] ، وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصى من قوة اللظى ، وأن طرفها الشرقى أخذ بين الجبال فحالت دونه ثم وقفت ، وأن طرفها الشامى — وهو الذى يلى الحرم — اتصل بجبل يقال له وعيرة

(١) والاها : دنا منها ، وفى المطبوعات « ماوالها » تطبيع .

على قرب من شرق جبل أحد ، ومَضَتْ فى الشَّظَاة الذى فى طرفه وادى حمزة رضى الله عنه ، ثم استمرت حتى استقرت تُجَاه حرم النبى صلى الله عليه وسلم فطفئت ، قال : وأخبرنى شخص أعتمد عليه أنه عاين حجراً ضخماً من حجارة الحرة كان بعضُه خارجاً عن حد الحرم ، فعلقت بما خرج منه ، فلما وصلت إلى ما دخل منه فى الحرم طفئت وخمدت ، انتهى .

وهذا أولى بالاعتماد من كلام المطرى ؛ لأن المطرى لم يدرك هذه النار وإن أدْرَكَ مَنْ أدركها ، بخلاف القطب فإنه أدركها ، واعتنى بجمع أخبارها ، وأفردها بالتصنيف ، ولم يقف عليه المطرى ، وهذا أبلغ فى الإعجاز ، حيث لم تدخل هذه النار حرمه الشريف ؛ إذ هى للانذار والتخويف وهو نبى الرحمة صلى الله عليه وسلم .

ضوء النار

وقد نقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب القاضى سنان الحسينى أن سيل النار انحدر مع وادى الشَّظَاة حتى حاذى جبل أحد ، وكادت النار تقارب حرة العريض وخاف الناس منها خوفا عظيما ، ثم سكن قتيرُها الذى يلى المدينة ، وطفئت مما يلى العريض بقدرة الله تعالى ، فرجعت تسير فى الشرق ، وهو مؤيد لما ذكره القطب ، ومشاهدة آثارها اليوم تقضى بذلك .

قال المطرى : وأخبرنى بعض من أدركها من النساء أنهن كن يغزلن على ضوئها بالليل على أسطحة البيوت بالمدينة الشريفة .

وقال القسطلانى : إن ضوءها استوى على ما بَطَن من القيعان(١) ، وظهر من القلاع ، حتى كأن الحرم النبوى عليه الشمس مشرقة ، وجملة أماكن المدينة بأنوارها محدقة ، ودام على ذلك لهبها حتى تأثر له النيّران ، وصار نور الشمس على الأرض تعتريه صُفْرة ، ولونها من تصاعد الالتهاب يعتريه حمرة ، والقمر كأنه قد كسف من اضمحلال نوره ، قال : وأخبرنى جمع ممن توجه للزيارة على طريق

---

(١) القيعان : جمع قاع ، وهو أرض سهلة مطمئنة .

المشيان أنهم شاهدوا ضوءها على ثلاثة مراحل للمجدّ ، وآخرون أنهم شاهدوها من جبال ساية .

قلت : نقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضى المدينة أن هذه النار رؤيت من مكة ومن الفَلَاة جميعها ، ورآها أهل ينبع .

قال أبو شامة : وأخبرنى بعضُ مَنْ أثق به ممن شاهدها بالمدينة أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب .

وقال المجد : والشمس والقمر فى المدة التى ظهرت بها ما يطلعان إلا كاسفين .

قال أبو شامة : وظهر عندنا بدمشق أثر ذلك الكسوف من ضعف النور على الحيطان ، وكنا حَيَارَى من سبب ذلك ، إلى أن بلغنا الخبرُ عن هذه النار ، وكل من ذكر هذه النار يقول فى آخر كلامه : وعجائب هذه النار وعظمتها يَكِلُّ عن وصفها البنان والأقلام (١) ، وتجل عن أن يحيط بشرحها البيان والكلام ؛ فظهر بظهورها معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم لوقوع ما أخبر به وهى هذه النار ؛ إذ لم تظهر من زمنه صلى الله عليه وسلم قبلها ولا بعدها نار مثلها .

هل رؤيت النار ببصرى

وقال القسطلانى : إنْ جاء مَنْ أخبر برؤيتها ببُصرى فلا كلام ، وإلا فيحتمل أن يكون ذكر ذلك فى الحديث على وجه المبالغة فى ظهورها ، وأنها بحيث تُرَى ، وقد جاء مَنْ أخبر أنه أبصرها بتَيماء ، وبصرى منها مثل ما هى من المدينة فى البعد .

قلت : قد تقدم عن القرطبى أنه بلغه أنها رؤيت من جبال بصرى ، وصرح الشيخ عماد الدين بن كثير بما يقتضى أنه أضاءت من هذه النار أعناقُ الإبلِ ببصرى ، فقال : أخبرنى قاضى القضاة صدرُ الدين الحنفى قال : أخبرنى والدى الشيخُ صفى الدين مدرس مدرسة بصرى أنه أخبره غيرُ واحد من الأعراب

---

(١) يكل : يضعف ويعجز .

صبيحةَ الليلة التى ظهرت فيها هــذه النار ممن كان يحاضره ببلد بصرى أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم فى ضــوء تلك النار ، فقد تحقق بذلك أنها الموعودُ بها ، والحكمة فى إنارتها بالأماكن البعيدة من هذا المظهر الشريف حصولُ الإنذار ، ليتم به الانزجار ، كما اتفق لأهل المدينة ، وفى هذا المعنى يقول قائلهم :

يا كاشفَ الضُّرِّ صَفْحًا عن جرائمنا ... لقد أحاطت بنـا يا ربِّ بأسَاء
نشكو إليك خطوبًا لا نُطيق لهـا ... حَمْــلًا ونحن بها حقا أحِقَّاء(١)
زلازلاً تخشـع الصُّمُّ الصِّلَابُ لهـا ... وكيف تَقْوَى على الزلزال شَمَّـاء(٢)
أقام سبعا يرجُّ الأرضَ فانصدعت ... عن منظر منه عينُ الشمس عَشْوَاء
بَحْرٌ من النـار تجـرى فوقه سُفُن ... من الهِضَاب لهـا فى الأرض إرساء
ترمى لهـا شَرَرًا كالقَصْر طائشة ... كأنها دِيمَـــةٌ تنصَبُّ هَطْلَاء
تنشقُّ منها بيوتُ الصخر إن زَفَرَت ... رُعْبًا ، وترعد مثل السعف أضواء
منها تكاثفَ فى الجو الدخانُ إلى ... أن عادَتِ الشمسُ منه وهى دَهْمَاء
قد أثرت سعفة فى البـدر لفحتها ... فليـلة التم بعـد النور عمياء
تحدثِ النيراتِ السبعَ ألسنُها ... بمـا تلاقى بها تحت الثرى المـاء
وقد أحاط لظاها بالـبروج إلى ... أن صار يلفحها بالأرض أهواء
فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت ... منا الذنوب وساء القلبَ أسـواء
فاسْمَحْ وهَبْ وتفضلْ بالرضى كرما ... وارحم فكلٌّ لفرط الجهل خَطَّاء
فقوم يونس لمـا آمنوا كشف التــــعذيب عنهم وعَمَّ القوم نعماء
ونحن أمة هذا المصطفى ، ولنا ... منه إلى عفـوك المرجو دَعَّاء
هذا الرسول الذى لولاه ما سلـكت ... محجـة فى سـبيل الله بيضاء
فارحم وصَلِّ على المختار ما خطبت ... على علا منبر الأوراق وَرْقَاء

---

(١) أحقاء : جمع حقيق ، ومعناه مستحق

(٢) شماء : أراد الجبال .

مبدأ ظهور النار

قال المؤرخون : وكان ظهورهذه النار من صدر وادٍ يقال له وادى الأحيليين وقال البدر ابن فرحون : إنها سالت فىوادى أحيليين ، وموضعها شرقى المدينةعلى طريق السوارقية مسيرة من الصبح إلى الظهر .

قال القطب القسطلانى : ظهرت فى جهة المشرق على مرحلة متوسطة من المدينة فى موضع يقال له قارع الهيلاء على قرب من مساكن قريظة شرقى قباء ، فهى بين قريظة وموضع يقال له أحيليين ، فثارت منهذا القاع ، ثم امتدت فيه آخذةً فى الشرق إلى قريب من أحيليين ، ثم عرجت واستقبلت الشام سائلة إلىأن وصلت إلى موضع يقال له قُرين الأرنب بقرب منأُحُدٍ ، فوقفت وانطفت وانصرفت ، انتهى .

من فوائد هذه النار

قال المؤرخون : واستمرت هذه النار مدة ظهورها تأكل الأحجار والجبال، وتسيل سيلا ذَريعاً فى وادٍ يكون طوله مقدار أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف ، وهى تجرى على وجه الأرض والصخر يذوب حتى يبقى مثل الآنُكِ (١) ، فإذا خمد اسودَّ بعدأن كان أحمر ، ولم يزل يجتمع من هذه الحجارة المُذَابة فى آخر الوادى عند منتهى الحرة حتى قطعت فى وسط وادى الشَّظَاة إلى جهة جبل وَعِيرة ، فسدَّت الوادىَ المذكور بسد عظيم من الحجر المسبوك بالنار ولا كسد ذى القرنين ، يعجز عن وصفه الواصف ، ولا مَسْلَكَ لإنسان فيه ولا دابة .

قلت : وهذا من فوائد إرسال هذه النار ؛ فإن تلك الجهة كثيراً ما يطرق منها المفسدون لكثرة الأعراب بها ؛ فصار السلوك إلى المدينة متعسراً عليهم جداً .

قال القسطلانى : أخبرنى جمع ممن أركَنُ إلى قولهم أن النار تركت على الأرض من الحجر ارتفاع رمح طويل على الأرض الأصلية .

(١) الآنك ــ بمد الهمزة وضم النون ــ الرصاص ، وهو مفرد وليس بجمع

قال المؤرخون : وانقطع وادى الشظاة بسبب ذلك ، وصار السيل إذا سال ينحبس خلف السد المذكور حتى يصير بحراً مَدّ البصر عرضاً وطولا[١] ، فانخرق من تحته فى سنة تسعين وستمائة لتكاثر الماء من خلفه ، فجرى فى الوادى المذكور سنتين كاملتين ، أما السنة الأولى فكان قد ملأ ما بين جانبى الوادى ، وأما الثانية فدون ذلك ، ثم انخرق مرة أخرى فى العشر الأول بعد السبعمائة فجرى سنة كاملة أو أزيد ، ثم انخرق فى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وكان ذلك بعد تواتر أمطار عظيمة فى الحجاز ، فكثر الماء وعلا من جانبى السد ومن دونه مما يلى جبل وَعِيرة وتلك النواحى ، فجاء سيلٌ طامٍ لا يوصف ، ولو زاد مقدار ذراع فى الارتفاع وصل إلى المدينة ، وكان أهل المدينة يقفون خارج باب البقيع على التل الذى هناك فيشاهدونه و يسمعون خَريراً تَوْجَل القلوب دونه ، فسبحان القادر على ما يشاء !.

النذر الحادثة فى عام النار والذى يليه

ومن العجائب أن فى السنة التى ظهرت فيها هذه النار احترق المسجد الشريف النبوى[٢] بعد انطفائها كما سيأتى ، وزادت دجلة زيادة عظيمة فغرق أكثر بغداد وتهدمت دار الوزير ، وكان ذلك إنذاراً لهم ، وليتهم اتَّعَظُوا .

ثم فى أول السنة التى تلى هذه السنة وقعت الطامة الكبرى ، وهى أخذ التتار لبغداد وقتلُ الخليفة المستعصم و بعده المسلمون ، و بذل السيف ببغداد نيفاً وثلاثين يوما ، وأخرجت الكتب فألقيت تحت أرجل الدواب ، وشوهد بالمدرسة المستنصرية معالف الدواب مبنية بالكتب موضع اللَّبِن[٣] ، وخَلَتْ بغداد من أهلها ، واستولى عليها الحريق عَلَى ماذكره سعيد الذهلى ، واحترقت دار الخلافة ، وعم الحريق أكثر الأماكن حتى القصور البرانية وترب الرصافة مدفن ولاة الخلافة ، وشوهد على بعض حيطانٍ منها مكتوب :

---

(١) وهو اليوم غدير يسمى بالعاقول (مكى) .

(٢) هذا هو الحريق الأول

(٣) اللبن — بفتح اللام وكسر الباء — الطوب النيء .

إن تُرِدْ عِبْرة فهذى بنو العـــباس دارت عليهمُ الدائراتُ
اسْتُبِيحَ الحريم إذ قتل الأحيـــاء منهم وأحْرِقَ الأمواتُ

ثم كثر الموت والفناء ببغداد ، وطوى بساط الخلافة منها من ذلك الزمان ، فلله الخلق والأمر !.

وقد نظم بعضهم خروج هذه النار وغرق بغداد ، وأصلحه أبو شامة منبها على أن الأمرين فى سنة بقوله :

سبحان من أصبحَتْ مشيئتُه جاريةً فى الورى بمقـــدار
فى سنةٍ أغرق العِرَاقُ ، وقد أحرق أرضُ الحجاز بالنار

بعض ما يناسب هذه النار

قال المجد : ومما يناسب هذه النار ويُضاهيها ماحكاه ابن جُبَير أنه رأى مَنْ أخبره أن فى بحر رومية جزيرتين يخرج منهما النار دائماً ، قال : وأبصرنا الدخان صاعدا منهما ، وتظهر بالليل نار حمراء ذات ألسُن تصعد فى الجو ، قال : وأعلمنا أن خروجها من جبلين يصعد منهما نَفَس نارى شديد ، وربما قذف فيها الحجر فتُلقى به مسوداً إلى الهواء بقوة ذلك النفَس ، وتمنعه من الانتهاء إلى القعر ، قال : وأما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة المعروف بجبل النار فشأنه أيضاً عجيب ، وذلك أن ناراً تخرج منه فى بعض السنين كالسيل العَرِم؛ فلا تمر بشىء إلا أحرقته ، حتى تنتهى إلى البحر فتركب ثَبَجَه[1] طائرةً على صفحته حتى تغوص فيه .

شأن خالد بن سنان العبسى

قلت : وأقرب من ذلك فى مناسبة هذه النار ماذكره ابن شبة فى أخبار المدينة — عند ذكر خالد بن سنان العبسى الذى قال النبى صلى الله عليه وسلم لما جاءته بنته « هذه ابنة نبىّ ضيعهُ قومه» — فروى ابن شبة فى خبره من طرق ماملخصه أنه كان بأرض الحجاز نار يقال لها نار الحدثان (حرة بأرض بنى عبس) تَعْشَى الإبل[2] بضوئها من مسيرة ثمانى ليال ، وربما خرج منها العنق فذهب فى الأرض

(١) ثبج البحر — بفتح الثاء والباء جميعا — معظمه ، وأراد موجه
(٢) تعشى : مضارع من العشا ، وهو ضعف البصر

فلا يُبْقِي شيئاً إلا أكله ، ثم يرجع حتى يعود إلى مكانه ، وإن الله تعالى أرسل إليها خالد بن سنان ، فقال لقومه : يا قوم ، إن الله أمرني أن أطفىء هذه النار التي قد أضرت بكم فَلْيَقُم معي من كل بطن رجلٌ ، فخرج بهم حتى انتهى إلى النار فخطَّ عليهم خطا ثم قال : إياكم أن يخرج أحد منكم من هذا الخط فيحترق ، ولا ينوهن باسمي فأهلك ، وجعل يضرب النار ويقول: بَدًّا بَدًّا(١) كل هدى لله مودًّا ، حتى عادت من حيث جاءت ، وخرج يتبعها حتى ألجأها في بئر في وسط الحرة منها تخرج النار ، فانحدر فيها خالد . وفي درة الغواص : فإذا هو بكلاب تحتها فرضَّهنَّ بالحجارة ، وضرب النار حتى أطفأها الله على يده ، ومعهم ابن عم له ، فجعل يقول : هلك خالد ، فخرج وعليه بردان ينطفان(٢) من العرق وهو يقول : كذب ابنُ راعية المِعْزَى لأخرجَنَّ منها وثيابي تَنْدَى ، فسموا بني ذلك الرجل « بني راعية المعزى » إلى اليوم ، وفي رواية أن قومه سالت عليهم نار من حرة النار في ناحية خيبر ، والناسُ في وسطها ، وهي تأتي من ناحيتين جميعاً ، فخافها الناسُ خوفا شديدا . وفي رواية : وهي تخرج من شق جبل من حرة يقال لها حرة أشجع ، فقال لهم خالد بن سنان : ابعثوا معي إنسانا حتى أطفئها من أصلها ، فخرج معه راعي غنم ، وهو ابن راعية ، حتى جاء غارا تخرج منه النار . وفي رواية : أنها كانت تخرج من بئر ، ثم قال خالد للراعي : أمسك ثوبي ، ثم دخل في الغار ، وفي رواية : أنه انطلق في ناس من قومه حتى أتوها ، وقال لهم : إن أبطأت عنكم فلا تَدْعُوني باسمي ، فخرجَتْ كأنها خيل شُقْر يتبع بعضها بعضاً ، فاستقبلها خالد فجعل يضربها بعَصَاه ويقول : هديا هديا(٣) ، كل نهب مودى ، زعم ابن راعية المعزى ، أني لا أخرج منها وثيابي تَنْدَى ، حتى دخل معها الشعب ، فأبطأ عليهم ، فقال بعضهم : لو كان حيا لخرج إليكم ، فقالوا : إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه ، قال :

---

(١) بدا بدا : مصدر يراد به الأمر ، أي تبددي وتفرقي

(٢) ينطفان : يسيلان ماء ، وهو العرق (٣) كذا ، ولعله « هدا هدا »

ادعوه باسمه ، فوالله لو كان حياً لخرج إليكم بعد ، فدَعَوْه باسمه ، فخرج وهو آخذ برأسه ؛ فقال : ألم أنْهَكُمْ أن تدعونى باسمى ؟ قد والله قتلتمونى ، احملونى وادفنونى ، فإذا مرت بكم حُمُر معها حمار أبتر ، وفى رواية فإذا دفنتمونى وأتى علىّ ثلاثة أيام فأتوا قبرى ، فإذا عرضت لكم عانة(١) من حُمُر وحش و بين يديها عَيْر فانبشونى فإنى أقوم فأخبركم ماهو كائن إلى يوم القيامة ، فأتوا القبر بعد ثلاث وسَنَحَت لهم الحمر ، فأرادوا نبشه ، فمنعهم قوم من أهل بيته ، وقالوا : لا نَدَعُكم تَنْبِشُون صاحبنا فنعير بذلك ، وفى رواية : فيكون سبة علينا ، فتركوه .

وفى رواية لابن القعقاع بن خليد العبسى عن أبيه عن جده ، قال : بعث الله خالد بن سنان نبياً إلى بنى عبس ، فدَعَاهم فكذبوه ، فقال قيس بن زهير : إن دعوت فأسيل علينا هذه الحرة ناراً اتبعناك ؛ فإنك إنما تخوفنا بالنار ، و إن لم تَسِلْ نارا كذبناك ، قال : فذلك بينى و بينكم ؟ قالوا : نعم ، قال : فتوضأ ثم قال : اللهم إن قومى كَذَّبونى ولم يؤمنوا برسالتى إلا أن تسيل عليهم هذه الحرة ناراً ، فأسِلْها عليهم ناراً ، قال : فطلع مثلُ رأس الحريش(٢) ، ثم عظمت حتى عرضت أكثر من ميل ، فسالت عليهم ، فقالوا : ياخالد أرْدُدْها فإنا مؤمنون بك ، فتناول عَصاً ثم استقبلها بعد ثلاث ليال فدخل فيها فضربها بالعصا ، فلم يزل يضربها حتى رجعت ، قال : فرأيتنا نعشى الإبل على ضوء نارها ضلعاً الربذة(٣) و بين ذلك ثلاث ليال .

قف على كرامة لتميم الدارى

وروى له ابن شبة أخبارا أخرى مع قومه ، وروى البيهقى فى دلائل النبوة فى باب « ماجاء فى الكرامة التى ظهرت على تميم الدارى شرفا المصطفى صلى الله عليه وسلم وتَنْويهاً باسم مَنْ آمن به ، عن معاوية بن حرمل ، وذكر خبرا فى قدومه

---

(١) العانة : الجماعة من حمر الوحش ، والعير ــ بفتح العين ــ الحمار

(٢) الحريش ــ بفتح الحاء ــ دويبة قدر الإصبع بأرجل كثيرة ، وهى التى يسميها العامة « أم أربعة وأربعين »

(٣) لم تستقم لى هذه العبارة

المدينة ، وقول عمر له : اذهب إلى خير المؤمنين فانزل عليه ، ثم قال : فبينا نحن ذات يوم إذ خرجت نار بالحَـرَّة ، فجاء عمر رضى الله عنـه إلى تميم الدارى رضى الله عنه ، فقال : قم إلى هذه النار ، فقال : يا أمير المؤمنين ومَنْ أنا ؟ وما أنا ؟ قال : فلم يزل به حتى قام معه ، قال : وتبعتهما فانطلقا إلى النـار ، فجعل تميم يَحُوشها[1] بيده حتى دخلت الشعب ، ودخل تميم خلفها ، فجعل عمر يقول : ليس مَنْ رأى كمن لم يرَ ، قالها ثلاثا ، والله أعلم .

---

(١) يحوشها : أصله قولهم « حاش فلان الصيد يحوشه حوشاً » إذا جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة ، وقولهم « حاش فلان الإبل » إذا جمعها وساقها

البــــاب الثــالث

فى أخبار سكانها فى سالف الزمان ، ومَقْدَمه صلى الله عليه وسلم إليها ، وما كان من أمره بها فى سِنِينِ الهجرة[1] ، وفيه اثنا عشر فصلا

الفصل الأول

فى سكانها بعد الطوفان ، وما ذكر فى سبب نزول اليهود بها ، و بيان منازلهم

أسند الكلبي عن ابن عباس أن مخرج الناس من السفينة نزلوا طرف بابل ، وكانوا ثمانين نفساً ، فسمى الموضع سوق الثمانين ، قال : وطولُ بابلَ مسيرة عشرة أيام واثنى عشر فرسخا ، فمكثوا بها حتى كثروا ، وصار ملكهم نمروذ بن كنعان ابن حام ، فلما كفروا بُلْبِلُوا ، فتفرقت ألسنتهم على اثنين وسبعين لسانا ، ففهَّمَ الله العربيةَ منهم عمليق وطَسْم ابنى لوذا بن سام ، وعادا وعبيل ابنى عوص ابن أرم بن سام ، وثمود وجديس ابنى جاثق بن أرم بن سام ، وقنطور بن عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام ، فنزلت عبيل يثرب ، و يثرب اسم ابن عبيل ، ثم أخرجوا منها فنزلوا الُجحْفَةَ ، فجاءهم سيل أجْحَفَهم فيه ، فلهذا سميت جُحْفة ، فرثاهم رجل منهم فقال[2] :

نزول عبيل بيثرب

عينُ جودى على عبيل وهل يرجع من فات بيضها بالسحام ؟
عَمَرُوا يثربا وليس بها شفـر ولا صارخ ولا ذو سنام
غرسوا لِينَهَا بمجرى معين ثم حفوا النخيل بالآجام

أول من سكن يثرب

وقال أبو القاسم الزجاجى : أول من سكن المدينة عند التفرق يثرب بن قاينة[3] ابن مهلائيل بن أرم بن عبيل بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام ، و به سميت يثرب ، و روى عن ابن عباس ما يدل له .

---

(١) كذا ، والعربية الفصحى أن يقال «فى سنى الهجرة» ولكن ما بالأصل لغة

(٢) أتممنا ميل هذه الأبيات بعد أن كانت محرفة وناقصة فى الأصول

(٣) فى ياقوت « قانية »

سكنى العماليق المدينة

وقال ياقوت : كان أول من زرع بالمدينة ، واتخذ بها النخل ، وعَمَر بها الدور والآطام ، واتخذ بها الضياع ، العماليقُ ، وهم بنو عملاق بن أرفخشذ بن سام ابن نوح ، وكانت العماليق ممن انبسط فى البلاد ، فأخذوا ما بين البحرين وعمان والحجاز كله إلى الشام ومصر ، وجبابرةُ الشام وفراعنةُ مصر منهم ، وكان منهم بالبحرين وعمان أمة يسمون جاسم ، وكان ساكن المدينة منهم بنوهف[١] و بنومطرويل ، وكان ملكهم بالحجاز الأرقم بن أبى الأرقم .

وأسند ابن زبالة عن زيد بن أسلم أن ضَبُعا رؤيت وأولادها رابضةً فى حِجَاجِ عَينِ رجلٍ من العماليق — والحِجَاجُ ، بكسر أوله وفتحه : العَظْمُ الذى ينبت عليه الحاجِبُ — قال زيد بن أسلم : وكان تمضى أربعمائة سنة ومايُسْمَعُ بجنازة .

قوم من اليهود ينزلون المدينة

وأسند رزين عن أبى المنذر[٢] الشرقى قال : سمعت حديث تأسيس المدينة من سليمان بن عبيد الله بن حنظلة الغسيل ، قال : وسمعت أيضاً بعض ذلك ممّن رجل من قريش عن أبى عبيدة بن عبدالله بن عمار بن ياسر[٣] ، قال : فجمعت حديثهما لكثرة اتفاقه وقلة اختلافه ، قالا : بلغنا أنه لما حجَّ موسى صلوات الله عليه حج معه أناس من بنى إسرائيل ، فلما كان فى انصرافهم أتوا على المدينة ، فرأوا موضعَها صفة بلد نبى يجدون وصفه فى التوراة بأنه خاتم النبيين ، فاشتورَتْ طائفة منهم على أن يتخلفوا به ، فنزلوا فى موضع سوق بنى قَيْنُقَاع ، ثم تألفت إليهم أناس من العرب فرجعوا على دينهم ، فكانوا أول من سكن موضع المدينة .

وذكر بعض أهل التواريخ أن قوما من العمالقة سكنوه قبلهم ، قلت : وهو الأرجح .

---

(١) عبارة ياقوت ٤٢٧/٧ : « وكان ساكنو المدينة منهم بنو هفان وسعد بن هفان وبنو مطرويل ، وكان بنجد منهم بنو بديل بن راحل وأهل تيماء ونواحيها . وكان ملك الحجاز الأرقم بن أبى الأرقم » .

(٢) فى المطبوعات « عن ابن المنذر الشرقى » وسيأتى على الصواب فى ص ١٧٠

(٣) كذا ، وأبو عبيدة اسمه محمد وأبوه محمد بن عمار

داود النبي يغزو سكان المدينة

وأسند ابن زبالة مُصَدِّراً به كتابَه في بدء مَنْ سكنها عن مشيخة من أهل المدينة قالوا : كان ساكن المدينة في سالف الزمان صعل وفالج ، فغزاهم داود النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخذ منهم مائة ألف عذراء ، قالوا : وسلط الله عليهم الدود في أعناقهم فهلكوا ، فقبورهم هذه التي في السهل والجبل ، وهي التي بناحية الجرف ، و بقيت امرأة منهم تعرف بزهرة ، وكانت تسكن بها ، فاُكثرت من رجل وأرادت الخروج إلى بعض تلك البلاد ، فلما دنت لتركب غشيها الدود ، فقيل لها : إنا لنرى دودا يغشاك ، فقالت : بهذا هلك قومي ، ثم قالت : رُبَّ جسد مَصُون ، ومال مدفون ، بين زهرة ورانون ، قالوا : وقتلها الدود .

قلت : وداود بعد موسى عليهما السلام ، وكان يدعو إلى شريعته .

وقد عبر ابن النجار عما سبق بقوله : قال أهل السير : أول من نزل المدينة بعد غرق قوم نوح قومٌ يقال لهم صعل وفالج ، وذكر قصة داود ملخصة ، ثم قال : قالوا : وكان قومٌ من الأمم يقال لهم بنو هف و بنو مطر و بنو الأزرق فيما بين مخيض إلى غراب الضائلة إلى القصاصين إلى طرف أحد ؛ فتلك آثارهم هنالك .

وروى ابن زبالة عند ذكر جماء أم خالد بوادي العقيق عن عثمان بن عبد الرحمن قال : وجد قبر في الجماء عليه حجر مكتوب فيه فهبط بالحجر فقرأه رجل من أهل اليمن ، فإذا فيه : أنا عبد الله رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان بن داود إلى أهل يثرب ، وأنا يومئذ على الشمال .

وروى أيضاً عن عمر بن سليم الزرقي قال : رقينا الجماء فوجدنا قبراً إرميًّا على رأسها عنده حجران مكتوبان لا تقرأ كتابتهما ، فحملناهما ، فثقل علينا أحدهما فرميناه في الجماء ، وأخذت الآخر ، فكان عندي ، فعرضته على أهل التوراة من يهود فلم يعرفوه ، ثم عرضته على أهل الإنجيل من النصارى فلم يعرفوه ، فأقام عندي حتى دخل المدينةَ رجلان من أهل ماهٍ ، فسألتهما : هل كان لكم كتاب ؟ قالا : نعم ، فأخرجت إليهما الحجر ، فقرآه فإذا فيه : أنا عبد الله الأسود رسول

رسول الله عيسى بن مريم إلى أهـل قرى عرينـة ، وقالا : نحن كنا أهل هذه القرية فى أس(١) الدهر ، وسيأتى بقية ما جاء فى ذلك فى رابع فصول الباب السابع .

مهلك العماليق بالحجاز

وأسند ابن زبالة أيضاً عن عروة بن الزبير قال : كانت العماليق قد انتشروا فى البلاد ، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله ، وَعَتَوْا عُتُوًّا كبيراً ، فلما أظهر الله موسى عليه السلام على فرعون وطىء الشام وأهلك مَنْ بها ، يعنى من الكنعانيين وقيـل : بعث إليهم بعثاً ، فأهلك من كان بها منهم ، ثم بعث بعثاً آخر إلى الحجاز للعماليق ، وأمرهم أن لا يستبقوا أحداً منهم بلغ الحُلُمَ ، فقدموا عليهم ، نأظهرهم الله فقتلوهم ، حتى انتهوا إلى ملـكهم الأرقم بن أبى الأرقم فقتـلوه ، وأصابوا ابناً له — وكان شابا من أحسن الناس — فضنوا به عن القتل ، وقالوا : نستحييه حتى نقدم به على نبى الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم ، فقبض الله موسى قبـل قدوم الجيش ، فلما سمع بهم الناس تلقوهم فسألوهم فأخبروهم بالفتح ، وقالوا : لم نستبق منهم إلا هـذا الفتى ، فإنا لم نر شابا أحسن منه ، فتركناه حتى نقدم به على نبى الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه ، فقالت لهم بنو إسرائيل : إن هذه لمعصية منكم لمـا خالفتم أمر نبيكم ، لا والله لا تدخلون علينا بلادنا أبداً ، فقال الجيش : ما بلد إذ منعتم بلادكم بخير من البلد الذى خرجتم منه ، وكان الحجاز إذ ذاك أشجرَ بلاد الله وأظهره ماء ، قال : وكان هـذا أول سكنى اليهود الحجاز بعد العماليق .

سبب نزول اليهود المدينة

وفى الروض الأُنُفِ عنَ أبى الفرج الأصـبهانى أن السبب فى كون اليهود بالمدينة — وهى وسط أرض العرب — أن بنى إسرائيل كانت تغير عليهم العماليقُ من أرض الحجاز ، وكانت منازلهم يثرب والجحفة إلى مكة ، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى ، فوجه إليهم جيشا ، وذكر نحو ما تقدم ، ثم قال : وأصح من

(١) الأس — بضم الهمزة وتشديد السين — الأصل ، يريد فى قديم الزمان

هذا ما ذكره الطبرى أن نزول بنى إسرائيل بالحجاز كان حين وطىء بُخْتَنَصَّر بلادهم بالشام وخرب بيت المقدس ، انتهى .

وحكى ابن النجار عن بعض العلماء أن سببه أن علماءهم كانوا يجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، وأنه يهاجر إلى بلدفيه نخل بين حَرَّتين ، فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة ، فلما رأوا تَيماء وفيها النخل نزلها طائفة منهم ، وظن طائفة أنها خيبر فنزلوها ، ومضى أشرفهم وأكثرهم فلما رأوا يثرب سبخة وحرة وفيها النخل قالوا : هذه البلد التى تكون مُهَاجَرَ النبى العربى عليه الصلاة والسلام ، فنزل النضير بُطْحَان ، ثم حكى ماسيأتى من نزول قريظة والنضير بمذينيب ومهزور .

وحكى ياقوت عن بعض علماء الحجاز من يهود أن سبب نزولهم الحجاز أن ملك الروم حين ظهر على بنى إسرائيل وملك الشام خطب إلى بنى هرون ، وفى دينهم أن لا يزوجوا النصارى ، فخافوه وأنعموا له ؛ وسألوه أن يشرفهم بإتيانه إليهم ، فأتاهم ، ففتكوا به وبمن معه ، ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز فأقاموا بها ، وزعم بنو قُرَيْظة أن الروم لما غَلَبُوا على الشام خرج قُرَيظة والنّضير وهدل هاربين من الشام يريدون مَنْ كان بالحجاز من بنى إسرائيل ، فوجَّه ملك الروم فى طلبهم ؛ فأعجزوا رسله ، وانتهى الرسل إلى ثمد[1] بين الحجاز والشام فماتوا عنده عَطَشا ، فسمى الموضع « ثمد الروم » وهو معروف بذلك ، والله أعلم أى ذلك كان .

وروى بعض أهل السير عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : بلغنى أن بنى إسرائيل لما أصابهم ما أصابهم من ظهور بُخْتَنَصَّر عليهم وفرقتهم وذلتهم تفرقوا ، وكانوا يجدون محمدا صلى الله عليه وسلم مَنْعُوتا فى كتابهم ، وأنه يظهر فى بعض هذه القرى العربية فى قريةٍ ذاتِ نخل ، ولما خرجوا من أرض الشام كانوا يعبرون كل قرية من تلك القرى العربية بين الشام واليمن يجدون نعتها نعت يثرب ، فينزل بها طائفة منهم ، ويرجون أن يلقوا محمداً فيتبعونه ، حتى نزل من بنى

(١) أصل الثمد — بفتح الثاء وميمه مفتوحة أو ساكنة — ماء المطر يبقى محقونا تحت رمل ، فإذا كشف عنه أدته الأرض ، وقيل : هو الماء القليل لامادة له .

هرون ممن حمل التوراة بيثرب منهم طائفة ، فمات أولئك الآباء وهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه جاء ، ويحثون أبناءهم على اتباعه إذا جاء ، فأدركه مَنْ أدركه من أبنائهم فكفروا به وهم يعرفونه : أى حسدا للأنصار حيث سبقوهم إليه .

وقال ابن زبالة عقب ما قدمناه عنه من عَوْد الجيش من بنى إسرائيل إلى الحجاز وسكناهم المدينة : فركوا منها حيث شاؤا — أى تفسحوا وتبوؤا — فكان جميعهم بزهرة ، وكانت لهم الأموال بالسافلة ، وزهرة ثبرة — أى أرض سهلة بين الحرة والسافلة مما يلى القف — ونزل جمهورهم بمكان يقال له يثرب بمجتمع السيول مما يلى زغابة ، قالوا : وكانت يثرب سقيفة طويلة فيها بغايا يضرب إليهن من البلدان ، وكانوا يروّحون فى قرية يثرب ثمانين جملا جَوْناً[1] سوى سائر الألوان .

ثم أسند عن محمد بن كعب القرظى أنه قال : وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هدل وعمرو أبناء الخزرج بن الصريح بن السبط بن اليسع بن سعد بن لاوى ابن جبر بن النحام بن عازر بن عيزر بن هرون بن عمران عليه السلام والنضيرُ بن النحام بن الخزرج بن الصريح بعد هؤلاء ، فتبعوا آثارهم ، فنزلوا بالعالية على واديين يقال لهما مذينيب ومهزور[2] ، فنزلت بنو النضير على مذينيب واتخذوا عليه الأموال فكانوا أول من احتفر بها — أى بالعالية — الآبار وغرس الأموال ، قال : ونزل عليهم بعض قبائل العرب فكانوا معهم ، فاتخذوا الأموال ، وابتنوا الآطام والمنازل .

وأسند هو وابنُ شبة أيضاً عن جابر مرفوعا : أقبل موسى وهارون حاجَّيْنِ فمرا بالمدينة ، فخافا من يهود ، فخرجا مستخفيين ، فنزلا أُحُداً ، فغشى هارونَ

---

(١) الجون : الأسود .

(٢) قال ياقوت (٧/٣٤٧) : «مذينيب واد بالمدينة ، وقيل : مذينيب يسيل بماء المطر خاصة ، وقد روى مالك فى موطئه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى سيل مهزور ومذينيب : يمسك حتى الكعبين ثم يرسل الأعلى على الأسفل» اهـ. وقد ذكروا أن مذينيبا يصدر من جبلين كبيرين بحذاء جبل الأغوات على نحو سبعة أميال من المدينة ، ويصب فى زغابة ، وكانت عليه مساكن بنى النضير ، فلما غدروا بالرسول أجلاهم بعد الخندق ، ثم قسم أملاكهم على المهاجرين . وأما مهزور فمصدره من حرة واقم . ويعرف اليوم باسم «الغاوى»

الموتُ ، فقـام موسى لحفر له ولحد ، ثم قال : يا أخى إنك تموت ، فقام هارون فدخل فى لحده ، فقبض [١] عليه موسى الترابَ .

قلت : و إسناد ابن شَبَّة لا بأس به ، غيرأن فيه رجلا لم يُسَمَّ ، وسمـاه ابن زَبالة ، وذلك المسمى لا بأس به أيضا ، لـكن ابن زبالة لا يُعْتَمد عليه فى ذلك ، وهو دالّ على أن اليهود نزلوا المدينة فى زمن موسى عليه السلام ، وطالت مدتهم بها فى حياته ، حتى وقع منهم ما يقتضى خوفه منهم عند مروره ، وهو إنما يتأتى على ما قدمناه من أنه لما حجّ ومعه ناس من بنى إسرائيل فرأوا موضع المدينة صفة بلد خاتم النبيين ، فاشْتَوَرَتْ طائفة منهم على أن يتخلفوا به ، و يكون ما اتفق لموسى وهارون عليهما السلام فى حجة أخرى بعد ذلك ، وسيأتى فى مسجد عِرْقِ الظبية بالروحاء حديث « ولقد مَرَّ به موسى بن عمران حاجا ومعتمراً فى سبعين ألفاً من بنى إسرائيل » ومن الغريب ما نَقَلَ الحافظُ ابن حجر عن كتاب الأنواء لعبد الملك بن يوسف قال : إن قريظة كانوا يزعمون أنهم من ذرية شعيب نبى الله عليه السلام ، و إن ذلك محتمـــل ؛ فإن شعيباً كان من بنى جذام القبيلة المشهورة ــ قال الحافظ ابن حجر : وهو بعيدجداً ــ ونقل ابنُ زبالة ما حاصله أن ممن كان من العرب مع يهود قبـل الأنصار بنو أنيف حَىّ من بَلِىّ ، ويقال : إنهم بقية من العماليق ، و بنو مريد حى من بلى ، و بنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم ، و بنو الجذماء حى من اليمن ، وكانت الآطامُ عِزَّ أهل المدينـة ومَنَعَتَهم التى كانوا يتحصنون فيها من عدوهم ، وروى حديثَ النهى عن هَدْم آطام المدينة ، قال:وكان لبنى أنيف بقباء : الأجش عندالبئر التى يقال لها لاوة ، وأطُاَن فيما بين المال الذى يقال لها المائة والمال الذى يقال له القائم ، وآطام عند بئر عذق وغيرها ، قال شاعرهم فيها :

وَلَوْ نطقَتْ يوما قباء لخبرَتْ ... بأنا نزَلْنا قبل عادٍ وتُبَّعِ

(١) يقال : حثا التراب يحثوه ، وحثاه يحثيه ، إذا صبه وأهاله .

بقايا اليهود بالمدينة

وآطامنا عاديّةٌ مُشْمَخِرّةٌ تلوح فتنكى من نعادى وتمنع

وكان ممن بقى من اليهود — حين نزلت عليهم الأوس والخزرج — جماعات منها بنو القُصيص وبنو ناغصة كانوا مع بنى أنيف بقبَاء ، وكان بقباء رجلٌ من اليهود يقال « إنه من بنى النّضِير » كان له أُطم يقال له «عاصم » كان فى دار ثو بة بن حسين بن السائب بن أبى لُبَابة ، وفيه البئر الذى يقال لها قباء ، وقيل : إن بنى ناغصة حى من اليمن كانت منازلهم فى شِعْب بنى حَرَام حتى نَقَلَهم عمر بن الخطاب إلى مسجد الفتح ، ومنها بنو قُرَيْظة فى دارهم المعروفة بهم اليوم ، وكان لهم بها آطام : من ذلك أُطمُ الزبير بن باطا القرَظى، كان موضعه فى موضع مسجد بنى قريظة ، وأُطُمُ كعب بن أسد يقال له بلحان بالمال الذى يقال له الشجر ، وله يقول الشاعر :

من سره رَطْبٌ وماء بَارِدٌ فَلْيَأْتِ أهْلَ المجدِ من بلحان

وكان مع قريظة فى دارهم إخوتهم بنو هدل و بنو عمرو المقدم ذكرهم ، و إنما سمى هدلا بهدل كان فى شفته ، ومن ولده ثعلبة وأسد ابنا سَعْيَّة وأسد بن عبيد ورفاعة بن سموأل وسُخيت ومنبه ابنا هدل ، ومنها بنو النضير فى النواعم ، ومنهم كعب بن الأشرف ، وكان لهم عامة أطم فى المال الذى يقال له فاضجة ، وأُطُمٌ فى زقاق الحارث دبر قصر ابن هشام دون بنى أمية بن زيد كان لعمر بن جحاش ، وأطم البويلة ، وغير ذلك ، هذا ماذكره ابن زبالة

ونقل ابنُ عساكر عن الواقدى أنه قال : كانت منازل بنى النَّضِير بناحية الغرس

قلت : والظاهر أنهم كانوا بالنواعم ، وتمتد منازلهم وأموالهم إلى ناحية الغرس و إلى ياحية الصافية وما معها من صدقات النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعض منازلهم كانت بجفاف ؛ لأن فاضجة به ، ورأيتُ بالحرة فى شرقى النواعم آثار حصون وقرية بقرب مذينيب يظهر أنها من جملة منازلهم ، وأن ما فى قبلة ذلك فى شرقى العهن من منازل بنى أمية بن زيد كما سيأتى ، ومنها بنو مريد فى بنى

خطمة وناعمة إبراهيم بن هشام ، وكان لهم أطم يعرف بهم فيه بئر ، ومنها بنو معاوية فى بنى أمية بن زيد ، ومنها بنو ماسكة بقرب صدقة مروان بن الحكم مما يلى صدقة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان لهم الأُطُمَان اللذان فى القف فى القرية ، ومنها بنو محمم فى المكان الذى يقال له بنو محمم ، وكان لهم المال الذى يقال له خُنافة ، معروف اليوم ، وكان رجل منهم قَطَعَ يدَ رجلٍ فى الجاهلية فقال المقطوع : أعْطِنِى خنافة عَقْلاً بيدى ، فأبى ، وحفر للذى قطعه كوة فى خنافة ، ثم أخرج يده منها من وراء الحائط وقال : اقطع ، فقطع يده ، فقال حين قطع يده :

الآن قد طابت ذرى خنافة   طابت فلا جوع ولا مخافة

ومنها بنو زَعُورا عند مشربة أم إبراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولهم الأُطم الذى عندها ، وكان الأُطم الذى فى مال جحاف لبعض مَنْ كان هناك من اليهود ، ومنها بنو زيد اللات ، قال ابن زبالة : وهم رهط عبد الله بن سلام ، كانوا قريبا من بنى غصينة ، ومنها بنو قَيْنُقَاع عند منتهى جسر بطحان مما يلى العالية ، وكان هناك سوق من أسواق المدينة ، وكان لهم الأُطمَان اللذان عند منقطع الجسر على يمينك وأنت ذاهب من المدينة إلى العالية إذا سلكت الجسر ، وغير ذلك ، وفى صحيح البخارى عن ابن عمر أن بنى قَيْنُقَاع هم رهط عبد الله بن سلام ، خلاف ما تقدم عن ابن زبالة ، قال الحافظ ابن حجر : وهم من ذرية يوسف الصديق عليه السلام ، ومنها بنو حُجر عند المشربة التى عند الجسر ، ولهم أُطُمٌ يعرف بهم ، ومنها بنو ثعلبة وأهل زهرة بزهرة ، وهم رهط الفِطْيَوْن ، وهو ملكهم الذى كان يفتضُّ نساء أهل المدينة قبل أن يدخُلْنَ على أزواجهن ، وكان لهم الأُطمَان اللذان على طريق العريض حين يهبط من الحرة ، وكانت بزهرة جُماع من اليهود وكانت من أعظم قرى المدينة ، وقد بادوا ، ومنها ناس كانوا بالجَوَّانية — بفتح الجيم وتشديد الواو والياء المثناة من تحت : موضع بقرب أُحُد فى شمالى

المدينة كما سيأتى ــ ولهم أُطُمَانِ صارا لبنى حارثة بن الحارث وهما صرار والريان ، ولذلك يقول نهيك بن سياف :

لعل صرارا أن تعيش بياره　　ويسمع بالريان تبنى مشاربه

وكانت بنو الحذماء المتقدم ذكرهم ــ وهم حى من اليمين ــ مابين مقبرة بنى عبد الأشهل وبين قصر ابن عراك ، ثم انتقلوا إلى راتج ، ومنها بنو عكوة فى يمانى بنى حارثة ، ومنها بنو مرابة فى شامى بنى حارثة ، ولهم الأطُم الذى يقال له الشبعان فى ثمغ صدقةِ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومنها ناس براتج ، وهو أطُم سميت به الناحية ، وهو الذى يقول له قيس بن الخَطِيم :

ألاَ إنَّ بين الشرعبىِّ وراتج　　ضرابًا كتخديم السبال المعضد

ومنها ناس بالشوط والعنابس والوالج وزَبَالة إلى عين فاطمة حيث كان يطبخ الآجُرُّ لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان لأهل الشوط الأطُم الذى يقال له الشرعبى ، وهو الأطم الذى دون ذباب ، وقد صار لبنى جُشَم بن الحارث بن الخزرج أى الأصغر يعنى إخوة بنى عبد الأشهل ، وكان لأهل الوالج أطُم بطرفه مما يلى قَنَاة ، وكان لبعض مَنْ هناك من اليهود الأطُمَان اللذان يقال لهما الشيخان بمَفْضَاهما المسجد الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار إلى أحد ، وكان لأهل زَبَالة الأطُمَان عند كومة أبى الحمراء الرابض والذى دونهما ، ومنها أهل يثرب ، وكانوا جُماعًا من اليهود بها ، وقد بادوا فلم يبق منهم أحد .

قلت : ونقل رزين عن الشرقى أن يهود كانوا نيفاً وعشرين قبيلة ، وقال ابن النجار : إن آطامهم كانت تسعة وخمسين أطما ، وللعرب النازلين عليهم قبل الأنصار ثلاثة عشر أطما ، وقد ذكر ابن زَبَالة أسماء كثير منها حذفناه لعدم معرفته فى زماننا .

فهذا عِلْمُ مَنْ سكن المدينة بعد الطوفان إلى قدوم الأوس والخزرج .

الفصل الثانى
فى سبب سُكْنى الأنصار بها

قصة مأرب وسيل العرم

نقل ابنُ زبالة وغيره أن اليهود لم تزل هى الغالبة بالمدينة ، الظاهرة عليها ، حتى كان من أمر سَيْل العَرِم ما كان وما قص الله من قصته فى مائِهِ يعنى قصة أهل مأرِب ، ومأرب مهموز: أرض سبأ المعنية بقوله تعالى : «بَلْدَةٌ طيبة[1]» عن ابن عباس أنها كانت أخْصَبَ البلاد وأطْيَبَها ، تخرج المرأة وعلى رأسها المِكْتَل فتعمل بيديها أى بمغزلها وتسير بين ذلك الشجر ، فيمتلىء مما يتساقط فيه من الثمر ، فطَغَوْا ، وقيل : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً يدعونهم إلى الله ، ويذكرونهم نعمة الله عليهم ، فكذبوهم ، وقالوا : ما نعرف لله نعمة ، قال المسعودى : وكان طول بلدهم أكثر من شهرين للراكب المجد ، وكذلك عَرْضُها ، وكان أهلها فى غاية الكثرة مع اجتماع الكلمة والقوة ، وكانوا كما قص الله من خبرهم بقوله : « وجَعَلْنَا بينهم و بين القُرَى التى باركنا فيها» يعنى قرى الشام «قُرًى ظاهرة[2]» يعنى متواصلةً يرى بعضها من بعض لتقاربها ، فكانوا آمنين فى بلادهم ، تخرج المرأة لا تتزود شيئاً ، تبيت فى قرية ، وتَقِيلُ فى أخرى حتى تأتى الشام ، فقالوا : «رَبَّنَا باعد بين أسفارنا»[3] لأنهم بَطِروا النعمة ومَلُّوها، وقالوا :لو كان جَنَى جَنَّاتنا أبعدَ كان أجْدَرَ أن نشتهيه ، وتمنوا أن يجعل الله بينهم و بين الشام مفاوزَ ليركبوا الرواحل فيها و يتزودوا الأزواد ، فجعل الله لهم الإجابة كما قال : « فَجَعَلْنَاهُمْ أحاديث ومَزَّقْنَاهم كل ممزق[4] » وعن الضحاك أنهم كانوا فى الفترة التى بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فسلط عليهم سَيْلَ العرم ، قيل : العرم : المطر الشديد ، وقيل : جُرَذ[5] أعمى فنقَبَ عليهم السد ، وكان فرسخا فى فرسخ بناه لقمان الأكبر العادى ، وكان بناه للدهر على زعمه ، وكان يجتمع إليه مياه اليمن ثم تتفرق فى مجارى على قدر حاجة جنانهم ، وقيل : بناه سَبَأ بن يَشْجُب

(١) من سوزة سبأ من الآية ١٥ — (٢) من سورة سبأ من الآية ١٨
(٣) من سورة سبأ من الآية ١٩ — (٤) من سورة سبأ من الآية ١٩
(٥) الجرذ — بضم الجيم — ضرب من الفئران

ابن يعرب بن قحطان ، وساق إليه سبعين وادياً ، ومات قبل أن يكمله فأكمله بعده ملوك حمير ، وكان أولاد حِمْيَر بن سبأ وأولاد كَهْلان بن سبأ سادَةَ اليمن فى ذلك الزمان ، وكان كبيرهم وسيدهم جد الأنصار عَمْرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء (١) ابن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، ويقال : الأسد ، بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ذكر نسبه كذلك ابنُ هشام وابن حزم وابن الكلبى فيما نقله عنه ابن عبد البر ، ونقل غيره عنه أنه جعل ثعلبة بين حارثة وبين امرىء القيس ، وكانت الأنصار تقول : سمى عمرو مزيقياء لأنه كان يلبس فى كل يوم حُلَّتين ثم يمزقهما لئلا يلبسهما أحَدٌ بعده ، وقيل لأبيه « ماء السماء » لجوده وقيامه عند الجَدْب مقامَ الغيث ، وكان لعمرو مزيقياء أخٌ كاهن لم يُعْقِبْ يسمى عمران ، وكانت زوجة عمرو مزيقياء يقال لها طريفة من حمير ، وكانت كاهنة ، فولدت له ثلاثة عشر رجلا ، ولدت ثعلبة وهو الذى أخرج جُرْهُم من مكة هو وأخوته ، ومن انخزع معه من الأزد على ما نقله رزين ، ونقل أن والد ثعلبة — وهو عمرو بن عامر — توفى قبل غلبة ثعلبة لجرهم ، وثعلبة أبو الأوس والخزرج ، وولدت له أيضا حارثة والد خُزَاعة على ما سيأتى ، وقيل غير ذلك ، وولدت له أيضاً جَفْنَة والد غَسَّان ، سُمُّوا باسم ماء نزلوا عليه يقال له غَسَّان ، والأشهر أنهم بنو مازن بن الأزد بن الغوث ، وولدت له أيضاً وَدَاعة ، وأبا حارثة ، والحارث ، وعوفا ، وكعبا ، ومالكا ، وعمران ، هؤلاء أعقبوا كلهم ، والثلاثة الباقون لم يعقبوا .

غسان

وقال ابن حزم : إن غسان هم بنو الحارث وجفنة ومالك وكعب بنى عمرو مزيقياء ، شربوا كلهم من ماء غسان ، بخلاف بقية ولَدِ عمرو مزيقياء فلم يشربوا من ذلك الماء ، فليسوا غسان ، وكان لعمرو بن عامر بمأرِب من القصور والأموال مالم يكن لأحد .

---

(١) فى المطبوعات « ماء السماء مزيقياء بن حارثة » تطبيع ، وفيه وفى ماء السماء يقول شاعرهم : أنا ابن مزيقيا عمرو ، وجدى أبوه عامر ماء السماء

أول خبر سيل العرم

ونقل رزين أنه كان أول شيء وقع بمأرب من أمر سيل العرم أن عمران بن عامر رأى في كهانته أن قومه سيمزّقون ويُباعَد بين أسفارهم ، وأن بلادهم ستخرب، فذكر ذلك لأخيه عمرو بن عامر ؛ فكان بين التصديق والتكذيب ، فبينا طريفة امرأته ذات يوم نائمة إذ رأت فيما يرى النائم أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ، فذُعِرت ذُعْراً شديدا ، فسكّنوها ، فقالت : يا عمرو بن عامر ، الذى رأيت فى الغيم ، أذهبَ عنى النوم ، رأيت غيْمًا أرعد وأبرق ، طويلا ثم أصعق ، فما وقع على شيء إلا احترق ؛ فما بعده إلا الفرَق(١) ، فلما رأوا ما بها خفضوها(٢) حتى سكنت ، ثم إن عمرو بن عامر دخل حديقة ومعه جاريتان له ، فبلغ ذلك طريفة فخرجت نحوه ، فلما خرجت من بيتها عارضها ثلاث مناجذ — وهى دواب تشبه اليرابيع — منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن ، فلما رأتهن طريفة وضعت يدها على عينها وقعدت على الأرض ، فلما ذهبت المناجذ خرجت مسرعة ، فلما عارضها خليج الحديقة التى فيها عمرو وثبت من الماء سُلَحْفَاة فوقعت فى الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب(٣) وتستعين بيدها فلا تستطيع ، فتحذف التراب على نفسها ، وتقذف بالبول من تحتها ، فلما رأت طريفةُ ذلك جلست على الأرض حتى عادت السلحفاة إلى المـاء ، ثم مضت طريفة حتى دخلت الحديقة التى فيها عمرو بن عامر حين انتصف النهار فى ساعةٍ شديدٍ حرُّها ، و إذا الشجرة من غير ريح تتكفّأ ، فمرت حتى دخلت على عمرو ، فلما رآها قال : هلمى يا طريفة ، فقالت : والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن المـاء لغائر ، و إن الشجر لهالك، فقال عمرو : ومَنْ أخبرك بذلك ؟ قالت : أخبرتنى المناجذ ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد الوالد ، وسُلَحْفَاة تحذف بالتراب حَذْفا ، وتقذف بالبول قَذْفا ، ورأيت الشجر من غير ريح ولا مطر تكَفّأ ، قال: وما ترين ذلك ؟ قالت :داهية وكيمة(٤)، وأمور جسيمة ، قال : أما إن كان ذلك فلك الويل . قالت : أجل ، وما لعمرو

(١) الفرق : الخوف ، ولعله « الغرق » بالغين المعجمة والراء المهملة .

(٢) خفضوها : هدأوها وسكنوا خوفها وأزالوا ما نزل بها من هم .

(٣) تروم : تطلب

(٤) وكيمة : محزنة

فيها من نيل ، مما يجىء به السيل ، فألقى بنفسه على الفراش وقال : ما هذا الذى تقولين إلا أمر جليل ، وخلف قليل ، وأخْذُ القليلِ خيرٌ من تركه ، قال عمرو : وما علامة ماتذكرين ؟ قالت : إذا رأيت جُرَذا يكثر فى السد الحَفْر ، ويقلب منه بيديه الصخر ، فاعلم أن قد وقع الأمر . فانطلق عمرو إلى السد ينظر فإذا جُرَذ يقلب بيديه ورجليه الصخرة ما يقلها[1] خمسون رجلا من أسد ، فرجع إلى طريفة فأخبرها . ثم رأى عمرو رؤيا أنه لابد من سيل العرم ، وقيل : إن آية ذلك أن ترى الحصى قد ظَهَر فى شِرْبِ النخل ، فذهب فرأى ذلك ، فعرف أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرب ، فكتَمَ ذلك وأخفاه ، وأجمع على أن يبيع كل شىء له بأرض سبأ ويخرج منها هو وولده ، فخشى أن يستنكر الناسُ ذلك ، فاحتال فى الأمر ، فأمَرَ بإبلٍ فنحرت ، وبغنم فذبحت ، وصنع طعاماً واسعاً ، وبعث إلى أهل مأرب بأجمعهم ، وكان فيمن دعا يتيم كان ربّاه وأنكحه ، وقال له فيما بينه وبينه : إذا أنا جلستُ أُطْعِمُ الناسَ فاجلس بجنبى ثم نازِعْنِى الحديث واردُدْ علىّ مثل ما أقول لك ، وافعل بى مثل ما أفعل بك ، فكلمه عمرو فى شىء ، فردَّ عليه ، فضرب عمرو وجهه وشتمه ، ففعل اليتيم به مثله ، فصاح عمرو : واذُلاّه ، اليوم ذهب فخر عمرو ومجده ، فحلف ليقتلَنه ، فلم يزالوا به حتى تركه ، وقال : والله لا أقيم ببلدة صنع بى هذا فيه أبداً ، ولأبيعَنّ أموالى كلها وأرحَلُ عنكم ، فاغتنم الناسُ غضبه واشتروا منه أمواله ، فباع جميع عَقَاره ، وتبعه ناس من الأزد فباعوا أموالهم ، ولما كثر البيع استنكر الناسُ ذلك ، فأمسكوا ، فلما اجتمع عند عمرو بن عامر أثمانُ أمواله أخبر الناس بأمر سيل العرم ، فخرج من مأرب ناس كثير ، وأقام بها مَنْ قُضى عليه بالهلاك ، هذا ما نقله رزين فى تاريخه وقد اقتفيت أثره فى ذلك فى كتابى .

وذكر ابن هشام فى سيرته نحوه ، وقال : إن الأسد ـ يعنى الأزد ـ قالوا : لا نتخلف

(١) ما يقلها : ما يستطيع أن يرفعها .

عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، وقيل : كانت طريفة زوجة ثعلبة ، و إنه صاحب القصة والمحتال فى بيع ماله .

وقال ياقوت : إن عمرو بن عامر مات قبل سيل العرم ، وصارت الرئاسة إلى أخيه عمران بن عامر الكاهن ، وكان عاقراً لا يُولَد له ، و إنه صاحب القصة مع طريفة الكاهنة ، و إنها أقبلت عليه يوماً وقالت : والظلمة والضياء ، والأرض والسماء ، ليقبلَنَّ إليكم الماء ، كالبحر إذا طما ، فيدع أرضكم فلا يسفى عليها الصبا، وذكر القصة ، وأنه احتال لبيع أمواله بأن قال لحارثة أحَدِ أولاد أخيه عمرو بن عامر : إذا اجتمع الناس إلىّ فإنى سآمُرك بأمرٍ فأظْهِرِ فيه العصيانَ فإذا ضربت رأسك بالعصا فقم إلىّ والطُمْنى ، فقال : وكيف يلطم الرجل عمه ؟ فقال : افعل يا بنى فإن فى ذلك صلاحك وصلاح قومك ، وذكر القصة ، قال : فجاء بعد رحيلهم بمُدَيدة[1] السيلُ وقد خرب الجرذُ السدَّ فلم يجد مانعاً ، فغرق البلاد حتى لم يبق من جميع الأرضين والكروم إلا ما كان فى رؤس الجبال والأمكنة البعيدة مثل ذمار[2] وحضرموت وعدن ، وذهبت الضياع والحدائق والجنان، وجاء السيل بالرمل وطَمَّهَا ، فمضى على ذلك إلى اليوم ، و باعد الله بين أسفارهم كما سألوا .

عمرو بن عامر يصف البلاد لقومه

ونقل رزين أن عمرو بن عامر الكاهن قال لهم عند خروجهم : سأصِفُ لكم البلاد ، فقال : مَنْ كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومراد حديد ، فليلحق بقصر عُمَان المَشِيد ؛ فسكنها أزدعمان . قال : ومن كان منكم ذا هم غير بعيد ، وجمل غير شديد ، ومراد غير حديد ؛ فليلحق بالشعب من كرود — وهى من أرض هَمْدَان — فكان الذين سكنوه وَدَاعة بن عمرو بن عامر فانتسبوا فى همدان. قال : ومن كان منكم ذا هم مدن ، وجمل مُعَن[3] ، فليلحق بالثنى من شن، وهو بالسراة ، فسكنته أزدشنؤة . قال : ومَنْ كان منكم ذا جَلَد و بصر ، وله صبر على أزمات الدهر ، فليلحق ببطن مر ، فسكنته خزاعة . قال : ومن كان منكم يريد

(١) فى المطبوعات «بهديدة» تطبيع .
(٢) ذمار — بوزن قطام — قرية على مرحلتين من صنعاء .
(٣) فى المطبوعات « جمل معنى » .

الراسخات فى الوَحْل ، المُطْعِمات فى المَحْل ، فليلحق بالحرة ذات النخل ؛ فكان الذين سكنوها الأوس والخزرج . قال : ومن كان يريد الخمر والخمير ، والديباج والحرير ، والأمر والتأمير ، فليلحق ببُصْرَى وسَدِير — وهما من أرض الشام — فكان الذين سكنوه آل جَفْنَة بن غَسَّان . قال: ومَنْ كان يريد الثياب الرِّقاق، والخُيُول العِتاق ، والكنوز من الأرزاق ، فليلحق بالعراق ؛ فكان الذين لحقوا بالعراق جَذِيمة الأبرش ومَنْ كان بالحيرة من غَسَّان .

قلت : وقيل : إن الذى سَجَع لهم بذلك طريفة الكاهنة ، وإنها قالت : ومن كان منكم يريد الراسخات فى الوَحْل ، المطعمات فى المحل، فليلحق بيثرب ذاتِ النخل .

وروى ابن زبالة سَجْع عمرو بن عامر فى المدينة بلفظ : من كان يريد الراسيات فى الوَحْل ، المطعمات فى المحل ، المدركات بالدَّحْل[١]، فليلحق بيثرب ذات النخل ؛ فلما سمعوا ذلك القولَ خرج عمرو بن عامر بجميع ولده ومَنْ معه من الأزد يريد أرضا يقيمون بها ، ففارقهم وَدَاعة بن عامر فسكن هَمْدَان ، ثم سار عمرو حتى [إذا] كان بين السراة[٢] ومكة أقام هنالك ناس من الأزد ، وأقام معهم عمران بن عمرو بن عامر ، ثم سار عمرو فى باقى ولده وفى ناس من بنى مازن من الأزد حتى نزلوا ماء يقال له غسان ، وغلب عليهم اسمه حتى قال شاعرهم :

إمَّا سألتِ فإنَّا معشر نُجُبٌ   الأزْدُ نسبتها والماء غسان[٣]

قال أبو المنذر الشرقى : ومن ماء غسان انْخزَعَ لُحَىٌّ — واسمه ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن حارثة — فأتى مكة فتزوج بنت عامر الجرهمى ملك جرهم ، فولدت له عمرو بن لحى الذى غَيَّر دين إبراهيم ،فسمى ولده خزاعة لأن أباهم انْخزَع من غسان نزول خزاعة فى مكة

وقال غيره ما يخالف ذلك ؛ فروى الأزرقى أن عمرو بن عامر سار هو وقومه لا يَطَؤُن بلدا إلا غَلَبُوا عليه ، فلما انتهوا إلى مكة — وأهلُها جرهم قد قهروا الناس

(١) الدحل — بالفتح — الثأر

(٢) فى المطبوعات « الشراة » تطبيع ، وإنه ليقال « أزد السراة »

(٣) حفظى « الأزد نسبتنا والماء غسان »

وحازوا ولاية البيت على بنى إسماعيل وغيرهم ـ أرسل إليهم ثعلبةُ بن عمرو بن عامر يقول : يا قوم إنا خرجنا من بلادنا ، فلم ننزل بلدا إلا فَسَح أهْلُه لنا فنقيم معهم حتى نرسل رُوَّادنا إلى الشام والمشرق ، فحيث ما قيل لنا إنه أمثل لحقنا به ، فأبَتْ جرهم ذلك ، فأرسل إليهم ثعلبة : إنه لا بد لى من المقام ، فإن تركتمونى نزلت وحمدتكم وواسيتكم فى الماء والمَرْعَى ، وإن أبيتم أقمت على كرهكم ثم لم ترتعوا معى إلا فَضـلا ولا تشربوا إلا رَنْقا ـ يعنى الكدر ـ فإن قاتلتمونى قاتلتكم ، ثم إن ظهرت عليكم سَبَيْتُ النساء وقتلت الرجال ، ولم أترك أحداً منكم ينزل الحرم أبداً ، فأبت جرهم ، فاقتتلوا ثلاثة أيام ، ثم انهزمت جرهم ، فلم ينفلت منهم إلا الشريد ، وأقام ثعلبة بمكة وما حولها بعساكره حولا ، فأصابتهم الحمى ، وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى ، فدَعَوْا طريفة الكاهنة فشَكَوْا إليها الذى أصابهم ، فقالت : قد أصابنى الذى تشكون ، ثم ذكر الأزرقى سَجْعَها فى أمر الدلالة على البلاد فى هذا المحلّ [و] [1] هو غير سجع عمران بن عامر عند تفرقهم من سبأ ، ثم ذكر لحوق كل فرقة منهم ببلدها على النحو الذى قدمناه ، وأن الأوس والخزرج ابنى حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ـ وهم الأنصار ـ نزلوا بالمدينة ، ثم قال : وانخزعت خزاعة بمكة ، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لُحَيٌّ ، فولى أمر مكة ، فهذا يقتضى أنهم إنما افترقوا من مكة ، ولا شك أن منها افترق الذين وصلوا إليها .

نزول ثعلبة ابن عمرو فى المدينة

وقال ياقوت : إنهم لما ساروا من اليمن عطف ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السما بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة البهلول ابن مازن الراد [2] بن الغوث نحو الحجاز ، فأقام ما بين الثعلبية إلى ذى قار ، وباسمه سميت الثعلبية ، فنزلها بأهله وولده ومَنْ تبعه ، فأقام هناك يتبع مواقع القَطْر ، فلما كثر ولده وقوى ركنه سار بهم نحو المدينة وبها يهود فاستوطنوها ؛ فأقاموا بها بين قريظة والنضير وخيبر وتيماء ووادى القرى ، ونزل أكثرهم بالمدينة .

(۱) زيادة يلتئم بها الكلام .

(۲) كذا ، وفى التاج «مازن البراح» وليس فى ياقوت لقب مازن .

الفصـــــل الثالث

فى نسبهم

قد قدمنا انتسابهم إلى عمرو مُزَيْقِيَاء ، وانتساب عمرو إلى قحطان .

وقال ابن رزين نقلا عن الشرقى : أصل الأنصار الأوس والخزرج وهما من ولد ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغَوْث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان ، وكأنه سقط من النسخة بعد الغوث «بن نَبْت» فإنه بين مالك والغوث كما قدمناه ، وجماع قبائل اليمن تنتهى إلى قحطان ، وقحطان اختلف فى نسبه ، فالأكثرون قالوا : إنه عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وقيل : هو من ولد هود نفسه ، وقيل : ابن أخيه ، ويقال : قحطان أول من تكلم بالعربية ، وهو والد العرب المتعربة ، وأما إسماعيل فهو والد العرب المستعربة ، وأما العرب العاربة فكانوا قبل ذلك كعاد وثمود وطَسْم وجَديس وعمليق وغيرهم ، وقيل : إن قحطان أول من قيل له : أَبَيْتَ اللَّعْنَ[(١)] ، وعِمْ صَبَاحا . وذهب الزبير بن بكار إلى أن قحطان من ذرية إسماعيل عليه السلام ، وأنه قحطان بن الهَمَيْسَع بن تيم بن نَبْت بن إسماعيل عليه السلام ، ويدل له تبويب البخارى بأن نسبة اليمن إلى إسماعيل ، وأورد فيه الحديث المتضمن لمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بنى أَسْلَمَ بأنهم من بنى إسماعيل ، وأسلم هو ابن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس صاحب النسب المتقدم ، فدل على أن اليمن بنى قحطان من بنى إسماعيل ، وهو ظاهر قول أبى هريرة فى الصحيحين فى قصة هاجر « فتلك أمكم يا بنى ماء السماء » يخاطب الأنصار ؛ لأن جدهم عامراً والد عمرو كان يلقب بذلك ، كما

نسب قحطان

---

(١) هى من تحايا الملوك ، ومعناها : أبيت أن تفعل شيئاً تسب به .

تقدم ، أو أراد أبو هريرة رضى الله عنه العرب كلهم ؛ لكثرة ملازمتهم الفَلَوات التى بها مواقع القطر ، وهذا مُتَمَسَّكُ مَنْ ذهب إلى أن جميع العرب من ولد إسماعيل عليه السلام .

قال ابن حبان فى صحيحه : كل من كان من ولد إسماعيل يقال له «ابن ماء السماء» لأن إسماعيل ولد هَاجَرَ ، وقد ربى بماء زمزم وهى من ماء السماء، ورجح عياض أن مراد أبى هريرة الأنصار خاصة ، ونسبتهم إلى جدهم المعروف بماء السماء ، انتهى . ودلالته على أن قبائل اليمن كلها من ولد إسماعيل ظاهرة .(١)

قال الحافظ ابن حجر: وهو الذى يترجح فى نقدى، وقد ذكر ابن عبد البر من طريق القعقاع بن أبى حدرد أن النبى صلى الله عليه وسلم «مَرَّ بناس من أَسْلَمَ وخزاعة وهم يتناضلون فقال : ارْمُوا بنى إسماعيل» وأسلم وخزاعة قد تقدم نسبهما فى قبائل اليمن التى جماع نسبتها قحطان، ومما يؤيد ذلك قولُ المنذر بن عمرو جد حَسَّان بن ثابت الأنصارى:

ورثنا من البهلول عمرو بن عامر وحارثة الغطريف مَجْداً مُؤَثَّلَا
مآثر من آل ابن نبت بن مالك ونبت بن إسماعيل ما إنْ تَحَوَّلَا

وأَوَّلَ ذلك كله المخالفون بتأويلات بعيدة ، بل الذى أميل إليه أن العرب كلهم من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه ، وإن لم يتم ذلك فالعرب الذين لهم الشرف بالتقديم فى الكفاءة وغيرها شرعا هم بنو إسماعيل ، ويدل له قولُ بعض أصحابنا فى الإمامة : إذا لم يوجد قرشى مستجمع للشروط نُصِبَ كِنَانى ، فإن لم يكن فرجل من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه ، فإن تعذر انتقلنا إلى العجَم ، ولم يقولوا انتقلنا إلى بقية العرب ، لكن فى التتمة للمتولى : فإن لم يُوجَد من ولد إسماعيل عليه السلام يولَّى جُرْهُمِى ، وجرهم أصل العرب ، فإن لم يوجد فرجل من ولد إسحاق عليه السلام ، اه . وهو مخالف لقول البغوى فى

(١) خلاصة هذا الكلام أن كلمة «ماء السماء» قد تطلق ويراد بها معنى العام ، وهو لقب عامر بن حارثة خاصة ، وقد تطلق ويراد بها اسم الجنس على معنى يا بنى الماء، سواء أكان ماء المطر أم كان ماء زمزم، وعلى الإطلاق الأول لا تقال إلا لمن اتصل نسبه بعامر بن الحارث، على الثانى تطلق على كل عربى ، بل ويجوز أن تطلق على كل من يعيش عيش البدو .

التهذيب : فإن لم يوجد ولد إسماعيل فمن العجم ، وأيضاً فالمتولى جعل جرهماً متأخرين عن ولد إسماعيل ، وجعل لهم فضلا فى الجملة على العجم ، كذا قدم بعض العجم على بعض ، وإسماعيل أبو العرب الذين شرف نسبهم بمشاركة نسبة أشرف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، وهو الأسُّ فى ذلك ، وعربى اللسان لا عبرة به ، على أن فى مستدرك الحاكم من حديث ابن عباس «أول من نطق بالعربية إسماعيل» لكن فى الصحيح أن إسماعيل تعلم العربية من جرهم الذين نزلوا مع أمه .

أول من تكلم بالعربية

قال ابن إسحاق : وكان جرهم وأخوه قطورا ابنا قحطان أول من تكلم بالعربية عند تبلبل الألسُنِ .

قلت : وهو جارٍ على رأى من يقول : إن العرب كلها ليست من ولد إسماعيل .

وروى الزبير بن بكار فى النسب من حديث علىّ بإسناد حسن قال : أول من فتَقَ الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل ؛ فبهذا القَيْد يجمع بين الخبر المتقدم وبين ما فى الصحيح ، فيكون أوليته فى ذلك بحسَب الزيادة فى البيان ، لا الأولية المطلقة ، فيكون بعدَ تعلم أصل العربية من جرهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة ؛ فعلى تقدير تسليم أن العرب كلهم ليسوا من ولد إسماعيل فالمستحق للشرف إنما هو عربية إسماعيل ، فيمتاز بنوه بما تقدم .

وقال ابن دريد فى الوشاح : أول من نطق بالعربية يعرب بن قحطان ، ثم إسماعيل ، ونقل ابن هشام عن الشرقى أن عربيه إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم ، وكله جار على خلاف ما قدمناه من أن العرب كلها من ولد إسماعيل ، والله أعلم .

أم الأنصار ونسبها

وأم الأنصار فى قول الكلبى: قَيْلَة بنت عمرو بن جَفْنة ، وقال ابن حزم : هى بنت الأرقم بن عمرو بن جَفْنة بن عمرو مُزَيْقياء ، ويقال : بنت كاهل بن

عذرة من قُضَاعة ، وقضاعة من حمير عند الأكثر ، واشتهرت الأنصار ببنى قَيْلة ولهم يقول القائل :

بَهَالِيلُ من أولاد قَيْـلَةَ ، لم يَجِدْ عليهم خليطٌ من مخالطةٍ عَتْبَا
مَطَاعِيمُ في المقرى، مطاعين في الوغى، يَرَوْنَ عليهم فعــل آبائهم نَحْباً(١)

وذكر رزين عن الشرقى عقب ما قدمناه عنه من أن الأنصار أصلهم الأوس والخزرج وهما من ولد ثعلبة بن عمرو ، فقال : فوُلِد لثعلبة بن عمرو بن حارثة الأوسُ والخزرج ، وأمهما قَيْـلَة ؛ فولد الأوس مالكا ، ومن مالك قبائل الأوس كلها ، فولد لمالك عمرو وعوف ومرة ، ويقال لهم أوس الله ، وهم الجعادِرة ، سموا بذلك لقصر فيهم .

قلت : وسيأتى ما يخالف هذا مع بيان قبائل الأوس المنتشرة من هؤلاء .

وروى الخرائطى أنه لما حضرت الأوسَ بن حارثةَ بن ثعلبة بن عمرو الوفاةُ اجتمع عليه قومــه ، فقالوا : قد حضر من أمر الله ما ترى ، وقد كنا نأمرك فى شبابك أن تتزوج فتاةً ، وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين وليس لك ولد غير مالك ، فقال : لن يهلك هالك، ترك مثل مالك، إن الذى يخرج النار من الرينة(٢) قادر أن يجعل لمالك نسلا ، ورجالا بُسْلا ، وكل إلى موت ، ثم أقبل على مالك فقال : أى بُنَىَّ ، المنيـة ولا الدَّنية ، وذكر حِكَماً سجَعَ بها ، قال : ثم أنشأ يقول :

شَهِدْتُ السبايا يوم آلِ مُحَرِّقِ وأدرك عُمْرِى صَيْحةَ الله فى الحِجْرِ
فلم أر ذا مُلْكٍ من النـاس واحداً ولا سُوقه إلا إلى الموت والقـبر
فعـلَّ الذى أرْدَى ثموداً وجُرْهُما سَيُعْقِبُ لى نسـلا على آخر الدهر
تقر بهــم من آل عمرو بن عامر عيون لدى الداعى إلى طلب الوِتْرِ
فإن تـكن الأيام أبْلَيْنَ جِـدَّتى وشيبن رأسى والمشيبُ مـع العمر

(١) المقرى : اسم مكان من القرى ، وهو الضيافة ، والنحب ، بالفتح ، النذر أراد أنهم يرون الاقتداء بآبائهم نذراً يجب الوفاء به . (٢) كذا

فإنّ لنا رَبًّا علا فوق عرشِــــهِ   عليما بمــا يأتى من الخير والشر
ألم يأت قومى أنَّ لله دَعْــوةً   يفوز بها أهــلُ السعادة والبِرِّ
إذا بُعثَ المبعوث من آل غالب   بمكة فيما بين زمزم والحِجْرِ
هنـالك فابغُوا نَصْرَه ببلادكم   بنى عامر؛ إن السعادة فى النصر(١)

ثم قضى من ساعته .

وقال ابن حزم : إن بنى عامر بن عمرو بن مالك بن الأوس كانوا كلهم بعمان لم يكن منهم بالمدينة أحد ؛ فليسوا من الأنصار .

قال الشرقى : وولد الخزرج بن حارثة أخو الأوس أيضاً خمس بنين ، وتفرقوا بطوناً كثيرة .

قلت : وهم عمــرو ، وعوف ، وجُشَم ، وكعب ، والحارث ، وسيأتى بيان ما انتشر من قبائلهم .

وقال ابن حــزم : إن عقب السائب بن قطن بن عوف بن الخزرج لم يكن منهم أحد بالمدينة ، كانوا بعمان ؛ فليسوا من الأنصار ، وذكر نحو ذلك فى بعض بنى الحارث بن الخزرج الأكبر كما سيأتى ، وذكر أيضاً أن بعض بنى جَفْنَة بن عمرو مزيقياء كانوا بالمدينة فى عداد الأنصار ، والله أعلم .

الفصـــل الرابع

فى تمكنهم بالمدينة ، وظهورهم على يهود ، وما اتفق لهم مع تبع

قال الشرقى : لما قدمت الأوس والخزرج المدينة تفرقوا فى عاليتها وسافلتها ، ومنهم من نزل مع قوم من بنى إسرائيل فى قراهم ، ومنهم من نزل وحْدَه لا مع بنى إسرائيل ولا مع العرب الذين كانوا قد تألفوا إلى بنى إسرائيل ، وكانت الثروة فى بنى إسرائيل ، كانوا نيفاً على عشرين قبيلة ، ولهم قُرًى أعدُّوا بها الآطام ، فنزلت الأوس والخزرج بينهم وحواليهم .

---

(١) ابغوا : اطلبوا ، يأمرهم إذا بعث النبى العربى أن ينصروه ويؤيدوه .

إقامة الأوس والخزرج مع اليهود

وقال ابن زبالة عن مشيخة من أهل المدينة قالوا : أقامت الأوس والخزرج بالمدينة ، ووجدوا الأموال والآطام والنخيل فى أيدى اليهود ، ووجدوا العدد والقوة معهم ، فمكثت الأوس والخزرج ما شاءالله ، ثم إنهم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحِلْفاً يأمن به بعضهم من بعض ، ويمتنعون به ممن سواهم ، فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا ، فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلا ، وأَمِرَتِ[1] الأوسُ والخزرجُ وصار لهم مال وعدد ، فلما رأت قريظةُ والنضيرُ حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم ، فتنمروا لهم حتى قطعوا الحِلْفَ الذى كان بينهم ، وكانت قريظة والنضير أعَدَّ[2] وأكثر، وكان يقال لهما الكاهنان ، و بنو الصريح ، وفى ذلك يقول قيس بن الخطيم مُثْنياً عليهم :

كنا إذا رامَنَا قومٌ بمظلمة ... شدت لنا الكاهنان الخيلَ واعتزموا
نَسُوا الرهون وآسَوْنا بأنفسهم ... بنو الصَّريح فقد عَفُّوا وقد كَرُمُوا

قصة الفطيون ملك اليهود الطاغية

فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم خائفين أن تُجْلِيَهم يهودُ، حتى نَجَم[3] منهم مالك بن العجلان أخو بنى سالم بن عوف بن الخزرج وسَوَّده[4] الحيانِ الأوسُ والخزرجُ ، وكان الفِطْيَوْنُ — أى بالفاء المكسورة ، وقال ياقوت : الفيطوان — ملك اليهود بزهرة ، وكانت لا تُهْدَى عروسٌ بيثرب من الحيين الأوسِ والخزرج حتى تدخل عليه فيكون هو الذى يفتضها قبل زوجها ، فتزوجت أختُ مالك بن العجلان رجلا من قومها ، فبينا مالك فى نادى قومه إذ خرجت أخته فُضُلاً ، فنظر إليها أهلُ المجلسِ ، فشقَّ ذلك على مالك ، ودخل فعنَّفها وأنبها ، فقالت : ما يُصْنَع بى غداً أعظم من ذلك ، أهْدَى إلى غير زوجى ، فلما أمسى مالك اشتمل على السيف ودخل على الفِطْيون متنكراً مع النساء ، فلما خَفَّ مَنْ[5] عنده عدا عليه فقتله وانصرف إلى دار قومه، ثم بعث هو

---

(١) أمرت — بكسر الميم — زادت وكثرت . (٢) أعد : أكثر عددا
(٣) نجم : ظهر . (٤) سودوه : صيروه سيداً عليهم . (٥) خف من عنده : ذهبوا

وجماعة من قومه إلى مَنْ وقع بالشام من قومهم يخبرونهم بحالهم و يشكون إليهم غَلَبة اليهود ، وكان رسولهم الرمق بن زيد بن امرىء القيس أحد بنى سالم بن عوف بن الخزرج ، وكان قبيحاً دميا شاعراً بليغاً ، فمضى حتى قدم على أبى جُبَيلة أحد بنى جُشم بن الخزرج الذين ساروا من يثرب إلى الشام ، وقال بعضهم : كان أبو جُبَيلة من ولد جَفْنَة بن عمرو بن عامر قد أصاب ملكا بالشام وشرَفاً .

قلت : قد تقدم أن أبناء جَفْنة من غسّان ، وكانوا بالشام ملوكا .

ولم ذكر ابن حزم[1] بنى جشم بن الخزرج قال : فولد جُشَم غضْب ، فولد غضب مالك ، فولد مالك عبد حارثة ، فولد عبد حارثة حبيب ، فولد حبيب عبد الله ، فولد عبد الله أبا جُبَيلة الملك الغسانى الذى جَلَبه مالكُ بن العَجْلان لقتل اليهود ، انتهى .

وفيه نظر ؛ إذ ليس من بطون الخزرج غسانى كما يؤخذ مما قدمناه عن ابن حزم أيضاً ، والمشهور ما قدمناه ، قالوا : فشكا إليه حالَهم وغلبةَ اليهود عليهم ، وما يتخوفون منهم ، وأنهم يخشون أن يخرجوهم . وأنشده من شعره . فتعجب من شعره و بلاغته وقبحه ودمامته ، وقال: عَسَل طيب فى وعاء خبيث . فقال الرمق: أيها الملك ، إنما يُحتَاج من الرجل إلى أصْغَرَيْهِ لسانِهِ وقلبه . فقال : صدقت ؛ وأقبل أبو جُبَيلة فى جمع كثير لنصرة الأوس والخزرج . كذا قاله ابن زبالة .

وقد نقل رزين عن الشرقى ما يقتضى أن مالك بن العجلان هو الذى توجَّهَ بنفسه ، وأن ما ذكر من سيرة الفِطْيَوْن فى افتضاض الأبكار إنما كانت فى غير الأوس والخزرج ، وأنه أراد أن يسير فيهم بذلك ، فقتله مالك بن العجلان ، فإنه قال : إن الفطيون كان قد شَرَطَ أن لا تدخل امرأة على زوجها حتى تدخل عليه ، فلما سكن الأوسُ والخزرجُ المدينةَ أراد أن يسير فيهم بتلك السيرة ؛ فتزوجت أخت مالك بن العجلان رجلا من بنى سليم ، فأرسل الفِطْيَوْنُ رسولا فى ذلك

(١) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٣٣٦

وكان مالك أخوها غائباً ، فخرجت تطلبه ، فمرت بقوم أخوها فيهم ، فنادته ، فقال أخوها : لقد جئت بسُبَّة يا هنتاه ، تناديني ولا تستحيي ؟ فقالت : الذي يُراد بي أكبر ، فأخبرته ، فقال لها : أكفيكِ ذلك ، فقالت : وكيف ؟ فقال : أتزيّا بزيّ النساء وأدخل معك عليه بالسيف فأقتله ، ففعل ، ثم خرج حتى قدم الشام فنزل على أبي جُبَيلة ، وكان نزلها حين نزلوا هم المدينة ، فجيش جيشاً عظيماً ، وأقبل كأنه يريد اليمن واختفى معهم مالك بن العَجْلَان ، فجاء فنزل بذى حُرض ، وأرسل إلى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتَوْا إليه فوصَلَهم وأعطاهم ، ثم أرسل إلى بنى إسرائيل — يعنى اليهود — وقال : مَنْ أراد الحباء[1] من الملك فليخرج إليه ، وإنما فعل ذلك خِيفَةَ أن يتحصنوا فى الحصون فلا يقدر عليهم ، فخرج إليه أشرافُ بنى إسرائيل كلهم ، فأمرلهم بطَعَام حتى اجتمعوا ، فقتلهم من عند آخرهم ، فلما فعل ذلك صار الأوس والخزرج أعز أهل المدينة ؛ ففى ذلك يقول البَلَوى يمدح مالكا فيما فعل :

فليشهدنَّ بما أقولُ عصابةٌ ... بَلَوِيَّةٌ وعصابة من سالم
هل كان للفِطْيَوْنِ عُقرنسائكم ... حكم النصيب وليس حكم الحاكم
حتى حَبَاه مالكٌ عن عِرْسِه ... حمراء تضحك عن نجيع قاتم

ثم ذكر أبياتاً نسبها إلى أبي يزيد بن سالم أَحَدِ بنى سالم بن عوف بن الخزرج مدح بها أبا جُبَيلة ونسبها ابنُ زبالة للرمق فإنه قال : إن الأوس والخزرج قالوا لأبى جُبَيلة لما قدم لنصرهم : إن علم القوم ما تريد تحصنوا فى آطامهم فلم تقدر عليهم ، ولكن ادْعُهم للقائك وتلطفهم حتى يأمنوك ويطمئنوا فتستمكن منهم ، فصنع لهم طعاماً وأرسل إلى وجوههم ورؤسائهم ، فلم يبق من وجوههم أحد إلا أتاه ، وجعل الرجل منهم يأتى بحامّته وحشمه[2] رجاء أن يحبوهم ، وكان قد بَنَى لهم حيزا وجعل فيه قوماً فأمرهم أن يقتلوا مَنْ دخل عليهم منهم ، ففعلوا حتى أتوا على

(١) الحباء — بزنة الكتاب — العطاء

(٢) حامة الرجل : خاصته من أهله وولده ، والحشم : كالخدم وزنا ومعنى

وجوههم ورؤسائهم ، فعزت الأوس والخزرج بالمدينة ، واتخذوا الديار والأموال والآطام ، فقال الرمق يثنى على أبى جُبَيْلة :

لم تقض دينك من حسان وقد عنيت وقد عنينا
قضيت همك فى الحسان فقد عنيت وقد عنينا

وفى رواية رزين :

الراشقات المرشقا ت الجازيات بماجزينا
أمثال غزلان الصّرا ئم يأتزرن ويرتدينا
الرّيْطَ والدِّيباجَ والـ حَلْىَ المفصل والبُرِينا[١]
وأبو جُبَيْلَةَ خير من يمشى ، وأوفاه يمينا
وأبرُّهُمْ براً وأعـ لمهم بهَدْى الصالحينا
القائد الخيلِ الصوا نع بالكُماة المُعْلَمينا
أبقت لنا الأيام والـ حَرْبُ الملمة تَعْتَرِينا
كَبْشاً له درٌ يغـ ـل متونها الذكر السمينا
ومَعاقلا شُمًّا وأسـ يافا يقمن وينحنينا
ومحـ لة زوراء تَجْـ حف بالرجال الظالمينا

وفى بعض الروايات أن مالك بن العَجْلان لما قتل الفِطْيَوْن قصد اليمن إلى تُبَّع الأصغر ؛ فشكا إليه ما كان الفِطْيَوْنُ يسير فيهم ، فعاهد أن لا يقرب امرأة ولا يمس طيباً ولا يشرب خمراً حتى يسير إلى المدينة ويذل مَن بها من اليهود ؛ ففعل ذلك .

وذكر ابن قتيبة فى معارفه تُبَّع بن حسان ، قال : وهو تبع الأصغر آخر التبابعة ، وذكر أنه صار إلى الشام وملوكها غسان فأطاعته ، قال : وصار إلى ابن أخيه الحارثِ وهو بالمستقر من ناحية هَجَر فأتاه قوم كانوا وقعوا إلى يثرب ممن

(١) البرين : جمع برة — بضم الباء وفتح الراء مخففة — كل حلقة من سوار أو قرط أو خلخال ، وتجمع أيضاً على برى مثل مدى

خرج مع عمرو مُزَيْقِياء وحالَفوا اليهودَ بيثرب ـ أى وهم الأنصارُ ـ فشَكَوُا اليهود ، وذكروا سوء مجاورتهم ، ونَقْضَهم الشرط الذى شرطوه لهم عند نزولهم ، ومَتُّوا[١] إليه بالرحم، فأحْفَظَه ذلك[٢] ، فصار إلى يثرب ونزل فى سَفْح أُحُد، و بعث إلى اليهود ، فقتل منهم ثلاث مائة وخمسين رجلا صَبْرًا ، وأراد خَرَابها ، فقام إليه رجل من اليهود قد أتت عليه مائتان وخمسون سنة فقال : أيها الملك ، مثلُكَ لا يقتل على الغَضَب ، وأمرك أعظم من أن يطير بك برق أو يسرع بك لجاج ، فإنك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية ، قال : ولم ؟ قال : لأنها مُهَاجَر نبى من ولد إسماعيل يخرج من عند هذه البَنِيَّة، يعنى البيتَ الحرام ، فكفَّ تبع ومضى ومعه هذا اليهودى ورجل آخر من اليهود عالم ، وهما الحبران، فأتى مكة ، وكَسَا البيتَ ثم رجع إلى اليمن ومعه الحَبْرَان وقد دَانَ بدينهما وآمن بموسى صلى الله عليه وسلم ، اه .

فلعل مالك بن العَجْلَان كان قد توجه إلى جهة ملك غَسَّان وبها تُبَّع المذكور فوقع من كل منهما نصرةُ ، فأضافه قوم إلى تبع ، وقومٌ إلى أبى جُبَيْلة الغسانى .

قالوا : ولعنت اليهودُ مالكَ بن العَجْلَان فى كنائسهم و بيوت عباداتهم ، فبلغه ذلك ، فقال :

تحامى اليهود بِتَلْعَانِهَا تحامى الحمير بأبوالها[٣]
وماذا علىّ بأن يلعنوا وتأتى المنايا بإذلالها

وقالت سارة القرظية ترثى من قتل من قومها :

بأهلِى رِمَّــةٌ لم تغن شَيْئًا بذى حرض تعفِّيها الرياحُ
كهول من قريظة أتلفتهم سيوفُ الخَزْرَجية والرماحُ
ولو أذنوا بأمرهم لَحَالَتْ هنالك دونهم حربٌ رَدَاحُ[٤]

قال أهل السير : ثم انصرف أبو جبيلة راجعا إلى الشام ، وقد ذلَّلَ الحجاز والمدينة ، ومَهَّدَها للأوس والخزرج .

---

(١) تقول: مت فلان إلى فلان بآصرة ، تريد أنه وصل نفسه به (٢) أحفظه: أغضبه
(٣) التلعان : اللعن (٤) حرب رداح ـ بزنة سحاب ـ ثقيلة تضم كتائب جرارة

ونقل المجد عن ياقوت أن تُبَّعاً كان بالمدينة ، فإنه قال : وعكس ياقوت قصة افتضاض الأبكار ؛ فجعل أنها كانت باليمامة ، وأن أهل المدينة مع تُبَّع هم الذين أزالوا هذه الفضيحة من اليمامة ، ثم أورد كلامَ ياقوت ، وليس مضمونه ماذكره ؛ بل مضمونه أن مَنْ كان يُفْعَلُ فيهم هذه الفضيحة باليمامة احتالوا فى دفعها وقتلوا من كان يفعل بهم ذلك وغلبوا عليهم ، فهرب منهم شخص ولحق بتبع فنَصَره تبع مع أهل المدينة ، وهو خبر ممتنع فلنورده تبعاللمجد ، قال ياقوت : إن طَسْما وجَدِيسا من ولد لاوذ بن إرم بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام أقاموا باليمامة ، وكثروا بها ، حتى ملكوا عليهم عمليق الطَّسْمى ــ وكان جبارا غَشُوما ، وكان قد قضى بقضاء جائر بين امرأة وزوجها من جديس ، فأنشدت المرأة أبياتا بلغته ، فأمر ألاَّ لاتُزَوَّجَ بكر من جديس حتى تدخل عليه فيكون هو الذى يفترعها[١] ــ ولَقُوا منه ذلا ، حتى زوجت منهم أخت الأسود بن غفار سيد جديس ، وكان جَلْدًا ، فلما كانت ليلةُ الإهداء خرجت والقِيانُ[٢] حولها لتُحْمَلَ إلى عمليق وهن يضربن بمعازفهن و يَقُلْن :

أَبْدَىْ بعمليق وقُو مِى فاركبى   وبَادِرِى الصبحَ بأمرٍ معجب

فسوف تَلْقَيْنَ الذى لم تطلبى   وما لبكر دونه من مهرب

ثم أدخلت على عمليق فافترعها ، وقيل : كانت أيدَة[٣] ، فامتنعت عليه ، فخاف العار فوَجَأها[٤] بحديدة فى قُبُلها فأدماها ، فخرجت وقد تقاصرت إليها نفسُها فشقَّتْ ثوبها من خلفها ودماؤها تسيل ، فمرت بأخيها فى جمع من قومه وهى تبكى وتقول :

لا أَحَدٌ أذَلّ من جَدِيس   أهكَذَا يفعل بالعروس[٥]

فى أبيات ، فأغضب ذلك أخاها ، ووقفها على نادى قومه ، وهى تقول :

---

(١) يفترعها : يفتضها ويزيل بكارتها (٢) القيان : جمع قينة ، وهى الجارية المغنية
(٣) أيدة : شديدة قوية (٤) وجأها : ضربها ووخزها
(٥) ذكر ياقوت مع هذا البيت بيتين آخرين (٥٠٧/٨)

أيجمُلُ أن يـؤتى إلى فتَيَاتـكم ... وأنتم رجال فيكم عـــدد الرمل (١)
أيجمـل تمشى فى الدما فتياتـكم ... صبيحةَ زُفَّتْ فى العشاء إلى بَعْلِ (٢)
فإن أنتم لم تغْضَبُوا بعد هـــذه ... فكونوا نساء لا تغب من الـكحل
ودونكم ثوبَ العروس فإنمـــا ... خُلِقتُم لأثواب العَرُوسِ وللغسل
فلو أننـــا كنا رجالا وكنتُم ... نســاء لـكنا لا نقـر على الذل
فمُوتُوا كراما أو أميتوا عدوكم ... وكونوا كنار شب بالحطب الجَزْلِ
وإلا فَخَلوا بَطْنهـــا وتحمَّلوا ... إلى بلدٍ قَفْرٍ وهـزل من الهزل
فللموت خير من مقامٍ على أذى ... وللفقر خير من مقام على ثُـكْل (٣)
فدبُّوا إليـــه بالصَّوَارم والْقَنَا ... وكل حُسَام مُحْدَثِ العهد بالصَّقلِ
ولا تجزعوا للحرب قومى فإنمـا ... يقومُ رجال للرجال على رجل
فيهلك فيهـا كل وغل مواكل ... ويسلم فيهـا ذو الجلادة والفضل

فامتلأت جَديس غيظا، ونكسوا رءوسهم حياء، وتشاوروا فى الأمر، فقال الأسود: أطيعونى فإنه عز الدهر، وقد رأيت أن أصْنَعَ الملك طعاما ثم أدعُوَه وقومه، فإذا جاءُونا قتلت الملك، وقام كل منكم إلى رئيس منهم فقتله، فلا يبقى للباقين قوة، فَنَهَتْهُمْ أختُ الأسود عن الغدر، وقالت: ناجزوهم فلعل الله أن ينصركم عليهم لظلمهم؛ فعصوها فقالت:

لا تغدرُنَّ فإنَّ الغـدر مَنْقَصة ... وكل عيب يُرَى عَيْبا وإن صَغُرا
إنى أخاف عليكم مثل تلك غدًا ... وفى الأمـــور تدابير لمن نظرا
حُشُّوا سعيرا لهم فيها مُنَاجَزَةً ... فكلكم باسـلٌ أرجو له الظفرا (٤)

فأجابها أخوها:

شتان باغ علينا غـــير متئد ... يغشى الظلامة لا يبقى ولن يذرا
إنا لعمركِ لا نبـــدى مُنَاجَزَةً ... نخاف منها صُرُوف الدهر من ظفرا

(١) حفظى من عهد الطلب «أيجمل مايؤتى إلى فتياتكم»
(٢) حفظى «وتصبح تمشى فى الدماء عفيرة» (٣) فى ياقوت «وللهزل خير من مقام على ثكل»
(٤) حش النار: أوقدها، وفى المطبوعات «جيشوا» وفى ياقوت «حسوا» وكلاهما تطبيع.

إنى زعيم بطسم حين تحضرنا عند الطعام بضرب يهتك الفِقَرا(١)

وصنع الأسود الطعام ، ودفن كل منهم سيفه تحته فى الرمل مُجرَّدا ، فلما جلس الملك وقومه للأكل وثبَتْ عليهم جديس حتى أبادوهم ، ثم قتلوا باقيهم ، فهرب رجل من طَسْم حتى لحق بتُبَّع تبان أسعد بن كلكيكرب ، وقيل : بحسَّان بن تُبَّع الحميرى وكان بالمدينة ، فاستغاثه ، وذكر أبياتا فيها غَدْرُ جديس بهم ، فوعده بنصره ، ثم رأى منه تباطؤاً فقال :

إنى طلبت لأوتارى ومَظْلِمَتِى بآل حَسَّان آل العز والكرم

المنعمين إذا ما نعمة ذُكرت والواصلين بلا قُرْبى ولا رَحِم

قصة زرقاء اليمامة

فى أبيات أخرى ، فسار تبع من المدينة فى جيوشه ، حتى [إذا] كان عند جبل على ليلة من اليمامة قال له الطسمى : توقفْ أيها الملك فإن لى أختا متزوجة فى جديس يقال لها يمامة أبْصَر خلق الله على بعدٍ ، وإنى أخاف أن ترانا فتُنْذِرهم بنا ، فأقام تبع ، وأمر رجلا فصعد الجبل ليرى ما هناك ، فدخل فى رِجْله شوكة بالجبل ، فأكبَّ يستخرجها ، فأبصرته اليمامة ، وكانت زرقاء العين ، فقالت لهم : إنى أرى على الجبل الفلانى رجلا وما أظنه إلا عَيْناً(٢) ، فقالوا : مايصنع؟ فقالت : إما يَخْصِف(٣) نَعْلا أو يَنْهَش كَتِفاً ، فكذبوها ، ثم قال الطسمى لتبع : إن بصرها بالليل أنفذ فمر أصحابك ليقطعوا من الشجر أغصانا ليستتروا بها فيشبهوا(٤) عليها الأمر ، ففعلوا ، حتى إذا دَنَوْا من اليمامة ليلا ؛ فنظرت اليمامة فقالت : يا جديس سارت إليكم الشجر ، أو جاءتكم أوائل خيل حمير ، فكذبوها ، فَصَبَّحتهم حمير ، فهرب الأسود فى نفر من قومه لجبلى طيء وفتح أهلُ المدينة حصونَ اليمامة ، وامتنع عليهم حصن زرقاء اليمامة ؛ فصابره تبع حتى افتتحه ، وقَبَضَ عليها ، وسألها : كيف أبصرتهم ؟ فأخبرته بخبر الذى صعد الجبل ، فسأله تبع ، فقال : صعدت فانقطع شِرَاكُ نعلى وأصابتنى شوكة ؛ فعالجت إصلاحها وإصلاح قبالى بفمى ،

(١) الفقر : جمع فقرة ، وهى الواحدة من خرزات الظهر

(٢) العين ، هنا : الجاسوس (٣) يخصف : يرقع (٤) يشبهوا عليها : يلبسوا عليها الأمر

فقال لها: أنّى لك هذا[1]؟ قالت : كنت آخذ حَجَرا أسود فأدقّه وأكتحل به : فكان يقوى بصرى ، فيقال : إنها أول من اكتحل بالإثمد ، فأمر تبع بقَلْع عينيها ليرى ما فيهما ، فوجد عروقها كلها محشوة بالإثمد ، وخربت اليمامة يومئذ ؛ لأن تبعا قتل أهلها ، ولم يخلف بها أحدا ، ورجع إلى المدينة .

هذا ماذكره المجد عن ياقوت باختصار ، وليس فيه عكس القضية ؛ فيجوز أن يقع بكل من اليمامة والمدينة مثل هذا ، والظاهر أن قصة اليمامة كانت بعد قصة المدينة .

ونقل رزين عن الشرقى أن أباجُبَيْلة لما فرغ من نصر أهل المدينة رجع إلى الشام ؛ فأقبل تبع الأخير — وهو كرب بن حسّان بن أسعد الحميرى ، والتبابعة كلهم من حمير — يريد المشرق كما كانت التبابعة تفعل ؛ فمرّ بالمدينة ، فخلف فيها ابنا له ومضى حتى قدم الشام ، ثم سار حتى قدم العراق ، فلما كان بالعراق قُتِلَ ابنُه بالمدينة غِيلة[2] فأقبل راجعا يريد تخريب المدينة ، فنزل بسفح أُحُدٍ ، فاحتفر بئرا ثم أرسل إلى أشراف المدينة ، فلما جاءهم الرسول قال بعضهم : إنما أراد أن يملكنا على قومنا ، وقال أحيحة : والله ما دعاكم لخير ، وكان لأحيحة رَئِىٌّ من الجن[3] فخرجوا وخرج أحيحة معه بقَيْنة وخمر وخباء ، فضرب الخباء وجعل فيه القينة والخمر ، ثم دخل على تبع أولَ الناسِ . فتحدث معه ، ففطن بالشر ، ثم قال : إن أصحابى يَصِلُونَكَ إلى الظهر ، فاستأذن فى الخروج إلى الخيمة ، فأذن له ، فشرب وجعلت القينة تُغَنيه بأبيات صَنَعها لها تقول :

---

(١) أنى لك هذا : من أين لك هذا ، وفى القرآن الكريم : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال : يامريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله)

(٢) قتله غيلة : أى غدراً من غير أن يظهر القاتل له ويناجزه

(٣) كان أهل الجاهلية يعتقدون أن لكل كاهن صاحبا من الجن يسترق له السمع ويلقى عليه مايسمعه ، وقد حكى القرآن الكريم استراق السمع على لسان الجن .

لتبكني قينة ومزهرها وتبكني قهوة وشاربها
وتبكني عصبة إذا اجتمعت لا يعلم الناس ما عواقبها

وهو يقال من الشراب ، وجاء أصحابه قريبا من الليل ، فأمر لهم تبع بضيافة ، فلما كان فى جوف الليل أرسل إليهم ليقتلهم ، ففطن أحيحة ، فقال للقينة : أنا سائر إلى أهلى ، فإذا طلبنى الملك فقولى : هو نائم ، فإذا ألحوا فقولى : يقول لك : أما أحيحة فقد ذهب فاغدرْ بقينتــه أو دَعْ ، وانطلق فتحصن فى حصنه ، فحاصروه ثلاثا يقاتلهم بالنهار ، وإذا كان بالليل يرمى إليهم بتمر ويقول : هذا ضيافتكم . فأخبروا تبعا أنه فى حصن حصين ، فأمرهم أن يحرقوا نخـله ، واشتعلت الحربُ بين تبع وأهل المدينة من اليهود والأوس والخزرج ، وتحصَّنُوا فى الآطام ، فخرج رجل من أصحاب تبـع حتى جاء بنى عَدِىّ بن النجار ، فدخل لهم حديقة ، فرقى على عذق منها . فأخذ يجده[١] ، فنزل إليه صاحب العذق فقتله وجره إلى بئر وألقاه فيها ، وهو يقول :

جانا يجـــدُّ نخيلنا وكان الجداد لمن قـد أبَرْ[٢]

فزاد ذلك تبعا حَنَقاً[٣] ،وجرد إلى بنى النجار خيلا ، فقاتلهم بنو النجار ورئيسهم يومئذٍ عمرو بن طلحة أخو بنى معاوية بن مالك بن النجار ، ورمى عسكر تبع حصون الأنصار بالنبل ، فلقد جاء الإسلامُ والنبل فيها ، وجزع فى القتال فرس تبع فحلف لا يبرح حتى يخر بها بزعمه ، فسمع بذلك أحبارٌ من اليهود فنزلوا إليه وقالوا : أيها الملك إن هذه البلدة محفوظة ، فإنا نجد اسمها فى الكتاب طيبة ، وإنها مُهَاجَر نبى[٤] من بنى إسماعيل من الحرم ، وهى تكون قراره فلن تُسلط عليها ، فأعجب تبع بقولهم ، فصرف تبع نيته عنها ، وأمر أهلَ المدينة فتبايعوا مع العسكر ، وكان تبع قد استوبأ

---

(١) يجده : يقطعه ، والعذق ، بالكسر : سباطة النخل

(٢) أبر النخل يأبره — من باب ضرب — أصلحه ، والبيت لا يستقيم صدره مع عجزه

(٣) الحنق — بالتحريك — الغضب (٤) مهاجر نبي : مكان هجرته

بئره[1] التى حفر ، فرض، فجاءته امرأة من بنى زريق اسمها فكهة براوية[2] من بئر رُوَمَة فأعجبه فاستلذه ، فلما كان رحيله قال لها: يافكهة ماتترك فى موضعنا من شىء إذا رحلنا فهو لك ، فأخذت ذلك ، فاستغنت منه ، وخرج تبع يريد اليمن ومعه من الأحبار الذين نَهَوْه عن خراب المدينة رجلان أوثلاثة ، فقال لهم : تسيرون معى أياما آنَسُ بحديثكم ، فكانوا يحدثونه عن الكتاب وعن قصة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يتركهم حتى وصلوا معه إلى اليمن ؛ فهم كانوا أول يهودى دخل اليمن ، واتفق فى مسيرهِ قصة إكسائه الكعبة .

وقد قدمنا فى بعض الروايات أن مالك بن العجلان لما قتل ملكَ اليهود قصد اليمن إلى تبع الأصغر ، وأنه الذى نصرهم على يهود ، ولعل هذا مراد ياقوت لقوله « إن يهود كانوا أهل المدينة حتى أتاهم تبع فأنزل معهم بنى عمرو بن عوف » لكن نقل المجد وغيره عن المبتدأ لابن إسحاق أنه قال فى بيت أبى أيوب الذى نزله النبى صلى الله عليه وسلم مَقْدَمَه[3] المدينة : إن تبعاً الأول بناه لما مر بالمدينة ، قال فى المبتدأ : واسمه تبان أسعد بن كلكيكرب، وكان معه أربعمائة عالم ، فتعاقدوا على أن لايخرجوا منها ، فسألهم تبع عن سر ذلك ، فقالوا : إنا نجد فى كتبنا أن نبياً اسمه محمد هذه دار مُهَاجره ؛ فنحن نقيم لعل أن نلقاه ، فأراد تبع الإقامة معهم ، ثم بَنَى لكل واحد من أولئك دارا واشترى له جارية وزوجها منه وأعطاه مالا جزيلا ، وكتب كتاباً فيه إسلامه، ومنه :

شهدت على أحمد أنه   رسولٌ من الله بارى النَّسَمْ [4]
فلو مدَّ عمرى إلى عمره   لكنت وزيراً له وابنَ عَمْ

وختمه بالذهب ودفعه إلى كبيرهم ، وسأله أن يدفعه إلى النبى صلى الله عليه

---

(١) استوبأه : وجده وبيئا   (٢) الراوية : المزادة مملوءة ماء
(٣) مقدمة المدينة : يعنى فى وقت قدومه إليها .
(٤) البارى : أصله البارىء ، ومعناه الخالق ، والنسم : جمع نسمة

وسـلم إن أدركه ، و إلا فَمَنْ أدركه من ولده أو ولد ولده ، وبَنَى للنبي صلى الله عليه وسلم دارا لينزلها إذا قدم المدينة ، فتداول الدارَ الملاكُ إلى أن صارت لأبى أيوب وهو من ولد ذلك العالم ، وأهل المدينة الذين نصروه كلهم من أولاد أولئك العلماء ، انتهى .

زاد غيرالمجد : و يقال : إن الـكتاب الذى فيه الشعر كان عندأبى أيوب حين نزل عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فدفعــه له ، وهو غر يب ، وكتب التــوار يخ متظاهرة(١) على ما قدمناه فى أمر الأنصار ونسبهم .

وقد ذكر السهيلى إيمان تُبَّع بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر البيتين ، وروى حديث «لاتَسُبُّوا تبعاً فإنه كان مؤمنا» .

وروى عبد الرزاق عن وَهْب بن منبه قال : نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن سب أسعد وهو تبع . قال وهب : وكان على دين إبراهيم .

وروى أحمد من حديث سَهْل بن سعيد رفعه « لاتسبوا تبعا فإنه كان قــد أسلم » وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس مثــله ، و إسناده أصلح من إسناد سهل ، وأما مارواه عبد الرزاق عن أبى هر يرة مرفوعا « لا أدرى تبع كان لعينــا أم لا » فمحمول على أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم بحاله .

وقال المرجانى : إن أبا كرب بن أسعد الحميرى آمن بالنبى صلى الله عليه وسـلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة ، وقال : * شهدت على أحمد — البيتين المقدمين * و إن أباه أسعد هو تُبَّع الذى كسا الـكعبة ، ونقله عن حكاية ابن قتيبة ، والذى رأيته فى المعارف(٢) لابن قتيبة أن أسعد أبا كرب الحميرى هو الموصوف بما ذكره..

(١) متظاهرة : متساندة يقوى بعضها بعضا ؛ لأنها متفقة فى هذا الذى يذكره .

(٢) انظر المعارف لابن قتيبة (طبع الإسلامية فى سنة ١٣٥٣ ص ٢٧٤) وقد أشار إلى خلاف فيمن كسا البيت أهو تبع الأوسط أم تبع الآخر ، ولـكنه لم يذكر خلافا فى أن الذى آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم هو أسعد أبو كرب بن كليكرب ، كما ذكر أن الذى ذهب إلى جديس هو حسان بن تبع

وروى ابن زبالة أن تبعاً لما قدم المدينة وأراد إخرابها جاءه حَبْرَان من قُرَيْظَة يقال لهما سحيت ومنبه فقالا : أيها الملك انصرف عن هذه البلدة فإنها محفوظة ، وإنها مُهَاجر نبي من بني إسماعيل اسمه أحمد يخرج في آخر الزمان ، فأعجبه ما سمع منهما ، فصدقهما وكَفَّ(١) عن أهل المدينة .

الفصل الخامس

في منازل قبائل الأنصار بعد إذلال اليهود ، وشيء من آطامهم ، ومادخل بينهم من الحروب ، وهو نافع في معرفة جهات المساجد التي لا تعرف اليوم ، وغير ذلك .

اعلم أن ابن زَبَالة نقل ما حاصله أن الأوس والخزرج بعد انصراف أبي جُبَيْلة ونصره لهم تفرقوا في عالية المدينة وسافلتها ، واتخذوا الأموال والآطام ، فنزل بنو عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج الأصغر و بنو حارثة بن الحارث ابن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة فكلاهما من الأوس دَارَ بني عبد الأشهل قبلي دار بني ظفر مع طرف الحرة الشرقية ، قاله المطري ، والذي يظهر لي أن منازلهم كانت قريبة من منازل بني ظفر في شاميها وتمتد إلى الحرة المعروفة اليوم بدشم وما حولها ، بل سيأتي في ترجمة الخندق ما يقتضي أن منازلهم كانت بالقرب من الشيخين(٢) . وابتنى بنو عبد الأشهل أُطُماً يقال له « واقم » وبه سميت الناحية واقما ، وكان لحضير بن سماك ، وله يقول شاعرهم :

نحن بنينا واقماً بالحـــرهْ ... بلَازِبِ الطين وبالأصرهْ

وله يقول خُفَاف بن نَدْبة :

---

(١) كف عنهم: تركهم

(٢) قال ياقوت (٣١٩/٥) : «شيخان بلفظ تثنية شيخ : كان فيه معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة خرج لقتال المشركين بأحد ، وهناك عرض الناس فأجاز من رأى ورد من رأى ، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : كنت ممن رد من الشيخين يوم أحد، وقيل : هما أطمان، سميا به لأن شيخا وشيخة كانا يتحدثان هناك » اهـ .

لوَ أنَّ المنايا جُزْنَ عن ذى مهابة   لهِبْنَ حضـيراً يوم أغلق واقما[١]
يطيف به حتى إذا الليل جنَّــه   تبوّأ منـــه مضجعاً متناغما

وأطما يقال له « الرعل » بالمال الذى يقال له واسط لصخرة أم بنى عبدالأشهل ، وله يقول شاعرهم يوم بُعَاث :

* نحن بنو صخرة أرباب الرعل *

وآطاما غيرذلك ، وابْتَنَى بنو حارثة أطُماً اسمه « المسيّر » صار لبنى عبد الأشهل بعد خروج بنى حارثة من دارهم ؛ فإنَّ بنى حارثة تحوّلوا من دارهم هـذه إلى غربى مشهد سيدنا حمزة رضى الله عنه فى الموضع المعروف اليوم بيثرب ؛ فكانت بها منازلهم على ما قدمناه عن المطرى فى الباب الأول . والذى تحرر لى من مجموع كلام الواقدى وابن زبالة وغيرهما أن منازلهم التى استقروا بها وجاء الإسلام وهم فيها كانت فى شامى بنى عبد الأشهل بالحرة الشرقية . و يؤيد ذلك ما سيأتى فى ترجمة الخندق من أن النبى صلى الله عليه وسلم خَطه من أجمة الشيخين طرف بنى حارثة كما رواه الطبرانى .

وقد قال المطرى كما سيأتى عنـه : الشيخان : موضع بين المدينة و بين جبل أحد ، على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد . و يؤيده أيضاً أن المطرى قد ذكر أن النبى صلى الله عليه وسـلم غدا إلى أُحُد يوم وقعته على الطريق الشرقية المذكورة ، وسيأتى أنه بات بالشيخين .

وفى المعارف لابن قتيبة عن ابن إسحاق : فلما سارت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج رسول الله صلى الله عليه وسـلم والمسلمون حتى نزلوا بيوت بنى حارثة ، فأقاموا بقيـة يومهم وليلتهم . ثم خرج فى غد ، وذكر انخزال[٢] عبد الله بن أبىّ ؛ فتحرر أن بيوت بنى حارثة عند الشيخين وفى ناحيتهما .

---

(١) جزن عنه : تجاوزنه ولم ينزلن به ، وذوالمهابة : الذى يهابه الناس ويخافونه ، وهبن حضيراً : خفنه ، ووقع فى المطبوعات « لهين حضيرا » تطبيع .
(٢) انخزل : تخاذل ورجع عن الحرب

وقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز ذلك اليوم في حائط لمربع بن قيظي ، واتفق له معه ما سيأتي ذكره : ومربع هذا من بني حارثة

وذكر ابن حزم في الجمهرة أن بطون بني عمرو بن مالك بن الأوس [وهم] (١) النبيت : منهم ظفر ، وحارثة ، و بنو عبد الأشهل ، و بنو زَعُورا بن جُشَم ابن الحارث أخي عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك ابن الأوس .

ولم يذكر ابن زبالة بني زعورا في هـــذه البطون ، بل ولا في بطون الأنصار كلها .

وذكر ابن حزم أن منهم مالك بن التيهان و بني أوس بن عتيك وغيرهم ،

[illegible]

رفاعة بن زر وغنما أخا بنى عمرو بن عوف فسكنوا العصبة ، وهى غربى مسجد قباء ، قال سعد بن عمرو الجحجبى لبشر بن السائب : تدرى لم سكنا العصبة ؟ قال : لا ، قال : لأنا قتلنا قتيلا منكم فى الجاهلية ، فقال بشر : والأمانة لوددت أنكم قتلتم منا آخر وأنكم وراء عَيْر ، يعنى الجبل الذى غربى العصبة .

وابتنى أحيحة بن الجلاح بالعصبة أطما يقال له «الضحيان» وهو الأطم الأسود الذى بالعصبة ، وكان عرضه قريباً من طوله ، بَنَاه أولا من بثرة بيضاء[1] فسقط ، يعنى من حجارة الحرار البيض . وكان يُرَى من المكان البعيد ، وفيه يقول أحيحة :

وقد أعدَدْتُ للحِدْثَانِ حصناً   لَوَ انَّ المرء تنفعه العقـــول

طويل الرأس أبيض مُشْمَخِرٌّ   يلوح كأنه سيف صـــقيل

وابتنوا هم وبنو مجدعة أطما يقال له « الهجيم » عند المسجد الذى صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم أن بنى أنيف كانوا مع اليهود بقباء ، وأنهم حى من بَلِى ؛ فلذلك لم يذكر ابن زبالة منازلهم هنا ، وسيأتى فى المساجد عن المطرى وتبعه المجد أن بنى أنيف بطن من الأوس ، وأن منازلهم كانت بين بنى عمرو بن عوف وبين العصبة ، ومأخذ المطرى فى نسبتهم إلى الأوس قولُ أهل السير فى المغازى : شهد من الأوس كذا وكذا رجلا ، ثم يذكرون فيهم بعضَ بنى أنيف ؛ وذلك لأنهم حلفاء الأوس ، لا لأنهم منهم ، نبه عليه ابنُ إسحاق حيث قال : شهد بدراً من الأوس بضع وستون رجلا ، فذكر من بنى جحجبا جماعةً ، ثم قال : ومن حلفائهم من بنى أنيف أبو عقيل ، ثم نسبه إلى بلى بن عمرو ابن الحاف بن قضاعة ، لكن استفدنا من كلام المطرى أن منازلهم بين العصبة وقباء ، ويستفاد مما قدمناه عن ابن زبالة أن من منازلهم بئر عذق وما حولها والمال الذى يقال له القائم ، وذلك معروف بقباء .

---

(١) بثرة بيضاء : أى حجارة بيض ، كما سيصرح به .

وخرجت بنو معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف فسكنوا دارهم التى وراء بقيع الغرقد المعروفة بهم ، ولا يشكل عليه ما سيأتى فى دور بنى النجار من الخزرج من أن حُديلة[١] لقب لمعاوية بن عمرو بن مالك بن النجار للاشتراك فى الاسم ، ولكن الشهرة ببنى معاوية لهؤلاء ، وأولئك يعرفون ببنى حُديلة[١] ، وقد اشتبه ذلك على المطرى فقال فى مسجد بنى معاوية — وهو مسجد الإجابة — ما لفظه : هو مسجد بنى معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، ثم قال فى دور بنى النجار : إن بنى حُديلة[١] هم بنو معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، ودارهم عند بئر حاء. ثم قال : ودار بنى دينار بين دار بنى معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار أهل مسجد الإجابة ، ودار بنى حُديلة[١] ، فذكر أولا أنهم هم، ثم غاير بينهما ،والصوابُ المغايرة ، وأن بنى حُديلة[١] من الخزرج ، و بنى معاوية من الأوس ، وقد صرح بتغايرهما أهلُ السير ، ونسبوهما كما ذكرنا ، ومسجد الإجابة لبنى معاوية من الأوس ، والذى أوقع المطرى فى هذا ما سيأتى عن عياض فى بنى حُديلة[١] إن شاء الله تعالى .

ومن بنى معاوية هؤلاء حاطبُ بن قَيْس ، وفيه كانت حرب حاطب كما ذكره ابن حزم .

وخرجت بنو السميعة — وهم بنو لوذان بن عمرو بن عوف — فسكنوا عند زقاق ركيح ، وابتنوا أُطُما يقال له « السعدان » وموضعه فى الرّبع (حائط هناك) ذكره ابن زبالة ، ولعل الرّبع هو الحديقة المعروفة اليوم بالربعي ، وكان بنو السميعة يدعون فى الجاهلية بنو الصماء ، فسماهم النبى صلى الله عليه وسلم بنى السميعة .

ونزل بنو واقف والسلَم ابنا امرىء القيس بن مالك بن الأوس عند مسجد الفضيخ ، فكانا هنالك وولدهما .

وابتنى بنو واقف أطما يقال له « الزيدان » وله يقول قيس بن رفاعة :

---

(١) وقع فى المطبوعات « بنو جديلة » بالجيم — فى كل المواضع ، وهو كذلك فى الخلاصة ، والصواب أنه بالحاء المهملة المضمومة ، على زنة المصغر

وكيف أرجو لذيذ العيش بعدهمُ ‏ ‏ وبعد مَنْ قد مَضَى من أهل زيدان

كان لهم عامة موضعه فى قبلة مسجد الفضيخ ، وأطما كان موضعه عند بئر عائشة الواقفى ، وغير ذلك ، ثم كان بين السَّلَمِ وواقف كلام ، فلطم واقف وهو الأكْبَرُ عينَ السلَمِ ـ وكان شرساً ـ لحلف لا يساكنه ، فنزل السَّلَمَ على بنى عمرو ابن عوف ، فلم يزل ولده فيهم ، (ومن بقيتهم سعد بن خيثمة بن الحارث) ثم انقرضوا سنة تسع وتسعين ومائة .

وكان لبنى السلم حصن شرقى مسجد قباء ، ذكره ابن زبالة ، وقد ذكر ابن حزم انقراض جميع بنى السلم ، قال : وكان قد بلغ عددهم فى الجاهلية ألف مقاتل .

قلت : وفى قبلة مسجد الفضيخ عند الحديقة المعروفة بالأشرفية والسابور آثار آطام وقرية وحصن عظيم ، فهى منازل بنى واقف .

ونزل بنو وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس فى دارهم المعروفة بهم ، وابتنوا أطما يقال له « الموجا » كان موضعه فى مسجد بنى وائل

ونزل بنو أمية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس فى دارهم المعروفة بهم التى بها الكبا يمر فيها سيل مذينيب بين بيوتهم ثم يلتقى هو وسيل بنى قُرَيظة بفضاء بنى خطمة ، ويؤخذ مما ذكره ابن زبالة فى منازل بنى النضير بالنواعم قربه منزل بنى أمية بن زيد منهم .

وفى صحيح البخارى عن عمر رضى الله عنه قال : كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد ، وهى من عوالى المدينة ، نتناوب النزولَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن زبالة : وابتنوا أطما يقال له «أطم العذق» كان عند الكبا المواجهة مسجد بنى أمية ، وأطما كان فى دار آل رُوَيفع التى فى شرقى مسجد بنى أمية .

ونزل بنو عطية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس

بصَفْنَةَ فوق بنى الُحبْلى ، وصفنة ـ كجفنة ـ بإهمال أوله سميت بذلك لارتفاعها عن السيول فلم تشرب بشيء منها ، وابتنوا فيها أطما اسمه «شاس[١]» كان لشاس بن قيس أخى بنى عطيـة بن زيد ، وهو الذى على يسارك فى رَحْبـة مسجد قباء مستقبل القبلة ، ووائل وأمية وعطية بنو زيد هم الجعادِرة[٢]، سموا به لأنهم [كانوا] إذا أجاروا جارا قالوا له : جعدر حيث شئت : أى اذهب حيث شئت ، فلا بأس عليك ، فقال الرمق بن زيد :

وإن لنا بين الجوارى وليـدة ... مقابلة بين الجعـادِر والـكسر

متى تَدْعُ فى الزيدين زيد بن مالك ... وزيد بن قيس تأتها عزة النصر

قالوا : والـكسر أمية وعبيد وضُبَيعة بنو زيد بن مالك بن عوف ، كان يقال لهم كسر الذهب وذلك أراد الرمق بقوله « والـكسر » كذا قاله ابن زبالة، ونقل رزين أن الجعادرة الأوس كلهم فإنه قال فيما نقل عن الشرقى : فولد الأوس مالكا ومن مالك قبائل الأوس كلها ، فولد لمالك عمرو وعوف ومرة ، ويقال لهم : أوس الله ، وهم الجعادِرة ، سموا بذلك لقصر فيهم ، اه .

قلت : وسيأتى عن ابن إسحاق فى آخر الفصل السابع ما يقتضى أن أوس الله هم بنو أمية بن زيد ووائل وواقف وخطمة ، والله أعلم .

ونزل بنو خطمة ـ وخطمة هو عبد الله بن جُشَم بن مالك بن الأوس ـ دارهم المعروفة بهم ، وابتنوا بها الآطام ، وغرسوا النخيل ، فابتنوا بها أطما يقال له « صبع ذرع » ليس فيه بيوت ، جعلوه كالحصن الذى يتحصنون فيه للقتال ، وكان لخطمة كلها ، وكان موضعه عند مهراس بنى خطمة ، وإنما سمى « صع ذرع » لأنه كان عند بئر بنى خطمة التى يقال لها ذرع ، وابتنى أميـة بن عامر بن خطمة أطما كان موضعه فى مال الماجشون الذى يلى صدقة أبان بن أبى حُدير .

---

(١) فى خلاصة الوفا « شاش » بشينين معجمتين

(٢) فى المطبوعات « الجعاذرة » بالذال المعجمة ، وفى القاموس « والجعادرة : بنو مرة بن مالك بن الأوس » بالدال مهملة

قلت : والظاهر أنه المسمى اليوم « بالجشونية » فإن اسمه الأصلى «الماجشونية » على ما تقدم فى تربة صُعَيب .

وقال المطرى : منازل بنى خطمة لا يعرف مكانها اليوم ، إلا أن الأظهر أنهم كانوا بالعـــوالى شرقى مسجد الشمس ؛ لأن تلك النواحى كلها ديار الأوس ، وما سَفَلَ من ذلك إلى المدينة ديار الخزرج ، اه .

وفى قوله « وما سفل إلخ » نظر ، والذى يظهر أن أول منازل الخزرج فى هذه الجهة منازل بنى الحارث كما سـيأتى ، وفوقها بنو خطمة ، وسيأتى فى وادى بُطْحَانَ ووادى مهزور ما يؤيد ذلك .

وكان بنو خطمة متفرقين فى آطامهم ، لم يكن فى قصـبة دارهم منهم أحد ، فلما جاء الإسلام اتخذوا مسجدهم ، وابتنى رجل منهم عند المسجد بيتاً سكنه ، فكانوا يسألون عنه كل غداة مخافة أن يكون السبع عَدَا عليـه ، ثم كثروا فى الدار حتى كان يقال لهم غزة ، تشبيهاً بغزة الشام ن كثرة أهلها

وقد انتهى الكلام فى منازل الأوس وهذه منازل الخزرج .

قال ابن زبالة : ونزل بنو الحارث بن الخزرج الأكبر بن حارثة وَهم بلحارث دارَهُم المعروفة بهم بالعـوالى : أى شرقى وادى بُطْحان وتربة صُعَيب ، يعرف اليوم بالحارث بإسـقاط بنى ، وابتنوا أطما كان لبنى امرىء القيس بن مالك وخرج جشم وزيد ابنا الحارث بن الخزرج وهما التوءمان فسكنا السنح ، وهذا المراد بقول ابن حزم: كان سكنى بنى الحارث بالسُّنْح(1) على ميل من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قال ابن زبالة : وابتنوا أطما يقال له « السُّنْح(1) » وبه سميت الناحية ، ويقال

---

(1) قال ياقوت (١٤٨/٥) « سـنح : بضم أوله وسكون ثانية وآخره حا مهملة ، إحدى محال المدينة ، كان بها منزل أبى بكر الصديق حين تزوج مليـكة — وقيل حبيبة — بنت خارجـة بن زيد بن زهير بن مالك بن امرىء القيس » ا

بل اسمهُ « الريان» انتهى . و بالسُّنْح كان منزل أبى بكر الصديق رضى الله عنه بزوجتــه بنت خارجة بن زيد ، قاله عياض ، قال : وهو منازل بنى الحارث بن الخزرج بعوالى المدينة ، و بينه و بين منزل النبى صلى الله عليه وسلم ميل ، انتهى .
فــكأن السنح ــ وهو كما قال عياض وغيره بالسين المهملة ثم النون ــ بالقرب من منازل بنى الحارث بالعوالى(١) .وخرج عتبة بن عمر بن خديج بن عامر بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج فسكن الشوط وكوم السكومة يقال لها « كومة أبى الحمراء » ثم رجع فى السنح . وخرجت بنو خدْرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج حتى سكنوا الدار التى يقال لها« جرار سعد» مما يلى سوق المدينة ، وخرجت بنو الأبجر وهو خــدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج وهم بنو خدرة أخوة بنى خدارة فسكنوا دارهم المعروفة ببنى خــدرة ، وابتنوا أطما يقال له « الأجرد » وهو الأطم الذى يقال لبئره البصة ، كان لمالك بن سنان جد أبى سعيد الُخدْرى ، وذكر ابنُ حزم للحارث بن الخزرج الأكبر ابناً اسمه الخزرج بن الحارث ، وقال فيه : فولد الخزرج كعباً ، فسار بعض بنيه إلى الشام مع غسان ، فليس من الأنصــار ، ثم سمى مَنْ بقى منهم الأنصار .

ونزل سالم وغنم ابنا عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر الدارَ التى يقال لها« دار بنى سالم » على طرف الحرة الغربية غربى الوادى الذى به مسجد الجمعة ببطن رانونا ، وابتنوا آطاما : منها «المزدلف » أطم عتبان بن مالك ، قاله المطرى ، وقال : المزدلف هو الأطم الذى بناه عتبان بن مالك ، كان لمالك بن العجــــلان السالمى ، وله يقول مالك * إنِّى بنيتُ للحروب المُزْدَلِفْ * ومنها « الشماخ » كان خارجاً عن بيوت بنى سالم من جهة القبلة ، ومنها أطم «القواقل» وهو الذى فى طرف بيوت بنى سالم مما يلى ناحية العصبة ، كان لبنى سالم بن عوف ، وتسميته بذلك يرجح ما ذكره ابنُ سيد الناس من أن القواقل(٢) بنو غنم

(١) فى الخلاصة« أول العالية»

(٢) فى القاموس « القوقل : اسم أبى بطن من الأنصار لأنه كان إذا أتاه إنسان يستجير به أو بيثرب قال له : قوقل فى هذا الجبل وقد أمنت ،أى ارتق، وهم القواقلة»

و بنو سالم ابنى عوف ، سموا بذلك لأنهم كانوا إذا أجاروا جارا قال له : قوقل حيث شئت ، وأفهم سياقُ بعضهم أن القواقل بعضُ بنى سالم بن غنم ، وهم بنو الحبلى ، وما قدمناه هو الظاهر؛ لما سيأتى فى خروجه صلى الله عليه وسلم من قُبَاء إلى المدينة . وقال ابن حزم : ولَدُ عوف بن عمرو سالم بطن ، وغنم بطن ، وعنز بطن ، وهو قوقل ، وذكر من ولده عُبَادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة ابن قوقل بن عوف بن عمرو .

ونزل بنو غصينة حيٌّ من َبلى حُلَفَاء لبنى سالم عند مسجد بنى غصينة .

ونزل بنو الحبلى — بلفظ المرأة الحبلى — واسمه مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر الدارَ المعروفَةَ بهم بين قباء و بين دار ابنى الحارث بن الخزرج التى شرقى وادى بُطْحان وصُعَيب ، كذا قاله المطرى ، وأظن مستنده ما تقدم فى منازل الأوس من قول ابن زبالة : ونزل بنو عطية بن زيد بن قيس بصَفْنَةَ فوق بنى الحبلى إلى آخره ، وقال ابن حزم : كانت دار بنى الحبلى بين دار بنى النجار و بين بنى ساعدة .

قلت : وسيأتى فى خروجه صلى الله عليه وسلم من قُبَاء إلى المدينة ما يؤيده ، وكذلك مروره صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن أبىّ فى ذهابه لعيادة سعد بن عبادة ، وما ذكره من أن الحبلى اسمه مالك بن سالم ذكره ابن زبالة ، وقال ابن هشام : الحبلى سالم بن غنم بن عوف ، وإنما سمى الحبلى لعظم بطنه ، انتهى .

وذكر ابن حزم نحوه ، والظاهر أن الحبلى كان يطلق على سالم والد مالك المذكور ، ثم اشتهر به ابنُه هذا من بين بنيه ، وحينئذ فيحمل ما تقدم عن ابن زبالة فى نزول بنى عطية بن زيد بصَفْنَة فوق بنى الحبلى ، على أن المراد دار سالم ابن غنم فى دار بنى سالم ؛ لكونه ذكر فى آطام بنى الحبلى هؤلاء ما يوافق كلام ابن حزم فى نزولهم قرب دار بنى ساعدة ، فقال : وابتنوا آطاماً منها « مزاحم » بين ظهران بيوت بنى الحبلى ، وهو لعبد الله بن أبىّ بن سَلُولَ . ومنها أطم كان

بين مال عمارة بن نعيم البياضى و بين مال ابن زمانة . ومنها أطم كان فى جوف بيوتهم . انتهى . وسيأتى فى منازل بنى ساعدة ذكر الحاضة ، وهى مذكورة فى منازل بنى بَياضة ، وقد صرح ابن حزم وغيره من أهل السير وعلماء النسب بأن عبد الله بن أبىّ من بنى الْحُبْلَى من الخزرج ؛ فالظاهر أن ما وقع للحافظ ابن حجر فى حديث زوجة ثابت بن قيس بن شماس[1] فى الخلع من أن عبد الله بن أبىّ من بنى مَغَالة من بنى النجار وَهَمٌ . نعم داره غربى المسجد قريبة من دار بنى مَغَالة فيما يظهر . والله أعلم .

ونزل بنو سَلِمة بن سعد بن على بن أسد بن شاردة بن تزيد (بالمثناة من فوق) بن جُشَم بن الخزرج الأكبر ما بين مسجد القبلتين إلى المذاد أطمَ بنى حرام فى سَنَد تلك الحرة ، وكانت دارهم هذه تسمى خُربى . قال ابن زبالة : فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلحة » كذا هو فى نسخة ابن زبالة بالطاء ، ونقله عنه الزين المراغى أيضاً كذلك كما رأيته بخطه . ولعل الصواب ما ذكره المجد فى تاريخه أن النبى صلى الله عليه وسلم سماها « صُلْحَة » بضم الصاد المهملة وسكون اللام ، وقال فى قاموسه : خُرْبا كحبلى : منزلة كانت لبنى سَلِمة غَيَّرها صلى الله عليه وسلم وسماها صالحة .

ونزل بنو سواد بن غنم بن كعب بن سَلِمة عند مسجد القبلتين إلى أرض ابن عبيد الدينارى ، ولهم مسجد القبلتين ، قاله ابن زبالة ، وهو يرد ما سيأتى عن المطرى وغيره من أن المسجد لبنى حَرام ، وابتنوا أطما يقال له « الأغلب » كان على المهد الذى عليه الأحجار التى يستريح عليها السقاؤن حين يُفِيضُونَ من زقاق رُومَةَ إلى بُطْحَان ، وأطما يقال له « خيط » فى شرقى مسجد القبلتين على شرف الحرة وعند منقطع السهل من أرض بنى سلمة ، وأطما يقال له « منيع » فى يمانى مسجد القبلتين على ظهر الحرة يمين الحزن الذى فى أرض ابن أبان أو دون ذلك قليلا .

---

(١) فى المطبوعات « بن شماش » بشينين معجمتين ـ تطبيع

ونزل بنو عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد الخربة إلى الجبل الذى يقال له الدويخل جبــــل بنى عبيد ، ولهم مسجد الخربة ، وابتنوا « الأشنق » وهو المواجه لمسجدالخربة ، كان للبَرَاء بن مَعْرور صخر بن حسان ابن سنان بن عبيد ، وابتنوا « الأطول » عند قبلة مسجد الخربة أو عن يسارها.

ونزل بنو حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد بنى حرام الصـغير الذى بالقاع بين الأرض التى كانت لجابر بن عتيك والأرض التى كانت لمعبد بن مالك ، وكانوا بين مقبرة بنى سلمة إلى المذاد ، والمــذاد : هو الذى يقول له كعب بن مالك :

فليأت مأسدَةً تسن سـيوفها   بين المَذَاد و بين جـزع الخنــدق

وهو أُطُم لهم سميت به الناحية ، وابتنوا أطما يقال له « جاعس » كان فى السهل بين الأرض التى كانت لجابر بن عتيك و بين العين التى عملها معاوية بن أبى سفيان ، كان لعمرو بن الجَمُوح جد جابر بن عبد الله بن عمرو .

قلت : وهذه العين لعلها التى ذكر ابن النجار أنها تأتى إلى النخل الذى بأسفل المدينة حوالى مسجد الفتح ، يعنى فى غربيه ، و يعرف ذلك الموضع بالسَّيْح ـ بالسين المهملة والمثناة التحتية ـ كما قال المطرى ، والله أعلم .

وابتنى بنو مر(١) بن كعب بن سلمة ـ وهم حلفاء بنى حرام ـ أطما يقال له « أخنس » وهو الأسود القائم فى بنى سلمة فى غربى الحائط الذى كان لجابر بن عتيك مما يلى جبل بنى عبيد ، ذكره ابن زبالة .

وقوله «عند مسجد بنى حرام الصغير »يفهم أن لهم مسجداً آخر كبيراً ، وهو الآتى فى منزلهم الثانى بشعب سلع،وسيأتى فى المساجد وصف مسجد بنى حرام الذى صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم بأنه بالقاع ، وأنه لم يصل فى مسجدهم الأكبر .

وكل هؤلاء بنو سلمة ، وكانوا بهذه الدور ، وكلمتهم واحدة ، وملكوا عليهم

---

(١) فى المطبوعات كلها « بنو مرى بن كعب » تطبيع

أمّة بن حرام ، فلبث فيهم زماناً حتى هلك رجل من بنى عبيد ذو أموال كثيرة ، له ولد واحد اسمه صخر ، فأراد أمّة أن ينزع طائفة من أمواله فيقسمها فى بنى سَلِمة ، فعظم ذلك على صخر ، وشكا ذلك على بنى عبيد و بنى سَوَاد ، وقال : إن فعل أمة ذلك لأضر بنه بالسيف ، وسألهم أن يمنعوه إن هو فعل ، فأطاعوا له ، فلما فعل أمة ذلك ضر به صخر فقطع حبل عاتقه ، وقامت دونه بنو عبيد و بنو سواد ، فنذر أمة أن لا يؤو يه ظل بيت ماعاش حتى يقتل بنو سلمة صخراً أو يأتوه به فيرى فيه رأيه ، وجلس أمة عند الضرب الذى فوق مسجد الفتح مما يلى الجرف فى الشمس ، فمرت به وليدة حطابة فقالت : مالك يا سيدى هنا فى الشمس ؟ فقال :

إن قومى أجمعوا لى أمرهم ... ثم نادَوْا لىَ صَخْراً فضرب

إننى آليت لا يَسْتُرنى ... سَقْفُ بيت من حَرُورٍ ولَهَبْ

أبدا ما دام صخر آمناً ... بينهم يمشى ولا يخشى العطب

فذهبت الجارية ، فأخبرتهم ، فربَطُوا صخراً ثم أتوه به ، فعفا عنهم وأخذ الذى كان يريد أن يأخذ من أمواله ؛ فهذا خبر ما دخل بين بنى سلمة .

وروى ابن شبة عن جابر بن عبد الله أن بنى سلمة قالوا : يا رسول الله ، نبيع دورنا ونتحول إليك ؛ فإن بيننا و بينك واديا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اثبُتُوا فإنكم أوْتَادُهَا ، وما من عبدٍ يخطو إلى الصلاة خطوة إلا كتب الله له أجراً » .

وروى أيضاً عن يحيى بن عبد الله بن أبى قتادة قال : شكا أصحابنا ــ يعنى بنى سَلِمَةَ و بنى حرام ــ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السَّيْلَ يَحُولُ بينهم وبين الجمعة ، وكانت دورهم مما يلى نخيلهم ومزارعهم فى مسجد القبلتين ومسجد الخربة ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم « وما عليكم لو تحوّلتم إلى سَفْحِ الجبل » يعنى سلماً ، فتحولوا ؛ فدخلت حرام الشِّعْب(١) ، وصارت سواد وعبيد إلى السفح .

---

(١) قال المؤلف فى الخلاصة : والمعروف أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم « اثبتوا فإنكم أوتادها » وإنما نقل بنى حرام إلى الشعب المعروف بهم عمر بن الخطاب » اهـ

قلت : وشعب بنى حرام معروف بسَلْع ، وهناك آثار منازلهم وآثار مسجدهم فى غربى جبل سَلْع على يمين السالك إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية ، وعلى يسار السالك إلى المدينة وعلى مقربة من محاذاته فى جهة المغرب حصن خل .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن جابر بن عبد الله قال : كان السيلُ يحول بين بنى حرام و بين مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنقلهم عمر بن الخطاب إلى الشعب ، وكلمَ قوما كانوا فيه من أهل اليمن يقال لهم بنو ناغضة ، فانتقلوا إلى الشعب الذى تحت مسجد الفتح ، فآثارهم هناك . واشترت بنو حرام غلاما روميا من أعطياتهم ، وكان ينقل الحجارة من الحرة و ينقشها ، فبنوا مسجدهم الذى فى الشعب وسَقفوه بخشب وجريد ، وكان عمر بن عبد العزيز زاد فيه مدماكين من أعلاه ، وطابق سقفه ، وجعل فيه ذيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وآثار خرز أساطينه وما تكسر منها موجود اليوم فيه ، يعرف محله بالشعب المذكور .

وقد روى المجد فى فضل المساجد الخبرَ المتقدم ، إلا أنه قال : وجعل فيه ذيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : والذيت الساج الذى يظهر على الحائط ، انتهى . ولم يضبطه غير أنه بالذال فى كتابه ، والذى فى كتاب ابن زبالة و يحيى ما قدمناه ، والله أعلم .

ونزل بنو بيَاضة وزريق ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ابن جُشَم بن الخزرج الأكبر ، و بنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ، و بنو عذارة[1] وهم بنو كعب بن مالك بن غضب ، و بنو اللين وهم بنو عامر بن مالك ابن غضب ، و بنو أجدع[2] وهم بنو معاوية بن مالك بن غضب دارَ بنى بيَاضة.

(١) فى الخلاصة « بنو غدارة »

(٢) فى الخلاصة « و بنو جدع » بغير ألف هنا ، و بألف فيما يأتى .

قال المطرى : فيما بين دار بنى سالم بن عوف بن الخزرج التى عند مسجد الجمعة إلى وادى بُطْحان قبلىّ دار بنى مازن بن النجار .

قلت : الذى يترجَّح عندى أن دارهم كانت فى شامى دار بنى سالم بن عوف وقبلى دار بنى مازن ، ممتدة فى الحرة الغربية ، حتى إن فى كلام ابن زبالة مايقتضى أن بعض منازلهم تمتد إلى منازل بنى ساعدة لما سنذكره .

وابتنوا بدارهم الآطام ، وروى ابن زبالة أنه كان بدارهم تسعة عشر أطما ، وأن الذى أحصاه لبنى أمية بن عامر بن بياضة خاصة ثلاثة عشر أطما : منها أطم أسود فى يمانى أرض فراس بن ميسرة ، كان فى الحرة ، ومنها « عقرب » كان فى شامى المزرعة المسماة بالرحابة فى الحرة على الفقارة ، ومنها « سويد » كان فى شامى الحائط الذى يقال له الحماضة ، واصاحبه كانت الحماضة ، وسيأتى ذكر الحماضة فى منازل بنى ساعدة ، لكن يبعد أن يكون هى المراد هنا ، ومنها « اللواء » كان موضعه فى حد السرارة بينه و بين زاوية الجدار الشامى الذى يحيط على الحماضة عشرون ذراعا ، ومنها أطم كان فى السرارة ، والسرارة : ما بين أرض ابن أبى قليع إلى منتهى الحماضة ، وما بين الأطم الذى يقال له اللواء إلى الجدار الذى الذى يقال له بيوت بنى بياضة ، والجدار الذى بناه زياد بن عبيد الله لبركة السوق وسط السرارة ، قاله ابن زبالة ، وهو يقتضى أن السرارة قرب سوق المدينة ، ويؤيده ذكر الحماضة فى منازل بنى ساعدة ، لكن الظاهر أن المراد ببركة السوق هنا بركة كانت مما يلى سيل بُطْحان ورانونا ؛ لأن ابن شَبَّه قال فى سيل رانونا : إنه يقترن بذى صلب ، يعنى موضع مسجد الجمعة ، ثم يستبطن السرارة حتى يمر على قعر البركة ، ثم يفترق فرقتين ، إلى آخر ما سيأتى عنه .

ونقل رزين أن السرارة بين بنى بياضة والحماضة . ثم ذكر ابن زبالة بقية آطامهم ، وذكر ما يقتضى أن ما حول السرارة هو أقصى بيوت بنى بياضة .

ثم قال : وابتنى بنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزوج الأطم الذى فى أدنى بيوت بنى بياضة الذى دونه الجسر الذى عند ذى ريش .
ثم قال : فلبث بنو غضب بن جُشَم بن الخزرج ـ أى الفرق المذكورين كلهم ـ فى دار بنى بياضة ، وأمرُهم جميعٌ ، ثم إن زريق بن عامر هلك فأوصى بينيه إلى عمه حبيب بن عبد حارثة ، فكان حبيب يكلفهم النَّضْحَ بأيديهم ، فلما اشتدّ عليهم عَدَوْا عليه فقتلوه ، فحالف بنو حبيب بنى بياضة على نصرهم على بنى زريق ، فخافت بنو زريق أن يكثُروهم (١) . وكانت بنو بياضة حينئذ أثرى من بنى زريق ، فخرجوا من دار بنى بياضة حتى حَلُّوا دارهم المعروفة بهم قبليّ المصلّى وسور المدينة الموجود اليوم وداخله بالموضع المعروف بذروان وما والاه ، وابتنوا آطاما منها أطم فى زاوية دار كبير بن الصلت بالمصلى ، وأطما يقال له « الريان » عند سقيفة آل سُرَاقة التى يقال لها « سقيفة الريان » وأقام بنو عمرو بن عامر بن زريق مع بنى بَيَاضة ، ولهم الأطم الذى فى شامى أرض فراس بن ميسرة فى أدنى بيوت بنى بياضة مما يلى السّبخة ، فلبثوا هنالك حتى انتقل رافع بن مالك هو وولده قبيل الإسلام فسكنوا طرف السبخة ما بين الأساس إلى طرف السبخة إلى الدار التى فيها يسكن إسحاق بن عبيد بن رفاعة ، وكان يقال لرافع بن مالك « الكامل » لأن أهل الجاهلية كانوا يقولون لمن كان كاتباً شاعراً « الكامل » وانتقل سائر بنى عمرو بن عامر بعد ذلك ، فاشتروا من بنى عَوْف بن زُرَيق بعضَ دورهم وحقوقهم ، وخرجت بنو عوف بن زريق قبيل الإسلام إلى الشام ؛ فيزعمون أن هنالك ناسا منهم ، ولبث بنو بَيَاضة وبنو حبيب زمانا لا يقاتلون بنى زريق ، والرُسلُ تجرى بينهم ، و بنو زريق يدعونهم إلى الصلح والدِّيَة ، وعرضوا على بنى حبيب أن يقطعوا لهم طائفة من ديارهم ، فقبلوا ذلك ، ووضعو الحرب ، وسمى الزقاق الذى دفعوه لهم « زقاق الدية »

---

(١) يكثروهم : يزيدوا عليهم فى العدد .

وانتقل بنو مالك بن زيد بن حبيب بن عبدحارثة من بنى بياضة ، ونزلوا الناحية التى وَدَّت بنو زريق ، وابتنوا أطُماً كان لبنى المعلى بن لوذان ، وتخلف بنو الصِّمَّة ابن حارثة بن الحارث بن زيد بن حبيب فى بنى بياضة ، فابثت بنو المعلى بن لوذان فى بنى زريق ماشاء الله .

ثم إن عبيد بن المعلى قتل حصن بن خالد الزُّرَقى ، فأراد بنو زريق أن يقتلوه ، ثم بدا لهم أن يَدُوا حصن بن خالد من أموالهم عن عبيد على أن يحالفهم بنو المعلى ، ويقطعون حِلْفهم مع بنى بياضة ، ففعلوا ، وكان عامر بن زريق بن عبد حارثة والد زريق و بياضة لما حضرته الوفاة أوصى ابنَه بياضَةَ بالصبر فى الحروب وشـدة البأس ، وأوصاه بأخيه زريق وكان أصغرهما ، فقال بعض شعرائهم فى ذلك :

* بالصَّـبْرِ أوصى عَامِرٌ بَيَاضَهْ *

ويقال للأوس والخزرج : أبطأهم فَرَّةً وأسرعهم كَرَّةً بنو بياضة و بنو زريق و بنو ظَفَر ، و إن الأوس والخزرج لم يلتقوا فى موطن قَطُّ إلا كان لهذه القبائل فضل بَيِّن على غيرهم من بطون الأوس والخزرج .

وأما بنو عذارة[1] بن مالك بن غضب بن جُشَم فكانوا أقل بطون بنى مالك ابن غضب عددا ، وكانوا قوما ذوى شَرَاسة وشِدَّة أنفس ، فقتلوا قتيلا من بعض بطون بنى مالك بن غضب إما من بنى اللين أو بنى أجدع ، وأبى أهلُ القتيل الديةَ ، وذهبوا إلى بنى بَيَاضة ليعينوهم على بنى عذارة حتى يعطوهم القاتل ، فكلمت بنو بياضة بنى عذارة[1] فى ذلك ، فأبوا أن يُخَلوا بينهم و بينه ، فأرادت بنو بياضة أن يأخذوه عَنْوة[2] ، فخرجوا من دار بنى بياضة حتى نزلوا قباء على بنى عمرو بن عوف ، فحالفوهم وصاهروهم ، وامتنعوا من بنى بياضة ، ثم إنه دخل بين بنى عذارة وبين بنى عمرو بن عوف قبيل الإسلام أمر ، فأجمعوا أن ينتقلوا من عندهم إلى بنى زُرَيق ، وكرهوا أن يرجعوا إلى بنى بياضة ، فجاؤهم وذكروا لهم

---

(١) فى الخلاصة بنو غدارة (٢) عنوة ـ بفتح العين المهملة وسكون النون ـ أى قوة وغلبة

ذلك ، فَلَقُوهم بما يُحِبُّون ، وسَدَّدوا رأيهم[1] ، وأتوا أبا عبيدة سعيد بن عثمان الزرقى فذكروا له ذلك ، فرحَّبَ بهم وذكر شرفَهم وفضلهم ، ثم قال : إنى أشير عليكم أن ترجعوا إلى أخوالكم — يعنى بنى عمرو بن عوف — ولا تنتقلوا إلى بنى زُرَيق ، فإن فى أخلاقكم شَرَاسة وفى أخلاق بنى زريق مثلها ، فتفرقوا عن رأيه ، فلم يزالوا كذلك إلى أن فرض المهدىُّ للأنصار سنةَ ستين ومائة ، فانتقلوا بديوانهم إلى بنى بَيَاضة ، وكان بطنان من بطون بنى مالك بن غضب ممن كان بدار بنى بياضة — لا ندرى أهم من اللين أم من أجدع — كان بينهم ميراث فى الجاهلية ، فاشتجروا فيه ، فلما رأوا أنهم لا يستقيمون فيه على أمر تداعوا إلى أن يدخلوا حديقة كانت فى بنى بياضة فيقتتلوا فيها ، فدخلوا جميعا ثم أغلقوها ، فاقتتلوا حتى لم يبق منهم عين تطرف ، فسميت تلك الحديقة « حديقة الموت » وكان بنو مالك بن غضب سوى بنى زريق ألف مقاتل فى الجاهلية ، وأما بنو أجدع فلم يبق منهم أحد ، وأما بنو اللين فكان بقى منهم رجلان ثم انقرضا لا عقب لهما

وذكر ابن حزم أن زيد بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب المتقدم ذكر بنيه كان له أخ ، وهو عبد الله بن حبيب ، وأن عبد الله بن حبيب هذا وَلَدُ[2] أبى جبيلة الغسانى الذى جلبه مالك بن العجلان لقتل اليهود بالمدينة كما قدمنا الإشارة إليه ، والله أعلم .

ونزل بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر مفترقين فى أربع منازل : فنزل بنو عمرو و بنو ثعلبة ابنا الخزرج بن ساعدة دارَ بنى ساعدةَ التى بين السوق — أى سوق المدينة — و بين بنى ضمرة ؛ فهى فى شرقى سوق المدينة مما يلى الشام . وقال المطرى : قرية بنى ساعدة عند بئر بُضَاعة ، والبئر وسط بيوتهم . قال ابن زبالة : فابتنوا أطُماً يقال له « مُعرض » فى الدار المواجهة مسجد بنى ساعدة ، وهو

---

(١) سددوا رأيهم : صوبوه (٢) فى المطبوعات «والدأبى جبيلة — إلخ » تطبيع

آخر أطُم بُنى بالمدينة ، وقدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يبنونه ، فاستأذنوه فى إتمامه ، فأذن لهم فيه ، وله يقول شاعرهم :

ونحن حَمَيْنا عن بُضَاعة كلِّها ونحن بَنَيْنا معرضا فهو مُشْرِفُ
فأصبح معموراً طويلاً فِدًى له وتخرب آطام بهـا وتصفصف

وأطُمًا فى دار أبى دُجَانة[1] الصغرى التى عند بُضَاعة، ونزلت بنوقشبة — واسم قشبة عامر بن الخزرج بن ساعدة — قريباً من بنى حُدَيلة ، وابتنوا أطُمًا عنـد خوخة عمرو بن أمية الضَّمْرى .

قلت : فمنزلهم فى شرقىّ بنى ضَمْرة ، والمنزل المذكور قبل ، والله أعلم .

ونزلت بنو أبى خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة — وهم رهط سعد بن عُبَادة الدارَ التى يقال لها جِرَارُ سَعْدٍ وهى جرار كان يسقى الناس فيها الماء بعد موت أمه . قال ابن زبالة : عرض سوق المدينة ما بين المصلى إلى جرار سعد بن عُبَادة .

قلت : فهى مما يلى السوق ، فإما أن يكون من جهة المشرق والمصلى حده من جهة المغرب ، فيشهد ذلك لأنها الموضع المعروف اليوم بين أهل درب السويقة بسقيفة بنى ساعدة ، ويكون إطلاق السقيفة على ذلك المحل صحيحا ، لا كما قال المطرى : إنها بقرية ببنى ساعدة عنـد بئر بُضَاعة ؛ لأن سعد بن عبادة لم يكن هناك ، وإنما كان مع رَهْطه فى منزلهم ، والسقيفة كانت عنـد منزله ، وإما أن يكون جِرارُ سعدٍ مما يلى السوق من جهة الشام ، ويكون المصلى حده القبلى ، وهـذا هو الأرجح ؛ لأن الجهة التى بالمشرق مما تقدم إنما هى من منازل بنى زريق ، والله أعلم .

قال ابن زبالة : فابتنوا أطما يقال له واسط ، وقد تقدم أن بنى خدارة نزلوا بجرار سعد أيضاً ، فكأنها كانت منزلها ، وبنو خدارة من بنى الحارث بن الخزرج كما تقـدم ، فدارهم المرادة فى حديث عِيَادة سـعد بن عُبَادة فى بنى الحارث بن

(١) دجانة : بضم الدال ، واسم أبى دجانة سماك بن خرشة

الخزرج ، لا دار بنى الحارث المعروفة بهم لبعدها جداً عن منازل بنى ساعدة ، وليسوا قوم سعد إلا من حيث إن الكل من الخزرج .

وفى حديث عائشة فى الصحيح بعد قول عُرْوَة لها : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودَانِ التمرُ والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار كانت لهم منايح ، الحديثَ .

قال الحافظ ابن حجر فى بيان ذلك : جيرانه صلى الله عليه وسلم من الأنصار سعد بن عبادة وعبد الله بن عمرو بن حزم وأبو أيوب وسعد بن زُرَارة ؛ فيبعد كون سعد بن عُبَادة فى دار بنى الحارث لعدِّه فى الجيران ، ومأخذ الحافظ ابن حَجَر فى ذلك ما رواه ابن سعد عن أم سلمة قالت : كان الأنصار يُكْثِرُونَ إلطافَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : سعد بن عُبادة ، وسعد بن معاذ ، وعمارة ابن حزم ، وأبو أيوب ، وذلك لقرب جوارهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى ، والله أعلم .

ونزلت بنو وقش و بنو عنان ابنا ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة الدارَ التى يقال لها « بنو ساعدة » ويقال لها أيضاً « بنو طريف » وهى بين الحماضة وجِرَار سعد ، وسيأتى فى ترجمة الشوط ما يقتضى أن لبنى ساعدة منزلا فى شامى مسجد الراية ، والظاهر أنه هذا المنزل ، والله أعلم .

ونزل بنو مالك بن النجار دارَهُم المعروفة بهم ، فابتنى بنو غنم بن مالك أطماً يقال له « فويرع » وفى موضعه دار حسن بن زيد بن حسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ! .

قلت : وهى الدار المقابلة لدار جعفر الصادق التى فى قبلة المدرسة الشهابية ، كما سيأتى نقله عن ابن شبة .

وابتنى بنو مَغَالة — وهم بنو عدى بن عمرو بن مالك ، ومغالة أم عدى — أطُماً يقال له « فارع » وهو الأطم الذى يواجه دور بنى طَلْحة بن عبيد الله ، ودخل

فى دار [جعفر] بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك ، وله يقول حسان بن ثابت :

أرِقْتُ لتَوْمَاضِ البروق اللوامعِ ونحن نَشَاوَى بين سَلْعٍ وفارع

قاله ابن زبالة .

وقال الزين المراغى : إن هذا الأطم كان لثابت والد حسان بن ثابت ، وإنه دخل فى الدار المواجهة لباب الرحمة التى كانت دار عاتكة ، ومأخذه فى ذلك أن دار عاتكة من جملة دار جعفر بن يحيى ، لكن سيأتى من كلام ابن زَبالة ويحيى عند ذكر أبواب المسجد أن دار جعفر بن يحيى دخل فيها بيت عاتكة وفارع أطم حسان بن ثابت ، و بيَّنا محله هناك فى شامى الدار المذكورة ، أعنى دار عاتكة ، وفارع هذا هو الأطم الذى كانت به صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وعندها حسان .

وفى مسلم فى حديث ابن صَيَّاد « فوجده عند أطم بنى مَغَالة » .

قال عياض : بنو مَغَالة كل ما كان على يمينك إذا وقفت آخر البلاط مستقبل المسجد النبوى .

وابتنى بنو حُدَيْلة (بضم الحاء المهملة[1]) وهو — كما قال ابن زبالة وغيره — لقب معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار أطما يقال له « مشعط » كان فى غربى مسجدهم الذى يقال له « مسجد أُبىّ » يعنى أبى بن كعب ، وفى موضعه بيت يقال له « بيت أبى نبيه » وقد أسند ابنُ زبالة عقب ذكره الحديث المتقدم « إن كان الوباء فى شىء فهو فى ظل مشعط » وذكر ابن شبة قصر بنى حُدَيْلة ، وقال : بناه معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ليكون حصناً ، قال : وله بابان : بابٌ شارع على خط بنى حُدَيلة ، وباب فى الزاوية الشرقية اليمانية عند دار محمد ابن طلحة التَّيْمى ، وفى وسطه بئر حاء ، انتهى .

وقال عياض فى المشارق : بئر حاء : موضع يعرف بقصر بنى حُدَيلة ، وقد قال ابن إسحاق : بنو عمرو بن مالك بن النجار هم بنو حُدَيلة ، أى لأن حُدَيلة بطن

(١) كذا وقع هنا وفيما يلى (ص ٢١٢ س ٨) وضبطت فى الخلاصة بالجيم

منهم ؛ لمـا قدمناه من أنه لقب أبيهم معاوية بن عمرو بن مالك .

قلت : فليس بنو حُدَيلة هؤلاء بنى معاوية من الأوس أهل مسجد الإجابة كما قدمناه ، ولـكن الاشتراك فى الاسم أوجب الوهم ، فقد وقع للقاضى عياض فى المشارق مايخالف كلام عامة الناس ، فقال : قال الزبير: كل ما كان من المدينة عن يمينك إذا وقفتَ آخِرَ البلاط مستقبلَ مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بنو مَغَالة ، والجهة الأخرى أى التى على يسارك بنو حُدَيلة ، وهم بنو معاوية وهم من الأوس .

قال الجوهرى : هى قرية من قرى الأنصار ، قال القـاضى : هم بطن من الأنصار سميت جهتهم بهم ، وهم أيضاً بنو حُدَيلة (بحاء ودال مهملتين) وحُدَيلة أمهم ، انتهى .

والذى نقـله غيره عن الزبير أن بنى حُدَيلة من بنى النجار من الخزرج ، و بنو معاوية من الأوس غيرهم ، وقد قدمناه عن ابن زبالة شيخ الزبير ، وقد ذكر ابنُ حزم فى الجمهرة معاوية من الأوس ، وذكر بنى حديلة من الخزرج ، فقال : وولد مالك بن النجار معاويةُ وأمه حديلة فنسب إليها ، والظاهر أن قول القاضى « وهم من الأوس » ليس من كلام الزبير فى هـذا الموضع ، ولـكن القاضى لمـا رأى قوله « وهم بنو معاوية » ظن أنهم بنو معاوية من الأوس ، وهـذا موجب ما وقع للمطرى من الخبط فى هذا المحل ، حيث غاير بينهما مرة وجعلهما متحدين أخرى ، ولا يصح الجمع بمـا ذكره المراغى من احتمال أن يكون بنو معاوية بطناً أو فخذاً من بنى حُدَيلة ؛ لما قدمناه .

وابتنى بنو مبذول[1] ـ واسمه عامر بن مالك بن النجار ـ أُطُماً يقال له « السلج » وأطماً كان فى دار آل حُيَيٍّ بن أَخْطَبَ كان لبنى مالك بن مبذول ، وأطماً كان فى دار سرجس مولى الزبير التى إلى بقيع الزبير كان لآل عبيـد بن النعمان أخى النعمان بن عمرو بن مبذول ، و بقيعُ الزبيرِ ذُكِر فى أماكن يؤخذ منها أنه كان

(١) وقع فى المطبوعات « ميدول » بالدال المهملة ، تطبيع

فى شرقى الدور التى تلى قبـة المسجد النبوى إلى بنى زريق، وإلى بنى غنم ، وإلى البقال[1] كما سيأتى .

ونزل بنو عدى بن النجار دارهم المعروفة بهم غربى المسجد النبوى ، على ما قاله المطرى ، وكان بها الأطُم الذى فى قبلة مسجدهم ، وابتنوا أطُماً يقال له « أطم الزاهرية » امرأة سكنته كان فى دار النابغة عند المسجد الذى فى الدار .

ونزل بنو مازن بن النجار دارهم المعروفة بهم قبلى بئر البصة ، وتسمى الناحية اليوم أبو مازن ، غَيَّرَها أهل المدينة .

قال المطرى : وابتنوا بها أطمين أحدهما يقال له « واسط » قلت : والذى يؤخذ من كلام ابن شبة الآتى فى منازل القبائل أن منازل بنى مازن كانت فى قبلة المدينة شرقى منازل بنى زريق قريبة منها ، والله أعلم .

ونزل بنو دينار بن النجار دارهم التى خلف بُطْحان المعروفة بهم ، وابتنوا أطُماً يقال له « المنيف » عند مسجدهم الذى يقال له مسجد بنى دينار ، قاله ابن زبالة ، وقال المطرى فى بيان هذا المسجد : ودار بنى دينار بن النجار بين دار بنى حُدَيلة ودار بنى معاوية أهل مسجد الإجابة ، ودارُ بنى حُديلة عند بئر حاء ، اهـ

ولا أدرى من أين أخذ هذا ، وما ذكره ابن زبالة أقربُ وأولىٰ بالاعتماد لأمورٍ سنذكرها فى بيان مسجدهم .

قال ابن زبالة : وزعم بنو دينار أنهم نزلوا أولا دار أبى جَهْم بن حُذَيفة العَدَوى ، وكانت امرأة منهم هنالك ، وكان لها سبعة إخوة ، فوقفت على بئر لهم بدار أبى جَهْم ومعها مِدْرًى لها من فضة فسقط منها فى البئر ، فصرخت بإخوتها ، فدخل أولهم يخرجه فأسر ، فاستغاث ببعض إخوته حتى دخلوا جميعاً فماتوا فى تلك البئر ، فهذه منازل بنى النجار .

قال المطرى وتبعه مَنْ بعده : إن دار النابغة المتقدمة فى بنى عدى كانت غربى مسجد الرسول ، وهى دار بنى عدى بن النجار ، ومسجد الرسول صلى الله

(١) البقال : بفتح الباء ، وتشديد القاف ، وهو اسم موضع

عليه وسلم وما يليه من جهة الشرق دار بنى غانم بن مالك بن النجار ، ودورُ بنى النجار بالمدينة وما حولها من الشمال إلى مسجد الإجابة ، والنجار : هو تيم الله بن ثعلبة ، وسمى بذلك لأنه ضرب رجلا فنَجَره ، فقيل له : النجار ، وفى دور بنيه هؤلاء قال النبى صلى الله عليه وسلم «خيرُ دورِ الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل » وهم من الأوس كما سبق . وفى رواية أخرى « ألا أخبركم بخير دور الأنصار ؟ قالوا : بلى ، قال : بنو عبد الأشهل ، وهم رهط سعد بن معاذ ، قالوا : ثم مَنْ يارسول الله ؟ قال : ثم بنو النجار » وراويهما واحد ، وقد صححا ، فاختلف عليه ، وتقديم بنى النجار روى عن أنس من غير اختلاف عليه ، ولها مؤيدات أخرى ، وهم أخوالُ عبدِ المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم[1] ، ولذلك نزل عليهم صلى الله عليه وسلم كما سيأتى ، ثم ذكر فى الرواية المذكورة بعد بنى عبد الأشهل بنى الحارث ابن الخزرج أى الأكبر « ثم بنو ساعدة» وقال فى هذه الرواية أيضا «وفى كل دور الأنصار خير » وكأن المفاضلة وقعت بحسب السبق إلى الإسلام ، و بحسب مَسَاعيهم فى إعلاء كلمة الله

قال ابن زبالة عقب ذكر جميع منازل الأنصار المتقدمة : ونزل بنو الشطبة حين قدموا من الشام ميطان ، فلم يوافقهم ، فتحولوا قريبا من جذمان ، ثم تحولوا فنزلوا براتج ، فهم أحد قبائل راتج الثلاث ، وقد ذكر راتج فى منازل يهود فقال : وكان براتج ناسٌ من اليهود، وكان راتج أطما سميت به تلك الناحية ، ثم صار لبنى الجذماء ، ثم صار بعدُ لأهل راتج الذين كانوا حلفاء بنى عبد الأشهل ، وهو الذى يقول له قيس ابن الخطيم :

* ألاَ إن بين الشَّرْ عَبى وراتج * البيت

وقد قدمنا عن ابن حزم أن أهل راتج هم بنو زَعُورا بن جُشَم أخى عبد الأشهل بن جُشَم ، وذكر أيضا أن من أهل راتج بنى سعد بن مرة بن مالك ابن الأوس .

---

(١) ويقال إن عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم مدفون فى «دار النابغة»

وقال المطرى : راتج جبيل صغير غربى وادى بُطْحان ، وبجنبه جبيل آخر صغير يقال له جبل بنى عبيد ، انتهى . وسيأتى ما ينازع فيه مع بيان أن راتجا فى ناحية مسجد الراية

الفصل السادس

فيما كان بينهم من حرب بُعَاث

نقل رزين عن الشرقى أن الأوس والخزرج لبثوا بالمدينة ما شاء الله وكلمتهم واحدة ، ثم وقعت بين الأوس والخزرج حروب كثيرة حتى لم يُسْمَع قطُّ فى قوم أكْثَرُ منها ولا أطول

الحروب قبل بعاث

أولها : حرب سُمَير ، وسببه رجلٌ من بنى ثعلبة كان حليفا لمالك بن العَجْلان ، قتله رجل من الأوس يقال له سُمَير بالمهملة مصغرا . ثم حرب كعب بن عمرو ، ثم يوم السّرارة ، وهو موضع بين بنى بَيَاضة والحماضة ، ثم يوم الديك ، وهو موضع أيضا ، ثم حرب بُعَاث ، وهو كان آخرَهَا ، قتل فيه سَرَاةُ الأوس والخزرج ورؤساؤهم .

قلت : فى كلام بعضهم أنه كان بين الأوس والخزرج وقائع من أشهرها يوم السرارة ، ويوم فارع ، ويوم الفِجَار الأول والثانى ، وحرب حضير بن الأسلت ، وحرب حاطب بن قيس ، إلى أن كان آخر ذلك يوم بُعَاث ، فقول الخطابى « يوم بعاث يوم مشهور كانت فيه مَقْتَلة عظيمة للأوس على الخزرج ، وبقيت الحرب قائمة مائة وعشرين سنة إلى الإسلام على ما ذكره ابن إسحاق وغيره » مُؤَول بأن حروب الأوس والخزرج كلها قبل بُعَاث وبعده مكثت هذه المدة ، وإلا فهو مردود ، وسيأتى تعيين تاريخ يوم بُعَاث

سبب حرب بعاث

وكان سببه أن الحروب المتقدمة كلها كان الظَّفَرُ فى أكثرها للخزرج على الأوس ، حتى ذهبت الأوس لتحالف قُرَيْظَة ، فأرسلت إليهم[1] الخزرج : لئن

---

(١) إليهم : أى إلى بنى قريظة

فعلتم فأذَنُوا بحرب ، فتفرقوا وأرسلوا إلى الخزرج : إنا لا نحالفهم ، ولا ندخل بينكم ، فقالت الخـزرج لليهود : فأعطونا رَهَائِنَ ، وإلا فلا نأمنكم ، فاعطوهم أربعين غلاماً من بينهم ، ففرّقهم الخزرج فى دورهم ، فلما أيِسَتِ الأوسُ من نُصْرة اليهود حالفت بطوناً من الخزرج منهم بنو عمرو بن عوف ، وقال سائرهم : والله لا نصالح حتى ندرك ثأرنا ، فتقاتلوا ، وكثر القتـــلُ فى الأوس لمـا خَذَلهم قومُهم ، وخرج سعد بن معاذ الأشهلى ، فأجاره عمرو بن الجَمُوح الحرامى ، فلما رأت الأوس أن أمرهم إلى قُلّ عزموا على أن يكونوا حِلْفاً للخزرج فى المدينة ، ثم اشْتَوَرُوا فى أن يحالفوا قريشاً ، فأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكان بينهم أن مَنْ أراد حجاً أو عمرة لم يعرض له ، فأجار أموالهم بعدهم البَرَاء بن مَعْرور ، فأتوا مكة فحالفوا قريشاً ، ثم جاء أبو جهل ــ وكان غائباً ــ فنقض حِلْفَ قريش بحيلة احتالها .

قلت : روى ابن شبة عن أفلح بن سعيد ما يخالفه فى نسبة ذلك لأبى جهل مع بيان الحيلة ، فقال : خرجت الأوسُ جالية من الخزرج حتى نزلت على قريش بمكة فحالفتها ، فلما حالفتهم قال الوليدُ بن المغيرة : والله ما نزل قوم قط على قوم إلا أخـذوا شرفهم وورثوا ديارهم ، فاقْطَعُوا حلف الأوس ؛ فقالوا : بأى شىء ؟ قال : إن فى القوم حمية ، قولوا لهم : إنا نســينا شيئاً لم نذكره لـكم ، إنا قوم إذا كان النساء بالبيت فرأى الرجل امرأة تعجبه قبّلها ولمسها بيده ، فلما قالوا ذلك للأوس نفرت وقالوا : اقطعوا الحلف بيننا وبينكم ، فقطعوه ، انتهى .

فلما لم يتم لهم الحلف ذهبت النبيت إلى خيبر ــ قلت : أراد بالنبيت بعضَهم ، وهم بنو حارثة ؛ لمـا قدمناه من أن النبيت يطلق عليهم وعلى بنى عبد الأشهل وبنى ظفر وبنى زعورا ، والذى انتقل من هؤلاء إلى خيبرهم بنو حارثة فقط كما سبق ، إلا أن يريد غيره ــ فأقاموا بها سنة ، وماتت منهم عجوز فقالوا « أهون حادث موت عجوز فى ســنة » فذهب مثـلا ، فلما رأت الخزرج أن قد ظفرت

بالأوس افتخروا عليهم فى أشعارهم ، وقال عمرو بن النعمان البَياضى : يا قوم إن بَيَاضة بن عمرو أنزلكم منزل سوء ، والله لا يمس رأسى غسلا حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير وأقتل رُهُنَهم ، وكان لهم غزار المياه وكرام النخل ، وقال رجل منهم أيضاً شعراً يتغنى به يذكر جلاء النبيت إلى خيبر وأَخْذَهم الرهُنَ من اليهود :

هَلُمَّ إلى الأحلاف إذ رقّ عَظْمُهم   و إذ أصلحوا مالا لجذمان ضائعاً
إذا ما امرؤ منهم أساء عمارة   بَعَثْنا عليهم من بنى العير جادعا
فأما الصَّريحُ منهمُ فتحمّلوا   وأما اليهود فاتخذنا بضائعاً
وذاك بأنا حين نَلْقَى عدوَّنا   نصول بضرب يترك العز خاشعاً

فبلغ قولهم قريظة والنضير وهم المعنيون بالصريح لأنهم من بنى الكاهن بن هارون ، و بلغ ذلك أيضاً مَنْ كان فى المدينة من الأوس ، فَمَشَوْا إلى كعب بن أسد القُرَظى ، فدعوه إلى المحالفة على الخزرج ، ففعل ، ثم تحالفوا مع قريظة والنضير ، ثم أرسلوا بذلك إلى النَّبيت فقدموا فأخذت الخزرج فى قتل الرهن ، فقال لهم كعب بن أسد القرظى : إنما هى ليلة ثم تسعة أشهر وقد جاء الحلف ، وأرسلوا إلى الأوس وقالوا لهم : انْهَضُوا إلينا ، فنأتيهم بأجمعنا ، فجاءت الخزرج إلى عبدالله ابن أبىّ فقالوا : مالك لا تقتل الرهن ؟ فقال : لا أغدرهم أبداً ، وأنتم البُغَاة ، وقد بلغنى أن الأوس تقول : منعونا الحياة فيمنعونا الموت، ووالله ما يموتون أو تهلكون عامتكم ، فقال له عمرو بن النعمان : انتفخ والله سَحْرُكَ ، فقال : إنى لا أحضركم ، ولكأنى أنظر إليك قتيلا يحملك أربعة فى كساء .

فاجتمع الخزرج ورأسوا عليهم عمرو بن النعمان ــ قلت : الذى ذكره ابنُ حزم أن رئيس الخزرج يومئذ هو والد النعمان ، وهو رحيلة بن ثعلبة البياضى ، والله أعلم ــ فاقتتلوا فى بُعَاث ، وهوموضع عند أعلى قَورى ، وكانت الدَّبْرَةُ على الخزرج ، وقتل عمرو بن النعمان ، وجىء به تحمله أربعة كما قال له ابن أبىّ ، وحلفت اليهود لتهدمَنَّ حِصْنَ عبدالله بن أبىّ ، وكان أبو عمرو الراهب مع الأوس،

وكانت تحته جميلة بنت أبىّ ، وهى أم حنظلة الغَسِيل ، فلما أحاطوا بالحصن قال لهم عبد الله : أما أنا فلم أحضر معهم ، وهؤلاء أولادكم الذين عندى فإننى لم أقتل منهم أحدا ، ونهيتُ الخزرج فعصونى ، وكان جل مَنْ عنده من الرهن من أولاد بنى النضير ، ففرحوا حين سمعوا بذلك ، فأجاروه من الأوس ومن قريظة ، فأطلق أولادهم وحالفهم، ولم يزل حتى ردهم حلفاء الخزرج بحيلٍ تحيَّلَ بها ، وكان رئيس الأوس فى هذه الحرب حُضَير الذى يقال له « حضير الكتائب » والدُ أسَيْدِ بن حُضَير ، وبها قتل ، وقال خُفَاف بن نَدْبة يرثى حُضَيرا :

أتانى حديث فكذَّبْتُه وقالوا : خليلكَ فى المَرْمَسِ
فياعين بكى حُضَيْر الندى حضير الكتائب والمجلس

وكان رئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضى كما تقدم أيضاً ، قال بعضهم : وكان النصر فيها أولا للخزرج ، ثم ثبّت حضيرٌ الأوسَ فرجعوا وانتصروا .

وذكر أبو الفرج الأصبهانى أن سبب ذلك أنه كان من قاعدتهم أن الأصيل لا يقتل بالحليف ، فقتَـلَ رجلٌ من الأوس حليفا للخزرج ، فأرادوا أن يُقِيدُوه فامتنعوا ، فوقعت بينهم الحرب لأجل ذلك .

وكان يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنين على الأصح ، وقيل : بأربعين سنة ، وقيل : بأكثر ، وهو اليوم الذى تقول فيه عائشة رضى الله عنها كما فى الصحيح « كان يوم بُعَاث يوما قَدَّمَهُ الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى دخولهم فى الإسلام ، فقدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق مَلَؤُهم وقتلَتْ سَرَاتهم » يعنى الأوس والخزرج ، ومعناه أنه قتل فيه من أكابرهم مَنْ كان لا يؤمَنُ أن يتكبر ويأنَفَ أن يدخل فى الإسلام لتَصلُّبه فى أمر الجاهلية ولشدة شكيمته حتى لا يكون تحت حكم غيره ، وقد كان بقى منهم من هـذا النمط عبدُ الله بن أبىٍّ بن سَلُولَ ، وقصته فى ذلك مشهورة ، وكذلك أبو عامر الراهب الذى سماه النبى صلى الله عليه وسلم بالفاسق ، قال أهل السير : قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيدُ أهلها عبدُ الله بن أبىّ بن

سلول ، كان من الخزرج ثم من بنى عوف بن الخزرج ثم من بنى الْحُبْلى ، لا يختلف فى شرفه فى قومه اثنان ، لم تجتمع الأوسُ والخزرجُ قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره ، ومعه فى الأوس رجل هو فى قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر بن صيفى بن النعمان أحد بنى ضبيعة بن زيد ، وهو أبو حنظلة الغَسِيل ، وكان قد ترهَّبَ ولبس المُسُوحَ ، فشَقِيَا بشرفهما : أما عبد الله بن أبىّ فلما انصرف عنه قومُه إلى الإسلام ضَغِنَ ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومَه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصرا على نفاق وضغن ، فكان رأس المنافقين ، وإليه يجتمعون ، وهو القائل فى غزوة بنى المصطلق «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل[1]» وأما أبو عامر فأبىَ إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فقال: ما هذا الدين الذى جئتَ به ؟ قال : جئتُ بالحنيفية دين إبراهيم ، قال : فأنا عليها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لست عليها ، قال : إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها ، قال : ما فعلتُ ، ولكنى جئتُ بها بيضاء نَقِيَّةً ، قال : الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجَلْ ، فمَنْ كَذَبَ ففعل الله ذلك به ، فكان هو ذاك عدو الله : خرج إلى مكة مُفارقا الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا الراهب ، ولكن قولوا الفاسق » فلما افتتح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، فمات بها طريدا غريباً وحيداً .

وروى بعضهم أنه لم يكن فى الأوس والخزرج رجلٌ أوْصَفُ لمحمد صلى الله عليه وسلم من أبى عامر المذكور ، وكان يألف اليهود ويسائلهم فيخبرونه بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى يهود تَيْماء وإلى الشام ، فسأل النصارى

(١) من سورة المنافقين من الآية ٨

فأخبروه بذلك ، فرجع وهو يقول : أنا على دين الحنيفية ، وترهَّبَ ولبس المُسُوحَ ، وزعم أنه ينتظر خروجَ النبي صلى الله عليـه وسلم ، فلما ظهر بمكة لم يخرج إليه ، فلما قدم المدينة حَسَدَ و بغى ، وذكر إتيانه النبي صلى الله عليه وسلم بنحو ماسبق ، إلا أنه قال : فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « الكاذب أماته الله وحيداً طريداً » قال : آمين ، ثم ذكر خروجه إلى مكة ، وزاد: فكان مع قريش يتبع دينهم وترك ما كان عليه ؛ فهذا مصداق ما ذكرت عائشة رضى الله عنها .

الفصل السابع
فى مبدأ إكرام الله لهم بهذا النبي صلى الله عليه وسلم
وذكر العقبة الصغرى

اعلم أن تلك الحروب المتقدمة لم تزل بين الأوس والخزرج حتى أكرمهم الله باتباعه صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه صلى الله عليـه وسلم كان يَعرِض نفسه فى كل مَوْسِم من مواسم العرب على قبائلهم ، ويقول : ألاَ رجلٌ يحملنى إلى قومه ؟ فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى ، فيأبونه ويقولون : قَوْمُ الرجل أعلم به .

وذكر ابنُ إسحاق عَرْضَه عليه الصلاة والسلام نفسَه على كِنْدَةَ وعلى كَلْب وعلى بنى حنيفة ، قال : ولم يكن أحد من العرب أقْبَحَ ردًّا عليه منهم ، وقال موسى بن عقبة عن الزهرى : فكان فى تلك السنين ـ أى التى قبل الهجرة ـ يعرض نفسه على القبائل ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم إلا أن يؤْوُوه ويمنعوه ، ويقول: لا أكره أحدا منكم على شيء ، بل أريد أن تمنعوا من يؤذينى حتى أبلغ رسالة ربى ، فلا يقبله أحد .

وذكر الواقدى دُعَاءه صلى الله عليه وسلم بنى عَبْس إلى الإسلام ، وأنه أتى غَسَّان فى منازلهم بعكاظ و بنى محارب كذلك ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم يَدْعُو إلى دين الله ، ويأمر به كلَّ مَنْ لقيه ورآه من العرب ، إلى أن قَدِم سُوَيْدُ بن

الصامت أخو بنى عمرو بن عوف من الأوس ، وكان يسمى « الكامل » لجلده وشعره ، وهو القائل :

فَرِشْنِي بخيرٍ طالَمَا قد بَرَيْتَنِي فَخَيْرُ المَوَالِي مَنْ يَرِيشُ ولا يَبْرِي

فَدَعَاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، فلم يبعد ولم يجب ، ثم انصرف إلى يثرب ، فلم يلبث أن قتِلَ يوم بُعَاث .

قال ابن إسحاق : فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا نَرَاه قد قتل وهو مسلم ، وقدم مكة أبو الحَيْسَر[1] أنس بن رافع وهو فى فِتْيَةٍ من قومه بنى عبد الأشهل يطالبون الحِلْفَ ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، فقال رجل منهم اسمه إياس بن معاذ وكان شابا : هذا والله خير مما قدمنا له ، فضربه أبو الحَيْسَر[1] وانتهره ، فسكت ، ثم لم يتم لهم الحلف ، فانصرفوا إلى بلادهم ، ومات إياس بن معاذ فقيل : إنه مات مسلما .

وقال رزين فى ذكر هذه القصة : ثم جاءت الأوسُ تطلب أن تحالف قريشا ، فجاءهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وعرض نفسَه عليهم ، وقال : اسْمَعُوا منى ، هل لكم فى خيرٍ مما جئتم له ؟ وتلا عليهم القرآن ، ثم قال : بايعونى واتبعونى ؛ فإنكم ستُجمعون بى ، فقال عمرو بن الجموح : هذا أىْ قَوْمِ والله خيرٌ لكم مما جئتم له ، فانتهروه ، وقالوا : ما جئنا لهذا ، ولم يُقْبِلُوا عليه ، ثم انصرفوا ، فكانت وقعة بُعَاث .

وقال ابن زبالة : إنه صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل فيأبونه ، حتى سمع بنفر من الأوس قدموا فى المنافرة التى كانت بينهم ، فأتاهم فى رحالهم ، فقالوا : مَنْ أنت ؟ فانتسب لهم ، وأخبرهم خبره ، وقرأ عليهم القرآن ، وذكر أنهم أخوالُه ، وسألهم أن يؤووه ويمنعوه حتى يبلغ رسالاتِ ربه ، فنظر بعضُهم إلى بعض وقالوا : والله هذا صادق ، وإنه للنَّبِيُّ الذى يذكر أهلُ الكتاب ويستفتحون

---

(١) فى المطبوعات كلها « أبو الجيسر » تطبيع ، وما أثبتناه عن سيرة ابن هشام

به عليكم ، فاغْتَنِمُوه وآمنوا به ، فقالوا : أنت رسول الله ، قد عَرَفْنَاك وآمنا بك وصدقناك ، فمرنا بأمرك فإنَّا لن نعصيك ، فسُرَّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يختلف إليهم ، ويزدادون فيه بصيرة ، ثم أمرهم صلى الله عليه وسلم أن يَدْعُوا قومَهم إلى دينهم ، فسألوه أن يرتحل معهم ، فقال : حتى يأذن لى ربى ، فلحقوا بأهلهم المدينة ، ثم شَخَصُوا إليه فى الموسم فكان من أمر العَقَبة ما كان، وهو مخالف لما تقدم من أن النفر من الأوس لم يقبلوا .

وقد أخرج الحاكم وغيره بإسناد حسن عن على رضى الله عنه قال : لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب وخَرَج وأنا معه وأبو بكر إلى مِنًى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، وتقدم أبو بكر وكان نَسَّابة ، فقال : مَنِ القوم ؟ قالوا : ربيعة ، فذكر حديثا طويلا فى مُرَاجعتهم وتوقفهم أخيرا عن الإجابة ، ثم قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج ، وهم الذين سَمَّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ، لكونهم أجابوه إلى إيوائه ونَصْره ، قال : فما نهضنا حتى بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن إسحاق فى ذكر العقبة الأولى : لما أراد الله عز وجل إظهار دينه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسَه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينا هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج ، قال : أمن موالى[1] يهود ؟ قالوا : نعم، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى، فجلسوا معه فدَعاهم إلى الله ، وعَرَض عليهم الإسلام ، وكان مما صنع الله لهم فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل علم وكتاب ، وكانوا هم أهلَ شركٍ أصحابَ أوثانٍ ، وكانوا قد غزوهم فى بلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبيا مبعوث قد أظلَّ زمانُه نتبعه نقتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرم ، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم

---

(١) الموالى : جمع مولى ، وهو هنا بمعنى الحليف

إلى الله قال بعضهم لبعض : تعلَّمُوا[1] إنه للنَّبِيُّ الذى تو َّعَدُكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقالوا له : إنا تركنا قومنا ، ولا قومَ بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فإنْ يجمعْهُمُ الله عليك فلا رَجُلَ أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم ليَدْعُوا قومهم ، فلما جاؤهم لم يبق دار من دور قومهم إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وهم — يعنى أصحاب العقبة الأولى — فيما ذكر لى ستة نفر من الخزرج ، وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، كلاهما من بنى غنم بن مالك بن النجار ، ورافع بن مالك بن العجلان الزرقى ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وجابر بن عبد الله بن رئاب ، وعقبة بن عامر ابن نابى ، وهؤلاء الثلاثة من بنى سلمة .

وقال موسى بن عقبة عن الزهرى وأبى الأسود عن عروة : هم أسعد بن زرارة ، ومعاذ بن عفراء وهى أمه ، وهو ابن عمرو بن الجَمُوح من بنى غنم بن مالك بن النجار أيضا ، ورافع بن مالك ، ويزيد بن ثعلبة البلوى ، ثم من بنى غصينة حليفهم ، وأبو الهيثم مالك بن التيهان الأوسى ، ثم من بنى جُشَم أخى عبد الأشهل بن جشم ، وعُوَيم بن ساعدة الأوسى ، ثم من بنى أمية بن زيد ، ويقال : كان فيهم عُبَادة بن الصامت الخزرجى ثم من بنى غنم أخى سالم بن عوف ، وذكوان الزرقى ، فيكونون ثمانية ، ومنهم من عَدَّهم سبعة فأسقط جابر ابن عبد الله أو عبد الله بن زيد ، وقيل : إنما أسلم فى العام الأول اثنان فقط ، هما أسعد بن زرارة وذكوان .

قال ابن إسحاق فى ذكر العقبة — يعنى الثانية لما قدمه ، وبعضهم يسميها الأولى — : فلما كان الموسمُ — يعنى من العام المقبل — وافاه منهم اثنا عشر رجلا ، فذكر الستة الذين قدمهم غير جابر بن عبدالله ، وزاد : ذكوان الزرقى ، وعُبَادة ابن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عبادة بن نضلة الغنمى السالمى الخزرجى ،

---

(١) تعلموا هنا بمعنى اعلموا

ومعاذ بن عفراء ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وعويم بن ساعدة ، قال : فبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة على بيعة النساء : أى على وَفق بيعة النساء التى نزلت بعد الفتح ، على أن لا يشركوا بالله شيئاً إلى آخر الآية[1] ، ولم يكن أمر بالقتال بعد ، بل كان جميع ذلك قبل نزول الفرائض ما عدا التوحيد والصلاة ، وأرسل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم معهم مُصْعَبَ بن عُمَيْر ليفقههم فى الدين ويعلمهم الإسلام ، فكان يصلى بهم ، وقيل : بعثه إليهم بعد ذلك بطلبهم ليعلمهم ويقرئهم القرآن ، فكان يسمى «المقرئ» وهو أول من سمى به ، فنزل على أسعد بن زُرَارة ، وقيل : بعث إليهم مُصْعَب بن عمير وابنَ أم مكتوم ؛ فكان مصعب بن عمير يؤمهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض ، فجمَّعَ بهم أول جمعة فى الإسلام — وفى الدارقطنى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى مُصْعَب بن عمير أن يجمّع بهم فجمّع بهم وكانوا اثنى عشر — .

قال الزهرى : وعند ابن إسحاق أولُ من جَمّع بهم أبوأمامة أسعد بن زرارة ، وفى أبى داود من طريق عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كان أبى إذا سَمِع الأذان للجمعة استغفر لأسعد بن زرارة ، فسألته ، فقال : كان أول من جَمَّع بنا فى هَزْم النبيت من حَرَّة بنى بَيَاضة فى نقيع يقال له نقيع الخضمات . قلت : كم أنتم يومئذ ؟ قال : أربعون . قال البيهقى : ولا يخالف هذا ما روى عن الزهرى مِنْ تَجْميع مصعب بن عمير بهم وأنهم كانوا اثنى عشر ؛ إذ مراد الزهرى أنه أقام الجمعة بمعونة النفر الاثنى عشر الذين بايعُوا فى العقبة و بعثه صلى الله عليه وسلم فى صحبتهم أو على أثرهم حين كثر المسلمون ، ومنهم أسعد بن زُرَارة ، فالزهرى أضاف التجمع إلى مصعب لكونه الإمام ، وكعبٌ أضافه إلى أسْعَد لنزول مصعب أولا عليه ونَصْرِه له وخروجه به إلى دور الأنصار يدعوهم إلى الإسلام ، وأراد الزهرى

(١) أراد الآية الكريمة التى فى سورة النساء الصغرى (الممتحنة) ، رقم ١٢

بالاثنى عشر عدد الذين خرجوا به ، وكانوا له ظَهْرًا[١] ، ومرادُ كعب جميعُ مَنْ صَلَّى معه ، هذا ويقولُ كعب متصل ، وقولُ الزهرى منقطع ، اهـ .

وروى الطبرانى مرسلا فى خبر طويل قال فيه عن عروة : ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابعَثْ إلينا رجلا من قِبَلك يدعو الناسَ بكتاب الله ؛ فإنه أدنى أن يُتَّبَع[٢]؛ فبعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مصعبَ بن عمير أخا بنى عبد الدار ، فنزل فى بنى غَنْم على أسعد بن زُرَارة ، فجعل يدعو الناس، و يفشو الإسلام ، وهم فى ذلك مستخفون بدعائهم ، ثم إن أسعد بن زُرَارة أقبل هو ومُصْعب بن عُمَير حتى أتيا مرقا أو قريباً منها ، فجلسا هنالك ، و بعثا إلى رَهْط من أهل الأرض ، فأتوهم مُسْتَخْفِينَ ، فبينا مصعب بن عمير يحدثهم و يقصُّ عليهم القرآن أخبر بهم سعد بن معاذ ، فأتاهم فى لأْمَته[٣] ومعه الرُّمْح حتى وقف عليه فقال : عُلَام يأتينا فى دارنا ، هذا الوحيد الفريد الطريد الغريب ليُسَفِّه ضعفاءنا بالباطل و يدعوهم ، لا أراكما بعد هذا بشىء من جوارنا ، فرجعوا ، ثم إنهم عادوا الثانية ببئر مرق أو قريباً منها فأخبر بهم سعد بن معاذ الثانية ، فتوعدهم بوعيد دون الأول ، فلما رأى أسْعَد منه اللينَ قال : يا ابن خالة ، اسْمَعْ من قوله ، فإن سمعتَ منكراً فاردده بأهْدَى منه ، و إن سمعت خيراً فأجِبْ إليه ، فقال : ماذا يقول ؟ فقرأ عليه مصعب « حمٓ ، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون[٤] » فقال سعد : وما أسمع إلا ما أعرف ، فرجع وقد هداه الله ، ولم يظهر أمر الإسلام حتى رجع إلى قومه ، فدعا بنى عبد الأشهل إلى الإسلام وأظهر إسلامه ، وقال : مَنْ شك فيه من صغير أو كبير فليأتنا بأهْدَى منه ، فوالله لقد جاء أمر لتُحَزَّنَّ فيه الرقابُ ، فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلامه ودعائه إلا مَنْ لا يذكر فكانت أولَ دارٍ من دور الأنصار أسلمت بأسْرِها ، ثم إن بنى النجار اشتدوا على أسعد بن زرارة ، وأخرجوا مُصْعب بن عُمير ، فانتقل إلى سعد بن معاذ ، فلم

---

(١) كانوا له ظهرا : أى أعوانا مساعدين (٢) أدنى أن يتبع : أقرب
(٣) اللأمة : السلاح كله (٤) من سورة الزخرف الآيات ١ — ٣

يزل يدعو ويهدى على يديه ، حتى قلّ دارٌ من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناسٌ ، وأسلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجَمُوح ، وكسرت أصنامُهم ، فكان المسلمون أمر أهلها ، ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اه .

وقد روى هذه القصة ابنُ إسحاق عَمَّنْ سمى من شيوخه بزيادة ونقص ، فقال : إن أسعد بن زُرَارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظَفَر ، فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظفر على بئر يقال لها بئر مرق ، فجلسا فيه واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، فلما سمع بذلك سعدُ بن معاذ وأُسَيد بن حُضَير — وهما يومئذ سيدا قومهما بنى عبد الأشهل — وكلاهما مُشْرِك ، قال سعد لأسَيْد : لا أبالك ! انطلق إلى هذين الرجلين الذين أتيَا دارينا ليسفها ضعفاءنا ، فازجُرْهما وانْهَهُمَا عن أن يأتيا دارَيْنَا ؛ فإنه لولا أن أسعد بن زُرَارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك ، هو ابن خالتى ، فأخذ أسيد حَرْبته ثم أقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زُرَارة قال لمُصْعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصْدُق الله فيه ، قال : فوقف عليهما متشتما(١) ، فقال : ماجاء بكما إلينا تُسَفِّهان ضعفاءنا ، اعْتزلا نا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ؛ فإن رضيت أمْراً قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره ؛ قال : أنْصَفْتَ ، ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر عنهما : والله لَعَرَفْنَا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهَّر ، وتطهر ثيابك ثم تتشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ، فقام ففعل ذلك ، ثم قال لهما : إن ورائى رجلا إن اتَّبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن سَعْدَ بن مُعَاذ ، ثم انصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد مقبلا قال : أَحْلِفُ بالله لقد جاءكم أُسَيْدٌ بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما وقف على النادى قال

(١) فى نسخة «متسمتا» بالسين المهملة ، ووقع كذلك فى الخلاصة.

له سعد : ما فعلتَ ؟ قال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حُدِّثْتُ أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرَارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابنُ خالتك ليُخفِرُوكَ ، فقام سعد مُغْضَباً مبادِراً متخوفا للذى ذكر له ، فأخذ الحربة من يده ثم قال : والله ما أراك أغنيتَ شيئاً ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتما ثم قال : يا أبا أُمَامة ، أما والله لولا ما بينى و بينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منى ، أتغشَانا فى دارَيْنا بما نكره ، وقد قال أسعد لمصعب بن عمير أىْ مُصْعب ، جاءك والله سيدُ مَنْ وراءه من قومه ، إن يَتْبَعْكَ لا يتخلَّفْ عنك منهم اثنان ، فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته و إن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال سعد : أنصفتَ ، ثم ركَزَ الحربة فجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالا : فعرفْنَا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتَسَهُّله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ؟ فذكرا له ما تقدم ، ففعله ، ثم أقبل عامر إلى نادى قومه ومعه أسَيْدُ بن حُضَير ، فلما رآه قومه مقبلا قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، أفْضَلُنا رأيا ، وأيمَنُنَا نَقِيبَةً[1] ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم حرام علىّ حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قال : فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة ، ورجع مصعب إلى منزل أسعد بن زُرَارة ، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخَطْمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن صَيْفى بن الأسلَت ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون

(١) فلان ميمون النقيبة : يراد به أنه مظفر المطالب ، والنقيبة : النفس ، أو هى الطبيعة والخليقة

منه و يطيعون ، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى بدر وأحد والخندق ، ثم أسلموا كلهم .

وفى التاريخ الأوسط للبخارى أن أهل مكة سمعوا هاتفاً يهتف قبل إسلام سعد بن معاذ :

فإن يُسْلِمِ السَّعْدَانِ يُصْبِحْ محمد ... بمكَّةَ لا يخشى خِلاَفَ المخالف
فيا سَعْدُ سَعْدَ الأوس كن أنت ناصرا ... و يا سَعْدُ سَعْدَ الخزرجين الغطارف
أجيبَا إلى داعى الهدَى وتمنَّيَا ... على الله فى الفردوس مُنْيَةَ عارف

فى أبيات أخرى .

وذكر لها رزين سبباً آخر كما سيأتى ، وهذا أصح ، ولم يذكر ابن إسحاق فى الخبر المتقدم إسلام عمرو بن الجمُوح، بل ذكره بعد ذكر العقبة الآتية كما سنذكره، نعم ابنُه مُعَاذ شهد العقبة .

الفصل الثامن
فى العقبة الكبرى

و بعضُهم يسميها العقبة الثانية ، ومقتضى ما قدمناه أن تسمى الثالثة .

قال ابن إسحاق : ثم إن مصعب بن عُمَير رجع إلى مكة وخرج مَنْ خرج من الأنصار من المسلمين للقائهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومبايعته فى الموسم مع حُجَّاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ما أراد: من كرامته ، والنصر لنبيه ، و إعزاز الإسلام وأهله ، و إذلال الشرك وأهله .

وروى ابن إسحاق وصحَّحه ابنُ حِبَّان من طريقه عن كعب بن مالك قال : خرجنا حُجَّاجا مع مشركى قومنا، وقد صلينا و فَقِهْنَا(١) ، ومعنا البراء بن معرور سيدُنا وكبيرنا ، فذكر شأن صلاته إلى الكعبة ، قال : فلما وصلنا إلى مكة ولم نكن رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فسألنا عنه ، فقيل : هو مع العباس فى

(١) الفقه: العلم، والمراد أنهم علموا ما أرسل الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم

المسجد ، فدخلنا فجلسنا إليه ، فسأله البراء عن القبلة ، ثم خرجنا إلى الحج وواعَدْنَاهُ العقبة ، فلما كانت الليلة التي واعدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم لها ،وكنا نكتم مَنْ معنا من المشركين أمرنا ومعنا عبد الله بن عمرو والدجابر، ولم يكن أسلم قبل،فعَرَّفناه أمر الإسلام، فأسلم حينئذ وصار من النقباء[1]،قال : فنِمْنَا تلك الليلة في قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم تَسَلُّلَ الْقَطَا مستخفين،فاجتمعنا في الشِّعْب[2] عند العقبة ثلاثة وسبعين رجلا، ومعنا امرأتان: أم عمارة بنت كعب إحدى نساء بني مازن ، وأسماء بنت عمر بن عدى إحدى نساء بني سلمة ، قال : فجاء ومعه العباس ، فتكلم فقال : إن محمدا منا من حيث علمتم ، وقد مَنَعْنَاه ، وهو في عز ، وقد أبي إلا الانحياز إليكم ، فإن كنتم ترون أنكم وَافُونَ له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وذاك ، وإلا فمن الآن ، قال : فقلنا : قد سمعنا ماقلت ، فتكلم يارسول الله فَخُذْ لنفسك ولربك ماأحببت، فتكلم ، فدعا إلى الله ، وقرأ القرآن ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ، فقال : نعم والذي بعثك بالحق لَنَمْنَعنك مما نمنع منه أُزُرَنَا ، فبايعنا يارسول الله فنحن والله أصحابُ الحروب وأهلُ الْحَلْقَة ورثناها كابرا عن كابر ، فاعترض القولَ والبراء يكلمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ، إن بيننا و بين الرجال- يعنى اليهود -حِبَالاً ونحن قاطعوها ،فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنَا ، قال : فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم[3]،أنا منكم وأنتم مني ،

(١) النقباء : جمع نقيب ، وهو كالعريف على القوم المقدم الذي يتعرف أخبارهم

(٢) شعب مبايعة العقبة يقع على يسار الذاهب إلى منى (مكى) وانظر ص ٢٣٢

(٣) الهدم : يروى بتحريك الدال وبسكونها ؛ فأما المحرك فمعناه القبر، يعنى أني أقبر حيث تقبرون ، وقيل : هو المنزل ، والمعنى منزلكم منزلي ، وأما المسكن فمعناه إهدار دم القتل ، والمراد على هذا إن طاب دمكم فقد طلب دمي ، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي؛لاستحكام الألفة بيننا ، قاله ابن الأثير .

أحارب مَنْ حاربتم وأسالم من سالمتم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَخْرِجُوا إلىّ منكم اثنى عشر نَقِيباً يكونون على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس : فمن الخزرج أسعد بن زُرَارة نقيب بنى النجار ، وسعد بن الربيع وعبد الله بن رَوَاحة نقيبا بنى الحارث ابن الخزرج و رافع بن مالك بن العَجْلان نقيب بنى زُرَيق ، والبراء بن مَعْرُور وعبد الله بن عمرو بن حرام نقيبا بنى سلمة ، وعُبَادة بن الصامت نقيب القبائل وفى الطبرانى أنه نقيب بنى عدى من الخزرج ، فكأنه نقيب الجميع ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو نقيبا بنى ساعدة — ومن الأوس أُسَيْد بن حُضَيْر نقيب بنى عبد الأشهل ، وسعد بن خَيْثَمة ورفاعة بن عبد المنذر نقيبا بنى عمرو بن عوف .

قال ابن إسحاق : وأهلُ العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان، ولا يعدون رفاعة

قلت : فيكون أبو الهيثم نقيباً ثانياً لبنى عبد الأشهل فإنه منهم ، وقد صرحوا به .

وجعل صلى الله عليه وسلم النقباء على عدة الأسباط ، وروى أنه نقب على النقباء أسعد بن زرارة ، فتوفى بعدُ والمسجدُ النبوى يُبْنَى ، قيل : فاجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسألوه أن يجعل منهم شَخْصاً بدله نقيباً عليهم ، فقال لهم: أنتم أخوالى ، وأنا فيكم ، وأنا نقيبكم ، وكره صلى الله عليه وسلم أن يخص بها بعضَهم دون بعض ، فكان ذلك من فضل بنى النجار الذى يَعُدُّون .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للنقباء : أنتم كُفَلَاء على قومكم كفالَةَ الحْوَارِيِّينَ لعيسى بن مريم ، قالوا : نعم .

وحدث عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن

عبادة بن نَضْلة أخو بنى سالم بن عوف : يامعشر الخزرج ، هل تدرون علىم تبايعون هـذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حَرْب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نَهِكَتْ[1] أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خِزْىُ الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وَافُونَ له بما دعوتموه إليه على ما ذكرتُ لكم فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا: فإنا نأخذه على ماقلت ، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وَفَيْنَا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ابْسُطْ يدك ، فبسط يده فبابعوه .

قال عاصم : ما قال ذلك العباسُ إلا ليشدَّ العَقْدَ فى أعناقهم ، وقال غيره: أراد التأخير تلك الليلة رجاء أن يحضر عبدُ الله بن أبىٍّ بن سلولَ فيكون أقوى للأمر .

أول من بايع

قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أولَ مَنْ ضرب على يده ، و بنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان، وفى حديث كعب المتقدم أنه البراء ابن معرور ، ثم بايع القوم .

وفى المستدرك عن ابن عباس : كان البَرَاء بن معرور أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة ، وعند أحمد عن جابر وعند الحاكم فى الإكليل عن كعب بن مالك : قال عبدالله بن رَوَاحة : يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ماشئت ، فقال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : الجنة ، قالوا : ربح البيع ، لا نُقِيل ولا نَسْتَقِيل، فنزل « إن اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهم وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ »[2] الآية .

وفى حديث كعب المتقدم بعد ذكر صُرَاخ الشيطان أن العباس بن نَضْلَة قال للنبى صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلَنَّ على أهل مِنًى غدا

(١) نهكت أموالكم مصيبة : استأصلتها ، وأصله قولكم « نهكت الناقة حلبا » إذا لم تبق فى ضرعها لبنا

(٢) من سورة التوبة من الآية ١١١

بأسيافنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : لم أُومَرْ بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها ، فلما أصبحنا غدت علينا جِلَّةُ قريشٍ حتى جاؤنا فى منازلنا فقالوا : يامعشر الخزرج ، إنه بلَغَنَا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله مامن حى من العرب أبغض إلينا أن تَشَبَّ الحربُ بيننا وبينهم منكم ، فانبعث مَنْ هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء ، وما علمناه ، ولقد صدقوا لم يعلموه .

وفى حديث غير كعب أنهم أتوا عبدَ الله بن أبىّ ، فقال لهم : إن هذا الأمر جَسِيم ، ما كان قومى ليَتَفَوَّتُوا علىّ بمثل هذا ، وما علمته كان ، وروى أن مشركى الأنصار الذين حجوا فى ذلك العام كانوا خمسمائة نفر ، وأن أهل العقبة كانوا سبعين نفرا .

عدة أهل البيعة

وفى لفظ عن ابن إسحاق: من الأوس أحد عشر رجلا : ومن القبائل أربعة نفر حلفاء الخزرج ، وكان من بنى الحارث بن الخزرج اثنان وستون رجلا ، فكأنه أدخل فى الخزرج حلفاءهم الأربعة ، وإلا فتزيد العدة على ثلاثة وسبعين أربعة .

وروى رزين أن أهل العقبة كانوا سبعين رجلا وامرأتان ؛ فإنه روى حديث العقبة هذه عن عُبَادة بن الصامت بنحو حديث كعب المتقدم ، فقال : قال عبادة بن الصامت : فلما كان العام المقبل أتينا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ونحن سبعون رجلا وامرأتان من قومنا ، فواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مسجد شِعْبِ العقبة ، عن يسارك وأنت ذاهب إلى مِنًى ، فلما توافينا عنده جاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس ، وقال : يا معشر الخزرج ، وهذا الاسم يغلب على الأوس والخزرج جميعاً إذ ذاك ، إن محمداً منا حيثُ علمتم ،

وقد منعناه كما بلغكم ، فإن كنتم تعلمون أنكم تقدرون على منعه ، و إلا فَذَرُوه فهو مع قومه فى عز ومنعـــة، فقام البَرَاء بن مَعْرور فقال : قد سمعنا ما قلت ، و إنا ما ضربنا إليه أكباد الإبل إلا وقد علمنا أنه نبى ، فبايعنا يا رسولَ الله ، واشترط لنفسك ولربك ماشئت ، فحمد الله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى الله ، ورغَّبَ فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نســاءكم ، فأخذ البَرَاء بيده ، وقال : نعم والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أُزُرَنا، ونحن أهل الحلْقَة والُحصُون والحروب، فقام أبو الهيثم بن التيهان فقال: يارسول الله إن بيننا و بين الرجال حبالا ، ونحن قاطعوها ، فهل عَسَيْتَ إن نصَرَكَ الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل الدم الدم والهدم الهدم ، المحيا محياكم ، والمماتُ مماتكم ، وأحارب مَنْ حاربكم ، وأسالم من سالمكم، أخرِجُوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيباً يكونوا نقباء على الناس ، فأخْرَجُوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فبينما هم فى ذلك إذْ صَرَخ الشيطانُ يقول : يا أهل الجباجب ، وهى المنازل، هل لـكم فى الصَّبَأة[1] قد اجتمعوا على حربكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أزَبُّ العَقَبة لأفْرُغَنَّ لك أىْ عدوَّ الله ، ارجعــوا إلى رحالــكم ، نَصَرَكم الله ، فقال له العباس بن عبادة بن نضلة : والذى بعثك بالحق نبياً لئن شئتَ لنميلَنّ بأسيافنا غداً على منى ، فقال له : لم أومَرْ بذلك ، ثم ذكر قصة كلام قريش فى ذلك وحَلِفَ مشركى قومهم لهم عن ذلك ، قال : ثم إنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتخرج معنا ؟ قال: ما أمرت به .

قال رزين : وقد قيل إنه وقع بين قريش والأنصار كلام فى سبب خروج النبى صلى الله عليه وسلم معهم ، ثم ألقى الرعب فى قلوب قريش فقالوا : ليس يخرج معكم إلا فى بعض أشهر السنة ، ولا يتحـــدث العرب بأنكم غلبتمونا ، فقالت الأنصار : الأمر فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن سامعون لأمره ، فأنزل

(١) الصبأة : جمع صابىء ، وكان مشركو مكة يسمون الرسول وأصحابه بذلك لأنهم خرجوا عن دينهم

الله على رسوله « وإن يريدوا أن يَخْدَعُوك فإن حَسْبَكَ الله(١) » أى : إن كان كفار قريش يريدون المكر بك فسيمكر الله بهم ، فانصرفت الأنصار إلى المدينة .

وقيـل : إن قريشاً بدا لهم فخرجوا فى آثارهم ، فأدركوا منهم رجلين كانا تخلفا فى أمر، فردوها إلى مكة : المنذر ، وعباس بن عبادة، فأدركهما جُبَير بن مُطْعِم والحارث بن أمية ، فخلَّصاهما ولحقا أصحابهما .

قلت: والذى ذكره غيرُه أن الرجلين هما المنذر وسعد بن عبادة ، فأما المنذر فأعجز القومَ ونجا ، وأما سعد فأخذوه فربَطُوا يديه إلى عُنقه بنِسْعِ رَحْـله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجُمَّته ، وكان ذا شعر كثير ، ثم خلصه منهم جُبَير بن مُطْعم والحارث بن أمية ؛ لأنه كان يجير لهما تجارهما ويمنعهم أن يظلموا ببلده .

إسلام عمرو بن الجموح

وذكر رزين عقب ما تقدم عنه إسلام عمرو بن الجَمُوح كما ذكره أهلُ السير عقب ذلك أيضاً ، وكان عمرو شيخاً كبيراً من سادات بنى سلِمة ، وشهد معاذ ابنُه العقبةَ ، وكان لعمرو فى داره صنم من خَشَب يعبده يُدْعَى مَنَاة ، فكان معاذ ابنه ومعاذ بن جبل وفتْيَان بنى سلمة يدلجون بالليل على صنم عمرو فيطرحونه فى بعض حُفَر بنى سلمة وفيها عذر الناس منكَّساً على رأسه ، فإذا أصبح قال عمرو: مَنْ عدا على إلهنا هذه الليلة ؟ ثم يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غَسَله وطَيَّبه ثم يقول : والله لو أعلم مَنْ فعـل هذا بك لأخزينه ، فتكرر ذلك ، فطهره يوماً وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال : إنى والله لا أعلم مَنْ يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك ، فلما نام أخذوا السيف وقرَنُوا كلباً ميتاً بالصنم بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر ، فلم يجده عمرو فى

---

(١) من سورة الأنفال من الآية ٦٢

مكانه ، فخرج حتى وجده كذلك ، فلما أبصر ما به وكلمه مَنْ أسلم من قومه فأسلم وحَسُن إسلامه ، وقال فى ذلك :

والله لو كنتَ إلاهاً لم تكن أنت وكَلْبٌ وَسطْ بئر فى قَرَنْ
أفٍّ لملقاك إلاهاً مستدن الآن فَتَّشْنَاك عن سوء الغَبَنْ
الحمدُ لله العلى ذى المنَنْ الواهب الرزاق دَيّان الدين
هو الذى أنقذنى من قبل أنْ أكونَ فى ظلمة قبر مُرْتَهَن

الفصل التاسع

فى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إليها

رؤيا النبى دار هجرته

روينا فى الصحيحين حديث « رأيت أنى أهاجِرُ من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلى[1] إلى اليمامة أو هجر، فإذا هى المدينة يثرب » ووقع للبيهقى من حديث صهيب « أُريتُ دار هجرتكم سبخة بين ظهرانى حرَّتين، فإما إن يكون هجر أو يثرب » ولم يذكر اليمامة ، وللترمذى من حديث جرير « أوحى إلى : أىّ هؤلاء الثلاثة نزلت فهى دار هجرتك ، المدينة أو البحرين أو قنسرين » واستغرب به ، وفيه نظر ؛ لمخالفته لما فى الصحيح من ذكر اليمامة ، وأما هَجَر فيصح التعبير بها عنها لكونها من بلاد البحرين ، وأما قنسرين فهى من أرض الشام ، ويحتمل أن يكون أرِىَ ما فى الصحيح وأوحى إليه بالتخيير قبل أو بعد ، فاختار المدينة

وقال ابن التين : أرِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم أولا دارَ هجرته بصفة تجمع المدينة وغيرها ، ثم أرى الصفة المختصة بالمدينة فتعينت .

إذن النبى لأصحابه فى الهجرة

ثم أذن النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى الهجرة إلى المدينة، وأقام بمكة ينتظر أن يؤذن له فى الخروج، فتوجه بين العقبتين جماعة منهم ابنُ أمِّ مكتوم، ويقال: إن أول مَنْ هاجر إلى

---

(١) الوهل ، بفتح فسكون : الظن والوهم ، وانظر ص ١٠

المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى زوج أم سلمة ، وذلك أنه أوذِىَ لما رجع من الحبشة ، فعزم على الرجوع إليها ، ثم بلغه قصة الاثنى عشر من الأنصار فتوجَّه إلى المدينة ، فقدمها بُكْرَةً ، وقدم بعده عامر بن ربيعة عشية ، ثم توجه مصعب بن عمير ليفقِّه مَنْ أسلم من الأنصار كما تقدم ، ثم توالى خروجُهم بعد العقَبة الأخيرة ، فخرجوا أرسالا : منهم عمر بن الخطاب ، وأخوه زيد ، وطلحة بن عبيد الله ، وصُهَيب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة ، وعبيدة ابن الحارث ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، وعثمان بن عفان ، وغيرهم ، حتى لم يبق معه صلى الله عليه وسلم بمكة إلا على بن أبى طالب والصديق رضى الله عنهما ، كذا قاله ابن إسحاق وغيره ، والظاهر أن المراد لم يبق من أعيانهم ؛ لما روى من أن مَنْ كان بمكة ممن يُطيق الخروج من المسلمين خرجوا بعد خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة ، فطلبهم أبو سفيان وغيره من المشركين ، فردُّوهم وسَجَنوهم ، فافتتن منهم ناس ؛ ففى هذا دلالة على بقاء جماعة غير الصديق وعلى رضى الله عنهما مع النبى صلى الله عليه وسلم حينئذ ، فلما رأت قريش ذلك علموا أن أصحابه قد أصابوا مَنَعة ، ونزلوا دارا ، فحذروا[1] خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فاجتمعوا بدار النَّدْوَة ليأتمروا فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أبو جهل ، وزعم ابن دريد فى الوشاح أنهم كانوا خمسة عشر رجلا ، وفى المولد لابن دحية كانوا مائة رجل ، وجاءهم إبليس فى صورة شيخ نَجْدى فقال : أدخلونى معكم ، فلن تعدموا منى رأيا ، فأدخلوه ، فقال بعضُهم : نخرجه من بين أظهرنا ، وقال آخرون : بل نحبسه ولا يَطْعَمُ حتى يموت ، فقال أبو جهل : قد رأيتُ أصْلَحَ من رأيكم : أن يعطى خمسُ رجالٍ من خمس قبائل سيفا سيفا فيضربونه ضربَةَ رجلٍ ، فيتفرق دمه فى هذه البطون ، فلا يقدر لكم بنو هاشم على شىء ، فقال النجدى : لا أرى غير هذا ، فأخبر جبريلُ النبىَّ صلى الله عليه

(١) حذروا خروجه : أى ظنوه وقدروه

وسلم ، فأنزل الله على نبيه « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين[1] » فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلى : نَمْ على فراشي وتَسَجَّ ببُرْدِي فلن يخلص إليك منهم أمر ، فترد هذه الودائعَ إلى أهلها ؛ لأن كفار قريش كانت تودع عنده لأمانته ، وكان اسمه عندهم الأمين الصادق ، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق فأعلمه ، وقال : قد أُذِنَ لى ، فقال : الصحبة يارسول الله ، وكان إنما حَبَس نفسه عليه لما ثبت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر لأصحابه رؤياه المتقدمةَ هاجر من هاجر منهم قبل المدينة ورجع عامة مَنْ كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : على رِسْلِكَ فإنى أرجو أن يؤذن لى ، فقال له : وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى ؟ قال: نعم ، فحبَس نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه ، وكان عمرُ قد تقدم إلى المدينة ، وعلَف أبو بكر راحلتين كانتا عنده الخَبَطَ[2] أربعةَ أشهر ، فعرض على النبي صلى الله عليه وسلم إحداهما ، فقال : بالثمن ، وفى رواية ابن إسحاق قال : لا أركب بعيرا ليس هو لى ، فقال : فهو لك ، قال : لا ولكن بالثمن الذى ابْتَعتها به ، قال : أخذتهاَ بكذا وكذا ، قال : قد أخذتها بذلك ، قال : هى لك ، والحكمة فيه — كما أفاده بعضهم — أنه صلى الله عليه وسلم أحَبَّ أن لا تكون هجرته إلا من مال نفسه ، وذكر ابن إسحاق أن الناقة التى أخذها هى الجَدْعَاء ، وأنها كانت من إبل بنى الحريش ، وكذا فى روايةٍ أخرجها ابنُ حبان ، وأنها الجَدْعاء ، وأفاد الواقدى أن الثمن كان ثمان مائة درهم ، وأن المأخوذة هى القصوى ، وأنها كانت من نَعَم بنى قُشَير ، وأنها عاشت حتى ماتت فى خلافة الصديق ، وكانت مُرْسَلة ترعى فى النقيع ، وفى طبقات ابن سعد أن ثمنها ثمان مائة درهم ، اشتراها أبو بكر من نَعَم بنى قشير ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم منه القصوى بثمنها ، وسيأتى

---

(١) من سورة الأنفال الآية ٣٠

(٢) الخبط — بفتح الخاء والباء جميعا — ورق الشجر الذى يتساقط إذا ضرب بالعصا

من رواية يحيى الحسينى أيضا أنها القصوى ، وجاء عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم أُذِنَ له فى الهجرة إلى المدينة بقوله تعالى « وقل رب أدْخِلْنِي مُدْخَلَ صدقٍ ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا(١) » أخرجه الترمذى وصححه هو والحاكم ، فذهب أبو بكر إلى عبد الله بن أريقط قاله ابن عقبة. وفى تهذيب ابن هشام «عبد الله بن أرقد» وفى رواية الأموى عن ابن إسحاق «ابن أريقد» وفى الغنية عن مالك اسمه «رقيط من بنى الديل من كنانة» فاستأجره ، وكان هاديا خِرِّيتا(٢) : أى ماهرا بالهداية ، وكان على دين الكفار. قال النووى : لا نعلم له إسلاما ، فأمره أن يأتيهما بعد ثلاث فى غار ثَوْرٍ ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله ، فجاءه على رضى الله عنه ، واجتمعت قريش على باب الدار ليقتلوه بزعمهم ، فقال لهم أبو جهل : لا تقتلوه حتى يجتمعوا ، يعنى الخمسة من القبائل الخمس ، وجعل يقول لهم : هذا محمد كان يزعم لكم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم ، ويكون لكم فى الآخرة جنات تأكلون منها ، وإن لم تتابعوه يكون له فيكم ذبح فى الدنيا ، ويوم القيامة نار تحرقون فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم والله كذا أقول ، وكذا يكون ، وأنت أحدهم ، ثم أخذ حَفْنة من تراب فرماها فى وجوههم ، فأخذ على أبصارهم ولم على أصمختهم فجعل على رأس كل رجل منهم ترابا وهو يقرأ أول سورة يس يستتر بها منهم إلى « فهم لا يبصرون » وتلا « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا(٣) » ثم أتى منزل أبى بكر ، فخرجا من خُوخَةٍ كانت له ، وأتيا غار ثَوْر ، وأقام المشركون ساعة ، فجعلوا يتحدثون ، فجاءهم رجل كان إذ ذاك بعيدا منهم فقال لهم : وما تنتظرون ؟ فقالوا : أن نصبح فنقتل محمدا ، قال : قبحكم الله وخيبكم ، أو ليس قد خرج عليكم وجعل على رءوسكم التراب ، قال

---

(١) من سورة الإسراء الآية ٨٠ (٢) الخريت ـ بوزن سكين ـ الماهر الحاذق بالطرق
(٣) من سورة الإسراء الآية ٤٥

أبوجهل : أو ليس هو ذاك مُسَجًّى ببرده ؟ الآن كلما ، فلما أصبحوا قام على من الفراش ، فقال أبوجهل : صَدَقنا ذلك المخبر ، فاجتمعت قريش ، وأخذت الطُّرق ، وجعلت الجَعَائل[1] لمن جاء به ، فانصرفت أعينهم ولم يجدوا شيئا، فجاء الديلى بعد ثلاث بالراحلتين ، ولا ينافى هذا ما وقع فى رواية هشام بن عُرْوة عند ابن حبان حيث قال : فركبا حتى أتيَاَ الغار فتواريا ؛ لاحتمال أنهما ركبا غير هاتين الراحلتين، أو هما ثم ذهب بهما عامر بن فهيرة إلى الديلى .

وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب فى الحديث المتقدم أن عليـا رقَد على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يورى عنه ، وباتت قريش تحلف وتأتمر ، أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه ، حتى أصبحوا فإذا بعلى ، فسألوه فقال : لا علم لى ، فعلموا أنه فرّ منهم .

وروى أحمد بإسناد حَسَن عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا » الآية فذكر تشاور قريش ثم قال : فبات علىّ عَلَى فراشه صلى الله عليه وسلم ، وخرج هو حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، يعنى ينتظرونه حتى يقوم فيفعلون به ما اتفقوا عليه ، فلما أصبحوا ورأوا عليا رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدرى ، فاقْتَصُّوا أثره[2] ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا الجبـل ، فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نَسْجَ العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ها هنـا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمـكث فيه ثلاث ليال ، وذكر نحوه موسى بن عقبـة عن الزهرى ، وكله مقتضٍ لأن الخروج إلى الغار كان فى بقية تلك الليلة ، وكان ذلك بعد العقبة بشهرين وليال ، وقال الحاكم : بثلاثة أشهر أو قريبا منها ، ويرجّحُ الأول ما جزم به ابن إسحاق من أنه خَرَج أول يوم من ربيع الأول؛ فيكون بعد العقبة بشهرين وبضعة عشر يوما ، وكذا جزم به الأموى ، فقال : خرج لهلال

---

(١) الجعائل : جمع جعالة ، مثل سحابة وسحائب ، وهى الأجرة

(٢) اقتصوا أثره : تتبعوه

ربيع الأول ، وقدم المدينة لاثنى عشر خَلَتْ منه ، وعلى هـذا كان خروجه يوم الخميس ، وهو الذى ذكره محمد بن موسى ، لـكن قال الحاكم : تواترت الأخبار بأن الخروج كان يوم الاثنين ، وجمع الحافظ ابن حجر بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس : أى فى أثناء ليلته لما قدمناه ، وخروجه من الغار — يعنى غار ثُور — ليلة الاثنين ؛ لأنه أقام فيه ثلاث ليال ، ومَنْ روى ليلتين لعله لم يحسب أول ليلة ، وأما حديث الحاكم « لبثت مع صاحبى » يعنى أبا بكر « فى الغار بضعة عشر يوما ، ما لنا طعام إلا ثمر البرير » أى الأراك ، فقال الحاكم : معناه مكثنا مختفين من الكفار فى الغار وفى الطريق بضعة عشر يوما ، وقال الحافظ ابن حجر : الذى يظهر أنها قصة أخرى ، لما فى الصحيح من أن عامر بن فهيرة كان يروح عليهما فى الغار باللبن ، وكذا قصة نزولهما بخَيْمَة أم معْبَد ، وبغير ذلك ، وكان مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة بضع عشر سنة . وقال عروة : عشرا ، وقال ابن عباس : خمس عشر سنة ، وفى رواية عنه : ثلاث عشرة ، ولم يعلم بخروجه إلا على وآل أبى بكر ، وكان من قصة نسج العنكبوت وغيره من أمر الغار ما كان ، وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، ومعهما عامر بن فهيرة يخدمهما يردفه أبو بكر ويعقبه ، والدليل ، فأخذ بهم فى أسفل مكة حتى أتى بهما طريق السواحل أسفل من عُسْفَان ، ثم عارض الطريق على أمَجَ[1] ، ثم نزل من قديد خيام أم معبد الخزاعية من بنى كعب ، وبقية المنازل إلى قباء ذكرها ابن زبالة ، وقد أوضحناه فى الأصل ، واتفق فى مسيرهم قصة سُرَاقة عارضهم يوم الثلاثاء بقديد على ما ذكره ابن سعد وغيرها من القصص المشتملة على الآيات البينات .

قال رزين : وأقامت قريش أياما لا يدرون أين أخذ محمد صلى الله عليه وسلم ، فسمعوا صوتا على أبى قبيس وهو يقول :

فإن يُسْلِم السَّعْدان يصبح محمد من الأمن لا يخشى خلاف المخالف

---

(١) أمج : بفتح الهمزة والميم جميعا — مكان بعينه بين مكة والمدينة

فقالت قريش : لو علمنا مَنِ السعدان ، فقال :

أيا سَعْدُ سعدَ الأوس كن أنت مانعا ويا سَعْدُ سعدَ الخزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعى الهدى وتَبَوَّآ من الله فى الفردوس زلفة عارف

فعلموا إذ ذاك أنه أخذ طريق المدينة .

قلت : والأقرب ما تقدم من إنشاد هذه الأبيات قبل ذلك ؛ لأن السعدَيْن كانا قد أسلما قبل ، ثم سمعوا قائلا بأسفل مكة لا يرى يقول :

جزى الله ربُّ الناس خَيْرَ جزائه رفيقَيْنِ قالا : خَيْمَتَىْ أم معبد

قلت : وروى هذا مع الأبيات الآتية مما سمع حينئذ ، وقيل : سمعوا هاتفا على أبى قُبَيْس يقول:

قصة أم معبد

جزى الله خيراً والجزاء بكفه رفيقَيْنِ قالا خيمتَىْ أمِّ مَعْبَدِ

هما رَحَلا بالحقِّ وانتزلا به فقد فاز من أمسى رفيق محمد

فما حَمَلَتْ من ناقة فوقَ رَحْلِها أبرَّ وأوفى ذمةً من محمد

وأكْسَى لبُرْدِ الخال قبل ابتذاله وأعطى لرأس السانح المتجدد

لِيَهْن بنى كَعْبٍ مكانُ فَتَاتِهِمْ ومقعدها للمؤمنين بمرصد

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مَرَّ بأم معبد ، فاستسقاها لبناً ، فقالت : ما عندنا من لبن ، ونحن فى سنة[1] ، فنظر إلى شاة قد تخلت عَجْفاء من الهُزَال ، فقال : قَرِّبِى لى هذه الشاة ، فقرَّبَتْهَا ، فمسح ضَرْعَها بيده المباركة وسمَّى ودعا ، ثم قال : هات قَدَحاً ، فجاءت بقدح،فحلب فيه حتى امتلأ ، فأمر أبا بكر أن يشرب ، فقال : بل أنت فاشْرَبْ يا رسول الله ، قال : ساقى القوم آخرهم شربا ، فشرب أبو بكر ، ثم حلب فشرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حلب فشربت أم معبد ، ثم حلب، فقال : أرْفَعِى هذا لأبى معبد إذا جاءك ، ثم ركبوا وساروا ، فلما أتى أبو معبد أخبرته بما رأت ، وسَقَته اللبن ، فعلم

(١) يطلق العرب لفظ «السنة» على الجدب

أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فركب راحلته وخرج فى أثره يطلب أن يسلم ، فقيل : إنه قال فى طريقه :

جزى الله ربُّ الناس خيرَ جزائه رفيقَيْنِ قالا خيمتَىْ أم معبد
هما نزلاَهَا بالهدى فاهْتَدَتْ به فقد فاز مَنْ أمسى رَفِيقَ محمد
فيا لَقُصَىٍّ ما زَوَى الله عنكمُ به من فعال لا تجارى وسُودَدِ
لِيَهْنِ بنى كعب مكانُ فتاتهم ومَقْعَدُهَا للمؤمنين بمرصد
سَلُوا أختكم عن شاتها و إنائها فإنكم إن تسألوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بشاةٍ حائل فتحلَّبت له بصَرِيح ضرة الشاة مزبد
فغادَرَهَا رَهْناً لديها الحالِبٍ يرددها فى مصدر ثم مورد

وقال الشرقى : بلغنى أن أبا معبد أدركهما ببطن ريم ، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف .

قلت : وذكر غير رزين هذه الأبيات كلها فيما سُمِعَ بأسفل مكة من القائل الذى لا يدرون ؛ فلما سمع حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك جعل يجاوب الهاتف و يقول :

لقد خاب قومٌ زال عنهم نبيهُمْ وقُدِّس مَنْ يسرِى إليهم و يغتدى
ترحَّلَ عن قوم فضلت عقولهم وحَلَّ على قوم بنورٍ مُجَدَّد
هداهم به بعد الضلالة ربُّهم وأرشَدَهم؛ مَنْ يَتْبَعِ الحق يَرْشُدِ
وهل يستوى ضُلاَّلُ قوم تسكعوا عَمًى وهُدَاةٌ يهتدون بمهتد (١)
لقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هُدًى حَلَّتْ عليهم بأسْعُدِ
نبى يرى مالاَ يرى الناسُ حولَه ويتلو كتابَ الله فى كل مسجد
و إن قال فى يوم مقالة غائب فتصديقُهاَ فى اليوم أوفى ضُحَى غَدِ
لِيَهْنِ أبا بكر سعادَةُ جَدِّهِ بصُحْبَتِه ؛ من يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ

---

(١) تسكعوا : تحيروا ، قاله ابن الأثير .

خروج أبى بريدة لاستقبال الرسول صلى الله عليه وسلم

قال أبو سليمان الخطابى : لما شارف النبى صلى الله عليه وسلم المدينةَ لقيه بريدة الأسلمى فى سبعين من قومه بنى أسلم ، فقال : مَنْ أنت ؟ قال : بريدة فقال لأبى بكر : برد أمرنا وصلح ، ثم قال : ممن ؟ قال : من أسلم ، قال : سلمنا ، ثم قال : ممن ؟ قال : من بنى سَهْم ، قال : خرج سهمنا[1] .

وقد روى ابنُ الجوزى فى شرف المصطفى من طريق البيهقى موصولا إلى بريدة قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يتطير ، وكان يتفاءل ، وكانت قريش جعلت مائة من الإبل لمن يأخذ نبىَّ الله صلى الله عليه وسلم فيرده إليهم حين توجه إلى المدينة ، فركب بريدة فى سبعين راكبا من أهل بيته من بنى سَهْم ، فلقى نبىَّ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أنت ؟ قال : أنا بريدة ، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقال : يا أبا بكر ، بَرَدَ أمرنا وصلح ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ممن أنت ؟ قال : من أسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : سلمنا ، ثم قال : ممن ؟ قال : من بنى سَهْم ، قال : خرج سهمك[1] ، فقال بريدة للنبى صلى الله عليه وسلم : من أنت ؟ قال : أنا محمد بن عبد الله رسولُ الله ، فقال بريدة : أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فأسلم بريدة وأسلم مَنْ كان معه جميعا ، فلما أصبح قال بريدة[2] للنبى صلى الله عليه وسلم : لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء ، فحلَّ عمامته ثم شدَّها فى رُمْح ثم مَشَى بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله تنزل على مَنْ ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن ناقتى هذه مأمورة ، قال بريدة : الحمد لله الذى أسلمت بنو سَهْم طائعين .

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسا الزبيرُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض .

---

(١) خرج سهمك : كناية عن ظفرت وفلجت (٢) وقع فى المطبوعات «أبو بريدة» مرارا ، و«بريدة» مرارا أخرى ، والصواب «بريدة» وهو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج ، الأسلمى ، وله ترجمة فى الإصابة (١/١٥٠ رقم ٦٣٢)

وروى أن طلحة كان قدم من الشام ومعه ثياب أهداها لأبى بكر من ثياب الشام ، فلما لقيه أعطاه ، فلبس منها النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر .

قال الحافظ ابن حجر : فيحتمل أن كلا من طلحة والزبير أهدى لهما ، والذى فى السير هو طلحة ؛ فالأولى الجمع ، وعند ابن أبى شيبة ما يؤيده ، وإلا فما فى الصحيح أصح .

الفصل العاشر

فى دخوله صلى الله عليه وسلم أرض المدينة ، وتأسيس مسجد قُباء

كان المسلمون بالمدينة قد سمعوا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحَرَّة أولَ النهار فينتظرونه ، فما يردهم إلا حَرُّ الشمس ، فبعد أن رجعوا يوما أوفىٰ رجلٌ من اليهود على أُطُم من آطامهم لأمرٍ ينظر إليه ، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين ، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته : يا بنى قَيْـلَة ـ يعنى الأنصار ـ وفى رواية : يا معشر العرب ، هذا جَدُّكم ، يعنى حظكم ـ وفى رواية : صاحبكم الذى تنتظرونه ـ فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقَّوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف بقُبَاء على كلثوم بن الهدم ، قيل : وكان يومئذ مشركا ، وبه جزم ابن زبالة ، وقال رزين : نزل فى ظل نخلة ، ثم انتقل منها إلى دار كلثوم أخى بنى عمرو بن عوف ، وفى « أخبار المدينة » ليحيى الحسينى جَدِّ أمراء المدينة اليوم فى النسخة التى رواها ابنُه طاهر بن يحيى عنه من طريق محمد بن معاذ ، قال : حدثنا مجمّع بن يعقوب عن أبيه وعن سعيد بن عبد الرحمن ابن رقيش عن عبد الرحمن بن يزيد بن حارثة قالا : صلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بظهر حَرَّتنا ، ثم ركب فأناخ إلى عِذْق عند بئر غرس قبل أن تبزغ الشمس (١)

---

(١) تبزغ الشمس : تظهر

وما يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبى بكر ، عليهما ثياب متشابهة ، فجعل الناسُ يقفون عليهم حتى بزغت الشمس من ناحية أطمِهم الذى يقال له « شُنَيْف » فأمهل أبو بكر ساعة حتى خيل إليه أنه يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحرّ الشمس ، فقام فستَّرَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بردائه ، فعرف القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا يأتون فيسلمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت لمجمع بن يعقوب : إن الناس يَرَوْنَ أنه جاء بعد ما ارتفع النهار وأحرقتهم الشمس ، قال مجمع : هكذا أخبرنى أبى وسعيد ابن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن يزيد قال : مابزغت الشمس إلا وهو جالس فى منزله صلى الله عليه وسلم

قلت : ولم أرَ هذا الخبر فى النسخةالتى رواها ولد ابن يحيى عن جده ، وقوله « عند بئر غرس » الظاهر أنه تصحيف ، ولعله « بئر عذق » لبعد بئر غرس من منزله صلى الله عليه وسلم بقُبَاء ، بخلاف بئر عذق ، و إلا فهو قادح فيما يعرفه الناس اليوم من أن بئر غرس هى المعروفة بمحلها الآتى بيانه

وفى كتاب يحيى أيضا عن محمد بن إسماعيل بن مجمّع قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على كُلْثوم بن الهدم هووأبو بكر وعامر بن فُهَيرة قال : يانجيح ، لمولًى له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفت إلى أبى بكر : أنجحت ، أو أنجحنا ، فقال : أطعمنا رطبا ، قال : فأتوا بقنو من أم جرذان فيه رطب منصف وفيه زَهْو(١) ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ قال : عذق أم جرذان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك فى أم جرذان ، وقد أخرجه أبو سعيد فى شرف المصطفى من طريق الحاكم ، وقال قوم بمنزله صلى الله عليه وسلم على سعد ابن خيثمة . وقد رواه يحيى أيضا ، قال رزين : والأول أصح اه .

---

(١) المنصف : الذى صار نصفه رطبا ، والزهو ـ بفتح فسكون ـ الذى قد احمر أو اصفر من البلح

وقال الحاكم : إنه الأرجح ، قال : وقد قاله ابن شهاب وهو أعرف بذلك من غيره ، وقال بعضهم : كان سعد عَزَبا ، فكان صلى الله عليه وسلم يجلس مع أصحابه فى بيته ، فلذلك قيل : إنه نزل عنده ، ويشهد له ما نقله ابنُ الجوزى عن ابن حبيب الهاشمى قال : نزل النبى صلى الله عليه وسلم على كلثوم ، وكان يتحدث فى منزل سعد بن خيثمة ، ويسمى «منزل العزاب» وفى الصحيح : فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة ، فعدل بهم[1] ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وفى رواية له : علو المدينة وقُباء معدودة من العالية ، وكان حكمته التفاؤل له ولدينه بالعلو ، وذلك يوم الاثنين نهارا عند الأكثر ، قال الحافظ ابن حجر : وهو المعتمد ، وشذ من قال يوم الجمعة . قلت : لعل مراد هذا القائل القدوم الآتى للمدينة نفسها بعد الخروج من قُبَاء ، وقيل : ليلة الاثنين ؛ لقوله فى فى مسلم « ليلا » قال الحافظ ابن حجر : ويجمع بأن القدوم كان آخر الليل ، فدخل نهارا . قلت : وفيه نظر ، وكان ذلك أول ربيع الأول على ماروواه موسى ابن عقبة عن ابن شهاب ، وقيل : لثمان خَلَوْنَ منه . وفى الإكليل عن الحاكم : تواترت الأخبار بذلك ، وفى رواية جرير بن حازم عن ابن إسحاق : قدمها لليلتين خَلَتَا من شهر ربيع الأول ، ونحوه عن أبى معشر ، ولكن قال : ليلة الاثنين ، ومثله عن ابن البرقى ، وثبت كذلك فى أواخر صحيح مسلم ، وفى رواية إبراهيم ابن سعد عن ابن إسحاق : لاثنتى عشرة ليلة خلت منه حين اشتد الضحى ، وهذا ما جزم به الكلبى فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر . وحكاه ابن الجوزى فى شرف المصطفى عن الزهرى فقال : قال الزهرى : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، وبه جزم النووى فى السير من الروضة ، وكذا ابن النجار ، ونقل المراغى هذا عن النووى وابن النجار فقط ، وتعجب من عدم موافقته لشىء من الأقوال ، وكأنه فهم أن مرادهما

(١) عدل بهم : مال بهم

اختلاف العلماء فى تاريخ مقدمة المدينة

المدينة نفسها بعد الخروج من قُبَاء ، وليس ذلك مرادهما؛ فإن ابن النجار عبر بقوله : فعدل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين لاثنى عشر من شهر ربيع الأول ؛ وأما النووى و إن عبر بالمدينة فليس مراده سوى ذلك ، والعلماء كلهم يطلقون على ذلك قدوم المدينة .

وفى شرف المصطفى لابن الجوزى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، واسْتُنْبِىءَ يوم الاثنين ، ورفع الحَجَر يوم الاثنين ، وخرج مهاجرا من مكة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وقبض يوم الاثنين . وفى روضة الأقشهرى : قال ابن الكلبى : خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول ، وقدم المدينة يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت منه . قال أبو عمر : وهو قول ابن إسحاق إلا فى تسمية اليوم . وعند أبى سعيد فى شرف المصطفى من طريق أبى بكر بن حزم : قدم لثلاث عشرة من ربيع الأول ، وهذا الجمع بينه و بين الذى قبله بالحمل على الاختلاف فى رؤية الهلال . وعنده من حديث عمر : ثم نزل على بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ربيع الأول ، ولعل الرواية خَلَتا ليوافق ما تقدم . ونقل ابن زبالة عن ابن شهاب أن ذلك كان فى النصف من ربيع الأول ، وقيل : كان قدومه فى سابعه ، وجزم ابنُ حزم بأنه خرج من مكة لثلاث ليال بقين من صفر ، وهذا يوافق قول هشام بن الكلبى إنه خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول ، فإن كان محفوظا فلعل قدومه قُبَاء كان يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ، و إذا ضم ذلك إلى ما سيأتى عن أنس أنه أقام بقُبَاء أربع عشرة ليلة خرج منه أن دخوله المدينة نفسها كان لاثنين وعشرين منه ، لكن الكلبى جزم بأنه دخلها لاثْنَتَىْ عَشْرَةَ خلَتْ منه ؛ فعلى قوله تكون إقامته بقُبَاء أربع ليال فقط ، و به جزم ابنُ حبان ؛ فإنه قال : أقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس ، يعنى وخرج يوم الجمعة ، فلم يعتدّ بيوم الخروج ، وكذا قال موسى بن عقبة : إنه أقام فيهم ثلاث ليال ؛ فكأنه لم يعد

يوم الدخول ولا الخروج . وعن قوم من بنى عمرو بن عوف أنه أقام فيهم اثنين وعشرين يوما ، حكاه ابن زبالة . وفى البخارى من حديث أنس « أقام فيهم أربع عشرة ليلة[١] » وهو المراد فى رواية عائشة بقولها « بضع عشرة ليلة[١] » وقال موسى ابن عقبة عن ابن شهاب : أقام فيهم ثلاثا ، قال : وروى ابن شهاب عن مجمع بن حارثة أنه أقام اثنتين وعشرين ليلة . وقال ابن إسحاق : أقام فيهم خمسا ، و بنو عمرو بن عوف يزعمون أكثر من ذلك . قال الحافظ ابن حجر : أنس ليس من بنى عمرو بن عوف ؛ فإنه من الخزرج ، وقد جزم بأربع عشرة ليلة ، فهو أولى بالقبول ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتأريخ فكتب من حين الهجرة فى ربيع ، رواه الحاكم فى الإكليل ، وهو مُعْضَل ، والمشهور أن ذلك كان فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وأن عمر قال : الهجرة فَرَقَتْ بين الحق والباطل ، فأرخ بها ، وابتدأ من المحرم بعد إشارة على وعثمان رضى الله عنهما بذلك ، وقد ذكرنا ما قيل فى سببه فى الأصل ، وأفاد السهيلى أن الصحابة رضى الله عنهم أخذوا التأريخ بالهجرة من قوله تعالى « لَمَسْجِدٌ أسس على التقوى من أول يوم[٢] »

ابتداء التأريخ من الهجرة

وفى الصحيح أنهم لما قدموا قام أبو بكر للناس: أى يتلقّاهم ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَطَفِقَ مَنْ جاء من الأنصار يحيى أبا بكر ، حتى أصابت الشمسُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتى ظَلَّلَ عليه بردائه ، فعرف الناسُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . وفى رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : وجلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صامتا ، فَطَفِقَ مَنْ جاء من الأنصار ممن لم يكن رآه يحسبه أبا بكر ، حتى إذا أصابته الشمسُ أقبل أبو بكر بشىء أظله به ، وفى رواية ابن إسحاق : حتى رأينا أبا بكر يَنْحَاز له عن الظل ، فعرفناه بذلك

---

(١) فى المطبوعات «أربع عشر ليلة» و«بضع عشر ليلة» تطبيع
(٢) من سورة التوبة من الآية ١٠٨

ونزل أبو بكر رضى الله عنه على حبيب[1] بن إساف أحَدِ بنى الحارث بن الخزرج بالسُّنْح ، ويقال : على خارجة بن زيد منهم .

وأقام علىّ رضى الله عنه بعد مخرجه صلى الله عليه وسلم أياما ، قال بعضهم : ثلاثة ، حتى أدَّى للناس وَدَائعهم التى كانت عند النبى صلى الله عليه وسلم وخَلفه لردِّها ، ثم خرج فلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء ، فنزل على كلثوم بن الهدم ، قال فيما رواه رزين : فبينا أنا بائتٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا برجل يضرب بابَ امرأة ، فخرجَتْ فأعطاها شيئا وانصرف ، ثم فعل ذلك ليلة ثانية أيضا ، فذكرتُ ذلك لها فقالت : هذا سهل بن حُنَيْف يَغْدُو كل ليلة على أصنام قومه فيكسرها ثم يأتى بها لأوقدها حطبا ، وقد علم أن ليس لى من الحطب شىء .

وروى يحيى عن عبد العزيز بن عبيد الله بن عثمان بن حُنَيف قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم [على] بنى عمرو بن عوف ، وقد كان بين الأوس والخزرج ما كان من العداوة ، وكانت الخزرج تخاف أن تدخل دار الأوس ، وكانت الأوس تخاف أن تدخل دار الخزرج ، وكان أسعد بن زُرَارة قتل نبتل بن الحارث يوم بُعَاث ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين أسعد بن زُرَارة ؟ فقال سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد المنذر ورفاعة بن عبد المنذر : كان يارسولَ الله أصابَ منا رجلا يوم بُعَاث ، فلما كانت ليلة الأربعاء جاء أسعد إلى النبى صلى الله عليه وسلم مُتَقَنِّعاً بين المغرب والعشاء ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أبا أمامة ، جئتَ من منزلك إلى هاهنا وبينك وبين القوم ما بينك ؟ قال أبو أمامة : لا والذى بعَثَك بالحق ما كنت لأسمع بك فى مكان إلا جئت ، ثم بات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح ، ثم غدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن خيثمة ورفاعة ومبشر ابنى عبد المنذر : أجِيرُوه ، قالوا : أنتَ يارسول الله فأجِرْهُ فجِوَارُنا فى جوارك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجيره

---

(١) حبيب بن إساف الخزرجى : اختلف فى ضبط اسمه ؛ فذكره الطبرانى وابن عبد البر بالحاء المهملة كما هنا ، وقال ابن حجر : وهو تصحيف ، والصواب أنه «خبيب» بالخاء المعجمة مصغرا

بعضكم ، فقال سعد بن خيثمة : هو في جواري ، ثم ذهب سعد بن خيثمة إلى أسعد ابن زُرَارة في بيته فجاء به مُخَاصَرَةً يدُه في يده ظُهْرًا حتى انتهى به إلى بني عمرو ابن عوف ، ثم قالت الأوس : يا رسول الله كلنا له جار ، فكان أسعد بن زُرَارة بعدُ يغدو ويروح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وكان لكلثوم بن الهدم بقُبَاء مِرْبَد ، والمربد : الموضع الذى يبسط فيه التمر لييبس ، فأخذه منه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فأسَّسَه وبناه مسجداً كما رواه ابن زبالة وغيره .

وفي الصحيح عن عروة : فلبثَ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسّسَ المسجدَ الذى أسس على التقوى[1] ، وفي رواية عبدالرزاق عنه قال : الذين بني فيهم المسجد الذى أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف ، وكذا في حديث ابن عباس عند ابن عايذ ، ولفظه : ومكثَ في بني عمرو بن عوف ثلاثَ ليالٍ ، واتخذ مكانه مسجداً فكان يصلي فيه ، ثم بناه بنو عمرو بن عوف ؛ فهو الذى أسس على التقوى .

وروى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن المسعودي عن الحكم بن عتيبة قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم فنزل بقُبَاء قال عمار بن ياسر : ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم بُدٌّ من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه ، فجمع حجارة فبنى مسجد قُبَاء ، فهو أول مسجد بُني ، يعني لعامة المسلمين أو للنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وهو في التحقيق أول مسجد صلى فيه بأصحابه جماعة ظاهراً ، وإن كان قد تقدم بناء غيره من المساجد ، فقد روى ابنُ أبي شيبة عن جابر قال : لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سنتين نعمر المساجد ونقيم الصلاة ، ولذا قيل : كان المتقدمون في الهجرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنصار بقُبَاء قد بَنَوْا مسجداً يصلون فيه ، يعني هذا

---

(١) الإشارة إلى قوله تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه)

المسجد ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وورد قُبَاء صلى بهم فيه إلى بيت المقدس ، ولم يُحْدِث فيه شيئاً : أى فى مبدأ الأمر ؛ لأن ابن شبة روى ذلك ، ثم روى أنه صلى الله عليه وسلم بنى مسجد قبَاء وقدم القبلة إلى موضعها اليوم ، وقال: جبريل يؤم بى البيت ، وقد اختلف فى المراد بقوله تعـالى « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء ، ولا ينافيه قوله صـلى الله عليه وسلم لمسجد المدينة « هو مسجدكم هذا » إذ كل منهما أسس على التقوى على ما سيأتى إيضاحه .

وفى الـكبير للطبرانى — وفيه ضعيف — عن جابر بن سمرة قال : لمـا سأل أهلُ قُباء النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يبنى لهم مسجداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لِيَقُمْ بعضكم فيركب الناقة » فقام أبو بكر رضى الله عنه فركبها فحركها فلم تنبعث ، فرجع فقعد ، فقام عمر رضى الله عنـه فركبها فلم تنبعث ، فرجع فقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « ليقم بعضكم فيركب الناقة » فقام على رضى الله عنه فلما وضع رجله فى غَرْز الركاب وثَبَتَتْ به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَرْخِ زِمَامَهَا ، وابْنُوا على مدارها فإنها مأمورة » .

وروى الطبرانى ــ وفيه من لم يعرف ــ عن جابر أيضاً قال : لمـا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال لأصحابه « انطلقوا بنا إلى أهل قُباء نسلم عليهم » فأتاهم فسلم عليهم ، فرحَّبُوا به ، ثم قال : ياأهـل قُبَاء ائتونى بأحْجَار من هـذه الحرَّة ، فجمعت عنده أحجار كثيرة ، ومعه عَـنَزَة له[٢] ، فخط قبلتهم ، فأخذ حجراً فوضَعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أبا بكر ، خُذْ حجراً فضَعْه إلى حَجَرى ، ثم قال : يا عمر خُذْ حجراً فضَعْـه إلى جنب حَجَر أبى بكر ، ثم قال : يا عثمان خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر عمر ، ثم التفت إلى الناس فقال : لِيَضَعْ كل رجل حَجَره حيث أحب على ذلك الخط .

---

(١) يعنى يقصد بى جهة بيت الله الحرام ، والمراد أنه يحرر له القبلة إلى جهته ، وانظر ماسيأتى للمؤلف فى ص ٢٥٣

(٢) العنزة ــ بفتحات ــ عصا مثل نصف الرمح لها سنان مثل سنانه

متى في مسجد قباء

قلت : وهو يقتضى أن هذا البنيان لم يكن عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى قُباء ، بل بعد قدوم عثمان رضى الله عنه من الحبشة ؛ فإنه كان قد هاجر إلى أرض الحبشة فاراً بدينه مع زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أول خارج إليها ، ثم هاجر الهجرة الثانية إلى المدينة ؛ فيمكن أن النبي صلى الله عليه وسلم أسَّسه عند قدومه ، ثم بناه بعد ذلك ، وإلا فلم يكن عثمان رضى الله عنه حاضراً ، كذا نبه عليه بعضُهم ، ولهذا قال السهيلى . أول مَنْ وضع حجراً رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ولم يذكر عثمان ، ثم قال : وصلى فيه نحو بيت المقدس قبل أن يأتى المدينة ، انتهى . وسيأتى عند ذكره فى المساجد عن عمر رضى الله عنه أنه قال : والذى نفسى بيده لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وأصحابه ننقل حجارته على بطوننا ، ويؤسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجبريل يؤم به البيت[1] ، ولم أر من نبه على تعيين زمان قدوم عثمان من الحبشة ، وسيأتى فى بنائه صلى الله عليه وسلم لمسجد المدينة أخبار تقتضى حضور عثمان له ، وهو محتمل أيضاً للبناء الأول والثانى ، وسبق فى الفصل قبله عَدُّ عثمان فيمن قدم المدينة قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، وهو كذلك فى كلام ابن إسحاق .

وقال المحب الطبرى : الظاهر أن قدوم عثمان من الحبشة كان قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم أو بعدها وقبل وقعة بدر ؛ لأنه صحَّ أنه كان فى وقعة بدر متخلفاً بالمدينة على زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، ووقعة بدر فى الثانية ، وكان قدوم أكثر مهاجرى الحبشة فى السابعة كما سيأتى ، والله أعلم .

وفى الكبير للطبرانى ورجاله ثقات عن الشَّمُوس بنت النعمان قالت : نظرتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم ونزل وأسس هذا المسجد مسجد قُبَاء ،

---

(١) انظر الهامشة ١ فى ص ٢٥١ وانظر ماسيأتى للمؤلف فى ص ٢٥٣

فرأيته يأخذ الحجَرأو الصخرة حتى يَهْصِرَهُ الحجرُ ، وأنظر إلى بياض التراب على بطنه أو سُرَّته ، فيأتى الرجل من أصحابه ويقول : بأبى وأمى يا رسول الله أعْطِنى أكْفِكَ ، فيقول : لا ، خذ مثله ، حتى أسسه ، ويقول : إن جبريل عليه السلام هو يؤم الكعبة ، قالت : فكان يقال : إنه أقومُ مسجدٍ قبلةً .

قلت : قد صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يستقبل بيتَ المقدِس حتى نسخ ذلك ، وجاءت القبلةُ وهم فى صلاة الصبح فأخبرهم ، وكانت وجوههم إلى الشام ، فاستداروا إلى الكعبة ؛ فيحتمل أن جبريل عليه السلام كان يؤم به البيت ليستدل به على جهة بيت المقدس لتقابل الجهتين ، ولعلمه بما يؤول إليه الأمر من استقبال الكعبة ، أو أنه صلى الله عليه وسلم كان مخيَّرا فى ابتداء الهجرة فى التوجه إلى بيت المقدس أو إلى الكعبة كما قاله الربيع فأمَّ به جبريلُ البيتَ لذلك ، واختياره الصلاة لبيت المقدس أولا لاستمالة اليهود ، أو أن استقبال الكعبة كان مشروعا فى ذلك الوقت ثم نسخ ببيت المقدس ثم نسخ بالكعبة ، لما قاله ابن العربى وغيره من أن القبلة نسخت مرتين ، أو أن ذلك تأسيس آخر غير التأسيس الأول ، ويدل لهذا الأخير ما قدمناه من رواية ابن شبة .

وقوله فى حديث الشموس المتقدم « حتى يهصره الحجر » أى يميله . وأورده المجد من رواية الخطابى بلفظ آخر ، فقال : وروى الخطابى عن الشَّمُوس بنت النعمان قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بنى مسجد قباء يأتى بالحجر قد صهره[1] إلى بطنه فيضعه ، فيأتى الرجلُ يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدَعَه ويأخذ غيره ، ثم قال : صَهَرَه وأصْهرهُ إذا ألصقه بالشىء ، ومنه اشتقاق الصِّهْرِ فى القرابة .

وروى ابنُ شبة أيضا أن عبد الله بن رَوَاحة كان يقول وهم يبنون فى مسجد قُبَاء :

(١) أشار ابن الأثير إلى رواية « كان يؤسس مسجد قباء فيصهر الحجر العظيم إلى بطنه » أى يدنيه ويقربه

* أَفْلَحَ من يعالج المساجدا *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المساجدا » فقال عبد الله :

* ويقرأ القرآن قائما وقاعدا *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وقاعداً » فقال عبد الله :

* ولا يَبِيتُ الليلَ عنه راقداً *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « راقداً » والله أعلم .

الفصل الحادى عشر

فى قدومه صلى الله عليه وسلم باطن المدينة ، وسكناه بدار أبى أيوب الأنصارى ، وأمر هذه الدار ، وما آلت إليه ، وما وقع من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

قال أهل السير : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرْسَلَ إلى ملأْ بنى النجار ، فجاءوا متقلدين بالسيوف ، وكانوا أخْوَالَهُ ، وذلك أن هاشم ابن عبد مناف تزوج منهم امرأةً ، وهى سلمى بنت عمرو ، فجاءه منها ولد ، فلما مات هاشم وكبرالغلام مر به قوم من قريش فأبصروه وقد ترعرع وهو ينتضل[1] ويقول : أنا القرشى ، فجاءوا وأخبروا عمه المُطّلب بن عبد مناف ، فذهب فجاء به ، فدخل به مكة وهو رِدْفُهُ وعليه ثياب السفر ، فقالت قريش : هذا عبد المطلب ، فغلب عليه هذا الأسم ؛ فلذلك كان أخواله بنى النجار ، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اركبوا آمنين مُطَاعين .

وفى البخارى من حديث أنس : قَدِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل فى حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى بنى النجار فجاءوا بالسيوف ، ثم رواه البخارى بلفظ آخر، فقال : قدم النبى صلى الله

---

(١) يقال « انتضل القوم » أى تراموا بالسهام للسبق

عليه وسلم فنزل جانب الحَرَّة، ثم بعث إلى الأنصار فجاؤا النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب حتى نزل جانب دار أبى أيوب.

قال الحافظ ابن حجر: تقديره فنزل جانب الحرة فأقام بقُبَاء المدة التى أقام بها و بنى بها مسجده، ثم بعث إلى آخره.

وفى التأريخ الصغير للبخارى عن أنس أيضاً قال: إنى لأسْعَى مع الغلمان إذ قالوا: محمد جاء، فننطلق فلا نرى شيئاً، حتى أقبل وصاحبُه[1]، فكَمَنَا[2] فى بعض جوانب المدينة، و بعثا رجلا من أهل البادية يؤذن بهما[3]، فاستقبله خمسمائة من الأنصار، فقالوا: انطلقا آمنين مُطَاعين، الحديثَ، ففيه طى لذكر قصة قُبَاء، إلا أن يريد أن ذلك وقع فى مبدأ الأمر عند نزوله صلى الله عليه وسلم بقُبَاء، وهو ما اقتضاه رواية رزين، فإنه قال: عن أنس قال: كنت إذ قَدِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ ابنَ تسعِ سنين، فأسمع الغلمان والوَلائد يقولون: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنذهب فلا نرى شيئاً، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، فكمنا فى خرب[4] فى طرف المدينة، وأرسلا رجلا يؤذن[3] لهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما، قال: فما رأيتُ مثلَ ذلك اليوم قط، والله لقد أضاء منها كل شىء، ونزلا على كلثوم بن الهدم، ثم ذكر تأسيس مسجد قُبَاء، ثم قال: ثم خرج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد المدينة، فلا يمر بدارٍ من دور الأنصار إلا عَرَضوا عليه، وذكر نحو ما سيأتى؛ فهو صريح فى أن ذلك كان عند مَقْدَمه صلى الله عليه وسلم فى بدء الأمر.

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم من قُبَاء يوم الجمعة، وتعيينه من الشهر مرتب على ما تقدم فى قدومها.

---

(١) الأفصح فى العربية «أقبل هو وصاحبه»

(٢) كمنا: استترا (٣) يؤذن بهما: يعلم ويخبر

(٤) ذكر ابن الأثير أنه يروى «خرب» بخاء معجمة مفتوحة وراء مهملة مكسورة على أنه جمع خربة، ويروى بحاء مهملة وآخره ثاء مثلثة، وهو الموضع المحروث للزراعة

وروى يحيى أنه صلى الله عليه وسلم لما شَخَص : أى من قباء ، اجتمعت بنو عمرو بن عوف فقالوا : يا رسول الله أخَرَجْتَ مَلَالاً لنا أم تريد داراً خيراً من دارنا ؟ قال : إنى أمِرْتُ بقرية تأكل القرى ، فخلوها ـ أى ناقته ـ فإنها مأمورة فخرج صلى الله عليه وسلم من قُبَاء ، فعرض له قبائل الأنصار كلُّهم يدعوه ويَعِدُوه النصرة والمَنَعَة ، فيقول : خَلوها فإنها مأمورة ، حتى أدركته الجمعة فى بنى سالم ، فصلّى فى بطن الوادى الجمعةَ وادى ذى صلب .

قلت : قيل كانت هذه أول جمعة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وقيل : إنه كان يصلى الجمعة فى مسجد قُبَاء فى إقامته هناك ، والله أعلم .

وروى أيضا عن عمارة بن خزيمة قال : لما كان يوم الجمعة وارتفع النهار دَعَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم براحلته ، وحَشَد المسلمون ، ولبسوا السلاح ، وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ناقته القصوى ، والناس معه عن يمينه وعن شماله وخلفه : منهم الماشى والراكب ، فاعترضَنَا الأنصارُ فما يمر بدار من دورهم إلا قالوا هلم يا رسول الله إلى العز والمنعة والثروة ، فيقول لهم خيراً ، ويدعو ، ويقول : إنها مأمورة ، خلوا سبيلها ، فمر ببنى سالم ، فقام إليه عِتْبَان بن مالك ، ونوفل ابن عبد الله بن مالك بن العجلان وهو آخذ بزمام راحلته يقول : يا رسول الله أنزل فينا فإن فينا العدد والعدة والحلقة ، ونحن أصحاب العصا (١) والحدائق والدرك ، يا رسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البَحْرَة خائفاً فيلجأ إلينا فنقول له : قوقل حيث شئت ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم ويقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فقام إليه عُبَادة بن الصامت وعباس ابن الصامت بن نَضْلة بن العَجْلان فجعلا يقولان : يا رسول الله أنزل فينا ، فيقول النبى صلى الله عليه وسلم : بارك الله عليكم ، إنها مأمورة ، فلما أتى

(١) فى المطبوعات « ونحن أصحاب الفضاء » وما أثبتناه عن الخلاصة

مسجد بنى سالم ــ وهو المسجد الذى فى الوادى ــ فجَمَّع بهم فخطبهم ، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين الطريق حتى جاء بنى الْحُبْلى ، فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبيّ ، فلما رآه ابنُ أبيّ وهو عند مُزَاحم أى الأطم مُحْتَبِياً قال : اذهَبْ إلى الذين دَعَوْكَ فانزل عليهم ، فقال سعد بن عبادة لا تَجِدْ(١) يارسول الله فى نفسك من قوله ، فقد قدمْتَ علينا والخزرجُ تريد أن تملكه عليها ، ولكن هذه دارى ، فمر ببنى ساعدة فقال له سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأبو دجانة : هلم يارسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد ، وسعد يقول : يارسول الله ليس من قومى أكثر عذقاً(٢) ولا فم بئر منى مع الثروة والجلد والعدد والحلقة ؛ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله عليكم ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا أبا ثابت خَلِّ سبيلَها فإنها مأمورة ، فمضى ، واعترضه سعدُ بن الربيع وعبدُ الله بن رَوَاحة و بشير بن سعد فقالوا : يارسول الله لا تُجَاوِزْنَا فإنا أهل عدد وثروة وحلقة ، قال : بارك الله فيكم ، خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، واعترضه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو — أى من بنى بَيَاضة — يقولان : يارسول الله هلم إلى المواساة والعز والثروة والعدد والقوة ، نحن أهل الدرك يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، ثم مَرَّ ببنى عَدِيّ بن النجار ــ وهم أخواله ــ فقام أبو سليط وصرْمَة بن أبى أنيس فى قومهما فقالا : يارسول الله نحن أخوالُكَ هلم إلى العدد والمنعة مع القرابة ، لا تجاوزنا إلى غيرنا يارسول الله ، ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقرابتنا بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، ويقال : إن أول الأنصار اعْتَرَضَه بنو بَيَاضة ، ثم بنو سالم ، ثم مال إلى ابن أبيّ ، ثم مر على بنى عدى بن النجار ، حتى انتهى إلى بنى مالك بن النجار .

قلت : وقول بنى عدى بن النجار « نحن أخوالك » لأنهم أقارِبه من جهة

(١) لا تجد : لا تغضب ، أولا تحزن .
(٢) أراد أكثر نخلا ، وهو كان ثروة أهل المدينة .

الأمومة؛ لأن سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار كانت أمّ جده عبد المطلب، وقول البراء فى حديث الصحيح «إن النبى صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده، أو قال أخواله، من الأنصار» فيه تجوز من حيث إنه صلى الله عليه وسلم إنما نزل على إخوتهم بنى مالك بن النجار، أو أراد أنه نزل بخطة بنى النجار لتقارب منازلهم الجميع ومنهم بنو عدى.

وقال الحافظ ابن حجر فى المقدمة فى الكلام على الحديث المذكور: هم من بنى عمرو بن عوف من الخزرج، وكانت أم عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم منهم، واسمها سلمى؛ فهم أجداده حقيقة، وأخواله مجازا، والشكّ من راوى الخبر، انتهى.

وهو وَهَم، سببه اشتباه النزول الأول بقُبَاء بهذا النزول الذى وقع فيه الاستقرار، وليس بنو عمرو بن عوف ممن يوصف بذلك، وقد تنبه له فى الشرح؛ فذكره على الصواب كما قدمناه، والله أعلم.

وروى رزين أنه صلى الله عليه وسلم سار من قُباء ومعه جماعةٌ من الأنصار فى السلاح وجميعُ المهاجرين، وذكر صلاة الجمعة، قال: ثم ركب فجاء بنى الحُبْلَى فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبىّ بن سَلُولَ، وكان جالساً محتبياً عند أطم له، فقال: اذهَبْ إلى الذين دَعَوْكَ فانزل عليهم، فقال سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تَجِدْ عليه، فإن أهلَ هذه البَحْرَة كانوا قد أجمعوا على أن يُعَصِّبُوه ويُتَوِّجُوه[1]، فلما رد الله عليه ذلك بالحق الذى أعطاك شَرِقَ لذلك[2].

قلت: الذى فى الصحيح ذكر سعد لذلك فى قصة عيادته صلى الله عليه وسلم له من مرض بعد سكناه بالمدينة، والذى فى كتب السير عن ابن إسحاق أن الجمعة أدركته فى وادى رَانُونَا فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة، وكانوا أربعين، وقيل: مائة، فأتاه عتبان بن مالك فى رجال من بنى سالم فقالوا: يارسول الله أقِمْ عندنا

(١) أى يلبسوه التاج والعصابة، والمراد أنهم كانوا أرادوا تمليكه عليهم.
(٢) شرق لذلك: كناية عن أن صدره قد ضاق بسببه.

فى العَدَد والعُدَّة والمَنَعَة ، قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، لناقته ، فَخَلَّوْا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا وازنَتْ دار بنى بَيَاضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو فى رجال من بنى بَيَاضة ، فأجابهم بمثل ماتقدم ، فخلوا سبيلها ، حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رَوَاحة فى رجال من بَلْحَارث ، فأجابهم بما تقدم ، فخلَّوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا مرت بدار عدىّ بن النجار — وهم أخواله دُنْيَا — اعترضهم سليط بن قيس فى رجال منهم ، فأجابهم بمثل ماتقدم ، حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بَرَكَتْ على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ، ثم وثَبَتْ وسارت غيرَ بعيدٍ ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم واضعٌ لها زمامَهَا لا يَثْنِيها به ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مَبْرَكها أولَ مرة فبركت فيه ، ثم تلحلحت وأرزمت[1] ووضعت جِرَانها[2] فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية أنها لما وثَبَتْ من مبركها الأول بركت على باب أبى أيوب الأنصارى ، ثم ثارت منه وبركت فى مبركها الأول ، وفى رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا المنزل إن شاء الله .

وذكر ابن سيد الناس بعد قصة بنى سالم أن راحلته انطلقت حتى وازنت دار بنى بَيَاضة ، فذكر قصتهم ، ثم قال : فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة اعترضه سعدُ بن عُبَادة ، وذكر قصتهم ، ثم قال : فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع ، وذكر قصتهم ، ثم ذكر القصة كما قدمناه .

وذكر يحيى فى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم بعد أن سار من بنى سالم تيامن ، فأتى منزل ابن أبىّ ، ثم مضى فى الطريق والطريقُ يومئذٍ فضاء حتى انتهى إلى سعد بن عُبادة ، ثم اعترضت له بنو بَيَاضة عن يساره ، ثم مضى حتى أتى بنى عدى ابن النجار ، ثم أتى إلى بنى مازن بن النجار ، فقامت إليه وجوههم ، ثم مضى حتى

(١) فى المطبوعات « تحلحلت ورزمت » وما أثبتناه عن ابن الأثير ، وتلحلحت — بتقديم اللام على الحاء — تحركت ، وأرزمت : صوتت من غير أن تفتح فمها .
(٢) الجران — بزنة الكتاب — باطن العنق .

انتهى إلى باب المسجد وقدحَشَدَت[1] بنو مالك بن النجار فهم قِيَامٌ ينتظرونه إلى أن طلع فهش إليه أسعد بن زُرَارة وأبو أيوب وعمارة بن حزم وحارثة بن النعمان يقول : يارسول الله قد علمت الخزرجُ أنه ليس رَبْع أوسع من رَبْعى، قال : فبركت بين أظهرهم ، فاستبشروا ، ثم نهضت كأنها مذعورة ترجِّع الحنين[2] ، فساءهم ذلك ، وجعلوا يَعْدُونَ بجنبها حتى أتت إلى زقاق الحبشى ببئر جمل فبركت والنبىُّ صلى الله عليه وسلم عليها مُرْخٍ لهـا زِمامَهَا ثم قامت عَوْدَهَا على بَدْئها تزيد فى المشى حتى بركت على باب المسجد وضربت بجرَانِهَا وعدلت ثَفِنَاتها[3]، وجاء أبو أيوب والقومُ يكلمونه فى النزول عليهم ، فأخذ رَحْله فأدخله ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رَحْله وقد حط فقال « المرء مع رحله » .

وذكر رزين اعتراض بنى سالم له وقوله « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ثم قال : فمر ببنى بياضة فكذلك ، ثم ببنى ساعدة فكذلك ، ثم بدار بنى الحارث بن الخزرج فكذلك ، ثم مر بدار عدى بن النجار فكذلك ، فمضت حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت على باب المسجد اليوم ، ولم ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت، ثم وثبت فسارت غيرَ بعيدٍ ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها الأول ، فنزل إذ ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أىُّ الدور أقربُ ؟ فقال أبو أيوب : دارى ، هـذا بابى ، وقد حَطَطْنَا رَحْلَك فيها ، فقال « المرء مع رَحْلِهِ » فمضت مثلا .

وروى ابن زبالة أنها لما بركت بباب أبى أيوب جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن ينزل فتحلحل[4] فيطيف حولها أبو أيوب فيجد جبَّار بن صخر أخا بنى سلمة ينخسها برجله ، فقال أبو أيوب : ياجبار عن منزلى تنخسها؟ أما والذى بعثه بالحق لولا الإسلام لضربتك بالسيف ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزل أبى أيوب ، وَقَرَّ قَرَاره ، واطمأنت داره ، ونزل معه زيد بن حارثة .

(١) حشدت : اجتمعت (٢) ترجع الحنين : تردده

(٣) الثفنات : جمع ثفنة ـ بفتح فكسر ـ وهى مايلى الأرض من كل ذات أربع عند بروكها ويحصل فيه غلظ من أثر البروك . (٤) أنظر هـ ١ ص ٢٥٩

وعند الحاكم عن أنس : جاءت الأنصار فقالوا : إلينا يارسول الله ، فقال : دعوا الناقة فإنها مأمورة ، فبركت على باب أبى أيوب .

وروى الطبرانى فى الأوسط وفيه صديق بن موسى – قال الذهبى : ليس بالحجة – عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فاستناخت راحلته بين دار جعفر بن محمد بن على ودار الحسن بن زيد ، فأتاه الناسُ فقالوا : يارسول الله المنزل ، فانبعثت به راحلته ، فاستناخت ثم تحلحلت[1] ، وللناس ثم عَرِيش كانوا يرشونه ويعمرونه ويبردون فيه ، حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته فأوى إلى الظل فنزل فيه ، فأتاه أبو أيوب فقال : يارسول الله منزلى أقرب المنازل إليه [أ]فأنقل رحلك ؟ قال : نعم ، فذهب برحله إلى المنزل ، ثم أتاه آخر فقال : يارسول الله انزل على ، فقال : إن الرجل مع رحله حيث كان ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش اثنتى عشرة ليلة حتى بنى المسجد

قلت : دار جعفر بن محمد هى التى فى قبلة دار أبى أيوب ملاصقة لها ، ودار الحسن بن زيد تقابلها من جهة المغرب ، بينهما الشارع .

وعند ابن عائذ وسعيد بن منصور أن ناقته صلى الله عليه وسلم استناخت به أولا ، فجاءه ناس فقالوا : المنزل يارسول الله ، فقال دعوها ، فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد ، ثم تحلحلت[1] ، فنزل عنها ، فأتاه أبو أيوب فقال : منزلى أقرب المنازل فَأْذَنْ لى أن أنقل رحلك ، قال: نعم ، وأناخ الناقةَ فى منزله

وقال الواقدى : أخذ أسعد بن زرارة بزمام راحلته فكانت عنده ، ونقله الحافظ ابن حجر عن ابن سعد ونقل الأقشهرى فى روضته عن ابن نافع صاحب مالك فى أثناء كلام نَقَلَه عن مالك أن ناقته صلى الله عليه وسلم لما أتت موضع مسجده بركت وهو عليها ، وأخذه الذى كان يأخذه عند الوحى ، ثم ثارت من غير أن تُزْجَرَ وسارت غير بعيد ، ثم التفتت ، ثم عادت إلى المكان الذى

(١) انظر الهامشة رقم ١ فى ص ٢٥٩

بركت فيه أول مرة فبركت ، فَسُرِّيَ عنه ، فأمر أن يحط رحله ، وفى بعض الروايات أن القوم لما تنازعوا أيهم ينزل عليه قال : إنى أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك

وفى البخارى من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم أقبل يسير حتى نزل جانب دار أبى أيوب ، فقال : أى بيوت أهلنا أقرب ؟ أى أخوال جده ، فقال أبو أيوب : أنا يا نبى الله ، هذه دارى ، وهذا بابى ، قال : فانطلق فهيء لنا مَقِيلاً[(١)] .

وفى رواية لابن زبالة : اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه ، فنزل منزله وتخيره ، وأراد أن يتوسط الأنصار كلها .

قال المطرى : وهو غير مناف لما تقدم من قوله « دَعُوهَا فإنها مأمورة » ؛ لأن الله اختار له ما كان يختار لنفسه .

وفرح أهل المدينة بقدمه صلى الله عليه وسلم إليهم فرحا شديدا ؛ ففى البخارى من حديث البَرَاء « ما رأيت أهلَ المدينة فرحوا بشيء فَرَحَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم » الحديث ، وروى أبو داود أن الحبشة لعبت بحرابهم فرحا بقدومه صلى الله عليه وسلم .

قال رزين : وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير[(٢)] يقلن :

طلع البـــدر علينا ... من ثَنِيَّاتِ الوَدَاع
وَجَبَ الشكر علينـا ... مادعـــا لله داع

وفى رواية :

أيهـــا المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطـاع

والغلمان والولائد يقولون : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَرَحًا به .

وفى شرف المصطفى : لمـا بركت الناقة على باب أبى أيوب خرج جوارٍ من بنى النجار يضربن بالدفوف و يقلن :

نحن جَوار من بنى النجار ... ياحبذا محمـــدٌ مِنْ جارِ

(١) المقيل : الموضع الذى تقضى فيه القيلولة ، هذا أصله .
(٢) الأجاجير : جمع إجار ، وهو سطح المنزل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَتُحْبِبْنَنِى ؟ قلن : نعم يارسول الله ، فقال : والله وأنا أحبكن ، قالها ثلاثا ، وفى رواية « يعلم الله إنى أحبكن » .

وأخرج الحاكم من طريق إسحاق بن أبى طلحة : فخرجت جوارٍ من بنى النجار يضربن بالدف وهن يقلن ، وذكر البيت المتقدم .

وروى عن أنس قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة أظلم منها كل شيء ، فلما دخل المدينة أضاء منها كل شيء ، ورواه ابن ماجة بلفظ : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شيء . ورواه أبو داود بلفظ : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحا بقدومه صلى الله عليه وسلم ، وما رأيت يوما كان أحسَنَ ولا أضوأ[١] من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، أضاء منها كل شيء ، الحديثَ . ورواه ابن أبى خيثمة عنه بلفظ : شهدتُ يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلم أر يوما أحسن منه ولا أضوأ[١]

وروى يحيى عن عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس[٢] إليه ، وقيل : قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أنظر ، فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شيء سمعته يتكلم قال : أيها الناس ، أفْشُوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصَلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلون الجنة بسلام ، وهذا الحديث بنحوه فى الترمذى وصححه

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وأبارافع إلى مكة أعطاهما خمسمائة درهم وبعيرين ، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم بنتيه وسَوْدَة زوجته وأم

(١) أضوأ : أشد ضوءا

(٢) انجفل الناس إليه : ذهبوا نحوه مسرعين ، يقال: جفل، وأجفل،وانجفل .

أيمَنَ زوج زيد بن حارثة وأسامة بن زيد ، وخرج عبد الله بن أبى بكر معهم بعيال أبى بكر فيهم عائشة وأختُها أسماء زوجُ الزبير وأمها أم رُومَان ، فلما قدموا المدينة أنزلهم فى بيت حارثة بن النعمان .

وقال رزين: إن أبا بكر أرسل عبدَ الله بن أرَيْقِط مع زيد بن حارثة ليأتيه بعائشة وأم رومان أمها وعبدِ الرحمن

قال بعضهم : ووجدوا طلحة بن عبيد الله على خروج ، فخرج معهم ، فقدموا كلهم .

وروى ابن إسحاق عن أبى أيوب الأنصارى قال : لما نزل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى نزل فى السفل وأنا وأم أيوب فى العلو ، فقلت له : يانبى الله ، بأبى أنت وأمى، إنى أكره وأُعْظِمُ أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظْهَرْ أنت فكن فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل ، فقال : يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يَغْشَانا أن نكون فى سُفْلِ البيت ، قال : فكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى سفله ، وكنا فوقه فى المسكن ، فلقد انكسر حُبٌّ لنا[1] فيه ماء ، فقمتُ أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشّفُ بها الماء تخوفًا أن يقطر على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء فيؤذيه .

قلت : وذكر بعضهم أن ذلك هو سببُ سكناه فى العلو بعد ذلك ، والذى فى صحيح مسلم عن أبى أيوب أن النبى صلى الله عليه وسلم نزل عليه ، فنزل صلى الله عليه وسلم فى السفل وأبو أيوب فى العلو ، فانتبه أبو أيوب ليلة فقال : نمشى فوق رأس النبى صلى الله عليه وسلم ؟! فتنحَّوْا[2] وباتوا فى جانب، ثم قال للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : السفل أرفق ، فقال : لا أعلو سقيفةً وأنت تحتها ، فتحول النبى صلى الله عليه وسلم فى العلو وأبو أيوب فى السفل

(١) الحب – بضم الحاء المهملة – الخابية (٢) تنحوا : ابتعدوا

وقد قدمنا[١] فى آخر الفصل الرابع أن ابن إسحاق ذكر أن هذا البيت بَنَاهُ تُبَّعٌ الأول لما مر بالمدينة للنبى صلى الله عليه وسلم ينزله إذا قدم المدينة ، فتداولَ البيتَ المُلَّاكُ إلى ان صار لأبى أيوب ، وأن أبا أيوب من ذرية الحَبْر الذى أسلمه تبع كتابَهُ .

وقد نقل الحافظ ابنُ حجر ذلك عن حكاية ابن هشام فى التيجان ، قال : وأورده ابن عساكر فى ترجمة تبع . فما نزل صلى الله عليه وسلم إلا فى بيته ، وقد ابتاع المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بيتَ أبى أيوب هذا من ابن أفلح مولى أبى أيوب الأنصارى بألف دينار ، فتصدق به ، وهو فى شرقىّ المسجد المقدس كما سيأتى فى الدور المطيفة بالمسجد

وقد اشترى الملكُ المظفر شهابُ الدين غازى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب بن شادى عَرْصَةَ دار أبى أيوب هذه ، و بناها مدرسة للمذاهب الأربعة ، ووقف عليها أوقافا بمَيَّا فارقين[٢] التى هى دار مُلكه ، وبدمشق لها وقف آخر أيضاً ، ولها بالمدينة الشريفة أيضا وقف من النخيل وغيرها ، غير أنه شمل ذلك ماعم الأوقاف ، وكان بها كتب كثيرة نفيسة فتفرقت أيدى سَبَا ، وآل حالُ هذه المدرسة إلى التعطيل ، فسكنها بعض نظارها ، فتشاءمتُ على عياله ، واتصل ذلك بسلطان مصر نخرج منها ، والمدرسة قاعتان : كبرى ، وصغرى ، وفى إيوان الصغرى الغربى خزانة صغيرة جدا ، فما يلى القبلة فيها محراب

قال المطرى : يقال إنها مَبْرَكُ ناقة النبى صلى الله عليه وسلم

وكانت إقامته صلى الله عليه وسلم بهذه الدار كما أفاده ابن سعد سبعةَ أشهرٍ : أى بتقديم السين على الباء ، حتى بنى مساكنه . وقال رزين : أقام عند أبى أيوب من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الثانية ، وقال الدولابى : شهرا ، وفى كتاب يحيى عن زيد بن ثابت : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى أيوب

---

(١) انظر ص ١٨٨ وما بعدها من هذا الجزء

(٢) ميا فارقين : مدينة بديار بكر (ياقوت ٧/٢١٤)

لم يدخل منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم هديةٌ أولُ من هدية دخَلْتُ بها عليه قصعة مثرودة خبز بر وسمنا ولبنا فأضعها بين يديه ، فقلت : يارسول الله أرسلت بهذه القصعة أمى ، فقال: بارك الله فيها ،ودعا أصحابه فأكلوا ،فلم أرِم البابَ(١) حتى جاءت قصعة سعد بن عُبادة على رأس غلام مُغَطاة،فأقف على باب أبى أيوب فأكشف غطاءها لأنظر ، فرأيت ثريدا عليه عراق ، فدخل بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال زيد : فقد كنا فى بنى مالك بن النجار مامن ليلة إلا على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم منا الثلاثة والأربعة يحملون الطعام ويتناوبون بينهم ، حتى تَحَوَّلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من بيت أبى أيوب ، وكان مقامه فيه سبعة أشهر ، وما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادة وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة

وفيه أنه قيل لأم أبى أيوب : أى الطعام كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم عرفتم ذلك لمقامه عندكم ؟ قالت : ما رأيته أمَرَ بطعام فصنع له بعينه ، ولا رأيناه أتى بطعام قَطُّ فعابه

وقد أخبرنى أبو أيوب أنه تَعَشى عنده ليلة من قَصْعة أرسل بها سعدُ بن عبادة طَفَيْشَل(٢) فقال أبو أيوب : فرأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ينهل تلك القدر مالم أره ينهل غيرها ، فكنا نعملها له ، وكنا نعمل له الهريس وكانت تعجبه ، وكان يحضر عَشَاءَهُ خمسة إلى ستة عشر كما يكون الطعام فى الكثرة والقلة .

وفيه عن أبى أيوب أنهم تكلَّفُوا له طعاما فيه بعضُ هذه البقول ، فلما أتوه به كرهه وقال لأصحابه : كُلُوا فإنى لست كأحدكم ، إنى أخاف أن أوذِىَ صاحبى(٣)

وفى كتاب رزين عنه بعد ذكر نزوله عليه قال : وما مرت ليلة من نحو السنة إلا وتأتيه جَفْنة سعدِ بن مُعَاذ ثم سائر الناس، يتناوبون ذلك نُوَبًا ، قال أبو

(١) لم أرم الباب : لم أفارقه (٢) طفيشل ـ بزنة سفرجل ـ ضرب من المرق

(٣) صاحبه : الملك الذى يلازمه ، والمراد بالبقول نحو الكراث والبصل والثوم كما سيأتى فى رواية رزين التالية .

أيوب : فصنعتُ له ليلةً طعاما ، وجعلت فيه ثُوماً ، فلم يأكل منه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ففزعت فنزلت إليه فقلت له : أحرامٌ هو؟ فقال: إنى أناجى ، وأنا أكرهه لذلك ، وأما أنتم فـكلوه ، قال : فقلت : فإنى أكره ماتـكره يارسول الله .

المواخاة بين الأنصار والمهاجرين

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وَادَعَ فيه يهود[1] ، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط لهم ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنـا : تآخَوْا فى الله أخَوَيْنِ أخَوَيْنِ ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال : هذا أخى .

قلت : كانت هذه المواخاة بعد مَقْدَمه صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر ، وقيل : ثمانية ، وهو يبنى المسجد ، وقيل : بعدهُ ، وقيل : قبله ، وذكره أبو حاتم فى السنة الأولى ، والظاهر أن ابتداءها كان فيها ، واستمرت على حسب مَنْ يدخل فى الإسلام أو يحضر ، كما يعلم من تفاصيلها ، قيل : وكانوا تسعين رجلا من كل طائفة خمسة وأربعون ، وقيـل : مائة ، آخى بينهم على الحق والمواساة والتوارث ، وكانوا كذلك إلى أن نزل بعد بدر « وأولو الأرحام »[2] الآية .

وقال الواقدى : لمـا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينـة آخى بين المهاجرين ، وآخى بين المهاجرين والأنصار .

وقال ابن عبد البر : كانت المواخاة مرتين : الأولى قبـل الهجرة بمكة بين المهاجرين ، فآخى بين أبى بكر وعمر ، وهكذا حتى بقى على رضى الله عنه فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ترضى أن أكون أخاك ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : فأنت أخى فى الدنيا والآخرة ، والمواخاة الثانية ما تقدم من مواخاة

---

(١) وادع فيه يهود : هادنهم وصالحهم . (٢) من سورة الأنفال من الآية ٧٥ .

المهاجرين والأنصار ، وهى المرادة بقول الحسن : كان التوارث بالحِلفِ[1] ؛ فنسخ بآية المواريث .

ولأبى داود عن أنس بن مالك : حالف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فى دارنا ، وحديث « لا حِلفَ فى الإسلام » معناه حلف التوارث ، والحلف على ما منع الشرع منه ، وعبر رزين عن المواخاة بين المهاجرين والأنصار فيما نقله عن أبى حاتم بقوله : ثم آخى بين أصحابه ، ودعا لكل واحد منهم دعوة ، وقال : أبْشِرُوا أنتم فى أعلى غُرَفِ الجنة ، وقال لعلى : ما أخرتك إلا لنفسى ، أنت أخى ووارث علمى ، وأنت معى فى الجنة فى قصرى مع ابنتى ، وقصة المواخاة الأولى أقربها الحاكم ؛ فذكر المواخاة بين أبى بكر وعمر ، وذكر جماعة ، ثم قال : فقال علىّ : يا رسول الله ، إنك آخيت بين أصحابك فمَنْ أخى ؟ قال : أنا أخوك .

وقد أنكر ابن تيمية فى الرد على ابن المطهر الرافضى المواخاة بين المهاجرين خصوصاً مواخاة النبى لعلى ، قال : لأنها شرعت للارفاق والتألف ؛ فلا معنى لها بينهم ، وهو رد للنص وغفلة عن حقيقة الحكمة فى ذلك ، مع أن بعضهم كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة ، والارتفاق ممكن ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقوم بعلى من عهد الصبا ، واستمر ذلك .

وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن أنه صلى الله عليه وسلم «آخى بين الزبير وابن مسعود» وهما من المهاجرين.

اليهود تحاول الإفساد بين الأوس والخزرج

والتأم شمل الحيين الأوسِ والخزرجِ ببركته صلى الله عليه وسلم ، فمر شاس ابن قيس ــ وكان شيخا من اليهود شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم ــ على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من أُلْفَتِهِمْ وصلاح ذات بينهم بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد

---

(١) يعنى أن الحلف كان معدودا من أنواع العصبة فى أول الإسلام بالمدينة ، يرث به الحليف حليفه بعد مرتبة أهل الفروض والعصبة، ثم نسخ التوارث به بالآية .

اجتمع ملأ بني قَيْلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع مَلَؤُهم بها من قَرَار ، فأمر شابا من يهود كان معه فقال : أجْلِسْ إليهم ثم اذكر يوم بُعَاث ، وما كان فيه ، وأنْشِدْهُم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل الشاب ذلك ، فتنازع القومُ وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين عَلَى الرُّكَبِ ، وهما أوس بن قَيْظي وجَبّار بن صخر ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جَذَعة ، وغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا ، موعِدُكم الظاهرة ، وهي الحرة ، فخرجوا إليها ، و بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، اللهَ اللهَ ، أبدَعْوَى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقَطَع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبَكَوْا ، وعانق الأوسُ والخزرجُ بعضُهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس ، فأنزل الله في شأنه : « قل يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ، قل يا أهل الكتاب لم تَصُدُّونَ عن سبيل الله مَنْ آمَنَ تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون[١] » ، وأنزل الله في الذين صنعوا ما صنعوا من الحيين : « يا أيها الذين آمنوا إن تُطِيعُوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إلى قوله : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون[٢] » .

وكان حُيَيُّ بن أخطب[٣] وأخره أبو ياسر من أشد يهود للعرب حَسَداً لما خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم؛ فكانا جاهِدَيْنِ في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا فأنزل الله تعالى فيهما : « وَدّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم » إلى قوله : « حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير[٤] » .

---

(١) من سورة آل عمران الآيتين ٩٨ و ٩٩ (٢) من سورة آل عمران الآيات ١٠٠ – ١٠٣ (٣) في المطبوعات « يحيى بن أخطب » وسيأتي على الصواب (٤) من سورة البقرة الآية ١٠٩

وحدثت صفية بنت حُيَي رضى الله عنها قالت : كنت أحَبَّ ولدِ أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألْقَهُمَا قَطُّ مع ولدهما إلا أخذانى دونه ، فلما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ غدا عليه أبى وعمى مُغَلِّسَيْنِ(١) ، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَا ، فهششت إليهما كما كنت أصنع . فوالله ما التفت إلىّ واحـدٌ منهما ، مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقـول لأبى : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت ، فَشَقِيَا بحسَدِهمَا ، والله أعلم .

الفصل الثانى عشر

فيما كان من أمره صلى الله عليه وسلم بها فى سِنِي الهجرة إلى أن توفاه الله عز وجل مختصرا .

وقد لخصه رزين من تأريخ أبى حاتِمٍ ، فزدت فيه نفائس ميزتها ، فأقول فى أولها « قلت » وفى آخرها « والله أعلم » وقد أقام صلى الله عليه وسلم بالمدينـة بعد الهجرة عشر سنين بالإجماع كما حكاه النووى(٢) .

السنة الأولى — السنة الأولى ــ وقد تقدم بعضُ ما فيها من بناء مسجد قُبَاء وغيره .

وقال أبو حاتم : كان فيها بناء المسجد النبوى ، ومات أسعد بن زُرَارة والمسجد يُبْنَى ؛ فكان أول من دفن بالبقيع من المسلمين .

قلت : ومن هذا يعلم أن عثمان بن مظعون أول من دفن به من المهاجرين ، جمعا بين النقلين ، ومات كلثوم بن الهدم قبل أسعد بن زرارة ؛ فهو أول مَنْ مات من الأنصار بعد مَقدَم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيـل : توفى أسعد بن زرارة فى الثانية ، والله أعلم .

ومات البَرَاء بن مَعْرُور قبـل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) مغلسين : فى وقت الغلس ، وهو الوقت بين الفجر وسطوع النور .

(٢) وقد جعلنـا زيادة المؤلف مستقـلة تبدأ من أول سطر بـكلمة « قلت » وتنتهى بـكلمة « والله أعلم » ثم يبدأ تلخيص رزين من أول سطر جديد وهكذا .

وأوصى أن يُوَجَّه إلى الكعبة ، وصلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على قبره ، وكانت الأنصار يتقربون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدايا رجالهم ونساؤهم ، وكانت أم سُلَيم تتأسف على ذلك ، وما كان لها شيء ، فجاءت بابنها أنس، وقالت : يَخْدُمك أنس يا رسول الله ؟ قال : نعم .

قلت : الذى فى الصحيح عن أنس « قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ ليس له خادم ، فأخذ أبو طلحة بِيَدِى ، فانطلق بى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إن أنسا غلام كَيِّس (١) فليخدمك ، قال : فخدمته، الحديثَ ، وقد يجمع بأنها جاءت به أولا ، وانطلق به أبو طلحة ثانيا ؛ لأنه وليه وعَصَبَته ، وهذا غير مجيئه به لخدمته صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر كما يفهمه لفظ الحديث ، والله أعلم .

ثم زيدَ فى صلاة الحضر ركعتين بعد مقدمه المدينة بشهر (٢) .

قلت : قال السهيلى : إن ذلك كان بعد الهجرة بعام أو نحوه ، والذى عليه الأكثر أن الصلاة نزلت بتمامها من بَدْء الأمر ، والله أعلم .

ووُعِك أصحابه فدعا بنَقْلِ وبائها إلى الجُحْفة ، وقال : « اللهم حبب إلينا المدينة » ثم آخى بين أصحابه كما سبق ، ثم مات الوليد بن المغيرة بمكة ، ووُلِدَ عبدُ الله بن الزبير ، جاءت أمه أسماء بعد الهجرة فنُفِسَت به فى قُبَاء فى شوال ، فكان أولَ مولود ولد فى الإسلام بها بعد الهجرة ، وكان أول شىء دخل جوفه ريقُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، تَفَلَ فى فيه .

قلت : سيأتى فى مسجد دار سعد بن خَيْثَمة من المساجد التى لا تعلم عينها أن الذهبيّ قال : إن عبد الله ولد فى الثانية ، والله أعلم .

ثم عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء لابن عمه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب

---

(١) كيس : وصف من الكياسة ، وهى الحذق وحسن التأتى للأمور .

(٢) فرضت الصلاة ركعتين ركعتين ، إلا المغرب ، ثم زيدت فى الحضر وأقرت فى السفر ، هكذا ورد فى حديث عائشة .

أول راية عقدت فى الإسلام

على ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصارى، وهى أول راية عقدت فى الإسلام، ورمى فيها سعد بن أبى وقاص بسهم ، فكان أول سهم رُمِىَ به فى الإسلام ، فالتقى مع أبى سفيان بن حرب ، وقيل عكرمة بن أبى جهل، وكان فى مائة من المشركين ببطن رابغ و يعرف بوَدَّانَ فانحاز إلى المسلمين من المشركين المِقْدَاد بن عمرو بن الأسود وعتبة بن غَزْوَان ، وكان حامل اللواء لعبيدة مصلح بن أثاثة .

قلت : وذكر أبو الأسود فى مَغَازِيه عن عروة ، ووصله ابن عائذ من حديث ابن عباس « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما وَصَل إلى الأبواء[1] بعث عُبَيْدَة بن الحارث فى ستين رجلا » وذكر القصة ، فيكون ذلك فى السنة الثانية ، و به صَرَّحَ بعض السير ، والله أعلم .

ثم عقد لواء لعمه حمزة على ثلاثين من المهاجرين — قيل : ومن الأنصار — ليتعرض عِيرَ قريش ، فلقى أبا جهل فى ثلاثمائة راكب ، فحجب بينهم مَجْدِىُّ ابن عمرو ، وكان حليفاً للفريقين ، وانصرفوا من غير قتال، وكان حاملَ لواء حمزة يومئذ أبو مَرْثَد .

قلت : قدم بعضهم هذه على سَرِيَّة عبيدة ، وقال : إن لواء حمزة أول لواء عقد فى الإسلام ، ورجَّحَ ابنُ إسحاق الأول ، وقال : إنما أشْكَلَ أمرها أن النبى صلى الله عليه وسلم شيعها جميعاً ، وذكر أبو عمر أن أول راية عقدت لعبد الله بن جَحْش ، وقيل : إن سَرِيَّة حمزة هذه كانت فى السنة الثانية ، والله أعلم .

زواج عائشة

ثم بَنَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعائشة وهى بنت تسع ، وكان عَقَدَ بها فى مكة قبل الهجرة بثلاث وهى بنت ست .

زواج سودة بنت زمعة

قلت : وعقد على سَوْدَة بنت زَمْعَة بعد عائشة — وقيل: قبلها ، و بنى بها بمكة — وكان بناؤه بعائشة على رأس تسعة أشهر — وقيل : ثمانية ، وقيل ثمانية عشر شهرا — من قدومه ، والله أعلم .

---

(١) الأبواء : قرية بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا، وقيل: جبل على يمين آرة ويمين الطريق للمصعد إلى مكة من المدينة (ياقوت ١ /٩٢) وانظر تحديدها للمؤلف فى ص ٢٧٤ س ١٥ .

ثم عقد لواء لسعد بن أبي وَقَّاص فى عشرين يريدون عِيرَ قريش فى ذى القعدة ، فخرجوا على أقدامهم يَكْمُنون[1] بالنهار و يسيرون بالليل، وكان حاملَ اللواء لسعد المقدادُ بن عمرو ، فلم يجدوا شيئاً ، ثم جاء أبوقيس بن الأسْلَتِ ليسلم ، فلقيه ابنُ أُبيّ ابن سَلُولَ، فقال : تَرَبَّصْ[2] حتى ترى ، فرجع فمات كافرا .

إسلام عبد الله ابن سلام

قلت : وأسلم عبدالله بن سلام فى أول قدومه صلى الله عليه وسلم ؛ ففى البخارى من حديث عائشة التصريحُ بأنه جاء قبل دخوله صلى الله عليه وسلم دار أبي أيوب لما سمع بقدومه صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع إلى أهله ، ثم قال صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب : اذْهَبْ فهَيِّيء لنا مَقِيلاً ، فقال : قوماً على بركة الله ، أى هو وأبو بكر ، قالت : فلما جاء نبى الله صلى الله عليه وسلم جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله وأنك قد جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، فَسَلْهُم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت؛ فإنهم إنْ يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىّ ما ليس فىّ ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يامعشر اليهود ، ويلكم ! اتقوا الله ، فوالذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً ، وأنى جئتكم بحق ، فأسلموا ، قالوا : مانعلمه ، قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أفرأيتم إن أسْلَم ، قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم ، قال : أفرأيتم إن أسلم ، قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم ، كرر عليهم ذلك ثلاثا فيقولون له ذلك ، قال : يا ابن سلام اخرج عليهم ، فخرج عليهم ، فقال : يا معشر اليهود ، اتقوا الله فوالذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء بحق ، فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى رواية أن عبد الله بن سلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء ، فلما أعلمه بها أسلم ، وفى هذه الرواية ذكر

(١) يكمنون : يختفون ويستترون (٢) تربص : انتظر وتمهل

قصة اليهود المتقدمة ، وأن عبد الله بن سلام لما خرج إليهم وتَشَهَّدَ قالوا : شَرُّنا وابن شرنا ، وتنقَّصُوه ؛ فقال : هذا كنت أخاف يارسول الله ، ونَصَبت أحبار اليهود العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم بَغْيا وحَسَدا : منهم حُيَيُّ بن أخْطَب ، وأبو رافع الأعور ، وكعب بن الأشرف ، وعبد الله بن صوريا ، والزبير بن بَاطَاَ ، وشمويل ، ولبيد بن الأعصم ، وغيرهم ، ودخل منهم جماعة فى الإسلام نِفَاقاً ، وانضاف إليهم من الأوس والخزرج منافقون ، وأرى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه الأذان ، وقيل : كان ذلك فى السنة الثانية عند ما شاور صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يجمعهم به للصلاة ؛ إذ كان اجتماعهم قبل بمنادٍ « الصلاَة جامعةً » والله أعلم .

السنة الثانية من الهجرة

السنة الثانية ـ فلما جاء العاشر من المحرم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصَوْمه ، وقال : « نحن أحق بموسى من اليهود » ثم زوج علياً بفاطمة .

قلت : وذلك قبل بدر ، فى رجب على الأصح ، وبَنَى بها فى ذى الحجة كما سيأتى ، وكان لها خمس عشرة سنة ، وقيل : ثمان عشرة ، وقيل : تزوجها بعد أحد ، والله أعلم .

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه إلى الأبواء[1] وهى من وَدَّان على ستة أميال مما يلى المدينة .

قلت : ولتقاربهما أطلق عليها « غزوة وَدَّانَ » والله أعلم .

واستخلف على المدينة سعد بن عُبَادة ، وكان حامل لوائه سعد بن أبى وقاص ، ثم رجع ، ولم يَلْقَ كيدا ، فانصرف بعد ما وادع مجدىَّ بن عمرو الضَّمْرِىَّ ، ثم غزا فى مائتين من أصحابه إلى ناحية رَضْوَى ، وحاملُ لوائه سعد بن أبى وقاص ، ثم رجع ولم يلق كيداً .

قلت : وهى غزوة « بُوَاط » خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد تجار قريش

---

(١) انظر الهامشة رقم ١ فى ص ٢٧٢

أيضاً ، حتى بلغ بُوَاط من ناحية رَضوَى ، وقال ابن هشام : واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ، وفى نسخة السائب بن مظعون ، وقال الواقدى : سعد بن معاذ[1] ، والله أعلم .

ثم أغار على سَرْح المدينة كُرْزُ بن جابر الفِهْرِىُّ ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثره فى المهاجرين، وحاملُ لوائه على بن أبى طالب ، فانتهى إلى بدر ، وفاته كُرْز ، وهذه بدر الأولى .

قلت : ذكر ذلك ابن إسحاق بعد « العشيرة » بليال ، والله أعلم .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جَحْش فى سَرِيَّةٍ ، وهم الذين قتلوا فى الشهر الحرام فى اثنى عشر نفساً ، فأضل عتبة بن غزوان وسعد بن أبى وقاص راحلتيهما ، فتخلفا عنهم ، ومضى العَشَرة حتى لقوا جماعة من قريش: منهم عثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وافتدى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحكم ابن كيسان ، أسلم ، وقتلوا عمرو بن الحضرمى .

قلت : ذكرها بعضُهم بعد العشيرة ، ووصلوا نَخْلَةَ على يوم وليلة من مكة ، فمرت بهم عِيرُ قُرَيشٍ تحمل زبيبا وأدَماً من الطائف معها الجماعة المذكورون فى آخر يوم من رجب ، فاستأسروا الأسيرين ، وقتلوا عمرا ، واستاقوا العِيرَ[2] ، وكانت أول غنيمة فى الإسلام ، والله أعلم .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العشيرة ، فوادَعَ بنى مُدْلج وحلفاءهم ، ثم رجع .

قلت : وكان خروجه فيها يعترض عِيراً لقريش ، ففاتته بأيام ، واستخلف أبا سلمة بن عبد الأسد ، والله أعلم .

التوجه إلى الكعبة

قال أبو حاتم : و بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يُوَجَّهَ إلى الكعبة ، فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مُصَلًّى

---

(١) فى المطبوعات « سعيد بن معاذ » (٢) العير ــ بالكسر ــ الإبل تحمل الميرة

فدعا الله تعـالى ، فأنزل « قد نرى تَقَلُّبَ وجهك » إلى قوله « وحيث ما كنتم فولوا وجهكم شطره[١] » وقت صلاة الظهر يوم الثلاثاء النصف من شعبان ثانية سِنِي الهجرة .

قلت : سيأتى ما فيــه من الخلاف فى الفصل الثالث من الباب بعده ، والله أعـلم .

ثم نزلت فريضة الصوم فى شعبان ، فصاموا رمضان ، فلمـا فرض رمضان لم يأمرهم بصيام عاشوراء ولا نهاهم .

ثم كانت غزوة بدر فى رمضان لاثنتى عشرة ليلة خلت منه ، وقيل: يوم جمعة صبيحة سبع عشرة منه ، وقيـل : صبيحة أربع وعشرين منه ، وَكان المسلمون ثلاثمائة و بضعَةَ عشر[٢] .

قلت : الراجح القول الثانى ، وخرجت الأنصار معه صـلى الله عليه وسلم فيها ، ولم تـكن قبل ذلك خرجت معه ، ومعهم ثلاثة أفراس ، وكان المشركون ألفا ، ويقال: تسعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فرس ، وهذه بدر الثانية لما تقدم ، والله أعلم .

ثم قَتَلَ عميرُ بن عدى الخطمى العصماء امرأة من الأنصار ، وهى زوج يزيد الخطمى ، كانت تؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعر ، فقتلها، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينتطح فيها عنزان » .

قلت : قال فى الاكتفاء : إن العصماء هذه نافَقَتْ لمـا قتل أبوعفك (بالفاء و إهمال أوله) وقالت شعرا تعيب الإسلام وأهـله ، وتؤنب الأنصار فى اتباعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و إن عميرا رجع إلى قومه بعد قتلها وهم يومئذ كثيرٌ مَوْجُهم[٣] فى شأنها ، ولها بنون خمسة رجال ، فقال : يابنى خطمة ، أنا قتلت

---

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ . (٢) فى المطبوعات «و بضع عشرة» تطبيع
(٣) كثير موجهم : يريد أن الحديث فى شأنها كان كثيرا مضطربا

بنت مروانَ، يعني العصماء، فـكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ، فذلك اليوم أول ماعَزِّ الإسلام فى دار بنى خطمة ، وكان يستخفى بإسلامه فيهم مَنْ أسلم ، و يومئذ أسلم رجال منهم لمـا رأوا من عز الإسلام ، انتهى . والذى رواه ابن سيد الناس عن ابن سعد أنه قال بعد ذكر قتل عُمير للعصماء : ثم فى شوال كانت سرية سالم بن عمير إلى أبى عفك اليهودى ، وكان أبو عفك من بنى عمرو بن عوف شيخا قد بلغ عشرين ومائة ، وكان يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و يقول الشعر ، فقال سالم بن عمير وهو أحد البكائين وممن شهد بدرا : علىّ نذر أن أقتل أباعفك أو أموتَ دونه ، وذكر قتله إياه ، وهو مخالف لما قدمناه عن الاكتفاء من تقديم قتل أبى عفك على قتل العصماء ، وذكر ابن سعد أيضا أن قتل العصماء كان لخمس ليالٍ بقين من شهر رمضان ، وأن عميرا كان ضرير البصر ، وسماه رسول صلى الله عليه وسلم البصير(١) ، قيل : وكان أول من أسلم من بنى خطمة ، وكان إمامَ قومه وقارئهم ، وكان يدعى « القارىء » والله أعلم .

ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الفطر بيومين يُعَلِّم الناس زكاة الفطر .

قلت : وقيل: فى أول شوال ، وصلى صلاة الفطر ، وفيها فرضت زكاة الأموال أيضاً ، وقيل : فى الثالثة ، وقيل : فى الرابعة ، وقيل : قبل الهجرة ، وثبتت بعدها ، والله أعلم .

ثم غزا بنى قَينقاع فى شوال .

قلت : قد تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد وادع اليهودَ ، وكانوا يرجعون إلى ثلاث طوائف: بنى قَينُقاع ، والنَّضير ، وقرَيظة ، فنقض الثلاثة العهد طائفة بعد طائفة، فأول من نقض منهم بنو قَينُقَاع فحاربهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد بدر فى شوال ، فألقى الله الرُّعْبَ فى قلوبهم ، فنزلوا على حكمه ، فأراد قتلهم ،

(١) من سنن العرب أن تسمى الشىء باسم ضده ، مثل تسميتهم الصحراء « مفازة » وتسميتهم اللديغ « السليم » ولا يزال هذا يجرى فى لسان العامة إلى اليوم

فاستوهبهم منه عبدُ الله بن أبيّ وكانوا حلفاءهُ فوهبهم له ، وأخرجهم من المدينة إلى أذرِعَات ، وفى الاكتفاء : وكان منشأ أمرهم، يعنى فى نقض العهد، أن امرأة من العرب قدمت بجَلَب (١) لها ، فباعته بسوق بنى قَيْنُقَاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كَشْف وجهها ، فأبَتْ ، فعمد الصائغ إلى طَرَف ثوبها فعقَده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فوقع الشر بينهم و بين المسلمين ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه .

وروى أن ابن أبيّ قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يامحمد ، أحْسِنْ فى موالىّ ، فأعرض عنه ، وأنه قال : أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غَدَاة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك ، وقال مغلطاى فى غزوة بنى قينقاع : قال الحاكم : هذه و بنى النضير واحد ، ور بما اشتبهتا على من لا يتأمل ، وقال الحافظ ابن حجر بعد ذكر أنهم أول مَنْ نقض العهد : فغزاهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم بنى النضير ، وأغرب الحاكم فزعم أن إجلاء بنى قَيْنُقَاع و إجلاء بنى النضير كان فى زمن واحد ولم يوافَقْ على ذلك ؛ لأن إجلاء بنى النضير كان بعد بدر بستة أشهر على قول عروة ، أو بعد ذلك بمدة طويلة على قول ابن إسحاق ، وذكر الواقدى أن إجلاء بنى قَيْنُقَاع كان فى شوال سنة اثنتين ، يعنى بعد بدر بشهر ، و يؤيده ما رَوَى ابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس قال : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر جمع يهود فى سوق بنى قينقاع فقال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشا ، فقالوا : إنهم كانوا لا يعرفون القتال ، ولو قاتلتنا لعرفت أنا الرجال؛ فأنزل الله « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون (٢) »

(١) الجلب : اسم لما تجلبه من البادية لتبيعه فى المدينة
(٢) من سورة آل عمران من الآية ١٢

إلى قوله «لأولى الأبصار» وأصاب صلى الله عليه وسلم مِنْ سلاح بنى قَيْنُقاع ثلاثة أسياف ودرعين أحدهما تسمى فضة والأخرى تسمى السغدية (بالسين المهملة والغين المعجمة) قال بعض الحُفاظ: وكانت السغدية درع داود عليه السلام التى لبسها حين قتل جالوت، والله أعلم.

ثم غزا غزوة «السويق» فى ذى القعدة

غزوة السويق

قلت: سميت به لأنه كان أكْثَرَ زاد المشركين، وغنمه المسلمون لأن أبا سفيان خرج فى مائتى راكب، وقيل: فى أربعين، حتى أتوا العريض، فحرّق نخلا، وقتل رجلا من الأنصار وأجيرا له، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبه، وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخفّفُون للهرب فيلقون جُرُبَ السويق، فأخذها المسلمون فرجعوا، وذلك بعد بدر، فإن أبا سفيان حلَف بعدها أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا، ففعل ذلك، ورأى أن يمينه انحلت، والله أعلم

ثم مات عثمان بن مظعون فى ذى الحجة، فهو أول مَنْ مات من المهاجرين بالمدينة، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العيد، ثم ضحى بكبش، ثم بنى علىّ بفاطمة فى ذى الحجة

قلت: وقال النووى: وتوفيت فى ذى الحجة منها رقية[1] ابنتُه صلى الله عليه وسلم، لكن ذكر أهل السير ما يقتضى أن وفاتها كانت فى رمضان منها، والله أعلم

السنة الثالثة من الهجرة

السنة الثالثة — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ لكعب بن الأشرف»؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا له، ثم قتله

قلت: ابن الأشرف كان أصله عربيا من نَبْهَان على ما قاله ابن إسحاق، أتى أبوهُ المدينة فحالف بنى النضير، فشرف فيهم، وتزوج بنت أبى الحُقَيق، فولدت له كعبا، وكان جسيما شاعرا، وهجا المسلمين بعد وقعة بدر، وخرج إلى مكة وأنشدهم الأشعار، وبكى أصحابَ القَلِيب[2] من قريش، ونزل فيهم على المطلب

---

(١) كانت رضى الله عنها زوج عثمان بن عفان الأموى رضى الله عنه

(٢) أصحاب القليب: هم قتلى بدر من المشركين، سموا بذلك لأنهم طرحوا فى قليب هناك، والقليب: البئر

ابن أبى وَدَاعة السَّهمى ، وعنده عاتكة بنت أبى العيص ابن أمية ، فهجاه حسان وهجا امرأته عاتكة ، فطردته ، فرجع إلى المدينة وشَبَّب بنساء المسلمين ، وكان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحرض عليه كفار قريش ، وقيل : صنع طعاما وواطأ يهود أن يدعو النبى صلى الله عليه وسلم فإذا حضر فتكوا به ، ثم دعاه، فجاء ، فأعلمه جبريل فقام منصرفا وقال « مَنْ لكعب بن الأشرف » فانتدب له محمد بن مسلمة فى نفر ، واحتال عليه حتى نزل له ليلا فقتله ، وقيل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوه ، والله أعلم .

غزوة الكدر

ثم غزا غزوة الكُدر ، وكان حامل لوائه علىّ بن طالب ، فرجع ولم يلق كيدا

قلت : خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد بنى سليم ، واستخلف سباع بن عرفطة ، وقيل : ابن أم مكتوم ، فبلغ ماء يقال له الكدر ، وتعرف بغزوة «قرقرة» ، ويقال نجران ، فلم يلق أحدا ، والله أعلم .

غزوة أنمار

ثم غزا غزوة أنمار ، فجاءه دعثور فوجده نائما تحت الشجرة ، فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم على رأسه بالسيف ، فقال له دعثور : مَنْ يمنعك منى ؟ قال : الله ، فوقع السيف من يده ، وأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك منى ؟ قال : لا أحد ، قال : أذهب لشأنك ، فولّى وهو يقول : محمد خير منى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، وأنا أحق بذلك منك ، فنذرت غطفان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهربوا .

غزوة ذى أمر

قلت : هذه غزوة ذى أمر ، وسماها الحاكم غزوة أنمار ، وسمى بعضهم الأعرابيَّ غورث ، ويقال : كان ذلك فى ذات الرقاع ، ولا مانع من تعدد ذلك ، وكأنّ أبا حاتم رأى اتحادهما فلم يذكر ذات الرقاع ، وهى بنخل عند بعضهم ؛ فلذلك لم يذكرها أيضا ، والله أعلم

ثم كانت سرية القَرْدَة ، وكان أميرها زيد بن حارثة ، فلقى بها عير قريش ،

فأخذها ، وأسر فرات بن حيان ، و بلغ الخمس من تلك الغنيمة عشرين ألفا

سرية القردة

قلت : والقَرْدَة ماء من مياه نجد ، فإن قريشا بعد بدر خافوا طريقهم التى كانوا يسلكون إلى الشام ، فسلكوا طريق العراق ، وكان فى هذه العير أبوسفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة هى عُظْم تجارتهم ، والله أعلم .

ثم كانت أُحُد

غزوة أحد

قلت : كانت فى شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور ، وشذ من قال : سنة أربع ، وقال ابن إسحاق : لإحدى عشرة ليلة خلت منه ، وقيل : لسبع ليال ، وقيل : لثمان ؛ وقيل : لتسع ، وقيل : فى نصفه ، وقال مالك : كانت بعد بدر بسنة ، وفيه تجوز ، لأن بدرا كانت فى رمضان باتفاق ، فهى بعدها بسنة وشهر لم يكمل ، ولهذا قال مرة أخرى : كانت بعد الهجرة بإحدى وثلاثين شهرا [١]

وكان السبب فيها أنه لما قتل الله مَنْ قتل من كفار قريش يوم بدر ورجع مَنْ بقى منهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بِعِيرهم ، فكلموا أبا سفيان ومَنْ له فى العير مال فى الاستعانة بها على حرب النبى صلى الله عليه وسلم ففعلوا ، وقيل : كان المال خمسين ألف دينار ، فسلّم إلى أهل العير رؤس أموالهم ، وعزلت الأرباح ، وكانوا يربحون فى تجارتهم الدينار دينارا ، وجَهّزُوا الجيش بذلك ، وحركوا مَنْ أطاعهم من القبائل ، وخرجوا بأحابيشهم ومَنْ تابعهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظُّعُن [٢] لئلا يفروا ، فخرج أبوسفيان — وكان قائدَهم — بهند بنت عتبة ، وكذلك سائر أشرافهم خرجوا بنسائهم ، وكان جُبَير بن مُطْعم أمر غلامه وَحْشِيًّا الحبشى بالخروج مع الناس ، وقال له : إن قتلت حمزة عم محمد صلى الله عليه وسلم بعمى طعمة بن عدى فأنت عتيق ، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين [٣] جبل ببطن السبخة من قَنَاة على شفير الوادى مقابل المدينة ، قاله ابن إسحاق ، ووادى قناة خلف عينين بينه وبين أحد ، فإن عينين فى مقابلة أحد ، فنزلوا هم أمام

---

(١) كذا (٢) الظعن : جمع ظعينة ، وهى المرأة مطلقا ، أو مادامت فى الهودج

(٣) جبل عينين : هو جبل الرماة الذى عليه البيوت قبلى قبة حمزة (مكى) .

عينين مما يلى المدينة وفى غربيه لجهة بئر رُومَة ؛ فلا يخالف ماسيأتى عن المطرى ، ونقل ابن عقبة أن أبا سفيان سار بجمعه حتى طلعوا من بئر الجمَّاوَيْنِ، ثم نزلوا ببطن الوادى الذى قبل أحد ، وكان رجال من المسلمين أسِفُوا على ما فاتهم من مشهد بدر ، وتمنوا لقاء العدو، وأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة رؤيا ، فلما أصبح قال : رأيت البارحة فى منامى بَقَراً تذبح ، والله خير، ورأيت سيفى ذا الفقار انقصم من عند ظُبَته[1] ، أوقال به فُلُولٌ، فكرهته وهما مصيبتان ، ورأيت أنى فى درع حصينة ، وأنى مُرْدِف كبشا ، قالوا : ما أولتها ؟ قال: أولت البقر بقرا يكون فينا ، وأولت الكبش كبش الكتيبة[2] ، وأولت الدرعَ الحصينةَ المدينةَ ، فامكثوا فإن دَخَل القومُ الأزقَّة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت ، ونقل ابن إسحاق أيضا أن عبد الله بن أبىّ قال : يارسول الله ، أقِمْ بالمدينة ، ولاتخرج إليهم ، فوالله ماخرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخَلَها علينا إلا أصبنا منه ، فَدَعْهُمْ ، فقال أولئك القوم: يانبى الله كنا نتمنَّى هذا اليوم ، وأبى كثير من الناس إلا الخروج ، فلما صلى الجمعة وانصرف دعا باللأمة فلبسها ، ثم أذن فى الناس بالخروج ، فندم ذوو الرأى منهم ، فقالوا : يارسول الله امكث كما أمرتنا ، فقال : ماينبغى لنبى إذا أخذ لأمة الحرب أن يرجع حتى يقاتل ، فخرج بهم وهم ألف رجل ، وكان المشركون ثلاثة آلاف . وقال المطرى : إن نزول قريش يوم أحد بالمدينة كان يوم الجمعة ، قال : وقال ابن إسحاق : يوم الأربعاء .

قال المطرى : فنزلوا برُومَة من وادى العقيق ، وصلى النبى صلى الله عليه وسلم الجمعة بالمدينة ، ثم خرج هو وأصحابه على الحرة الشرقية حرة واقم ، وبات بالشَّيْخَيْن موضع بين المدينة وبين جبل أحد على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد ، وغدا صبح يوم السبت إلى أحد ، انتهى . ونَقَلَ الأقشهرى أنه صلى الله عليه وسلم

(١) ظبة السيف — بضم الظاء وفتح الباء مخففة — طرفه

(٢) فى ابن هشام « فأما البقر فهى ناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت فى ذباب سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل » .

دعا بثلاثة أرماح فعقد ثلاثة ألوية ؛ فدفع لواء الأوس إلى أُسَيْد بن حُضَير ، ولواء الخزرج إلى الْحُبَاب بن المنذر بن الْجَمُوح ، وقيل: إلى سعد بن عبادة، ولواء المهاجرين إلى على بن أبى طالب ، وقيل : إلى مُصْعَب بن عمير ، واستخلف على المدينة عبدَ الله بن أم مكتوم ، ثم ركب فرسَهُ ، وتقلد القوس ، ثم أخذ قَنَاته بيده، وفى المسلمين مائة دارع ، وخرج السعدان أمامه سعدُ بن مُعاذ وسعدُ بن عُبادة والناسُ على يمينه وشماله ، فمضى حتى إذا كان بالشَّيْخَين — وهما أُطُمَان — التفت فنظر إلى كتيبة حسنة لها زَجَل[1] ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : حُلَفَاء ابن أُبَىّ من يهود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نستنصر بأهل الشرك ، فلما بلغوا الشوط انخذل عبدُ الله بن أُبَىّ بثلث الناس ، انتهى .

وفى الاكتفاء أن مُخَيْرِيقاً كان من أحبار يهود، فقال لهم يومئذ : لقد علمتم إن نصر محمد عليكم لَحَقٌّ ، فتعللوا بسَبْتِهم ، فقال لهم : لا سَبْتَ لكم ، وأخذ سيفه وعُدَّته فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقاتل معه حتى قتل بعد أن قال: إن أصِبْتُ فمالى لمحمد يصنع فيه ماشاء ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مخيريق خير يهود » انتهى .

وروى الطبرانى فى الكبير والأوسط برجال ثقات عن أبى حميد الساعدى أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثَنِيَّةَ الوَدَاع فإذا هو بكتيبة حسناء ، فقال : مَنْ هؤلاء ؟ قالوا : عبد الله بن أُبَىّ فى ستمائة من مَوَاليه من اليهود من بنى قَيْنُقَاع ، فقال : وقد أسلموا ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : مُرُوهُمْ فليرجعوا ، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين .

قال الأقشهرى عقب كلامه السابق : وعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ عَرَض وردَّ من رَدَّ فى ذلك الموضع ، يعنى بالشَّيْخَين ، وأَذَّنَ بلال المغرب فصلى النبى صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، وبات بذلك الموضع صلى الله عليه وسلم ، واستعمل على الحرس فى تلك الليلة محمد بن مسلمة فى خمسين يطوفون بالعسكر ،

---

(١) لها زجل : أى صوت

وأدْلَجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السحَر وهو يرى المشركين ودليـله أبوخيثمة الحارثى ، فانتهى إلى موضع القنطرة ، فحانت الصلاة فصلى بأصحابه الصبح صفوفاً عليهم السـلاح ، قال : وقال مجاهد والـكلبى والواقدى : غدا رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزل عائشة على رجليه إلى أحد ، فجعل يصفُّ أصـحابه للقتال كما يُقَوِّمُ القِدْحَ ، وقال ابن إسحاق : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد حتى إذا كان بالشوط انخذل عبد الله بن أبىّ فى ثلاثمائة ، وفى رواية بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى ، وقال ابن عقبة : فبقى صلى الله عليه وسلم فى سبعمائة ، فلما رجع عبدُ الله بن أبىّ سقط فى أيدى طائفتين من المؤمنـــين – وهما بنو حارثة و بنو سَلِمة — وقال الأقشهرى : فبقى رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى سبعمائة ، ومعه فرسه وفرس لأبى بُرْدَة بن نيار ، وهـــذه رواية الواقدى ، والذى رواه ابن عقبة ـ كما سيأتى ـ أنه لم يكن مع المسلمين فرس ، وفى الاكتفاء بعد ذكر انخذال ابن أبىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى حتى سلكَ فى حرة بنى حارثة ، ثم قال : مَنْ رجل يخرج منا على القوم من كَثَب ، أى من قُرْب ، من طريق لا يمر بنا عليهم ؟ فقال أبو خيثمـة أخو بنى حارثة : أنا يا رسول الله ، فنفذ به فى حرة بنى حارثة و بين أموالهم حتى سلك فى مال لمربع بن قَيْظى ، وكان منافقاً ضرير البصر ، فلما سمع حس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنْ معه قام فَحَثَا فى وجوههم التراب ويقول : إن كنتَ رسولَ الله فإنى لا أحِلُّ لك أن تدخل حائطى ، وذكر أنه أخذ حَفْنة من تراب ، ثم قال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فابْتَدَرَهُ القوم ليقتـلوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر ، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد . وقال الأقشهرى : وجعل أحداً خلف ظهره ، واستقبل المدينة ، وجعل عينين [1] الجبلَ عن

(١) فى المطبوعات « يمينين الجبل » وقد مضى على الصحة وسيأتى على الصحة أيضا .

يساره ، وقال ابن عقبة : وصَفَّ المسلمون بأصل أحد ، وصف المشركون بالسبخة ، وتعبوا للقتال ، وعلى خيل المشركين ـ وهى مائة فرس ـ خالدُ بن الوليد ، وليس مع المسلمين فرس ، وصاحب لواء المشركين طلحة بن عثمان ، وأَمَّرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن جُبَير على الرُّمَاة وهم خمسون رجلا ، وعَهِدَ إليهم أن لا يتركوا منازلهم . ونقل الأقشهرى أنه جعلهم على جبل عينين . وفى الاكتفاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لأميرهم : أُنضح الخيل عنا لا يأتونا من خلفنا ، إن كان لنا أو علينا فاُثبت مكانك لا نؤتَيَنَّ من قبلك ، وظاهرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين، وتعبأ قريش، وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائة فرس قد جَنَبُوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، وقد كان أبو عامر الراهب من الأوس خرج عن قومه إلى مكة مُبَاعداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يَعِد قريشاً أن لو لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان ، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم هو فى الأحابيش وعِبْدَانِ أهل مكة . فنادى : يا معشر الأوس أنا أبو عامر، قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يافاسق، وبذلك سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يسمى فى الجاهلية الراهب ، فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومى بعدى شر ، ثم قاتلهم قتالا شديداً ، ثم راضخهم بالحجارة ، انتهى .

وروى البزار ـ ورجاله ثقات ـ عن الزبير بن العوام قال : عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً يوم أحد فقال : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام أبو دجانة فقال : يا رسول الله أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه ، فخرج ، فأتبعتُه فجعل لا يمر بشىء إلا أفراه[1] وهتكه ، حتى أتى نسوة فى سفح الجبل ومعهن هند وهى تقول :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
والدر فى المخانق والمسك فى المفارق[2]

(١) أفراه وفراه : مزقه

(٢) المخانق : النحور ، أى الأعناق ، والمفارق : جمع مفرق ، وهو موضع فرق الشعر من الرأس

إن تُقْبِـلُوا نُعَانق ونفــرش النمارق
أو تُدْبِرُوا نفارق فِرَاقَ غَيْرِ وامق(١)

يعنى تُحَرِّضُهم بذلك ، قال : فحمل عليها ، فنادت بالصحراء فلم يجبها أحد ، فانصرف عنها ، فقلت له : كل سيفك رأيته فأعجبنى غير أنك لم تقتل المرأة، قال : فإنها نادت فلم يجبها أحد ، فكرهت أن أضرب بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة لا ناصر لها .

وفى الاكتفاء : ذكر الزبير رضى الله عنه أن سيف عبد الله بن جَحْش انقطع يوم أحد ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عُرْجُوناً، فعاد فى يده سيفاً قائمهُ منه ، فقاتل به ؛ فكان ذلك السيف يسمى العرجون ، ولم يزل بعد يتوارث حتى بيع من بُغَا التركى بمائتى دينار .

وروى البزار برجال الصحيح عن بريدة أن رجلا قال يوم أحد : اللهم إن كان محمد على الحق فاخسف به ، قال : فخسف به .

وقال ابن إسحاق : قتل أصحاب لواء المشركين وهم تسعة بأحد واحد بعد واحد .

وقال غيره : أحَدَ عشر آخرهم غلام لبنى طلحة .

وقال ابن عقبة : وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير أخو بنى عبدالدار ، فبارز طلحة بن عثمان من بنى عبد الدار فقتله ، وحمل المسلمون على المشركين حتى أجْهَضُوهم(٢) ، وحملت خيل المشركين فنضَحَتهم الرماة بالنبل ثلاث مرات ، فدخل المسلمون عسكر المشركين فانْتَهَبُوه ، فرأى ذلك الرماة ، فتركوا مكانهم ، ودخلوا العسكر، فأبصر ذلك خالد ومَنْ معه ، فحملوا على المسلمين فى الخيل ، فمزقوهم ، وصرخ صارخ : قتل محمد ، أخراكم ، فعطف المسلمون يقتل بعضهم بعضاوهم لايشعرون، وانهزم طائفة منهم وتفرق سائرهم ، ووقع فيهم القتل، وثبت نبى الله حين

---

(١) الوامق : المحب ، ومقه يمقه مقة ، على مثال وصفه يصفه صفة
(٢) أجهضوهم : غلبوهم ونحوهم وأبعدوهم .

انكشفوا عنه وهو يدعوهم فى أخراهم ، حتى رجع إليه بعضهم وهو عند المهراس فى الشعب ، وتوجه النبى صلى الله عليه وسلم يلتمس أصحابه ، فاستقبله المشركون فرموا وجهه فأدموه وكسروا رباعيته ، فمر مُصْعِدا[1] فى الشِّعب ومعه طلحة والزبير ، وقيل: معه طائفة من الأنصار منهم سهل بن بيضاء والحارث بن الصمة ، واشتغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهم يقطعون الآذان والأنوف والفروج ويَبْقُرون البطون ، وهم يظنون أنهم أصابوا النبى صلى الله عليه وسلم وأشراف أصحابه ، فقال أبو سفيان يفتخر بإلٰهه « أُعْلُ هُبَلُ » فناداه عمر : الله أعلى وأجل ، ورجع المشركون إلى أثقالهم .

الرسول يقتل أبى ابن خلف

قال ابن إسحاق : كان أول مَنْ عَرَفَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وتحدث الناس بقتله ، كَعْبَ بن مالك الأنصارى ، قال : عرفت عينيه يزهران تحت المِغفر ، فناديت بأعلى صوتى : يامعشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلىّ أن أنْصِتْ ، فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهَضُوا به ، ونهض معهم نحو الشِّعب معه أبو بكر وعمر وعلى وطلحة والزبير والحارث بن الصمة ورَهْط من المسلمين ، فلما أسند رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب أدركه أُبىّ بن خَلَف وهو يقول : أين محمد ؟ لانجوت إنْ نجَا ، فقال القوم : يارسول الله أيَعْطِفُ عليه رجل منا؟ فقال : دَعُوه ، فلما دَنَا تناول رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ، يقول بعض القوم : فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبله فطعنه فى عُنُقه طعنةً تدأدأ منها[2] عن فرسه مرارا ، وكان أبىّ بن خلف يَلْقَىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فيقول : يامحمد إن عندى العود فرسا أعلفه كل يوم فَرْقًا[3] من ذرة أقتلك عليه ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما رجع إلى قريش وقد خَدَشه فى عنقه خدشا غير كبير فاحتقن الدم ، قال : قتلنى والله محمد ، فقالوا :

(١) مصعدا : صاعدا راقيا فى الجبل .

(٢) تدأدأ منها : تمايل (٣) الفرق — بالفتح — مكيال يسع ثلاثة آصع

ذَهَبَ والله فؤادك ، والله إنْ يَكُ بأس[1] ، قال : إنه قد كان ، قال بمكة : أنا أقتلك ، فوالله لو بَصَقَ عليَّ لقتلني ، فمات عدوُّ الله بسرف وهم قافلون[2] إلى مكة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيماقاله يومئذ : اشتدَّ غَضَبُ الله على رجل قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسُحْقاً لأصحاب السعير .

وفى الصحيح عن عائشة قالت : لما كان يومُ أحد هزم المشركون هزيمة بينة ، فصاح إبليس : أى عباد الله ، أخراكم ، فرجعت أولاهم ، فاجتلدت مع أخراهم ، فنظر حذيفة فإذا هو بأبيه فنادى : أى عباد الله ، أبى أبى ، فقالت : فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم .

ونقل الأقشهرى أن أبا سفيان بن حرب قال يومئذ لبنى عبد الدار : إنكم ضيعتم اللواء يوم بدر ، فأصابنا ما رأيتم ، فادفعوا اللواء إلينا نَكْفِكم ، وإنما أراد تحريضهم على القتال والثبات ، فغضبوا وأغلظوا له ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل : مَنْ يحمل لواء المشركين ؟ قيل : عبد الدار ، قال : نحن أحق بالوفاء منهم ؟ أين مصعب بن عمير ؟ فقال : ها أنا ، قال : خذ اللواء ، فأعطاه اللواء ، وإن حمزة رضى الله عنه حَمَلَ على عثمان بن طلحة حامل لواء المشركين فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مُؤْتَزَرِه[3] ، ثم إن أصحاب اللواء قتلوا واحداً بعد واحد ، فانكشف المشركون منهزمين ، ونساؤهم يدعون بالويل والثبور ، وتبعهم المسلمون يَضَعُون فيهم السلاح ، ووقفوا يأخذون الغنائم ، فلما رأى الرماة ذلك أقبل جماعة منهم وخلوا الجبل ، فكر خالد بالخيل ، فتبعه عكرمة ، فحملوا على مَنْ بقى من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جُبَير ، وانتقضت صفوف المسلمين ، ونادى إبليس : قتل محمد ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزول ، يرمى عن قوسه حتى صارت شَظَايا ، ويرمى بالحجارة ، وثبت معه عصابة من الصحابة أربعة عشر من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر وسبعة من الأنصار . اه

(١) إن يك بأس : أى مايكون بأس (٢) قافلون : راجعون
(٣) مؤتزره : الموضع الذى يلبس فيه الإزار

وروى النسائى عن جابر قال : لما ولّى الناسُ يوم أُحُدٍ كان النبى صلى الله عليه وسلم فى اثنى عشر رجلا من الأنصار فيهم طلحة .

ووقع عند الطبرى من طريق السدى قال : تفرق الصحابة فدخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم فوق الجبل ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناسَ إلى الله ، فرماه ابن قميئة بحجر فكسر أنفه ورَبَاعيته وشَجَّه فى وجهه فأثقله ، فتراجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثون رجلا ، فجعلوا يَذُبُّون عنه[1] ، فحمله منهم طلحة وسهل بن حُنَيف ، فَرُمِىَ طلحة بسهم فيبست يده ، وقال بعض من فر إلى الجبل : ليت لنا رسولا إلى عبدالله بن أبىّ يستأمن لنا من أبى سفيان ، فقال أنس بن النضر : يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، ثم ذكر قصة قتله ، وقصد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الجبل ، فأراد رجل من أصحابه أن يرميه بسهم ، فقال : أنا رسول الله ، فلما سمعوا ذلك فرحوا به ، واجتمعوا حوله ، وتراجع الناس .

وروى أحمد عن سعد بن[2] أبى وَقّاص قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يوم أُحُد رجلين[3] عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشدّ القتال ، ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ ، وقد أخرجه الشيخان ، وفى رواية لمسلم : يعنى جبريل ومكائيل ، وقول مجاهد « لم تقاتل الملائكة يومئذ ولا قبله ولا بعده ، إلا يوم بدر » . قال البيهقى : أراد به أنهم لم يقاتلوا يوم أُحُدٍ عن القوم حين عَصَوْا الرسول ولم يصبروا على ما أمرهم به .

وعن عروة بن الزبير : كان الله وَعَدَهم على الصبر والتقوى أن يُمِدَّهم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمِين ، وكان قد فعل ، فلما عَصَوْا أمر الرسول وتركوا مَصَافَّهم وتركت الرماة عَهْدَه إليهم وأرادوا الدنيا رفع عنهم مَدَد الملائكة ،

(١) يذبون عنه : يدفعون عنه . (٢) فى المطبوعات « أسعد بن أبى وقاص »

(٣) فى المطبوعات « رجلان » .

وأنزل الله « لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه[1] » فصدق الله وعده ، وأراهم الفتح ، فلما عصوا أعقبهم البلاء .

وعند ابن سعد : ثبت معه صلى الله عليه وسلم سبعة من الأنصار وسبعة من قريش .

وفى مسلم من حديث أنس : أفرد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش طلحةَ وسعدٍ .

وقال ابن إسحاق : حدثنى حُمَيْدٌ الطويلُ عن أنس قال : كسرت رَبَاعية النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وشُجَّ فى وجهه ، فجعل يسيل الدمُ على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يُفْلِحُ قومٌ خَضَبُوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله تعالى « ليس لك من الأمر شىء[2] » الآية .

وروى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبى وَقَّاص قال : ماحَرَصْتُ على قتل رجل قط حِرْصِى على قتل أخى عُتْبَة بن أبى وقاص لما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكر ابنُ هشام فى حديث أبى سعيد الخدرى أن عُتبة بن أبى وقَّاص أخا سعد هو الذى كسر رَبَاعية النبى صلى الله عليه وسلم السفلى ، وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب هو الذى شَجَّه فى جبهته ، وأن عبد الله بن قميئة جرحه فى وَجْنَته ، فدخلت حلقتان من حلق المِغْفَر فى وجنته ، وأن مالك بن سنان مَصَّ الدمَ من وجهه ، ثم ازْدَرَدَه[3] ، فقال له : لن تَمَسَّكَ النار .

وفى الطبرانى من حديث أبى أمامة قال : رمى عبدُ الله بن قميئة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فَشَجَّ وجهه ، وكسر رَبَاعيته ، وقال: خذها وأنا ابن قميئة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه : مالَكَ أقمأك الله ، فسلط الله عليه تَيْسَ جبل ، فلم يزل يَنْطَحه حتى قطَّعَهُ قطعة قطعة .

---

(١) من سورة آل عمران من الآية ١٥٢ (٢) من سورة آل عمران من الآية ١٢٨

(٣) ازدرده : ابتلعه

وقال السهيلى : الذى كسر رَبَاعية رسول الله صلى الله عليه وسلم عُتْبَةُ بن أبى وقاص أخو سعد ، لم يولد من نسله ولد فيبلغ الحلم إلا وهو أَبْخَر أو أهتم ، يُعرف بذلك فى عقبه .

وروى ابن الجوزى عن محمد بن يوسف الفريابى قال : لقد بلغنى أن الذين كسروا رَبَاعية النبى صلى الله عليه وسلم لم يولد لهم صبى فنبتت له رَبَاعية .

وقيل : كان سبب الهزيمة أن ابن قميئة الليثى قتل مُصْعب بن عمير ، وكان مصعب إذا لبس لأْمَتَهُ يشبه النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما قتله ظن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع إلى قريش وقال: قد قتلت محمداً ، فازدادوا جُرْأة وصاح إبليس من العقبة: قتل محمد ، فلما سمع المسلمون ذلك وهم متفرقون كانت الهزيمة ، فلم يَلْوِ أحد على أحد[1] .

والصواب أن السبب مخالفة الرماة للأمر ، وهذا مؤكد له ومتمم ، مع أن الأصل فى ذلك — مع إرادة الله تعالى — ما اتفق ببدر من أخذ الفداء ، فقد أخرج الترمذى[2] والنسائى عن على أن جبريل هبط فقال : خيّرهم فى أسارى بدر القتل أو الفداء على أن يقتل منهم مِنْ قابل مثلهم ، قالوا : الفداء ويقتل منا ، وقال الترمذى : حسن ، وذكر غيره له شواهد تقويه ، ولهذا جاء فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائةً ، وقتلوا سبعين ، وأسروا سبعين . وفيه أيضا أن المشركين أصابوا يوم أحد من المسلمين سبعين ، ولفظه من حديث البراء قال : لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبى صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة ، وأمَّرَ عليهم عبد الله بن جُبَير ، وقال: لا تبرحوا ، فإن رأيتمونا ظهرنا عليهم[3] فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا ، فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يَشْتَدِدْنَ فى الجبل رفعن عن سُوقِهن قد بدت خَلاَخِلُهن، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة ، فقال عبد الله :

(١) لم يلو أحد على أحد: أى لا يلتفت إليه ولا يعطف عليه . (٢) انظره ١/٢٩٧ بولاق
(٣) ظهرنا عليهم : غلبناهم ، ولا تبرحوا : لا تفارقوا مكانكم .

عهد إلىّ النبى صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا ، فأبوا ، فلما أبوا صَرَفَ الله وجُوهَهم ، فأصيب سبعون قتيلا .

ووقع عند مسلم من طريق ابن عباس عن عمر فى قصة بدر قال : فلما كان يوم أحد قتل منهم سبعون وفروا ، وكسرت رَبَاعية النبى صلى الله عليه وسلم ، وهُشِمَت البيضة على رأسه ، وسال الدمُ على وجهه ، فأنزل الله تعالى : « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها[1] » الآية ، والمراد بكسر الرباعية – وهى السن التى تلى الثَّنية والناب – أنها كسرت فذهب منها فلقة ، ولم تقلع من أصلها ، وقوله « وفروا » أى بعضهم، أو أطلق ذلك باعتبار تفرقهم ، والواقع أنهم صاروا ثلاث فرق : فرقة استمروا فى الهزيمة إلى قرب المدينة ، فما رجعوا حتى انقضى القتال ، وهم قليل ، وهم الذين نزل فيهم « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان[2] » وفرقة صاروا حَيَارى لما سمعوا أن النبى صلى الله عليه وسلم قتل ، فصار غاية الواحد منهم أن يَذُبّ عن نفسه ، أو يستمر على نصرته فى القتال إلى أن يقتل ، وهم أكثرهم ، وفرقة بقيت مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم تراجع إليهم القسمُ الثانى شيئاً فشيئاً لما عرفوا أنه حى ، وما ورد من الاختلاف فى العدد محمول على تعدد المواطن فى القصة .

ووقع عند أبى يَعْلى فى حديث عمر المتقدم : فلما كان عام أحد عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون .

وفى الاكتفاء : أنه لما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء علىّ بن أبى طالب ، فقاتل فى رجال من المسلمين ، ولما اشتد القتال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تحت راية الأنصار ، وأرسل إلى على أن قدم الراية ، فتقدم فقال : أنا أبو القصم ، فناداه أبو سعد بن أبى طلحة : هل لك يا أبا القصم فى البِرَاز[3] من حاجة ؟ قال : نعم ، فبرزا بين الصفين، فاختلفا ضربتين :

---

(١) من سورة آل عمران من الآية ١٦٥ (٢) من سورة آل عمران من الآية ١٥٥
(٣) البراز : القتال

فضرب به عليّ فصرعه، ثم انصرف ولم يُجْهِزْ عليه[١]، فقال له أصحابه : أفلا أجهزت عليه ؟ فقال : إنه استقبلني بعَوْرَته ، فعطفتني عليه الرحم ، وعرفت أن الله قد قتله .

وقد قيل : إن سعد بن أبي وقاص هو الذي قتل أبا سعد هذا .

وروى الطبراني برجال الصحيح عن ابن عباس قال : دخل علي بن أبي طالب على فاطمة يوم أحد فقال : خذي هذا السيف غيرَ ذَميم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لئن كنت أحسنتَ القتالَ فقد أحسنه سَهْلُ بن حنيف وأبو دجانة ابن خرشة .

وذكر في الاكتفاء دخول الحلقتين من حلق المِغْفَر في وَجْنته صلى الله عليه وسلم ، وأنه وقع في حُفْرة من الحفر التي عمل أبو عامر الراهب ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون ، فأخذ عليّ بيده ، ورفعه طلحة حتى استوى قائماً ، ومَصَّ مالك ابن سِنان والدُ أبي سعيد الخدري الدمَ من وجهه ، ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه صلى الله عليه وسلم فسقطت ثَنِيَّته ، ثم نزع الأخرى وسقطت ثنيته الأخرى ، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال سعد : فلقد رأيته يُنَاولني النَّبْلَ ويقول « ارْمِ فِدَاكَ أبي وأمي » ، وأصيب يومئذٍ عينُ قَتَادة بن النعمان فردها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده ، فكانت أحْسَنَ عينيه ، وأصيب فم عبد الرحمن بن عَوْف فهتم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر أصابه بعضها في رجله فعرج ، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشِّعْب ومعه أولئك النفرُ من أصحابه ، فبينما هم في الشعب إذ علت عالية من قريش : الجَبَلَ ، فقال : ألّلهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ورَهْط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل ، ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع ، وقد كان بَدَّنَ[٢] وظاهر بين

(١) أجهز على الجريح : تمم قتله حتى زهقت روحه .

(٢) بدن : سمن وعلاه الشحم ، وذلك أثر من آثار السن .

درعين[1] ، فجلس تحته طلحة بن عبيدالله فنهض به حتى استوى عليها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَوْجَبَ طَلْحَةُ[2] » وصلى النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ الظهرَ قاعداً من الجراح التى أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعودا .

وفى الصحيح من حديث البَرَاء أن أباسفيان ـ حين أراد الانصرافَ ـ قال : « لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أجيبُوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال « قولوا : الله مَوْلانا ولا مَوْلى لكم » .

وفيه أيضاً أن أبا سفيان أشرف يوم أُحُدٍ فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال : لا تجيبوه ، فقال : أفى القوم ابن أبى قُحَافة ؟ قال : لا تجيبوه ، قال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فلما لم يُجِبْهُ أحد قال : إن هؤلاء قتلوا ، ولو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه فقال : كَذَبْتَ يا عدو الله ، قد أبقى الله لك ما يُخْزِيكَ .

قال ابن إسحاق : فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له : هلم إلى يا عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : ائْتِهِ فانظر ماشأْنه ، فجاء ، فقال له أبو سفيان: أَنْشُدُك بالله يا عمر أَقَتَلْنا محمداً ، فقال عمر : أللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال : أنت أَصْدَقُ عندى من ابن قميئة وأبر ، ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان فى قتلاكم مثل ، والله مارضيتُ وماسخطت ، وما أمرت ومانهيت ، ولما انصرف أبو سفيان ومَنْ معه نادى : إن مَوْعِدَكم بدر العامَ القابل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه « قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد » ثم بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فقال : اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون ، فإن كانوا قد جَنَبُوا الخيلَ وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيلَ وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرَنَّ إليهم فيها ثم لأناجزَنَّهُمْ ، فخرج علىّ فرآهم قد جَنَبُوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة ، وفزع الناس اقتلاهم ،

---

(١) ظاهر بين درعين : جمع بينهما .

(٢) أوجب طلحة : أراد استحق الجنة ثوابا على جميل صنعه .

وانتشروا يبتغونهم ، وسيأتى خبرهم وتعيينهم إن شاء الله تعالى فى الفصل السادس من الباب الخامس ، و بكى المسلمون يومئذ على قتلاهم ، فسُرَّ المنافقون ، وظهر غِشُّ اليهودِ ، وفارت المدينة بالنفاق .

الحكم التى فى قصة أحد

قال العلماء : وكان فى قصة أحد من الحكم والفوائد أشياء عظيمة .

منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشؤم ارتكاب النهى ؛ لما وقع من الرماة .

ومنها : أن عادة الرسل أن تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة .

ومنها : إظهار أهل النفاق حتى عرف المسلمون أن لهم عدوا بين أظهرهم .

ومنها : أن فى تأخير النصر هَضْماً للنفس .

ومنها : أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فسبَّبَ لهم ذلك ليبلغوها .

ومنها : أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء ، فساقها لهم بين يدى الرسول ليكون شهيداً عليهم .

قال ابنُ إسحاق : وفى شأن أحُد أنزل الله ستين آية من آل عمران .

وروى ابن أبى حاتم من طريق المِسْوَر بن مَخْرَمة قال : قلت لعبد الرحمن ابن عوف : أخبرنى عن قصتكم يوم أحُد ، قال : اقرأ العشرين ومائة من آل عمران تجدها « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » إلى قوله « أَمَنَةً نُعَاساً » [1] .

أبو عزة الجمحى ومقتله

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الوقعة مرهباً لعدوه حتى انتهى إلى حَمْرَاء الأسد ، فأخذ فى وجههِ ذلك أبا عَزَّةَ الْجُمَحِيَّ ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد مَنَّ عليه يومَ بدر بغير فداء ، وأخذ عليه أن لا يظاهر[2] عليه أحد ، وكان شاعرا ، فقال له صَفْوَان بن أمية : إنك امرؤ شاعر فأعِنَّا بلسانك ، ولم يزل به

(١) من سورة آل عمران الآيات من ابتداء الآية ١٢١ .
(٢) لا يظاهر أحدا عليه : لا يعين أحدا عليه .

حتى خرج معهم ، فلما أَخَذَه النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله أَقِلْني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لاتمسح عارضيك بمكة تقول: خَدَعْتُ محمداً مرتين ، اُضْرِبْ عُنُقه ياز بير ، فضرب عنقه .

وفى رواية أنه قال له « إن المؤمن لايُلْدَغُ من جُحْرٍ مرتين ، اضربْ عنقه ياعاصمُ بن ثابت » فضرب عنقه .

تحريم الخمر

وفى هذه السنة أيضاً حرمت الخمر ، ويقال : فى التى بعدها ، وقال الحافظ ابن حجر : الذى يظهر أن تحريمها كان عامَ الفتح سنة ثمان ، واستدل بشىء فيه نظر .

وتزوّج النبي صلى الله عليه وسلم حَفْصَة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فى شعبان على الأصح ، وقيل : فى التى قبلها ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين فى رمضان ، فمكثت عنده شهرين أو ثلاثة ، وقيل : ثمانية أشهر ، وماتت ، وولد الحسن بن على فى منتصف رمضان ، وعلقت أمه بالحسين بعد خمسين ليلة : وتزوج عثمان أمَّ كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

السنة الرابعة من الهجرة

السنة الرابعة — وكانت بئر مَعُونة أولها فى المحرم .

قلت : فى الصحيح من رواية أنس قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه رعل وذَكْوَان وعصية وبنو لَحْيَان ، فزعموا أنهم قد أسلموا ، واستمدُّوه على قومهم ، فأمدهم النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين من الأنصار ، قال أنس : كنا نسميهم القراء ، يَحْطِبون بالنهار ويُصَلُّون بالليل ، فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غَدَرُوا بهم وقتلوهم ، فَقَنَتَ شهرا يدعو على رعل وذكوان وبنى لحيان ، وفى بعض الروايات ما يقتضى أن الذين استمدوا لم يُظْهِرُوا الإسلام ، بل كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد ، وأنهم غير الذين قتلوا القراء لكنهم من قومهم ، وهو الذى فى كتب السير وقد بَيَّن ابن إسحاق فى المغازى وكذلك موسى بن عقبة عن ابن شهاب أسماء الطائفتين ، وأن أصحاب العهد هم بنو عامر ورأسهم أبو بَرَاء

عامر بن مالك بن جعفر ، المعروف بمُلَاعب الأَسِنَّة ، وأن الطائفة الأخرى من بنى سليم ، وأن عامر بن أخى ملاعب الأسنة أراد الغدر بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فدعا بنى عامر إلى قتالهم ، فامتنعوا وقالوا : لا نَخفِرُ[١] ذمة أبى بَرَاء ، فاستصرخ عليهم عصية وذكوان من بنى سليم ، فأطاعوه وقتلوهم ، قالوا : ومات أبو بَرَاء بعد ذلك آسفا على ماصنع به عامر بن الطُّفَيْل ، وقيل : أسلم أبو براء عند ذلك ، وقاتل حتى قتل ، وعاش عامر بن الطفيل حتى مات كافراً بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم ، أصابته غُدَّة كغُدَّة البعير[٢] ، ولم يكن القراء المذكورون كلهم من الأنصار ، بل كان بعضُهم من المهاجرين مثل عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ونافع بن ورقاء الخزاعى وغيرها ، كما يؤخذ من الصحيح أيضاً ، والله أعلم .

ثم كانت غزة الرَّجِيع فى صفر .

غزوة الرجيع

قلت : ذكرها ابن إسحاق فى الثالثة قبل بئر مَعُونة . والرجيع : موضع ببلاد هذيل ، والله أعلم .

ثم كانت غزوة بنى النضير .

غزوة بنى النضير

قلت : ذكرها بعضهم فى الثالثة قَبْلَ أحد ، وقال الزهرى : كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل أحد ، وذكرها ابن إسحاق فى الرابعة بعد بئر مَعُونة وأن سببها أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءهم يستعينُهم فى دِيَةٍ ، وجلس إلى جنب جدار لهم ، فخلا بعضُهم ببعض ، وأمروا عمرو بن جحاش أن يَرْقى فيُلْقى عليه صخرة ، فأتاه الخبرُ من السماء ، فقام مُظْهِراً أنه يقضى حاجة ، وقال لأصحابه : لا تبرحوا ، ورجع مسرعا إلى المدينة ، فأمر بحربهم والمسيرِ إليهم ، وأمر بقطع النخل والتحريق ، قال : وحاصَرهم ستَّ ليالٍ ، فسألوا أن يُجْلَوْا من أرضهم على أن لهم ما حملت الإبلُ ، فصولحوا على ذلك ، فاحتملوا إلى خيبر و إلى الشام ؛ فكانت أموالهم له

---

(١) «لا نخفر ذمته» تقول «خفرت ذمة فلان» إذا حفظتها ورعيتها ، وإذا نقضتها ، ضد

(٢) يروى أنه مرض فى الطريق ، فمال إلى بيت امرأة من سلول ، فلما اشتد به المرض كان يقول « غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية » .

صلى الله عليه وسلم خاصة ، ووافق ابنَ إسحاق على ذلك جلُّ أهل المغازى ، وأصح منه ما رواه ابن مردويه بسند صحيح أنهم أجمعوا على الغَدْر ، فبعثوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم : اخْرُجْ إلينا فى ثلاثة من أصحابك و يلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك ، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر ، فأرسلت امرأة من بنى النَّضِير إلى أخ لها من الأنصار مُسْلم تخبره بأمْرِ بنى النضير ، فأخبر أخوها النبيَّ صلى الله عليه وسلم بأمر بنى النضير قبل أن يصل إليهم ، فرجع وصَبَّحهم بالكتائب ، فحصَرهم يومه ، ثم غدا على بنى قُرَيظة فحاصرهم ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم إلى بنى النضير فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلَّتِ الإبل(١) إلا السلاح ، فاحتملوا أبواب بيوتهم ؛ فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها و يحملون ما يوافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حَشْر الناس إلى الشام .

ورواه أيضا عبدُ بن حُمَيْد فى تفسيره ، وروى أيضا من طريق عِكْرِمة أن غزوتهم كانت صبيحة قتل كعب بن الأشرف ، وروى أن قريشا كتبوا لبنى النضير يحثونهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأضمروا الغدر بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ولما حرق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نخلَهم قال حسان رضى الله عنه يعير قريشا من أبيات :

وهان على سَرَاة بنى لؤى ... حَرِيقٌ بِالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ولم يكن أسلم حينئذ :

أدام الله ذلك من صَنِيع ... وحَرق فى نواحيها السعير
سَتَعْلَمُ أيُّنَا مِنْهَا بنَزْهٍ ... وتَعْلَم أى أرضينا تَضِيرُ

أى ستعلم أينا منها ببعد ، وأى الأرضين أرضنا أو أرضكم يحصل لها الضير : أى الضرر ؛ لأن بنى النضير إذا خربت أضرت بما جاورها وهو أرض الأنصار لا أرض قريش ، ونقل ابن سيد الناس عن أبى عمرو الشيبانى أن الذى قال البيت المتقدم المنسوب لحسان هو أبو سفيان بن الحارث ، وأنه لما قال :

(١) ما أقلت الإبل : ما حملته ، وبهذا اللفظ روى فى الرواية السابقة .

* وعَزَّ على سراة بنى لؤى *

بدل « هان » قال : ويروى « بالبويلة » بدل « بالبويرة » وأن المجيب له بالبيتين المتقدمين هو حسان ، وما قدمناه هو رواية البخارى .

قال ابن سيد الناس : وما ذكره الشيبانى أشْبَهُ .

قلت : كأنه استبعد أن يدعو أبو سفيان فى حالة كفره على أرض بنى النضير ، وقد قدمنا وجهه ، وكان أشراف بنى النضير بنو الحقيق وحُيَيّ بن أخطب ، فكانوا فى مَنْ سار إلى خيبر ، فَدَان[1] لهم أهلها ، وأسلم منهم يامين بن عمير وأبو أسعد بن وهب ، فأحرزا أموالهما .

وروى ابن شبة عن الكلبى قال : لما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم على أموال بنى النضير قال للأنصار : إن إخوانكم من المهاجرين ليست لهم أموال ، فإن شئتم قسمت هذه الأموال بينهم و بينكم جميعا ، و إن شئتم أمسكتم أموالكم فقسمت هذه فيهم ، قالوا : بل أقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت ، فنزلت (و يُؤْثِرُونَ على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة[2]) . وقال ابن إسحاق : قسمها صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين إلا سهل بن حُنَيْف وأبو دجانة ، ذكرا فقراً فأعطاهما منها ، والله أعلم .

ثم ولد الحسين بن على .

قلت : المشهور فى ولادته أنها فى الثالثة كما قدمناه ، والله أعلم .

ثم كانت بدر الموعود .

قلت : هى بدر الثالثة لما تقدم ، والله أعلم .

ثم كان مقتل سلام[3] بن مشكم أى أبى رافع ، ويقال : عبدالله بن أبى الحقيق وهى سرية عبيد الله بن عتيك . ثم رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهوديين اللذين كان يحنى أحدهما على الآخر .

---

(١) دان لهم أهلها : خضعوا وانقادوا (٢) من سورة الحشر من الآية ٩

(٣) كذا فى الأصول وفى الخلاصة ، وفى نسخة « ابن سلام بن مشكم » وهو الصواب

زواج أم سلمة هند بنت أبى أمية

قلت : وفيها فى شوال تزوج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أم سَلمة هندَ — وقيل : رملة — بنت أبى أمية ، وهى أول من هاجر مع زوجها أبى سلمة إلى الحبشة ثم هاجرت إلى المدينة ، كذا ذكر بعض أهل السير ، وقال أبو عمر : تزوجها صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين بعد بدر فى شوال

غزوة ذات الرقاع

وفيها غزوة ذات الرقاع بعد بنى النضير بشهرين عند ابن إسحاق ، وقيل : فى الخامسة ، وذكرها البخارى بعد خيبر لما فى الصحيح من حضور أبى موسى الأشعرى فيها ، وهو من أصحاب السفينة ، ولا مانع من التعدد ، والله أعلم .

السنة الخامسة من الهجرة

السنة الخامسة — ثم فَكَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سَلْمَانَ من الرق ، ثم خرج إلى دُومَة الجندل ، فرجع ولم يَلْقَ كيداً . ثم توفيت أم سعد بن عُبَادة . ثم كسف القمر فى جمادى الآخرة ؛ فصلى بهم كصلاة كسوف الشمس

قلت : وجعلت اليهود يضربون بالطساس ، ويقولون : سحر القمر . وروى ابن حبان فى صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم صلى لكسوف القمر ، والله أعلم

ثم أصابت قريشا شدة ، فبعث إليهم بفضة يتألفهم بها . ثم وفَد بلاَل بن الحارث المزنى ، فكان أول وافد مسلم إلى المدينة . ثم قدم ضمام بن ثعلبة ، ثم غزا المريسيع فى شعبان ، وفيها أنزلت آية التيمم بسبب عِقْدِ عائشة رضى الله عنها .

قلت : وسيأتى أن الأشبه أن بنى المُصْطَلَق هى هذه ، والله أعلم .

ثم غزوة الخندق

غزوة الخندق

قلت : هكذا ذكره ابن إسحاق ، وهو المعتمد ، وقال موسى بن عقبة : كانت فى شوال سنة أربع ، وصححه النووى فى الروضة ، مع قوله بأن بنى قريظة فى الخامسة ، وهو عجيب ؛ لما سيأتى من أنها كانت عقيب الخندق ، سميت بذلك لِحَفْرِ النبى صلى الله عليه وسلم الخندقَ بإشارة سَلْمان الفارسى ، وتسمى بالأحزاب لاجتماع طوائف من المشركين فيها على الحرب ، وهم الذين سماهم الله تعالى الأحزاب ، وأنزل الله فى ذلك صَدْرَ سورة الأحزاب ، وذلك أن حُيَيَّ بن أخْطَب فى نفر من بنى النَّضِير خرجوا من خيبر إلى مكة ، فَحَرَّضوا قريشا على

الحرب ، وخرج كنانة بن أبى الحُقَيْق يَسْعَى فى بنى غَطَفان و يحضّهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لهم نصف تمرِ خيبر ، فأجابه عُيَيْنة بن حِصْن الفَزَارى ، وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد فأقبل إليهم طُلَيْحَة بن خُوَيلد فيمن أطاعه ، وخرج أبو سفيان بن حرب بقريش ، فنزلوا مَرّ الظَّهْرَان ، فجاءهم مَنْ أجابهم من بنى سليم ، وكانوا قد استمدوهم فصاروا فى جمع عظيم — ذكر ابن إسحاق بأسانيد أن عدّتهم عشرة آلاف ، قال : وكان المسلمون ثلاثة آلاف — وقيل : كان المسلمون ألفا ، والمشركون أربعة آلاف — وذكر موسى بن عقبة أن مدة الحصار كانت عشرين يوما ، ونزلت قريش بمجتمع السيول من رُومَة بين الجرف وزُغابة ، وغطَفانُ ومن تبعهم من أهل نجد بذنب نقمى إلى جانب أحد .

وفى رواية ابن مردويه عن ابن عباس : ونزل عُيَيْنَة فى غطفان و مَنْ معهم من أهل نجد إلى جانب أحد بباب نعمان ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع ، والخندقُ بينه و بين القوم ، وجعل النساء والذرارى فى الآطام .

وقال ابن إسحاق : نزلت قريش بمجتمع السيول فى عشرة آلاف مِنْ أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة وتهامة ، ونزل عُيَيْنَة فى غطفان ، وذكر ما تقدم من رواية ابن عباس المذكورة .

وروى الطبرانى ورجاله ثقات عن رافع بن خديج قال : لم يكن حصنٌ أحْصَنَ من حصن بنى حارثة ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم النساء والصبيان والذرارى فيه ، وقال : إن لم يكن أحد فالمعن بالسيف ، فجاءهن رجل من بنى ثعلبة بن سعد يقال له «نجدان» أحَدُ بنى جحاش على فرس حتى كان فى أصل الحصن ، ثم جعل يقول للنساء : أنزلن إلىَّ خيرلكنَّ[1] ، فحركن السيف ، فأبصره أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتدر الحصنَ[2] قوم فيهم رجل من بنى حارثة يقال له : ظفر

(١) فى المطبوعات « خير لكم » تطبيع (٢) ابتدره : أسرع إليه

ابن رافع ، فقال : يا نجدان ابرز ، فبرز إليه، فحمل عليه فقتله، وأخذ رأسه فذهب به إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وروى البزار بإسناد ضعيف عن الزبير بن العوام رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج للخندق جعل نساءه وعمته صفية فى أطم يقال له «فارع» وجعل معهم حسان بن ثابت ، فرقى يهودى حتى أشرف على نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عمته ، فقالت صفية : يا حسان قمْ إليه حتى تقتله ، قال : لا ، والله ما ذاك فىّ ، ولو كان فى لخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت صفية : فاربط السيفَ على ذراعى، ثم تقدّمتْ إليه حتى قَتَلَتْهُ ، وقطعت رأسه ، فقالت له : خذ الرأس فارم به على اليهود ، قال : ما ذاك فىّ ، فأخذت هى الرأس فرمت به على اليهود ، فقالت اليهود : قد علمنا أن لم يك يترك أهله خُلُوفاً ليس معهم أحد ، فتفرقوا وذهبوا .

وروى أحمد بإسناد قوى عن عبد الله بن الزبير قال : كانت صفية فى حصن حسان بن ثابت يوم الخندق : أى وهو المسمى بفارع ، فذكر الحديث فى قتلها اليهودى وقولها لحسان : أنزل فاسلبه[1] ، فقال : مالى بسَلَبه حاجة .

وروى الطبرانى هذه القصة عن صفية رضى الله عنها فى غزوة أحد ، وفى إسناده اثنان ، قال الهيثمى : لم أعرفهما ، و بقية إسناده ثقات، والمذكور فى كتب السير أن هذه القصة فى الخندق ، وأن بعضهم كان بحصن بنى حارثة ، و بعضهم بفارع ، وأن صفية رضى الله عنها لما فرغت من قتل اليهودى ورجعت إلى الحصن قالت لحسان : انزل فاسْلُبْه[1]، فإنى لم يمنعنى من سَلَبه إلا أنه رجل ، قال : مالى بسَلَبه من حاجة يا بنتَ عبد المطلب .

قال السهيلى : محمل هذا الحديث عند الناس أن حسان كان جَبَانا شديدَ الجبن ، وقد دفع بعضُ العلماء هذا وأنكره ، وقال : لو صح هذا لهجى حسان به ،

(١) اسلبه : خذ مامعه من مال وأداة ، والسلب — بالتحريك — اسم لما يأخذه القاتل من قتيله

فإنه كان يُهَاجِى الشعراء ، وكانوا يردُّون عليه فما عَيَّره أحد بجبن ، وإن صح فلعل حسان كان معتلاً فى ذلك اليوم بعلة منعته من شهود القتال ، انتهى .

وروى الطبرانى برجال الصحيح عن عروة مرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم أَدْخَلَ نساءه يوم الأحزاب أطماً من آطام المدينة ، وكان حسان بن ثابت رجلا جَبَانا ، فأدخله مع النساء ، فأغلق الباب ، وذكر القصة .

وممن ذكر القصة فى الخندق ابنُ إسحاق ، ويؤيده أن اليهود إنما غدروا فى الخندق ، وذلك أن حُيَيَّ بن أَخْطَب توجَّه إلى بنى قُرَيْظَة ، فلم يزل بهم حتى غدروا ، وبلغ المسلمين غدرهم ، فاشتد بهم البلاء والحصار حتى تكلم معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف وأوس بن قَيْظى أخو بنى حارثة وغيرهما من المنافقين بالنفاق ، وأنزل الله تعالى : « إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مَرَضٌ ما وَعَدَنا الله ورسوله إلا غرورا[1] » الآيات . قال ابن عباس : وكان الذين جاءوهم من فوقهم بنو قُرَيْظة ، ومن أسفل منهم قريش وغطفان ، وكان حيي بن أخطب أتى كعب ابن أسد صاحبَ عَقْد بنى قُرَيظة وعهدهم ، فأغلق باب حصنه دونه ، وقال : لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا ، فقال له : إنى جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش وغطفان على قادتهما وسادتهما قد عاهدونى وعاقدونى أنْ لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومنْ معه ، فقال له كعب : جئتنى والله بِذُلِّ الدهر ، وبجَهَام قد هَرَاق[2] ماءه فهو يَرْعِد ويُبْرِق وليس فيه شيء ، فلم يزل حتى نقض كعبٌ عهده وبرىء مما كان بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، فاشتد الخوف بالمسلمين .

قال ابن إسحاق : ولم يقع بينهم حرب إلا مُرَاماة بالنَّبْل ، ولكن كان عمرو ابن عبدُ ودٍّ العامرى اقتحم هو ونفر معهم خيولهم من ناحية ضيقة من الخندق ، فبارزه علىّ فقتله ، وبرز نَوْفَلُ بن عبد الله بن المغيرة المخزومى ، فبارزه الزبير فقتله ، ويقال : قتله علىّ ، ورجعت بقية الخيول منهزمة ، وقيل : اقتتلوا ثلاثة أيام قتالا

(١) من سورة الأحزاب الآية ١٢

(٢) الجهام — بالفتح — السحاب لامطرفيه ، وهراق : أراق وأفرغ

شديدا حتى يحجز الليل بينهم ، سيما فى اليوم الثالث ، حتى شغلهم القتالُ عن صلاة العصر والمغرب ــ وقيل : والظهر ــ وذلك قبل أن ينزل قوله تعالى : « فإن خِفْتُم فرجالا أو ركبانا[1] » قال مالك: ولم يستشهد يوم الخندق إلا أربعة أو خمسة ، وذكر غيره ستة ، وهم : سعد بن معاذ كما سيأتى ، وأنس بن أوس بن عتيك ، وعبد الله بن سهيل ، وهم من بنى عبد الأشهل ، وثعلبة بن غنمة ، والطفيل بن النعمان ، وهما من بنى سلمة ، وكعب بن زيد من بنى دينار بن النجار

وكان من المناوشات بين الفريقين أن مات بعضُ بنى عمرو بن عوف من أهل قُبَاء ، فاستأذن أقرباؤه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليدفنوه ، فأذن لهم ، فلما خرجوا إلى الصحراء لِيَدْفِن ميتهم وافقوا ضِرَار بن الخطاب وجماعة من المشركين بعثهم أبو سفيان ليمتاروا له من قُرَيْظَة على إبل له ، فحملوا على بعضها قمحا ، وعلى بعضها شعيرا ، وعلى بعضها تمرا وتبنا للعلف ، فلما رجعوا و بلغوا ساحة قُبَاء وافقوا الذين كانوا يدفنون ميتهم ، فناهضهم المسلمون وغَالَبوهم ، فجرح ضرار جراحاتٍ ، فهرب هو وأصحابه ، وساق المسلمون الإبل بما عليها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان للمسلمين فى ذلك سَعَةٌ من النفقة

إسلام نعيم بن مسعود الأشجعى

ثم أتى نُعيم بن مسعود الأشجعى إلى النبى صلى الله عليه وسلم مُسْلِماً ، ولم يعلم به قومُه ، فقال: له : خَذِّلْ عنا[2] ، فمضى إلى بنى قُرَيظة ، وكان نَدِيماً لهم ، فقال : قد عرفتم محبتى ، قالوا : نعم ، فقال : إن قريشا وغَطَفان ليست هذه بلادهم ، وإنهم إن رأوا فرصة انتهزوها ، وإلا رجعوا إلى بلادهم وتركوكم فى البلاد مع محمد ، ولا طاقة لكم به ، قالوا : فما ترى ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رُهُنا ، فقبلوا رأيه ، فتوجَّه إلى قريش فقال لهم : إن اليهود نَدِمُوا على الغدر بمحمد ، فراسلوه فى الرجوع إليه ، فراسلهم بأنا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رُهُنا فأقتلهم ، ثم جاء غطفان بنحو ذلك ، فلما أصبح أبو سفيان بعث عكرمة

---

(١) من سورة البقرة من الآية ٢٣٩

(٢) خذل عنا : احمل أعداءنا على الخذلان والفشل وترك القتال

ابن أبى جهل إلى بنى قُرَيْظة بأنا قد ضاق بنا المنزل ، ولم نجد مرعًى ، فاغْدُوا للقتال حتى نناجز محمدا ، فأجابوهم إن اليومَ يومُ السبت ، ولا نعمل فيه شيئا ، ولا بد لنا من الرُّهُنِ منكم لئلا تغدروا بنا ، فقالت قريش : هذا ما حَذَّرَكم نُعَيم ، فراسلوهم ثانيا : إنا لا نعطيكم رُهُنا ، فإن شئتم أن تخرجوا فافعلوا ، فقالت قريظة : هذا ما أخبرنا نُعَيم ، ثم بعث الله عليهم الريحَ فما تركت لهم بناء إلا هدمته ، ولا إناء إلا أكْفَتْهُ ، لا تقر لهم قرارا ولا نارا ولا بناء ، فقام أبو سفيان فقال : يامعشر قريش ، والله ما أصبحتم بدار مُقَام[1] ، لقد هلك الكُرَاعُ والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، فتحملت قريش وإن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم ، وسمعت غطفانُ بما فعلت قريش فانشمروا[2] راجعين إلى بلادهم ، وقال صلى الله عليه وسلم « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا » .

وفى الذيل على أخبار المدينة لابن النجار لصاحبه العراقى عن الكلبى أنه قال : إن الملائكة اتَّبَعُوا الأحزاب حتى بلغوا الرَّوْحاء يكرون فى أدبارهم ، فهربوا لا يَلْوُون على شيء[3] ، والله أعلم

ثم كانت غزوة بنى قريظة .

غزوة بنى قريظة

قلت : قال أبو الربيع الكلاعى فى الاكتفاء : ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة ومعه المسلمون ، فلما كانت الظهر أتاه جبريل — ويقولون فيما ذكر ابن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى المغتسل عند ما جاءه جبريل ، وهو يُرَجِّلُ رأسه[4] ، قد رَجَّلَ أحد شقيه ، فجاءه جبريل على فرس عليه اللأمة وأثَرُ الغُبَار ، حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له جبريل : غفر الله لك ! قد وضعتم السلاح ؟ قال : نعم ، قال جبريل : ما وضعت الملائكة

(١) دار مقام : دار إقامة (٢) انشمروا راجعين : مضوا فى جد وسرعة
(٣) لا يلوون على شيء : لا يلتفتون لشيء ولا يهتمون له
(٤) يرجل رأسه : يسرح شعره وينظفه

السلاح بعدُ ، وما رجعْتُ إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم ، اهـ

وفى رواية أخرى أنه قال : انْهَضْ إليهم فلأضعضعنهم ، فأدبر جبريل ومَنْ معه من الملائكة حتى سطع الغُبَار فى زُقَاق بنى غَنْم من الأنصار ، وأصله فى البخارى فى باب مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من الأحزاب من رواية أنس ، قال : كأنى أنظُر إلى الغُبَار ساطعا فى سكة بنى غَنْم [من] موكب جبريل

ورواه ابنُ سَعْد من طريق حُمَيد بن هلال مُطَولا ، لكن ليس فيه أنس ، وأوله : كان بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين بنى قُرَيْظة عهد ، فلما جاءت الأحزاب نَقَضوه وظاهروهم ، فلما هزم الله الأحزاب تحصَّنوا ، فجاء جبريل فقال : يارسول الله ، انهض إلى بنى قريظة ، فقال : إن فى أصحابى جَهْداً ، قال : انهض إليهم فلأضعضعنهم ، قال : فأدبر جبريل ومَنْ معه من الملائكة حتى سطع الغبار فى زقاق بنى غنم من الأنصار

قلت : زقاقهم هو عند موضع الجنائز فى شرقى المسجد ، كما علم من ذكر منازلهم

وفى رواية : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق والمسلمون ، ووضعوا السلاح ، أتى جبريلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُعْتَجِراً بعمامة[1] من إستَبْرَقٍ على بَغْلة عليها قَطيفة من ديباج ، فقال : أَوَقد وضعت السلاح يارسول الله ؟ قال : نعم ، فقال : ما وضعت الملائكة السلاح بعدُ ، وما رجعتُ إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك بالسير إلى بنى قريظة ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بلالا فأذَّنَ فى الناس : مَنْ كان سامعاً مطيعاً فلا يُصَلِّيَنَّ العصرَ إلا فى بنى قريظة ، وقدم على بن طالب برايته إلى بنى قريظة ، وابتَدَرَها الناسُ ، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة فى رواية ، وفى أخرى خمس عشرة ، وعند ابن سعد عشرة ، حتى أجْهَدَهم الحصار ، وقُذِفَ فى قلوبهم الرعبُ ، فعرض

(١) «اعتجر فلان بعمامته» الاعتجار : أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يجعل منها شيئا تحت ذقنه .

عليهم رئيسُهم كعبُ بن أسد وقال لهم : إما أن تؤمنوا بمحمد فوالله إنه نبي أو تقتلوا نساءكم وأبناءكم وتخرجوا مستقتلين ليس وراءكم ثَقَل(١) وتبيتوا المسلمين ليلة السبت ، فقالوا : لا نؤمن ولا نستحلّ السبت ، وأى عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا ؟ وأرسلوا إلى أبى لُبَابة بن عبد المنذر أخى بنى عمرو بن عَوْف من الأوس ، وكانوا حلفاءهم ، فاستشاروه فى النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلى حَلْقه ، يعنى الذبح ، ثم ندم ، فتوجه إلى المسجد النبوى ، وارتبط بسارية تُعْرَف به اليوم حتى تاب الله عليه ، واستشهد من المسلمين خلاد بن سويد من بنى الحارث بن الخزرج ، طَرَحَت عليه امرأة من بنى قريظة رحًى فقتلته ، وأمر صلى الله عليه وسلم بقتلها بعد ذلك ، ومات فى الحصار أبو سنان بن محصن الأسدى أخو عُكَّاشة بن محصن ، فدفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقبرة بنى قريظة التى تدافن فيها المسلمون لما سكنوها ، ولم يُصَبْ غيرُ هذين ، فلما اشتد بهم الحصار أذعنوا(٢) أن ينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الأوس : قد فعلت فى موالى الخزرج ــ أى بنى قَيْنُقَاع ــ ما علمت ، فقال : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فذلك إلى سعد بن مُعَاذ ، وكان سعد قد أصابه سهم فى أَكْحَلِه(٣) يوم الخندق ، فأتاه قومُه ، فحملوه على حمار ، ثم أقبلوا معه يقولون : يا أبا عمرو ، أحْسِنْ فى مَوَاليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتُحْسِن فيهم ، فلما أكثروا قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فجاء سعد فردَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الحكمَ إليه ، فقال سعد : فإنى أحكم فيهم أن يُقْتَل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أَرْقِعَةٍ : سموات ، ثم استنزلوا ، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم ،

(١) الثقل ــ بالتحريك ــ متاع المسافر (٢) أذعنوا : خضعوا
(٣) الأكحل : عرق فى وسط الذراع يكثر فصده

فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق وفيهم عدو الله حُيَىُّ بن أخْطَب ؛ فإنه كان قد عاهد كعب بن أسد لئن رجعت قريش وغطفان لأدخلَنَّ معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك ، فلما رجعت الأحزاب دخل معه فى حصنه ، فكان ذلك ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل مَنْ أنبَتَ منهم ، ومن لم يُنْبِت استحياه ، ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة كانت طرحت رَحًى على خلاد بن سُوَيْد كما سبق

وعند ابن سعد من مرسل حُمَيد بن هلال : أن سعد بن معاذ حكم أيضا أن يكون دارهم للمهاجرين دون الأنصار ، فلامه الأنصار ، فقال : أحببت أن يستغنوا عن دُوركم

واختلف فى عدتهم ؛ فعند ابن إسحاق كانوا ستمائة ، وعند ابن عائذ من مرسل قتادة كانوا سبعمائة ، وقال السهيلى : المكثر يقول : إنهم ما بين الثمانمائة إلى السبعمائة ، وفى النسائى وابن ماجة بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل ، وكان الزبير بن باطا القرظى قد مر على ثابت بن قيس بن شماس فى الجاهلية يوم بُعَاث ، فجاءه ثابت لما قتل بنو قريظة وهو شيخ كبير ، وذكّره بذلك ، ثم ذهب فاستوهبه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوهبه إياه ، فأتاه فقال : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد ، فما يصنع بالحياة ؟ فاستوهب له امرأته وولده ، ، فقال : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم ، فما بقاؤهم ؟ فاستوهب له ماله ، فأتاه فأعلمه ، فقال : أىْ ثابت ما فَعلَ فلان وفلان ، وصار يذكر قومه ويَصِفهم ، فقال له : قتلوا ، قال : فإنى أسألك ياثابت بيدى عندك إلاَّ ألحقتنى بالقوم ، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير ، فقدَّمه ثابت فضرب عنقه

ثم قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ، وأسْهَمَ للخيل ، فكان أول فَىْء وقعت فيه السُّهْمَان(١) ، وأخرج منه

(١) السهمان — بضم فسكون — جمع سهم ، وهو النصيب ، ويجمع السهم أيضا على أسهم وسهام

الخمس ، واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة إحدى نساء بنى عمرو بن قُرَيظة ، فكانت عنده حتى توفى ، وكان يحرص عليها أن يتزوجها ، فقالت : تتركنى فى ملكك فهو أحق على وعليك ، فتركها ، وقد كانت حين سَبَاها كرهت الإسلام ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك من أمرها ، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال : إن هذا لثعلبة بن شعبة يبشرنى بإسلام ريحانة ، فكان كذلك ، وقيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم أعتقها وتزوجها ، وإنها ماتت فى حياته مَرْجِعَه من حجة الوَدَاع ، وهذا الأثبت عند الواقدى ، وبعضهم يقول : هى من بنى النضير

ولما انقضى شأن بنى قريظة انفجر جَرْحُ سعد بن معاذ فمات شهيدا

وفى البخارى ما يقتضى أن قريظة كانوا قد حاربوا قبل ذلك مع بنى النضير ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم منّ عليهم ، ولم أر التصريح بذلك ، ولم يتعرض له الحافظ ابن حجر فى شرحه ، وقد قدمنا فى بنى النضير من رواية ابن مردويه ما يشهد له ، ولفظ البخارى : عن ابن عمر قال : حاربت النضير وقريظة ، فأجلى بنى النضير ، وأقر قريظة ومنّ عليهم ، حتى حاربت قريظة ، فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأموالهم وأولادهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبى صلى الله عليه وسلم فأمنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلَّهم : بنى قينقاع وهم رهط عبد الله ابن سلام ، ويهود بنى حارثة ، وكل يهودى بالمدينة ، اه

ورواه أبو داود بنحوه ، إلا أنه قال : حتى حاربت قريظة بعد ذلك ، يعنى بعد محاربتهم الأولى وتقريرهم ، ويؤخذ من ذلك أن إجلاء من بقى من طوائف اليهود بالمدينة كان بعد قَتْل قريظة .

وفى البخارى أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما نحن فى المسجد خرج النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انطلقوا إلى يهود ، فخرجنا حتى إذا جئنا بيت المِدْرَاس[1] قال : أسلموا تسلموا ، واعلموا أن الأرض لله ولرسوله وأنى

(١) بيت المدراس : البيت الذى يتدارس فيه اليهود توراتهم

أريد أن أجليكم من هذه الأرض ، فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه ، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ولرسوله ، وهو مقتضٍ لأن ذلك كان بعد خيبر ؛ لأن إسلام أبى هريرة بها فى السنة السابعة ، والله أعلم

ثم كانت سرية عبيد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد الهذلى ثم اللحيانى بعُرَنَةَ[١] ، وفيها سقط رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فرسه[٢] فجحش ، وفيها دَفَّتْ دَافَّةُ العرب[٣] ، فنهى عن ادّخار لحوم الأضاحى فوق ثلاث .

قلت : وتزوج زينبَ بنت جَحْش ، وهى بنت عمته أميمة ، وقيل : فى الثالثة ، وبسببها نزلت آية الحجاب ، وأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، والله أعلم .

السنة السادسة من الهجرة

السنة السادسة — فى أولها أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثمامة بن أثال أسيراً ، ثم كسفت الشمس ثانية بعد الكسوف الذى كان يوم مات ابنه إبراهيم .

قلت : لعل فى النسخة خللا لما سنذكره من ولادة إبراهيم فى الثامنة ووفاته فى العاشرة ، فالكسوف فى السادسة هو الكسوف الأول ، وفيها نزل حكم الظّهار ، والله أعلم .

وفيها قتل المشركون سرية محمد بن مسلمة فلم يُفْلِتْ منهم غيره ، وكانوا عشرة ، ثم كانت سرية على بن أبى طالب إلى فَدَكَ فى مائة رجل ، ثم كانت سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دُومَة الجَنْدَل ، فظهر عليهم ، فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تُمَاضر بنت الإصبغ بن عمرو الكلبى وهو ملكهم ، ثم أجْدَبَ الناس فاستسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان فى موضع المصلى فَسُقُوا ، ثم أرسل زيد بن حارثة فى سرية ، فسبى سلمةُ بن الأكوع فى تلك السرية بنت مالك بن حذيفة ، ثم كانت الحُدَيْبِيَة ، ثم أغار عُيَينة بن حِصْنٍ[٤] الفَزَارى على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستنقذها .

(١) عرنة — بضم العين وفتح الراء — موضع عند الموقف بعرفات

(٢) فى المطبوعات « عن فرسه فجحش » تطبيع ، والثابت فى السنة « فجحش شقه » أى انخدش جلده

(٣) دفت دافة : أى ورد قوم من الأعراب المدنية

(٤) فى المطبوعات « عيينة بن حصين » تطبيع

قلت : قد قدمنا فى حدود الحرم أن لقاحه صلى الله عليه وسلم كانت ترعى بالغابة وما حولها ، فأغار عليها عُيَيْنة يوم ذى قَرَد[1] ، وهو الموضع الذى كان فيه القتال ، سميت الغزوة به ، وتسمى أيضاً غزوة الغابة .

غزوة ذى قرد

قال ابن إسحاق : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بنى لَحْيَان وكان فى شعبان سنة ست ، لم يُقِمْ إلا ليالى قلائل حتى أغار عُيَينة فى خيل من غَطَفَان على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجل من بنى غفار وامرأته ، فقتلوا الرجل ، واحتملوا المرأة فى اللقاح ، وكان أول من نُذِرَ بهم سَلَمَة ابن الأكوع ، غدا يريد الغابة مُتَوشّحا قوسَه ونبله حتى إذا علا ثَنِيَّة الوَدَاع نظر إلى بعض خيولهم ، فأشرف فى ناحية سَلْع ، ثم صرخ : وَاصَبَاحَاه ، ثم خرج يشتدُّ فى آثار القوم حتى لحقهم ، فجعل يردهم بالنبل ويقول إذا رمى : خُذها وأنا ابنُ الأكوع ، واليومُ يومُ الرُّضَّع ، فإذا وجهت الخيل نحوه هرب، ثم عارضهم ، وهكذا ، وبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم صياحُه ، فصرخ بالمدينة : الفزع ، الفزع ، فترامت الخيل إليه ، فلما اجتمعوا أمَّر عليهم سعد بن زيد الأشهلى ، وقال : اخْرُجْ فى طلب القوم حتى أَلحقَكَ فى الناس ، فقَتَل أبو قتادة رضى الله عنه حبيبَ بن عُيينة بن حصن وغشاه برده ، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين ، فإذا حبيبٌ مُسَجًّى ببرد أبى قتادة ولكنه قتيل ، فظنوه هو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بأبى قتادة ولكنه قتيل له ، وأدرك عُكّاشةُ بن محصن رضى الله عنه أوبارا وابنَه عمر بن أوبار ، وهما على بعير واحد ، فانتظمهما بالرمح ، فقتلهما جميعاً ، واستنقذوا بعضَ اللقاح ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالخيل من ذى قَرَد ، وتلاحق به الناس ، وأقام عليه يوما وليلة ، وقال له سلمة : يا رسولَ الله لو سَرَّحتنى فى مائة رجل لاستنقذت بقية السَّرْح وأخذت بأعناق القوم ، فقال له صلى الله عليه وسلم

---

(١) ذو قرد ـ بفتح القاف والراء جميعا ـ ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر ، ويقال «ذو القرد» بضم القاف وفتح الراء ـ قاله ابن الأثير (٣/ ٢٤٠)

إنهم ليقرون فى غَطفان ، فقسم صلى الله عليه وسلم فى أصحابه فى كل مائة جزورا ، وأقاموا عليها ، ثم رجع ، وأفلتت امرأة الغفارى على ناقة من اللقاح حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته الخبر ، وقالت : إنى نَذَرْتُ لله أن أنحرها إن أنجانى اللهُ عليها ، فتبسم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : بئس ما جزيتيها أن حَمَلكِ الله عليها ونجَّاكِ بها ثم تنحرينها ، إنه لا نَذرَ فى معصيةالله ولا فيما لا تملكين ، هذه رواية ابن إسحاق ، وقد ذكر فيها قتل اثنين من المسلمين .

وخرّج مسلم القصة عن سلمة مطولة ومختصرة ، وخالف ما ذكره ابن إسحاق فى مواضع : منها أنها كانت بعد انصرافه صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، وجعلها ابن إسحاق قبلها ، ومنها : أن فيه أن اللقاح كانت ترعى بذى قَرَد ، وكذا هو فى البخارى ، وقال ابن إسحاق : بالغابة ، وكذا هو فى حديث سلمة الطويل ، ولهذا قال عياض : إن الأول غلط ، ويمكن الجمع بأنها كانت ترعى تارة هنا وتارة هناك ، ومنها : أنه قال فيه : خرجت قبل أن يؤذن بالأولى فلقينى غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال : أخِذتْ لقاحُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصرخت ثلاث صرخات : يا صباحاه ، فأسمعت ما بين لابتى المدينة ، ثم اندفعت على وجهى حتى أدركتهم وقد أخذوا بذى قَرَد يسقون من الماء ، وفى رواية لمسلم ما يقتضى أن سَلَمة كان مع السَّرْح[1] لما أغير عليه ، وأنه قام على أكَمَة[2] وصاح : يا صباحاه ، ثلاثاً ، وهذا يرجح أن السرح كان بالغابة ، ويبعد كونه بذى قرد ، ولو كان بذى قَرَدٍ لما أمكنه لحوقهم ، ومنها : أن فيه أنه استنقذ سَرْح رسول الله صلى الله عليه وسلم بجملته ، ومنها : أنه قال فيه : فرجعنا إلى المدينة ، فوالله ما لبثنا بها إلا ثلاثَ ليال حتى خرجنا إلى

---

(١) السرح ـ بالفتح ـ الماشية ، ويقال لها أيضا : سارح ، وسارحة

(٢) الأكمة ـ بفتحات ـ الرابية ، وهى المكان المرتفع

خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال القرطبي : لا يختلف أهل السِّيَرِ أن غزوة ذى قَرَد كانت قبل الحديبية ، انتهى .

وما فى الصحيح من التاريخ لها أصح مما فى السير ، ويمكن الجمع بتكرر الواقعة ، ويؤيده أن الحاكم ذَكَرَ فى الإكليل أن الخروج إلى ذى قَرَد تكرر ؛ ففى الأولى خرج إليها زيد بن حارثة قبل أُحُدٍ ، وفى الثانية خرج إليها النبى صلى الله عليه وسلم فى ربيع الآخر سنة خمس ، والثالثة هى المختلف فيها ، انتهى . والله أعلم .

قصة العرنيين

ثم كانت قصة العُرَنِيّين .

قلت :[1] وذلك أن ثمانية منهم ، وفى رواية من عُكْلٍ ، قدموا فأسلموا واجْتَوَوُا المدينة[1] ، وقالوا : إنا كنا أهل ضَرْعٍ ولم نكن أهل ريف ، فبعثهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى لقاحه ، وفى رواية « إبلِ الصدقة » وكأنهما كانا معاً ، فصح الإخبار بالبعث لكل منهما ، ليشربوا من أبوالها وألبانها ، فلما صحوا قتلوا الراعى واستاقوا الإبل ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى طلبهم كُرْزَ بن خالد الفهرى فى عشرين ، فأُتى بهم ، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسَمْل أعينهم وطَرْحِهم فى الحَرَّة يستسقون فلا يُسْقَوْن ، حتى ماتوا ، هذا محصل ما فى الصحيح ، وذكر أهل السير أن اللقاح كانت ترعى ناحية الجَمَّاوات ، وفى رواية بذى الجدر غربى جبل عَيْر على ستة أميال من المدينة ، وذكر ابن سعد عن ابن عقبة أن أمير الخيل يومئذ سعيدُ بن زيد أحدُ العَشَرَة ، فأدركوهم فربطوهم وأردفوهم على خيلهم ، وردُّوا الإبل ، ولم يفقدوا منها إلا لِقْحَةً واحدة من لقاحه صلى الله عليه وسلم تدعى الحنا ، فسأل عنها ، فقيل : نحروها ، فلما دخلوا بهم المدينة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة .

---

(١) اجتووا المدينة : أى أصابهم الجوى ، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول ، والمراد أنه لم يوافقهم هواء المدينة واستوخموها .

قال بعضهم : وذلك مرجعه من غزوة ذى قَرَدٍ ، فخرجوا بهم ، نحوه ، فلقوه بالزغابة ، فقطعت أيديهم وأرجلهم وسُمِلَتْ أعينهم وصلبوا هناك ، والله أعلم .

ثم غزا بنى المصطلق ، ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى انصرافه على المُرَيْسِيع . وفيها كانت قصة الإفك .

غزوة بنى المصطلق (المريسيع)

قلت : قد قدم غزوة المريسيع فى السنة الخامسة ، وذكر أن فيها أنزلت آية التيمم ، وقد اقتضى كلامه أن المُرَيْسيع وقعت مرتين : فى الأولى التيمم ، وفى الثانية الإفك ، وفيه جمع بين ما ذكره كثير من أهل السير من أن المريسيع سنة خمس وبين ما نقله البخارى عن ابن إسحاق أنها سنة ست ، لكن قد ثبت فى الصحيح أن سعد بن مُعَاذ تنازع هو وسعد بن عُبَادة فى أصحاب الإفك ؛ فلو كانت المريسيع التى هى غَزَاة بنى المصطلق سنة ست مع كون الإفك كان فيها لكان ما وقع فى الصحيح من ذكر سعد بن معاذ غلطا ؛ لأن سعد بن معاذ مات أيام قرَيْظة ، وكانت سنة خمس ، وقيل : أربع ؛ فالأشبه أن بنى المصْطَلق والمُرَيْسيع واحد ، كلاهما فى سنة خمس .

وقد ذكر ابن عبد البر فى التمهيد أن التيمم كان فى غزاة بنى المصطلق ، وجزم به فى الاستذكار ، وسبقه إليه ابن سعد وابن حِبَّان .

وفى البخارى « غزوة بنى المصطلق ، وهى غزوة المريسيع » وفى الطبرانى حديث : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة المريسيع غزوة بنى المصطلق ، وبنو المصطلق بطن من خُزَاعة ، وكان رئيسهم الحارث بن أبى ضرار ، وكان معه عليه الصلاة والسلام بَشَر كثير ، خرج بهم إليهم لما بلغه أنهم يَجْمَعون له ، وكان معه ثلاثون فرسا وأم سَلَمة وعائشة ، فهزمهم وأسر من الكفار جمعاً عظيما ، وتزوج جُوَيْرِية بنت الحارث رئيسهم ، فأعتق الناس ما بأيديهم من الأسرى لمكانها ، وفى هذه الغزاة قال ابنُ أبىّ « لئن رَجَعْنَا [1] إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز

(١) من سورة المنافقين من الآية ٨

منها الأذل» وقال « لا تُنْفِقُوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا[1] » وذلك أن ابن أبيّ خرج فى عصابة من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا أن الله قد نَصَرَ رسولَه وأصحابه أظهروا قولا سيئاً ، واقتتل رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار ، فظهر عليه المهاجرى ، فقال ذلك ابن أبيّ لقومه ، فأخبر زيد بن أرقم بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فأجهد ابن أبيّ يمينه ما فعل ، فحزن زيد بن أرقم لذلك ، فأنزل الله تصديقه ، واستأذن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ النبي صلى الله عليه وسلم فى قتل أبيه فيما رواه عروة بن الزبير ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتل أباك ، ولما كان بينهم و بين المدينة يوم تعجل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ حتى أناخ على مَجَامع طرق المدينة حتى جاء أبوه فقال له ابنه : لا والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعلم اليوم من الأعز [و]من الأذل، فقال له : أنت من بين الناس ؟ فقال : نعم ، أنا من بين الناس ، فانصرف عبدُ الله حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتكى إليه ما صنع ابنُهُ ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنه « أن خَلِّ عنه » فدخل المدينة ، رواه ابن شبة .

وفى هذه السنة فرض الحج على الصحيح ، كما سيأتى، والله أعلم .

السنة السابعة من الهجرة

السنة السابعة — فيها قصة أبى سفيان مع هرقل فى الشام ، وفى أولها كَتَبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك و بعث إليهم رسله ، ثم كانت خيبر .

قلت : واستصفى صَفِيَّةَ بنت حُيَيٍّ بن أخطب من المغنم ، فأعتقها وتزوجها ، وجاءته مارية القبطية هدية و بغلته دلْدُل ، وأسلم أبو هريرة ، وسَمَّتْه صلى الله عليه وسلم زينب بنت الحارث زوجة سَلاَّم بن مشكم ، ثم صار النبي صلى الله عليه وسلم إلى وادى القرى ، فحاصر أهله ليالى وأصاب غلامَهُ مدعم سَهْمُ غرب[2] فقتله ،

(١) من سورة المنافقين من الآية ٧

(٢) سهم غرب : لا يعرف راميه ، ويقال بالإضافة وبالوصف ، ووقع فى المطبوعات « وأصاب غلامه مدعم بينهم غرب » تطبيع

وفى رجوعه إلى المدينة كان النوم عن صلاة الصبح ، وروى بعضهم أنه كان فى الرجوع من غزوة تبوك ، وقال الواقدى : وفى المحرم منها جاء رؤساء اليهود إلى لَبيد بن الأعصم — وكان حليفا فى بنى زريق ، وكان ساحرا — فقالوا له : يا أبا الأعصم ، أنت أسْحَرُنا ، وقد سحرنا محمدا فلم نصنع شيئا ، ونحن نجعل لك جُعْلاً على أن تسحره لنا سحرا ينكؤه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير ، وذكر قصة سحره ، وفى رواية عن الزهرى بإسناد صحيح أن المدة التى مكث النبى صلى الله عليه وسلم فيها فى السِّحْر سنة ، وفى رواية أربعين ليلة ، والله أعلم .

وفيها جاءته أم حَبيبة بنت أبى سفيان ، وتزوج بها ، ثم كانت عُمْرة القَضِيَّة وتزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية .

السنة الثامنة من الهجرة

السنة الثامنة — فيها كانت مُؤْتة ، ثم كان الفتح ، ثم غزوة هوازن ، ثم غزوة الطائف ، وأمر على مكة عتاب بن أسيد ، وأسلم مالك بن عوف النَّصْرِى ، وتألف المؤلفة من غنائم هوازن ، ثم انصرف إلى المدينة فى آخر ذى القعدة .

قلت : وفى هذه السنة وُلد ابنُه إبراهيم من مارية القبطية ، وحلق رأسه يوم سابعه ، وتصدق بزنة شعره فضة ، وعَقَّ عنه بكبشين[1] ، ومات فى عاشر ربيع الأول من السنة العاشرة وسنه عام ونصف ، وقيل : عام وثلث ، وفى الثامنة أيضا توفيت ابنته زينب ، وهى أكبر أولاده ، وكانت زَوْجَ أبى العاص بن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس الذى أثنى عليه النبى صلى الله عليه وسلم فى صهارته ، تزوجها قبل البعثة ، ولما قدم عليها مسلما ردَّها النبى صلى الله عليه وسلم بالنكاح الأول على الصحيح لقدومه عقب تحريم المسلمات على المشركين ، وذلك بعد صلح الحديبية ، والله أعلم .

السنة التاسعة من الهجرة

السنة التاسعة — فيها هَجَرَ نساءه شهرا ، ثم تتابعت الوفود ، ثم فرض الحج.

قلت : قد اختلف فى وقته ، فقيل : قبل الهجرة ، وهو غريب ، والمشهور

(١) العقيقة : مايذبح يوم سابع الغلام ، والسنة أن يذبح عن الجارية شاة وعن الغلام شاتان

بعدها ، فقيل : سنة خمس ، وجزم به الرافعى فى موضع ، وقيل : ست ، وصححه الرافعى فى موضع آخر ، وكذا النووى ، وقيل : سبع ، وقيل : ثمان ، وقيل : تسع ، وصححه عياض ، والله أعلم .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج أبا بكر رضى الله عنه ، ثم نزلت براءة ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ لينبذ إلى الناس عهدهم .

قلت : وفيها فى شهر رجب كانت غزوة تَبُوكَ ، وهى آخر غزواته صلى الله عليه وسلم على ما ذكره ابن إسحاق ، والله أعلم .

السنة العاشرة من الهجرة

السنة العاشرة — فى أولها قدم عَدِىُّ بن حاتم بوفد طىء ، ثم قدم وفد بنى حنيفة ، ثم وفد غسان ، ثم وفد نَجْرَان الذين كانت فيهم قصة المبَاهلة ، ثم جاء جبريل يعلم الناس دينهم ، ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوكا .

قلت : وهو مخالف لما قدمناه عن ابن إسحاق من كونها فى التاسعة ، والله أعلم .

ثم أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بالحج فى حَجَّة الوداع ورجع ، ثم مرض فى صفر لعشر بقين منه ، وتوفى صلى الله عليه وسلم لاثنتى عشرة ليلة خَلَتْ من ربيع الأول يوم الاثنين ، انتهى ما ذكره رزين عن أبى حاتم .

قلت : وشهر ربيع هذا من الحادية عشرة ، وكان ابتداء مرضه فى بيت مَيْمُونة ، وقيل : زينب بنت جَحْش ، وقيل : رَيحانة ، وذكر الخطابى أن ابتداءه يوم الاثنين ، وقيل : السبت ، وقيل : الأربعاء ، وحكى فى الروضة قولين فى مدته ، فقيل : أربعة عشر ، وهو الذى صَدَّر به ، وقيل : ثلاثة عشر ، وعليه الأكثر ، وقيل : عشرة ، وبه جزم سليمان التيمى ، ومقتضى ما تقدم أن المدة تزيد على عشرين يوما ، ولم أر مَنْ صرح به ، ولا خلاف فى أن الوفاة كانت يوم الاثنين ، وكونه من ربيع الأول ، كاد يكون إجماعا ، لكن فى حديث ابن مسعود عند

البزار : فى حادى عشر رمضان ، وكونها فى ثانى عشر ربيع الأول هو ما عليه الجمهور ، وذهب جماعة إلى أنها فى أوله ، ورواه يحيى عن ابن شهاب ، وقال : حين زاغت الشمس ، وعن أسماء بنت أبى بكر أنه توفى للنصف من ربيع الأول ، وقيل : ثانيه ، ورجحه السهيلى ، واستشكل قول الجمهور بأنهم اتفقوا على أن الوقفة فى حجة الوداع كانت الجمعة ، فأول ذى الحجة الخميس ، فمهما فرضت الشهور الثلاثة تَوَامّ أو نواقص أو بعضها ، لم يصح كون الوفاة يوم الاثنين مع كونه ثانى عشر ربيع الأول ، وأجاب البارزى باحتمال وقوع الثلاثة كوامل ، واختلاف أهل مكة والمدينة فى هلال ذى الحجة : فرآه أهل مكة ليلة الخميس ، ولم يره أهل المدينة إلا ليلة الجمعة ، فحصلت الوقفة برؤية أهل مكة ، ثم رجعوا إلى المدينة فأرخوا برؤية أهلها ، فكان أول ذى الحجة الجمعة ، وهو وما بعده كوامل ، فأول ربيع الأول الخميس ، وثانى عشره الاثنين ، ولا يخفى بُعد هذا الجواب ، وقد جزم سليمان التيمى أحَدُ الثقات بأن بدء مرضه صلى الله عليه وسلم كان يوم السبت الثانى والعشرين من صفر ، ومات يوم الاثنين لليلتين خَلَتَا من ربيع الأول ، ومنه يعلم أن صفر كان ناقصا ، ولا يمكن أن يكون أول صفر السبت إلا إن كان ذو الحجة والمحرم ناقصين ؛ فيلزم عليه نقص ثلاثة أشهر متوالية ، وأما على قول من قال : « أول ربيع الأول » ؛ فيكون اثنان ناقصين وواحد كاملا ، وكذا على قول من قال : « للنصف منه »

وقال البدر ابن جماعة : يحمل قول الجمهور لاثنتى عشرة ليلة خلت : أى بأيامها ، فيكون موته فى اليوم الثالث عشر ، وتفرض الشهور كوامل ؛ فيصح قول الجمهور ، ويعكر عليه ما فيه من مخالفة أهل اللسان فى قولهم « لاثنتى عشرة » فإنهم لا يفهمون منها إلا مضى الليالى ، وأن ما أرخ بذلك يكون واقعا فى الثانى عشر .

قال الحافظ ابن حجر : فالمعتمد قول أبى مخنف أنه فى ثانى ربيع الأول ، وكأن

سبب غلط غيره تغيير ذلك إلى الثانى عشر ، وتبع بعضهم بعضا فى الوهم .

وغسله صلى الله عليه وسلم على بوصيته ، والعباسُ وابنُه الفضلُ يعينانِه ، وقُثَم وأُسَامَة وشقران يَصُبُّون الماء ، وكفن فى ثلاثة أثواب بيض سَحُولية ليس فيها قميص ولا عمامة — وسحول : بلدة باليمن — وعن جعفر بن محمد عن أبيه : كفن فى ثوبين صحاريين مما يصنع بعمان من كُرُسف[1] وبرد حِبَرَة ، وفى الإكليل ورواه يحيى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : كفن فى سبعة أثواب ، وصُلِّى عليه فى حُجْرته بغير إمام ؛ ونقل الأقشهرى عن الحسين بن محمد الصدفى أنه صلى الله عليه وسلم صلى عليه فى وسط الروضة من مسجده ، ثم حمل إلى بيته ودفن فيه .

قلت : هذا إنما هو معروف فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وفى مستدرك الحاكم ومُسْنَد البزار بسند ضعيف أنه صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُصَلُّوا عليه أرسالا بغير إمام ، ودفن صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء ، وقيل : يومها ، وقيل : يوم الثلاثاء بعد أن عرف الموت فى أظفاره ، وقال قائلون : ندفنه بمسجده ، وآخرون بالبقيع ، ثم اتفقوا على دفنه ببيته ، فحمل بالفِرَاش ، وحُفِر له فى موضع الفراش ، وروى يحيى عن ابن أبى مليكة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما هلك نبى إلا دفن حيث تقبض روحه ، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه بإخراج المشركين من جزيرة العرب كما فى الصحيح من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم أمر بذلك ، ولفظه : وأمرهم بثلاث ، فقال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم » والثالثة إما سكت عنها ، وإما أن قالها فنسيتها . قال سفيان : هذا — أى قوله والثالثة إلى آخره — من قول سليمان : أى شيخ سفيان ، قال الداوودى : الثالثة هى الوصية بالقرآن ، وقال المهلب : بل هى تجهيز جيش أسامة ، وقوّاه ابن بطال بأن الصحابة لما اختلفوا على

---

(١) الكرسف — بوزن قنفذ — القطن

أبى بكر فى تنفيذ جيش أسامة ، قال لهم أبو بكر : إن النبى صلى الله عليه وسلم عهد بذلك عند موته .

وقال عياض : يحتمل أن يكون[1] قوله : « لا تتخذوا قبرى وثنا » فإنها ثبتت فى الموطأ مقرونة بالأمر بإخراج اليهود ، ويحتمل أن يكون ماوقع فى حديث أنس أنها قوله : « الصلاة وما ملكت أيمانكم »

والذى أجلى المشركين من جزيرة العرب هو عمر رضى الله عنه ؛ ففى الصحيح من حديث ابن عمر أن عمر بن الخطاب أجلى اليهودَ والنصارى من أرض الحجاز ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها ، وكانت الأرض لما ظهر عليها لله وللرسول وللمؤمنين ، فسأل اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم على أن يكفوا العمل ولهم نصف الثمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نقركم على ذلك ما شئنا » فأقرُّوا حتى أجْلَاهم عمر فى إمارته إلى تيماء وأريحاء .

وفى الصحيح أيضاً عن ابن عمر : لما فدع[2] أهل خيبر عبد الله بن عمر قام عمر خطيباً ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عَامَلَ يهود خيبر على أموالهم وقال : « نُقِركم على ما أقركم الله » ، وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك ، فَعُدِيَ عليه من الليل ، ففُدِعَت يداه ورجلاه ، وليس لنا هناك عدو غيرهم ، هم عدونا وتهمتنا ، وقد رأيت إجلاءهم ، فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بنى الحُقَيق ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أتخرجنا وقد أقرنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وعاملنَا على الأموال ، وشرط ذلك لنا ، فقال عمر : أظننت أنى نسيتُ قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدُو بك قلوصُك ليلة بعد ليلة » فقال : كانت هذه هزيلة من أبى القاسم صلى الله عليه

---

(١) أى يحتمل أن الثالثة هى قوله « لاتتخذوا قبرى وثنا »

(٢) الفدع — بالتحريك — زيغ بين القدم وبين عظم الساق ، وكذلك فى اليد ، وهو أن تزول المفاصل عن أما كنها

وســلم ، فقال : كذبت يا عدو الله ، فأجلاهم عمر ، وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا و إبلا وعُرُوضا من أقتاب وحبال وغير ذلك .

وظاهر هذا أن عمر رضى الله عنه إنما استند فى إجلائهم لهذه القصة .

وروى ابن زبالة عن مالك عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يبقى دينان فى جزيرة العرب » .

قال ابن شهاب : ففحص عن ذلك عمر بن الخطاب حتى أتاه الثلَجُ(١) واليقين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يبقى دينان فى جزيرة العرب » فأجلى يهود خيــبر ، قال مالك : وقد أجلى عمر بن الخطاب يهود نَجْرَان وفَدَك .

وروى البيهقى من حديث عمر مرفوعا « لئن عِشْتُ إلى قابل لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب » وخرجه مسلم بدون « لئن عشت » وفى مسند أحمد والبيهقى عن أبى عبيدة قال : كان آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب » الحديثَ .

وروى أحمد بسند جيد عن عائشة قالت : آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « لا يترك بجزيرة العرب دينان » .

قال الُجوَيْنِى والقاضى حسين من أصحابنا : الجزيرة هى الحجاز ، والمشهور أن الحجاز بعض الجزيرة .

ولما مات النبى صلى الله عليه وسلم لم يتفرغ أبو بكر رضى الله عنه لإخراجهم، فأجلاهم عمر رضى الله عنه وهم زُهَاء أربعين ألفاً ، ولم ينقل أن أحداً من الخلفاء أجلاهم من اليمن مع أنها من الجزيرة ؛ فدل على أن المراد الحجاز فقط .

وحكى أن بعض اليهود أظهر كتابا ، وادعى أنه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادة الصحابة ؛ فعرض على أبى بكر الخطيب البغدادى فقال : هذا مُزَوَّر ؛ لأن فيه شهادة معاوية ، وهو أســلم عام الفتح ، فلم يحضر ما جرى ، وفيه شهادة سعد بن مُعَاذ ،وقد مات فى بنى قُرَيْظة بسهم أصابه فى الخندق ، وذلك قبل خيبر بسنتين ، وذلك من فوائد علم التاريخ ، والله أعلم .

(١) الثلج الاطمئنان ، وفعله من بابى فرح وخرج

الباب الرابع

فيما يتعلق بأمور مسجدها الأعظم النبوى ، والُحجُرات المنيفات ، وما كان مُطِيفاً به من الدور والبلاط ، وسوق المدينة ، ومنازل المهاجرين ، واتخاذ السور ، وفيه سبعة وثلاثون فصلا .

الفصل الأول

فى أخذه صلى الله عليه وسلم لموضع مسجده الشريف ، وكيفية بنائه

تقدم أن ناقته صلى الله عليه وسلم لما بركت عند باب المسجد قال صلى الله عليه وسلم « هذا المنزل إن شاء الله » وفى كتاب يحيى عن الزهرى أنها بركَت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين، وكان مِرْبَداً[1] لغلامين يتيمين فى حِجْر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت راحلته : هذا إن شاء الله المنزلُ ، وقال : اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ، قاله أربع مرات .

وروى رزين نحوه عن أنس ، ولفظه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا المنزل إن شاء الله » ثم أخذ فى النزول فقال « ربِّ أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » ولم يقل قاله أربعاً .

وفى كتاب يحيى عن الزهرى أيضا أن المِرْبَد[1] كان لسَهْل وسُهَيل ، وأنهما كانا فى حجر أبى أمامة أسعد بن زُرَارة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين بركت به راحلته « هذا المنزل إن شاء الله » ثم دعا الغلامين فساوَمَهما بالمربد[1] ليتخذه مسجداً ، فقالا : بل نَهَبُه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله هِبَةً حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً .

---

(١) المربد — بزنة منبر — الموضع الذى تحبس فيه الإبل والغنم ، وأصل اشتقاقه من « ربد بالمكان » إذا أقام فيه ، أو من « ربده » أى حبسه .

قال يحيى تبعاً لابن زبالة : وقال بعضهم : كان لغلامين يتيمين لأبى أيوب هماسهل وسهيل ابناعمرو ، فطلب المربد من أبى أيوب ، فقال أبو أيوب : يارسول الله المربد ليتيمين ، وأنا أرضيهما ، فأرضاهما ، فأعطاه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتخذه مسجداً . وعند ابن إسحاق أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لمن هـذا ؟ يعنى المربد ، فقال له معاذ بن عفراء : هو لسهل وسهيل ابنى عمرو يتيمان لى ، وسأرضيهما منـه ، فاتخذه مسجدا ، فأمر به أن يبنى . ويؤيده أنه وقع فى مرسل ابن سيرين عند أبى عبيد فى الغريب أنهما كانا فى حِجْر مُعَاذ بن عفراء . والذى فى صحيح البخارى أنهما كانا فى حجر أسعد بن زرارة ، كذا هو فى رواية الجميع إلا أبا ذر ، ففى روايته سعد بإسقاط الألف ، ورواية الجماعة هى الوجه ؛ إذ كان أسعد من السابقين إلى الإسلام ، وهو المكنى بأبى أمامة ، وأما أخوه سعد فتأخر إسلامه .

وقد يجمع باشتراك من ذكر فى كونهما كانا فى حجورهم ، أو بانتقال ذلك بعد أسعد إلى من ذكر واحداً بعد واحد ، سيما وقد روى ابن زبالة عن ابن أبى فديك قال : سمعت بعض أهل العلم يقولون : إن أسعدا توفى قبل أن يبنى المسجد ، فابتاعه النبى صلى الله عليه وسلم من ولى سهل وسهيل .

وروى ابن زبالة فى خبر : كان مسجد النبى صلى الله عليه وسلم لسهل وسهيل ابنى أبى عمرو من بنى غنْم ، فأعطياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبناه مسجدا.

وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل إلى ملأ بنى النجار بسبب موضع المسجد ، فقال : يا بنى النجار ، ثامِنُونى(١) بحائطكم هذا ، فقالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . وعند الإسماعيلى « إلا من الله » وهو ظاهر فى أنهم لم يأخذوا له ثمنا .

وفى رواية فى باب الهجرة من الصحيح بعد ذكر تأسيس مسجد قُبَاء : ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته ، فسار يمشى معه الناس حتى بركت

---

(١) ثامنونى : ساومونى فى ثمنه ، والحائط : الحديقة

عند مسجد الرسول بالمدينة ، وهو يصلى فيه يومئذ رجالٌ من المسلمين ، وكان مربداً للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزلُ[1] ، ثم دعا الغلامين فساوَمَهما بالمربد ليتخذه مسجدا ، فقالا : بل نَهَبه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجدا .

ووقع فى رواية ابن عُيَينة : فكلم عمهما — أى الذى كانا فى حجره — أن يبتاعه منهما ، فطلبه منهما فقالا : ما تصنع به ؟ فلم يجد بداً من أن يصدقهما ، فأخبرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراده ، فقالا : نحن نعطيه إياه ، فأعطياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبنَاه ، أخرجه الجندى . وطريق الجمع بين ذلك — كما أشار إليه الحافظ ابن حجر — أنهم لما قالوا لا نطلب ثمنه إلا إلى الله سأل عن من يختص بملكه منهم ، فعينوا له الغلامين ، فابتاعه منهما أو من وليهما أن كانا غير بالغين . وحينئذ فيحتمل أن الذين قالوا « لا نطلب ثمنه إلا إلى الله » تحملوا عنه للغلامين بالثمن ، فقد نقل ابن عقبة أن أسعد عوَّضَ الغلامين عنه نخلا له فى بنى بَيَاضة . وتقدم أن أبا أيوب قال : هو ليتيمين لى ، وأنا أرضيهما ، فأرضاهما ، وكذلك معاذ بن عفراء ، فيكون ذلك بعد الشراء . ويحتمل أن كلا من أسعد وأبى أيوب وابن عفراء أرضى اليتيمين بشىء ، فنسب ذلك لكل منهم . وقد روى أن اليتيمين امتنعا من قبول عوض ، فيحمل ذلك على بَدْء الأمر ، لكن يشكل على هذا ما نقل عن التاريخ الكبير لابن سعد أن الواقدى قال : إنه صلى الله عليه وسلم اشتراه من ابنى عفراء بعشرة دنانير ذهباً ، دفعها أبو بكر الصديق ، وقد يقال : إن الشراء وقع من ابنى عفراء لأنهما كانا وليين لليتيمين ، ورغب أبو بكر فى الخير كما رغب فيه أسعد ، وأبو أمامة ومعاذ بن عفراء ، فدفع لهم أبو بكر العشرة ، ودفع كل من أولئك ما تقدم ، ولم يقبله صلى الله عليه وسلم بلا

---

(١) المنزل : موضع النزول

ثمن أولا لكونه لليتيمين ، لكن ابن سيدالناس نقل عن البلاذرى أنه قال عقب كلامه الآتى : فعرض — يعنى أسعد — على النبى صلى الله عليه وسلم أن يأخذها و يغرم لليتيمين ثمنها ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وابتاعها منه بعشرة دنانير أداها من مال أبى بكر ، انتهى ؛ فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم أخذ أولا بعضَ المربد ، ثم أخذ بعضاً آخر ؛ لما سيأتى من أنه زاد فيه مرة أخرى ؛ فليست القصة متحدة . ورأيت بخط الأقشهرى فى كلام نقله عن أبى جعفر الداوودى عن عبد الله بن نافع صاحب مالك أن المسجد كان مربداً لابنى عفراء .

قلت : يحتمل نسبته إليهما لولايتهما على اليتيمين ، أو أن لليتيمين أمًّا تسمى عفراء ، وأما ابنا عفراء المشهوران فهما معاذ ومُعَوِّذ ابنا الحارث ، والذى فى الصحيح من تسمية الغلامين سهل وسهيل أصح ، والله أعلم .

وفى كتاب يحيى ما يقتضى أن أسعد بن زُرَارة كان قد بنى بهذا المربد مسجداً قبل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : حدثنا بكر ثنا محمد ابن عمر ثنا معاذ بن محمد عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة قال : سمعت أم سعد بنت سعد بن الربيع تقول : أخبرتنى النوار بنت مالك أم زيد ابن ثابت أنها رأت أسعد بن زُرَارة قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس الصلوات الخمس ، و يجمع بهم فى مسجد بَنَاه فى مربد سهل وسهيل ابنى رافع بن أبى عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، قالت : فأنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم صلى بهم فى ذلك المسجد و بناه ، فهو مسجده اليوم .

ونقل ابن سيد الناس عن ابن إسحاق أن الناقة بركَتْ على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ ليتيمين من بنى مالك بن النجار فى حجر مُعَاذ بن عَفْراء سهل وسهيل ابنى عمرو ، ثم قال : وذكر أحمد بن يحيى البلاذُرِى ، قال :

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أبى أيوب ، ووهبت له الأنصار كل فضل كان فى خططها ، وقالوا : يا نبى الله إن شئت فخذ منازلنا ، فقال لهم خيراً ، قالوا: وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة يُجَمِّعُ بمن يليه فى مسجد له ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ، ثم إنه سأل أسعد أن يبيعه أرضاً متصلة بذلك المسجد كانت فى يده ليتيمين فى حجره يقال لهما سهل وسهيل ابنا رافع بن أبى عمرو ابن عائذ بن ثعلبة بن غنم ، كذا نسبهما البلاذرى ، وهو يخالف ما سبق عن ابن إسحاق وغيره ، والأول أشهر ، انتهى ، وتشهيره للأول — وهو كون الغلامين ابنى عمرو — تقدم ما يقتضيه ، لكن تقدم أيضاً ما يقتضى الثانى ، وهو الأرجح فقدم صرح ابن حزم فى الجمهرة ، ورواه ابن زبالة عن ابن شهاب ، وكذا ذكره ابن عبدالبر . وذكر السهيلى فيما نقله عنه الذهبى مايحصل به الجمع ويرفع الخلاف إلا أن فيه بعض مخالفة لما تقدم ، فقال : سهل بن عمرو الأنصارى النجارى أخو سهيل صاحب المربد ، وكانا فى حجر أسعد بن زرارة ، ينسبان إلى جدهما ، وهما ابنا رافع بن عمرو بن أبى عمرو بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن النجار ، انتهى . فعلى هذا يكون سقط من الرواية المتقدمة ابن عمرو بين رافع وأبى عمرو ، وتصحف عبيد بعائذ ، والله أعلم .

وقال المجد : ذكر البيهقى المسجدَ فقال : كان جدارا مُجَدَّرا ليس عليه سقف ، وقبلته إلى القدس ، وكان أسعد بن زرارة بَنَاه ، وكان يصلى بأصحابه فيه ، ويُجَمِّع بهم فيه الجمعة قبل مَقْدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل التى فى الحديقة وبالغَرْقَد أن يُقْطع ، وكان فيه قبور جاهلية ، فأمر بها فنبشت ، وأمر بالعظام أن تُغَيَّبَ ، وكان فى المربد ماء مسحل فسيره حتى ذهب ـ والمسحل : ممشى ماء المطر ، انتهى . ولم أره فى المعرفة للبيهقى ، ولا فى السنن الكبير ، ولا فى الدلائل ، والمعروف أنه كان مربدا للتمر : أى يُجَفَّفَ فيه التمر ، وكأنه سماه حديقة لاشتماله على نخل ؛ ففى الصحيحين أن

النبي صلى الله عليه وسلم « لَمَّا أخذه كان فيه نخل وقبور المشركين وخرب ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالنخل فقطع ، و بقبور المشركين فنُبِشَتْ ، و بالخرب فسُوِّيَت ، فصفوا النخل قبلة له ، وجعلوا عضادتيه حجارة » وقد قدمنا الكلام على قطع هـذا النخل فى أحكام الحرم ، وكأن معنى صف النخل قبلة له جعلها سَوَارِيَ فى جهة القبلة ليسقف عليها كما فى الصحيح « كان المسجدُ على عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنيا باللَّبِنِ ، وسقفه الجريد ، وعُمُدُه خشب النخل » وسيأتى فيما أسـند يحيي أنه كان فى جوف الأرض – أى أرض المربد – قبور جاهلية ، فأمر رسـول الله صلى الله عليه وسلم بالقبور فنُبِشت ، فرمى بعظامها ، فأمر بها فغيبت ، وكان فى المربد ماء مستنجل[1] فسيره حتى ذهب » ووقع فى رواية عطاف بن خالد عند ابن عائذ أنه صلى الله عليه وسلم «صلى فيه وهو عريش اثنى عشر يوما ، ثم بناه وسقفه » وسيأتى مايشهد له .

وأسند ابن زبالة عن أنس قال : بناه رسول الله صلى الله عليه وسـلم – يعنى المسجدَ – أولَ مابناه بالجريد ، قال : وإنما بناه باللَّبِنِ بعد الهجرة بأربع سنين . قلت : وهو وَاهٍ أو مؤَول ، والمعروف خلافه .

وأسند أيضاً عن شهر بن حَوْشَب قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحجر بناء المسجد قيل له : عريش كعريش أخيك موسى سبع أذرع ، وأسنده يحيي من غيرطريقه عن شهر أيضاً بلفظ : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى المسجد ، وأورده رزين بلفظ : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء المسجد قال : قيل لى : عريش كعريش أخيك موسى سبعة أذرع ، ثم الأمر أعجل من ذلك . وأسند يحيي عن الحسن قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال :

---

(١) فى حديث عائشة رضى الله عنها « وكان واديها يجرى نجلا » تريد وادى المدينة ، والنجل : النز ، ويجمع على أنجال ، واستنجل الماء : صار نزا قليلا

ابْنُوا لى مسجداً عريشاً كعريش موسى ، ابْنُوه لنا من لَبِنٍ. وأورده رزين بلفظ : لما أخذ فى بناء المسجد قال : ابْنُوا لى عريشاً كعريش موسى، ثُمامات وخَشَبات وظُلَّة كظلَّة موسى ، والأمر أعجل من ذلك ، قيل: وما ظلة موسى ؟ قال : كان إذا قام فيه أصاب رأسَهُ السقفُ ، وعمل فيه بنفسه صلى الله عليه وسلم ، ترغيبا لهم ؛ ففى الرواية المتقدمة فى الصحيح عقب قوله « حتى ابتاعه منهما » وطَفِقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى ثيابه ، ويقول وهو ينقل اللبن :

هذا الحِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرْ ... هــذا أبرُّ رَبَّنَا وأطْهَرْ

ويقول :

اللهم إنَّ الأجْرَ أجْرُ الآخرهْ ... فارحم الأنْصَارَ والمُهَاجِرَهْ

قال ابن شهاب : فتمثَّلَ صلى الله عليه وسلم بشعر رجل من المسلمين ، ولم يبلغنا فى الأحاديث أنه تمثَّلَ ببيت شعر تام غير هذه الأبيات ، زاد ابن عائذ فى آخره : التى كان يرتجزهن وهو ينقل اللبن لبناء المسجد .

والحمال مُخَفَّفٌ بمهملة مكسورة : أى هذا المحمول من اللَّبِنِ أبر عند الله من حمال خيبر ، أى ذات التمر والزبيب . وقوله « رَبَّنَا » أى يا ربنا . وأسند يحيى عن الزهرى فى معنى قوله « هـذا الحمال لا حمال خيبر » قال : كانت يهود إذا صرمت نخلها جاءتهم الأعراب بركائبهم فيحملون لهم عروة بعروة إلى القرى ، فيبيعون ، يكون لهذا نصف الثمن ولهؤلاء نصفه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك . وفى الرواية المتقدمة فى الصحيح عقب قوله « وجعلوا عضادتيه حجارة » فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم معهم ، يقولون :

اللهم لاخَيْرَ إلا خيرُ الآخِرَهْ ... فانصر الأنصار والمُهَاجِرَهْ

---

(١) قال ابن الأثير : « وفى حديث بناء مسجد المدينة هذا الحمال لا حمال خيبر الحمال بالكسر من الحمل ، والذى يحمل من خيبر التمر ، أى أن هذا فى الآخرة أفضل من ذاك وأحمد عاقبة ، كأنه جمع حمل أو حمل ، ويجوز أن يكون مصدر حمل أو حامل » اهـ بحروفه .

ويذكر أن هذا البيت لعبد الله بن رواحة .

وعن الزهري : بلغني أن الصحابة كانوا يرتجزون به ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم ويقول :

اللهم لا خير إلا خير الآخرهْ فارحم المهاجرين والأنصار

وكان لايقيم الشعر، قال الله تعالى : «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ[1]»، وفعل ذلك احتساباً وترغيباً في الخير ؛ ليعمل الناسُ كلهم، ولا يرغب أحد بنفسه عن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا أسند ابنُ زَبالة عن مجمع بن يزيد أنه قال عقب ذلك : وعملوا فيه ودأبوا ، فقال قائل من المسلمين :

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ذَاكَ إِذاً لَلْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

وأسند أيضا أن علي بن أبي طالب كان يرتجز وهو يعمل فيه يقول :

لاَ يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ المَسَاجِدَا يَدْأَبُ فِيهَا قَائِماً وَقَاعِدَا

* وَمَنْ يُرَى عَنِ الغُبَارِ حَائِدَا *

وأسند هو أيضا ويحيى من طريقه والجد ، ولم يخرجه ، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : بنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مسجده ، فقرب اللبن وما يحتاجون إليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع رِدَاءَهُ ، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون والأنصار ألقوا أرديتهم وأكسيتهم ، وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون :

* لَئِنْ قَعدنا والنبيُّ يعملُ * البيت

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه رجلا نظيفا متنظفا ، وكان يحمل اللبنة فيجافي بها عن ثوبه ، فإذا وضعها نَفَضَ كمه ، ونظر إلى ثوبه ، فإن أصابه شيء من التراب نَفَضه ، فنظر إليه علي بن أبي طالب فأنشأ يقول :

* لاَ يستوي مَنْ يعمرُ المساجدا * الأبيات المتقدمة.

---

(١) من سورة يس من الآية ٦٩

فسمعها عمار بن ياسر ، فجعل يرتجز بها وهو لا يدرى مَنْ يعنى بها ، فمر بعثمان فقال : يا ابن سُمَية ، ما أعرفَني بمن تعرض ، ومعه جريدة فقال : لتكُفَّنَّ أو لأعترضَنَّ بها وجهك ، فسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل بيتى ، يعنى أم سلمة ، وفى كتاب يحيي « فى ظل بيته » — فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : إن عمار بن ياسر جِلْدَةُ مابين عينى وأنفى ، فإذا بلغ ذلك من المرء فقد بلغ ، ووضع يده بين عينيه ، فكفّ الناسُ عن ذلك ، ثم قالوا لعمار : إن النبي صلى الله عليه وسلم قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا القرآن ، فقال : أنا أرضيه كما غضب ، فقال : يا رسول الله مالى ولأصحابك ؟ قال : مالك وما لهم ؟ قال : يريدون قتلى ، يحملون لبنةً لبنةً و يحملون عَلَيَّ اللبِنَتَيْنِ والثلاث ، فأخذ بيده فطاف به فى المسجد ، وجعل يمسح وَفْرَتَهُ(١) بيده من التراب و يقول : يا ابن سُمَية لا يقتلك أصحابى ، ولكن تقتلك الفئة الباغية .

وقد ذكر ابن إسحاق القصة بنحوه كما فى تهذيب ابن هشام ، قال : وسألتُ غيرَ واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا الرجز فقالوا : بلغنا أن على بن أبى طالب ارتجز به ، فلا ندرى أهو قائله أم غيره ، و إنما قال ذلك على رضى الله عنه مُطَايبة ومباسطة كما هو عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل ، وليس ذلك طعنا .

وأخرج ابن أبى شيبة من مرسل أبى جعفر الخطمى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى المسجد وعبد الله بن رواحة يقول :

* أفلح من يعالج المساجدا *

فيقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول ابن رواحة :

* يتلو القران قائما وقاعدا *

فيقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى الصحيح فى ذكر بناء المسجد : وكنا نحمل لَبِنة لَبِنة وعمارٌ لَبِنتين

(١) الوفرة : شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن

لَبِنتين ، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل ينفض التراب عنه ويقول : « وَيْحَ عمارٍ تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » وقال : يقول عمار : أعوذ بالله من الفتن .

وأسند ابن زبالة ويحيى عن مجاهد قال : رآهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهم يحملون الحجارة على عمار ، وهو يبنى المسجد ، فقال : « ما لَهُمْ ولعمار ؟ يَدْعُوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، وذلك فعل الأشقياء الأشرار » .

وأسند الثانى أيضا عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يَبْنُون المسجد ، فجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يحمل كل رجل منهم لَبِنة لَبِنة وعمار بن ياسر لَبِنتين لَبِنَةً عنه ولَبِنَةً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فمسح ظهره وقال : « يا ابن سُمَيَّة لك أجْرَانِ وللناس أجر ، وآخِرُ زادِكَ من الدنيا شَرْبَة من لَبَنٍ ، وتقتلك الفئة الباغية » .

وفى الروض للسهيلى : أن معمر بن راشد رَوَى ذلك فى جامعه بزيادة فى آخره ، وهى : فلما قُتِلَ يوم صِفِّينَ دخل عمرو على معاوية رضى الله عنهما فَزِعاً فقال : قُتل عمار ، فقال معاوية : فماذا ؟ فقال عمرو : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : «تقتله الفئة الباغية» فقال معاوية : دحضت[1] فى بَولك ، أنحن قتلناه ؟ إنما قتله مَنْ أخْرَجه .

وروى البيهقى فى الدلائل عن عبد الرحمن السلمى أنه سمع عبدَ الله بن عمرو ابن العاص يقول لأبيه عمرو : قد قَتَلْناَ هذا الرجُل ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ما قال ، قال : أى رجُل ؟ قال : عمار بن ياسر ، أما تذكر يوم بَنَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسجدَ ؟ فكنا نحمل لبنة لبنة ، وعمار يحمل لبنتين لبنتين ، فمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « تحمل

(١) قال ابن الأثير : «وفى حديث معاوية أنه قال لابن عمرو: لاتزال تأتينا بهنة تدحض بها فى بولك ، أى تزلق ، ويروى بالصاد : أى تبحث فيها برجلك » اهـ

لبنتين لبنتين وأنت ترحض[1] ، أما إنك ستقتلك الفئة الباغية ، وأنت من أهل الجنة » فدخل عمرو على معاوية فقال : قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، فقال : اسكت ، فوالله ما تزال تدحض فى بولك ، أنحن قتلناه ؟ إنما قتله علىّ وأصحابه ، جاءوا به حتى ألقوه بيننا .

قلت : وهو يقتضى أن هذا القول لعمار كان فى البناء الثانى للمسجد ؛ لأن إسلام عمرو كان فى الخامسة كما سبق .

وأسند ابن زبالة عن حسن بن محمد الثقفى قال : بينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يبنى فى أساس مسجد المدينة ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، فمر به رجل فقال : يارسول الله مامعك إلاهؤلاء الرّهْط ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هؤلاء ولاة الأمر من بعدى .

وروى أبو يَعْلَى برجال الصحيح إلا أن التابعى لم يُسَمَّ عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما أسَّسَ رسولُ الله صلى عليه وسلم مسجدَ المدينة جاء بحَجَرٍ فوضَعه ، وجاء أبو بكر بحجر فوضعه ، وجاء عمر بحجر فوضعه ، وجاء عثمان بحجر فوضعه ، قالت : فسُئِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : هذا أمر الخلافة من بعدى .

وتقدم فى تأسيس مسجد قُباَء نحو ذلك من غير ذكر أمر الخلافة

وقال الأقشهرى فى روضته : روى صاحبُ السيرة ولم يسمه أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يامحمد ، إن الله يأمرك أن تبنى له بيتا ، وأن ترفع بنيانه بالرهص والحجارة — والرهص : الطين الذى يتخذمنه الجدار — فقال : كم أرفعه ياجبريل ؟ قال : سبعة أذرع ، وقيل : خمسة أذرع ، ولما ابتدأ فى بنائه أمر بالحجارة وأخذ حَجَرا فوضعه بيده أولا ، ثم أمر أبا بكر فجاء بحجر

---

(١) ترحض : أى تسيل عرقا ، مأخوذ بن الرحضاء ، وهو عرق يغسل الجلد لكثرته ، وكثيراً مايستعمل فى عرق الحمى والمرض .

فوضعه إلى جنب حجر النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم عمر كذلك ، ثم عثمان كذلك ، ثم عليا ، انتهى ما ذكره الأقشهرى ومن خطه نقلته .

وروى البيهقى فى الدلائل عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما بنى النبي صلى الله عليه وسلم المسجدَ وضَع حجرا ، ثم قال : ليَضَعْ أبو بكر حجره إلى جنب حجرى ، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبى بكر ، ثم قال : ليَضَعْ عثمان حجره إلى جنب حجر عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « هٰؤُلاَء الخلفاء من بعدى » .

وأسند يحيى عن أسامة بن زيد عن أبيه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حجر ، فلقيه أُسَيْدُ بن حُضَير فقال : يا رسول الله أعْطِنِيهِ ، فقال : اذْهَبْ فاحتمل غيره ، فلستَ بأفقر إليه منى .

وعن مكحول قال : لما كثر أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : اجعل لنا مسجدا ، فقال: خَشَبَات وثُمَامات ،عريشٌ كريش أخى موسى صلوات الله عليه ، الأمر أعجل من ذلك .

ورواه رزين ، وزاد فيه : فطَفِقُوا ينقلون اللَّبِنَ وما يحتاجون إليه ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم ، فلقيه رجلٌ ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنة فقال : أعطنيها يا رسول الله ، فقال : اذْهَبْ فخذ غيرها ، فلست بأفْقَرَ إلى الله منى .

ونقل المجدُ عن رواية محمد بن سعد نحوه ، قال : وجاء رجل يحسن عَجْنَ الطين ، وكان من حَضْرَمَوْتَ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رَحِمَ الله امرأ أحسن صنعته ، وقال له : الزم أنت هذا الشغل فإنى أراك تحسنه .

وفى كتاب يحيى من طريق ابن زبالة عن الزهرى : كان رجل من أهل اليمامة يقال له طلق من بنى حنيفة يقول : قدمتُ على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبنى مسجده ، والمسلمون يعملون فيه معه ، وكنتُ صاحبَ علاج وخَلْط

طين ، فأخذت المِسْحَاة أخْلِطُ الطينَ والنبى صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ويقول : إن هذا الحَنَفِيّ لصاحبُ طين .

وروى أحمد عن طلق بن على قال : بنيتُ المسجدَ مع النبى صلى الله عليه وسلم، فكان يقول : قربوا اليمامى من الطين فإنه أحسنكم له مسكا وأشدكم منكبا .

وعنه أيضا قال : جئت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يبنون المسجد ، قال : فكأنه لم يعجبه عملهم ، قال : فأخذتُ المِسْحَاة فَخَلَطْتُ بها الطين ، فكأنه أعجبه أخذى المسحاة وعملى فقال : دَعُوا الحَنَفِيّ والطينَ فإنه من أصنعكم للطين .

وأسند ابنُ زبالة ويحيى من طريقه فى أثناء كلام عن ابن شهاب فى قصة أخذ المِرْبَد ، قال : فبناه مسجدا ، وضرب لبِنَهُ من بقيع الخَبْخَبَةِ ناحية بئر أبى أيوب بالمناصع والخبخبة : شجرة كانت تنبت هناك .

وأسند يحيى من طريق عبد العزيز بن عمر عن يزيد بن السائب عن خارجة ابن زيد بن ثابت قال : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده سبعين فى ستين ذراعا أو يزيد ، ولَبَّنَ لَبِنَهُ من بقيع الخبخبة ، وجعله جدارا ، وجعل سَوَارِيه خشبا شقة شقة ، وجعل وسطه رحبة ، وبنى بيتين لزوجتيه .

قال عبد العزيز : فسألت زيدا : أين بقيع الخبخبة ؟ قال : بين بئر أبى أيوب وتلك الناحية ، وهذا بقيع الغرقد لبقيع المقبرة ، وقال : سألت عبد العزيز عن بقيع الخبخبة فقال : هى ــ أى الخبخبة ــ يسار بقيع الغرقد حين تقطع الطريق وتلقاها عند مسجد يحيى ، فقلت : ومن يحيى صاحب المسجد الذى ذكرت ؟ فقال : يحيى بن طلحة بن عبيد الله .

قلت : بقيع الخبخبة لا يعرف اليوم كما ذكره شيخ مشايخنا الزين المراغى ، لكن الخارج من درب البقيع إذا مشى فى البقيع لجهة مشهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه وصار مشهد سيدنا إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم على يمينه يكون على يساره طريق تمر بطرف الكومة ، فإذا سلكها انتهى بعد رأس

العطفة التى على يمينه إلى حديقة تعرف قديما بأولاد الصيفى بها بئر ينزل إليها بدرج تعرف ببئر أيوب قديما وحديثا ، وعن يسار الخارج من درب البقيع أيضا إذا سلك طريق سيدنا حمزة فى شامى الحديقة المعروفة بالرومية حديقة تعرف بالرباطية وقف رباط اليمنة بها بئر . قال المراغى : تعرف ببئر أيوب أيضا ، يتبرك بها الناس ، وهى بالقرب من الحديقة المعروفة بدار نخل ، وهى عن يسار بقيع الغرقد أيضا ، قال الزين المراغى : ولعلها أقرب إلى المراد

قلت : والذى يظهر أن الأولى هى المراد ، لما سنبينه فى الآبار .

وفى كتاب رزين مالفظه : عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسميط لَبِنَةً على لبنة ، ثم بالسعيدة لبنة ونصف أخرى ، ثم كثروا فقالوا : يارسول الله لو زيد فيه ، ففعل ، فبنى بالذكر والأنثى ، وهى لبنتان مختلفتان ، وكانوا رفعوا أساسه قريباً من ثلاثة أذرع بالحجارة ، وجعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، وكذا فى العرض ، وكان مربعاً . وفى رواية جعفر: ولم يسطح ، فشكوا الحر فجعلوا خشبه وسَوَاريه جُذُوعا ، وظللوا بالجريد ثم بالخصف ، فلما وكف[1] عليهم طَيَّنوه بالطين، وجعلوا وسطه رحبة ، وكان جداره قبل أن يُظَلَّل قامة وشيئاً ، انتهى . والظاهر أنه ليس جميعه من كلام جعفر ؛ بدليل قوله فى الأثناء « وفى رواية جعفر »

وقد ذكر ابن زبالة ويحيى من غير طريقه كلام جعفر متمحضا فأسندا عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان بناء مسجده بالسميط لبنة لبنة ، ثم إن المسلمين كثروا فبناه بالسعيدة ، فقالوا : يا رسول الله لو أمرت مَنْ يزيد فيه ، فقال : نعم ، فأمر به فزيد فيه ، وبنى جداره بالأنثى والذكر ، ثم اشتد عليهم الحر فقالوا : يا رسول الله لو أمرتَ بالمسجد فظُلِّل ، قال : نعم ، فأمر به فأقيمت فيه سَوَارى

(١) وكف عليهم : أراد نزل المطر وتقاطر من سقفه . تقول : وكف المطر يكف — مثل وعد يعد — إذا وقع ونزل

من جُذُوعِ النخل ، ثم طرحت عليها العوارض والخَصَفُ والإذخر ، فعاشوا فيه ، وأصابتهم الأمطار ، فجعل المسجد يَكِفُ عليهم ، فقالوا : يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فطُيِّن ، فقال : لا، عريش كعريش موسى ، فلم يزل كذلك حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جداره قبل أن يُظَلل قامة ، فكان إذا فاء الفيء ذراعا وهو قدمان يصلى الظهر ، فإذا كان ضِعْفَ ذلك صلى العصر ، ثم نقلا عنه تفسير السميط والسعيدة والأنثى والذكر بما تقدم ، ولم يذكرا ذزعا .

وفى الإحياء عن الحسن مرسلا : لما أراد صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال : ابْنِهِ سبعَةَ أذرع طولا فى السماء ، ولا تزخرفه ، ولا تنقشه ، انتهى .

وتقدم فيما نقله الأقشهرى عن صاحب السيرة عن جبريل عليه السلام فى ارتفاعه سبعة أزرع ، وقيل : خمسة .

وأسند يحيى عن أسامة بن زيد عن أبيه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حجر ، فلقيه أسيد بن حُضَير ، وذكر ما قدمناه ، ثم قال : قال — يعنى زيداً — ورفعوا الأساس قريباً من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، وكان فى جوف الأرض قبور جاهلية ، فأمر بالقبور فنبشت فرمى بعظامها ، وأمر بها فغيبت ، وكان فى المربد ماء مستنجل فسَرَّبَهُ حتى ذهب ، وكان الذين أسسوا المسجد جعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، وفى الجانبين الآخرين مثل ذلك فهو مربع ، ويقال : إنه كان أقل من مائة ذراع ، وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب : باب فى مؤخره ، أى وهو فى جهة

---

(١) العوارض : أراد بها قطع الخشب ، والخصف : جمع خصفة ، وهى الجلة التى يكنز فيها التمر ، وتكون من الخوص ، وكأن المراد هنا ما قدم من ذلك حتى صار لا يصلح للاستعمال ، والإذخر : حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب

القبلة اليوم ، وباب عاتكة الذى يدعى باب عاتكة ويقال باب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو باب آل عثمان اليوم ، وهذان البابان لم يُغَيرا بعد أن صُرِفت القبلة ، ولما صرفت القبلة سَدَّ النبى صلى الله عليه وسلم البابَ الذى كان خلفه وفتح هذا الباب ، وحذاء هذا الباب — أى ومحاذيه — هذا البابُ الذى سُد . وعبر ابن النجار عن ذلك بقوله : ولما صرفت القبلة سد الباب الذى كان خلفه وفتح بابا حذاءه . قال المجد : أى تجاهه ، انتهى

وذكر الأقشهرى فى خبرٍ عن ابن عمر ما يخالف هذا ، فإنه قال : وعن عبد الله بن عمر قال : كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمانه من اللَّبِن ، وسَقْفُهُ من غصن النخل ، وله ثلاثة أبواب : باب فى مؤخره ، وباب عاتكة وهو باب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه وهو باب عثمان ، وهو الذى يسمى اليوم باب جبريل ، ولما صُرِفت القبلة سد الباب الذى خلفه وفتح الباب الآخر ، وهو الذى يسمى باب النساء ، انتهى . وهو غريب ، ولعل قوله « وهو الذى يسمى باب النساء » مِنْ تصرفه وفهمه فى معنى الخبر ، ولذلك أورد عقبه حديث أبى داود مرفوعا « لو تركنا هذا الباب للنساء » لكن أبو داود بيّن أن الأصح أنه من قول عمر كما سيأتى ، وعلى ما ذكره فلم يجعل للمسجد بعد التحويل بابا خلفه ، ويرده قول يحيى عقب ماتقدم عنه « فكان المسجد له ثلاثة أبواب : باب خلفه ، وباب عن يمين المصلى ، وباب عن يسار المصلى ، ثم انتهوا إلى البناء باللبن ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل معهم اللبن فى ثيابه ويقول:

* هذا الحِمَالُ لا حِمَالُ خيبر * الرجز المتقدم

وروى أحمد عن أبى هريرة أنهم كانوا يحملون اللبن إلى بناء المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، قال : فاستقبلتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو عارضٌ لبنةً على بطنه ، فظننت أنها شَقَّتْ عليه ، فقلت : ناولنيها يا رسول الله ، قال : خذ غيرها يا أبا هريرة فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة

قلت : وهذا فى البناء الثانى ، أى لأن أبا هريرة لم يحضر البناء الأول ؛ لأن قدومه عام فتح خيبر

وأسند ابنُ زَبالة من طريق ابن جُرَيج عن جعفر بن عمرو قال : كان المِرْبَدُ لسهل وسهيل ابنى عمرو فأعطياه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فبناه ، وأعان أصحابه أو بعضهم بنفسه فى عمله ، وكان على بن أبى طالب يرتجز وهو يعمل فيه ، قال : وبناه النبى صلى الله عليه وسلم مرتين : بناه حين قدم أقل من مائة فى مائة ، فلما فتح الله عليه خيبر بناه وزاد عليه مثله فى الدور

زيادة النبى فى مسجده

وروى الطبرانى بإسناد فيه ضعيف عن أبى المليح عن أبيه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم لصاحب البقعة التى زِيدَتْ فى مسجد المدينة ــ وكان صاحبها من الأنصار ــ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لك بها بيت فى الجنة » قال : لا ، فجاء عثمان فقال له « لك بها عشرة آلاف درهم » فاشتراها منه ، ثم جاء عثمان إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله اشترِ منى البقعة التى اشتريتها من الأنصارى ، فاشتراها منه ببيت فى الجنة ، فقال عثمان : إنى اشتريتها بعشرة آلاف درهم ، فوضع النبى صلى الله عليه وسلم لبنة ، ثم دعا أبا بكر فوضع لبنة ، ثم دعا عمر فوضع لبنة ، ثم جاء عثمان فوضع لبنة ، ثم قال للناس « ضَعُوا » فوضعوا

وروى الترمذي وحَسَّنَه فى حديث قصة إشراف عثمان على الناس يوم الدار(١) عن ثُمَامة بن حَزْن القُشَيرى أن عثمان رضى الله عنه قال : أَنْشُدُكم بالله و بالإسلام هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير له منها فى الجنة ؟ فاشتريتها من صُلْب مالى ، فأنتم اليوم تمنعونى(٢) أن أصلى فيها ركعتين ، قالوا : اللهم نعم ، الحديثَ ، وأخرجه الدار قطنى أيضا ، وكذا أحمد بنحوه .

وأخرجا أيضا حديثا طويلا عن الأحنف بن قيس فيه : أن عثمان رضى الله عنه

(١) يريد إشرافه على الخارجين عليه فى خلافته حين حاصروه ومنعوه الخروج إلى المسجد للصلاة فيه (٢) فى المطبوعات « تمنعونى »

قال : أههنا علىّ ؟ قالوا : نعم ، قال : أههنا طلحة ؟ قالوا : نعم ، قال : أنشدكم بالله الذى لا إلهَ إلا هو أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمَنْ يبتاع مِرْبَدَ بنى فلان غفر الله له ، فابتعته بعشرين ألفاً أو خمسة وعشرين لفا ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : قد ابتعته ، فقال : أجعله فى مسجدنا وأجره لك ، قالوا : اللهم نعم .

وأخرج خيثمة بن سليمان فى فضائل عثمان عن قتادة قال : كانت بقعة إلى جَنْب المسجد فقال النبى صلى الله عليه وسلم : مَنْ يشتريها و يُوَسِّعها فى المسجد له مثلها فى الجنة ، فاشتراها عثمان ، فوسَّعها فى المسجد .

وأسند ابنُ زبالة عن خالد بن مَعْدَان قال : خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على عبدالله بن رَوَاحة وأبى الدرداء ومعهما قَصَبة يَذْرَعان بها المسجد ، فقال: ما تصنعان ؟ فقالا : أردنا أن نبنى مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بنيان الشام ، فيقسم ذلك على الأنصار ، فقال : هاتياها ، فأخذ القصَبة منهما ، ثم مشى بها حتى أتى الباب ، فَدَحَا[1] بها ، وقال : كلا ، ثُمام وخُشَيْبات وظُلَّة كظلة موسى ، والأمر أقرب من ذلك ، قيل : وما ظلة موسى ؟ قال : إذا قام أصاب رأسَهُ السقفُ .

وروى البيهقى فى الدلائل من طريق يَعْلَى بن شداد عن عُبَادة أن الأنصار جَمَعُوا مالا فأتوا به النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ابْنِ بهذا المسجدَ وزَيِّنْهُ ، إلى متى نصلى تحت هذا الجريد ؟ فقال : مابى رغبة عن أخى موسى ، عريش كعريش موسى .

وروى البيهقى أيضاً عن الحسن فى بيان عريش موسى قال : إذا رفع يَدَه بلغ العريش ، يعنى السقف .

وعن ابن شهاب : كانت سَوَارى المسجد فى عهد رسول الله صلى الله عليه

---

(١) دحا بها : رمى بها وألقاها

وسلم جُذُوعا من جذوع النخل ، وكان سقفه جريداً وخوصاً ليس على السقف كثير طين ، إذا كان المطر امتلأ المسجد طيناً ، إنما هو كهيئة العريش .

وفى الصحيح فى ليلة القدر : وإنى أريتُ أنى أسجد فى ماء وطين ، فمن كان اعتكف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرجع ، فرجعنا وما نرى فى السماء قزعة[1] فجاءت سحابة فمطرت حتى سال سقف المسجد ، وكان من جريد النخل ، وأقيمت الصلاة ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فى الماء والطين ، حتى رأيت أثر الطين فى جبهته .

الفصـــــل الثانى

فى ذَرْعِه وحُدُوده التى يتميز بها عن سائر المسجد اليوم .

اعـلم أن الذراع حيث أطلق فالمراد به ذراع الآدمى ، وقد قدمنا فى تحديد الحرم أنه[2] ذراع غير ثمن من ذراع الحديد المستعمل بمصر و بمكة ، وهو شـبران تقريباً ، وقد تحصلنا كما تقدم فى ذرع المسجد على أربع روايات : الأولى: سبعون ذراعا فى ستين أو يزيد ، والثانية : مائة ذراع فى مائة ، وأنه مربع ، والثالثة : أنه أقل من مائة ذراع ، وهذا صادق بالأولى فليحمل عليها ، الرابعة : أنه بَناه أولا أقلّ من مائة فى مائة ، ثم بناه وزاد عليه مثـله فى الدور ، ولا يصح أن يُرَاد بذلك الأذرع قطعاً ؛ لأنها تقتضى أنه بعد البناء الثـانى صار أحد امتداديه إما الطول أو العرض نحو مائتى ذراع ، والامتداد الآخر نحوها ، ولا شـك أن حَدَّ مسجده صلى الله عليه وسلم من جهة المشرق غايته الحجرة الشريفة ، فعرضه من جدارها إلى جدار المسجد الغربى ، وذرع هذا القدر اليوم بعد الزيادات المجمع عليها لا تبلغ مائة وخمسين ذراعا كما اختبرته ، بل تنقص أزيد من ستة أذرع ، وقد أجمع المؤرخون على أن عمر وعثمان رضى الله عنهما زادا فى المسجد من هذه الجهة ، ثم غيرهما من الخلفاء ؛

---

(١) القزعة — بفتحات — القطعة من الغيم ، وجمعها قزع

(٢) أى ذراع الآدمى

فالظاهر أن المراد من هذه الرواية الأشبار لا الأذرع ، فيقتضى أن المسجد النبوى بعد البناء الثانى صار أحدُ امتداديه مائتى شبر ، والامتداد الآخر نحوها ؛ فيوافق رواية مائة ذراع فى مثلها ، على أن ما ذكره المتأخرون من التحديد بالأمور الآتية يقتضى أنه لم يكن مائة ذراع ؛ فهو مقتض لترجيحهم الرواية الأولى ، وهى سبعون ذراعا فى ستين ، وتكون السبعون للطول والستون للعرض .

وقد نقل النووى ذلك فى منسكه عن خارجة بن زيد أحَدِ فقهاء المدينة السبعة ، ولفظه : بنَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مسجده سبعين ذراعا فى ستين أو يزيد ، وهو الذى جزم به ابن النجار فقال : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده مربعا ، وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وطوله سبعين ذراعا فى ستين ذراعا أو يزيد ، انتهى .

هذا ، وقد قال يحيى قبيل ما جاء فى حُجَر أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم : حدثنى هارون قال : حدثنا محمد بن يحيى — يعنى صاحب مالك — قال : فيما كان انتهى إلينا من ذَرْعِ مسجد النبى صلى الله عليه وسلم من القبلة إلى حده الشامى أربعة وخمسون ذراعا وثلثا ذراع ، وحده من المشرق إلى المغرب ثلاث وستون ذراعا ، يكون ذلك مكسرا ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وأربعين ذراعا ، انتهى .

وقال ابن النجار : أعلم أن حدود مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم — أى الذى كان فى زمنه — من القبلة الدرابزيناتُ التى بين الأساطين التى فى قبلة الروضة ، ومن الشام الخَشَبَتَان المغروزتان فى صحن المسجد ، وأما من المشرق إلى المغرب فهو من حجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الأسطوان الذى بعد المنبر ، وهو آخر البلاط ، انتهى .

وفيما ذكره ابن النجار مناقشة : أما ما ذكره من التحديد بالدرابزينات من جهة القبلة وبالخشبتين من جهة الشام ، فالخشبتان اليوم غير معروفتين ، وقد نبه

على فَقْدِها الزينُ المراغى ، وكلام المطرى يفهمه ، ولم أر لهما ذكرا فى كلام المتقدمين ، نعم ذكر ابن زبالة كلاما فيه غموض يقتضى تحديدَ بعض جهات المسجد بعُودَيْنِ عَلاَ الكبسُ على أحدهما ، وأن الآخر كان موجودا فى زمانه ، فلعل ذلك مأخذ ابن النجار ، وعبارة ابن زبالة تنبو(١) عن ذلك ؛ إذ لم يذكرها فى حد جهة الشام ، والحد من هذه الجهة اليوم — على ما يعرف فى زماننا — الحَجَرَان الآتى ذكرهما فى صحن المسجد ، وسيأتى ما يقتضى رد ذلك

وذكر ذلك ابن جماعة فى منسكه فقال: قد عَرَّفَ المتأخرون مقدارَ المسجد الذى كان عليه أولا فقالوا : كان على التربيع من الحجرة المقدسة إلى مكان السارية السابعة من جهة المغرب ، ومن موضع الدرابزين الذى هو بين الأساطين المتصل بالصندوق أمام المصلَّى الشريفِ إلى موضع الحَجَرَيْن المغروزين فى صحن المسجد الشريف ، انتهى . ومستنده فى ذلك قول المطرى فى الحجرين المذكورين يذكر أنهما حد المسجد من جهة الشام والمغرب ، قال : لكنهما ليسا على سَمْت المنبر الشريف ، بل هما داخلان إلى جهة المشرق بمقدار أربعة أذرع أو أقل ، وكذا متقدمان إلى القبلة بمثل ذلك ، قال : لأنى اعتبرتُ ذلك بالذرع فوجدتهما ليسا على ذرع المسجد الأول .

قلت : كونهما داخلين عن سَمْتِ المنبر إلى جهة المشرق بما ذكر لا يقدح فى كونهما الحدَّ المذكور؛ لأن المراد أن جهة المغرب هناك فى سَمْتهما ، كما أن المراد أن جهة الشام فى سَمْتهما ، لا أنها ما يحاذى الحجرين فقط ، ووقع الاستغناء عن تحرير ابتداء جهة المغرب بما تقدم له نقلا عن ابن النجار من الأسطوانة التى تلى المنبر من تلك الجهة ، كما استغنى بكون الحجرة الشريفة حده من جهة المشرق ؛ إذ لم يذكر حد لجهة المشرق مما يلى الحجرين فى جهة الشام ، وفى الحقيقة لم يقصد بهما سوى بيان جهة الشام ، عَلَى أنه يحتمل أن مقدم المسجد كان أعرض من

---

(١) تنبو : تبعد ، وأراد أنها لا توافق

مؤخره كما هو موجود اليوم ، فيكون الحجران حده من جهة المغرب حقيقة ، وأما قوله إنهما متقدمان إلى القبلة بأربعة أذرع و إنهما ليسا على ذَرْعِ المسجد الأول يعنى السبعين التى ذكرها ابن النجار فقد بَنَاه على ما قاله أيضا من أن الدرابزينات التى ذكرها ابن النجار من جهة القبلة متقدمة على موضع الحائط القبلى ؛ لأن الحائط القبلى كان محاذيا لمصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و إنما جعل هذا الصندوق الذى فى قبلة المصلى الشريف أى بين المصلى والدرابزينات سترة بين المقام المشريف و بين الأسطوانات ، قال : وورد أيضا أنه كان بين الحائط القبلى و بين المنبر ممر الشاة ، و بين المنبر والدرابزين اليوم مقدار أربعة أذرع وربع ذراع ، والمنبر لم يغير من جهة القبلة ، وكذا المصلى الشريف، انتهى. فلم يعتبر الذرع من الدرابزينات

وقد اختبرتُ أنا ذلك بنفسى من الدرابزينات المذكورة إلى الحجرين المذكورين فكان سبعين ذراعا بذراع اليد المتقدم ذكره ، وقد قال ابن جماعة : إنه اخْتَبَر ذلك بذراع العمل فكان ستة وأربعين ذراعا وثلثى ذراع ؛ فهو موافق لذرعنا ، بل يرجح قليلا ؛ لأن ذراع العمل ذراع و نصف راجح من ذراع اليد .

وأما ما ذكره المراغى فى كتابه من الذَّرْع فغير موافق لذرعنا ؛ لأنه اعتمد فى ذلك كما صرح به على ذراع المدينة الشريفة اليوم ، وقد اختبرته فوجدته يزيد على ذراع اليد الذى حررناه بأكثر من قيراط ، وقول المطرى « إن بين المنبر والدرابزين اليوم مقدار أربعة أذرع وربع » مخالفٌ لما اختبرناه ؛ فإن بينهما ثلاثة أذرع ونصف بالذراع الذى حررناه ، لكن سيأتى أن المنبر اليوم ليس هو ذلك ، وأنه قد اتضح لنا عند الحفر لتأسيس المنبر الرخام الآتى ذكره صحة ما قاله المطرى ، وأن المنبر الذى أدركناه قُدِّمَ عن محل المنبر الأصلى لجهة القبلة أزيد من نصف ذراع ، كما سنوضحه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر ابن زبالة ويحيى من طريقه نقلا عن غير واحد من أهل العلم تحديدَ المسجد الشريف من هذه الجهة فقالا : وعلامته فى القبلة حروف المرمر الذى المنبرُ وَسطه ، وعلامته من الشام أربعة طيقان من ناحية المشرق والمغرب ، وعلامة الطيقان الأربع أنهن مخضرات الأجْوَاف بالفُسَيْفِساء كلهن .

قلت : والمرمر اليوم لايظهر منه شيء . لكن يؤخذ من كلام ابن زبالة فى وصف هذا المرمر أنه كان دكة مرتفعة حول المنبر قدر الذراع ، وأنه ممد من المغرب قدر ثلاثة أذرع ، ومن المشرق ثلاثة ، ومن القبلة ثلاثة ، فإنه قال : حدثنى محمد بن إسماعيل قال : رأيت طِنْفِسَة[1] كانت لعبد الله بن حسن بن حسن تطرح قبالة المنبر على مرمر كان هناك ، قال : فحبس عبد الله بن حسن سنة أربعين ومائة ، وبقيت الطنفسة بعده أياماً ، ثم رفعت ، قال : ثم إن الحسن بن زيد بن الحسن بن على رضى الله عنهم لما ولى المدينة سنة خمسين ومائة فى خلافة أبى جعفر نَقَضَ المرمر ووسَّعه من جوانبه كلها حتى ألحقه بالسوارى ، فكلمه أبو مودود عبد العزيز بن أبى سليمان أن يَدَعَ له مُصَلاه فتركه ولم يلحق المرمر بالأساطين المقدمة ؛ فالمرمر اليوم هو الذى عمل الحسن بن زيد ، والمرمر الذى حَوْلَ المنبر المرتفع عن المرمر الذى عمل الحسن بن زيد بين ستة أساطين ثلاثة أذرع من قبل القبلة وثلاثة أذرع من قبل المشرق وثلاثة أذرع من قبل المغرب ، وهو مرتفع عن الأرض نحوا من ذراع ، انتهى .

وقال فى موضع آخَر : عَرْضُ المرمر الذى حول المنبر ثمانية أذرع ، وطوله ثمانى عشرة ذراعا ، وسماه فى موضع آخر رخاما ، وهو يطلق عليه لغة ، وسيأتى ذكر هذه الدكة التى المنبرُ فى وسطها عن ابن النجار حيث قال : وارتفاع الدكة التى المنبر عليها شبر وعقد ، فكأنَّ الكَبْس علا ؛ فإنها كانت ذراعا فى زمن ابن زبالة ، وفى زمن ابن النجار شبرا وعقدا ، ثم علا الكبس فلم يوجد اليوم ،

---

(١) الطنفسة ـ بكسر فسكون فكسر ـ البساط .

وقد ظهر أثرها وأثر الرخام المذكور عند حَفْر ما حول المنبر الشريف ، وشاهدتُ الرخام الذى فى قبلته كما سيأتى ، وتلخص من هذا أن الممر كان فى جهة القبلة ثلاثة أذرع بعد المنبر ، والظاهر أن عَرْضَ جدار المسجد الشريف أدخل فى ذلك من جهة القبلة ؛ فقد روى يحيى فى ترجمة ما جاء فى زيادة الوليد أن عمر بن عبد العزيز أحْضَرَ رجالا من قريش فأرَوْهُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [و] الذى زاد فيه عمر ، والذى زاد فيه عثمان ، فعلّم عمر بن عبد العزيز المسجد الأول الذى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان جدار القبلة من وراء المنبر ذراعا وأكثر من ذراع . وروى ابن زبالة أخباراً تتضمن أن جدار القبلة كان بينه وبين المنبر قدر ممر العَنْزِ ، وفى العتبية ممر الرجل منحرفاً ، وفى الصحيح عن سهل : كان بين مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الجدار ممر الشاة . وفيه أيضاً عن سلمة : كان جدار المسجد عند المنبر ما كادت الشاة تجوزه ؛ فتعين ما أشرنا إليه من إدخال جدار المسجد فى ذلك الممر الذى جعل علامة فى جهة القبلة ، وأما الطاقات الأربع التى ذكرها علامة لنهاية المسجد من جهة الشام فغير معروفة اليوم ، إلا أنه سيأتى فيما نقله المرجانى عن الحارث المحاسبى ما يبين محلها .

وأما الجواب على ما ذكر المطرى من كون الدرابزينات متقدمة فالظاهر أن ابن النجار فَهِمَ أن المراد إدخال عرض الجدار الذى كان موجوداً فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، لما تقرر عندنا من أن جدار المسجد من جملة المسجد ، ويؤيده ما تقدم من التحديد بالمرمر من تلك الجهة ، وما سيأتى فى الفصل الثانى عشر من رواية أحمد عن نافع أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد من الأسطوانة — أى التى عند المصلَّى الشريف — إلى المقصورة ؛ لأن ذلك هو الرواق الذى بين الأساطين التى فى قبلة الروضة وبين الأساطين التى تليها فى القبلة . وقد قال المراغى : إن الذى ظهر له أن الصندوق الذى فى قبلة المصلَّى الشريف جعل فى

مكان الجدار القديم ، و يشهد له ماسيأتى عن يحيى فى ذَرْعِ ما بين المصلى الشريف وجدار القبلة اليوم ، لـكن عرض هذا الصندوق ذراعان، و بينه و بين الدرابزين أرجح من نصف ذراع ، وذلك فيما يظهر أزيد من عرض الجدار القديم بنحو الذراع ؛ لأنى شاهدت لبناً أخرج من جدران الحجرة الشريفة فى العمارة التى أدركناها أولا يزيد فى الطول على الذراع ، وعرضه نصف ذراع ، وسمكه ربع ذراع ، وفيه شيء مرتفع طوله وعرضه وسمكه واحد ، وكل ثنتين منه طول لبنة مما قدمناه ، والذى يظهر أنه كان من بقايا لبن الحجرة الشريفة التى كانت مبنية به أولا جعل للتبرك لأنه أتى غير مستوٍ ، والجدار مبنى بالحجارة الوجوه المحكمة و بالقصة ؛ فلا يناسبه وضع ذلك فيه ، ولهذا جعل بين الحجارة الوجوه فى أعالى الجدار ، وقد تقدم أن الذى استقر عليه عرض الجدار فى زمنه صلى الله عليه وسلم الأنثى والذكر ، وهما لبنتان مختلفتان ، واللبنتان المختلفتان من هـذا اللبن الذى رأيناه أو اللبنة ونصف الآخرى وهو السعيدة يزيد على ذراع ونصف يسيراً ، فيكون ذلك هو عرض الجدار فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، و يشهد له ماشاهدناه أيضاً فى عرض جدار الحجرة الشريفة على ما سنذكره ، ثم اتضح الحال بظهور المرمر الذى فى قبلة المنبر ؛ فإنا وجـــدنا بينه و بين الدرابزين المذكور أرجح من ذراع ، و بينه و بين طرف محل المنبر الأصلى من جهة القبلة ثلاثة أذرع سواء ، كما ذكر ابن زبالة ؛ فذلك هو عرض الجدار مع ماكان بين المنبر و بينه .

وأما ما ذكره ابن النجار من التحديد بالأسـطوانة التى تلى المنبر من جهة المغرب وأنها آخر البلاط و بالحجرة الشريفة من جهة المشرق ؛ فالبـلاط الذى ذكره لا يوجد اليوم ، وكأنه يريد به الرخام الذى كان المنبر وسطه ، وقد عبر عن ذلك ابن جماعة كما تقدم بقوله : من الحجرة إلى مكان السارية السابعة من جهة المغرب ، فإن السابعة من صف الأسـاطين المذكورة هى التى تلى المنبر من

المغرب إن عَدَدْنَا الأسطوان الملاصق للحجرة ، ولم أر لما ذكره ابن جماعة مستنداً فى كلام المؤرخين سوى ما ذكره ابن النجار ؛ فيتعين الحمل على الأسطوانة المذكورة، وقد ذرَعْتُ ما بين الأسطوانة التى تلى المنبر عند ظهره من المغرب إلى حائز عمر بن عبد العزيز الذى داخله الحجرة الشريفة بمقط ؛ فكانت مساحته سبعة وخمسين ذراعاً ونصف ذراع راجح ، وعرض الحائز المذكور ذراع وربع راجح ، كما تحرر لى عند عمارة ما نقض منه ، وليس بينه و بين جدار الحجرة من هذه الجهة فضاء أصلا ، بل هو لاصق به ليس بينهما مغرز إبرة خلاف ما ذكره المؤرخون ؛ فيكون ما بين الأسطوانة المذكورة والحجرة الشريفة تسعة وخمسون ذراعاً ينقص يسيراً ، وكأنّ ابن النجار جرى على قول من تقدمه من المؤرخين فى أن بين الحائز وجدار الحجرة فضاء من هذه الجهة ، وظن أن عرض الحائز أكثر مما ذكرناه ؛ فجعل نهاية قولهم فى عرض المسجد ستين ذراعاً أو يزيد إلى الاسطوانة التى تلى المنبر أو أن ذلك القدر الناقص لتفاوت الأذرعة ، على أن الظاهر أن ابن جماعة لم يعتبر الأسطوانة اللاصقة بالحجرة ، وأنه جعل السارية السابعة هى التى تلى السارية التى تلى المنبر فى جهة المغرب ، وهى الثانية من المنبر فى تلك الجهة ، فإنه قال: إنه ذَرَعَ ما بين الأسطوانة السابعة إلى حائز الحجرة الشريفة فكان ذلك اثنين وأربعين ذراعاً وثلثى ذراع بذراع العمل .

قلت : وقد اعتبرت ماذكره من الذرع بذراع العمل فرأيته ينتهى إلى الأسطوانة الثانية من المنبر فى جهة المغرب ، وذرعته بذراع اليد الذى حرزناه فكان خمساً وستين ذراعاً ، وهو مطابق لما قاله ابن جماعة ولما اختبرناه بذراع العمل ؛ لأن ذراع العمل ذراع وثلث من ذراع الحديد المستعمل بمصر ، وذلك اثنان وثلاثون قيراطاً ، والذراع الذى حررناه أحد وعشرون قيراطاً ، فذراع العمل ذراع ونصف قيراط بالذراع الذى حررناه ، وقد مال المراغى إلى اعتبار التحديد بهذه الأسطوانة — أعنى الثانية من المنبر — فإنه ذكر عدم وجود البلاط اليوم ،

ثم قال : لـكنى اعتبرت ذَرْعَه من المشرق إلى المغرب على رواية يحيى ثلاثة وستين ، وهى من أقل الروايات ؛ فـكان من جدار الحجرة الشريفة يعنى الحائز الظاهر إلى الاسطوانة الثانية من المنبر لا التى بعده ستون ذراعا تقريبا ، قال : وعلى هذا يكون عرض جدار عمر بن عبد العزيز وما بينه و بين جدار الحجرة الشريفة الأصلى ثلاث أذرع تقريبا ، انتهى . ولايخفى مافيه ؛ لأنه جعل المسافة المذكررة ستين ذراعا تقريبا وهى خمسة وستون تحريرا ، وتبع من تقدمه من المؤرخين فى ثبات فضاء بين حائز عمر بن عبد العزيز وجدار الحجرة ، فخمن أن ذلك مع عرض الحائز ثلاثة أذرع ، وقد علمت أن عرض الحائز ذراع وربع يرجح يسيرا ، وليس بينه وبين جدار الحجرة شىء

وقد روى ابن زبالة ويحيى من طريقه أشياء فى تحديد المسجد وذَرْعَه يقتضى أن جدار المسجد الشريف فى زمنه صلى الله عليه وسلم من جهة المشرق لم ينته إلى حائز عمر ابن عبد العزيز ، بل الحائز و بعض مايليه من المغرب فى موضع حجرة عائشة رضى الله عنها ، وأن جدار حجرة عائشة كان فيما بين الأساطين اللاصقة بجدار القبر و بين لأساطين التى بينها المقصورة الدائرة على الحجرة الشريفة ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان قد بنى المسجد أولا وجعله ثلاث أساطين عن يمين المنبر فى المغرب وثلاث أساطين عن يساره فى المشرق ، وأن نهايته من جهة المشرق كانت أولا أسطوان التوبة ؛ لأنها تـكون فى موضع الجدار بعد الأساطين الثلاث ، وأن مساحة ذلك من المشرق إلى المغرب ثلاث وستون ذراعا ، وقيل : خمس وخمسون ، وأنه زاد فيه بعد ذلك من المشرق والمغرب ، ومع ذلك لم ينته زيادته فى المشرق إلى موضع حائز عمر بن عبد العزيز ، وأنه لم يزد فيه من جهة القبلة ولا من جهة الشام

قلت : وهو موافق لما روى أنه كان مائة ذراع كما سنبينه ، و يرجحه عندى أن المنبر الشريف يكون حينئذ متوسطا للمسجد ؛ إذ يبعد أنه صلى الله عليه وسلم لا يتوسط أصحابه ويقف على منبر فى طرفهم ، وكون المسجد النبوى لا ينتهى

إلى موضع حائز عمر بن عبـد العزيز كما قدمناه خلافُ ما عليه متأخرو المؤرخين ، لـكنه حسن ؛ إذ يبعد أن يبنى عمر بن عبد العزيز حائزه فى شئ من المسجد ، و ينتقص الروضة الشريفة به ، حاشاه من ذلك ، والذى صح أن محل القبور الشريفة فى صفة بيت عائشة ، ولا بد للصفة من مرافق ، فيظهر أن الحائط الذى فى جوف الحائز هو حائط الصفة ، والحائز فيما خرج عنها من بقية البيت

ثم ظفرت فى كلام المرجانى نقلا عن الحارث المحاسبى بمايصرح بذلك ، لما سيأتى من أنه ذكر فى تحديد المسجد ستة أساطين من جهة شرقى المنبر ، ثم قال : والروضة ما بين القبر والمنبر ، فما كان منها فى الأسطوانة السادسة التى حددت لك عن يمين المنـبر فليس من المسجد الأول ، و إنمـا كان من حجرة عائشة رضى الله عنها فوسع به المسجد ، وهو من الروضة ، انتهى

ولنورد عبارة ابن زبالة فإن يحيى رَوَى ذلك عنه من غـير زيادة ولا مخالفة مع ما فيها من أشياء لا تعرف اليوم ، ولـكن إفادة هذه الأمور الغريبـة التى لم يذكرها متأخرو المؤرخين اقتضت إيرادنا لذلك فنقول : أسند ابن زبالة عن عبيد بن عمر بن حفص بن عاصم أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ثلاث أساطين مما يلى المشرق ، وثلاث أساطين مما يلى المغرب ، سوى ماخرج فى الرحبة أى الأساطين المصفوفة من الرحبة إلى القبلة ، ولولا ما سيأتى من التصريح بأن هـذه الست كانت ثلاثة منها على يمين المنبر وثلاثة عن يساره — يعنى فى البناء الأول — لحملنا ذلك على أن ابتداء هـذه الست من الأسطوانة التى تلى المنبر ؛ فيـكون نهايتها الأسطوان التى يلى أسطوان التوبة ، ويكون جدار الحجرة بعدها ، فيوافق التحديد المتقدم ، لـكنه قال عقبه : وقال جمهور الناس من أهل العلم وغيرهم: هو إلى القرضتين اللتين فى الأسطوانتين اللتين دون المربعتين الغربية والتى فى القبر

قلت : لاتعرف اليوم فى المسجد القديم مربعة غربية ، غير أن الذى ظهر لى — من مقابلتها بمربعة القبر ومما سيأتى فى بيان الحائز الذى عمل لمنع ماء المطر أن يغشى المسقف القبلى — أنها الأسطوانة العظيمة المثمنة اليوم فى المسقف القبلى ، فإنها كانت ركن رحبة المسجد فى هذا المسقف من جهة المغرب ، كما أن مربعة القبر كانت ركن الرحبة فى جهة المشرق ، قبل زيادة الرواقين اللذين ذكرهما فى المسقف القبلى كما يؤخذ من مواضع فى كلام ابن زبالة ويحيى ، والذى يظهر أن تثمين الأسطوانة المذكورة حادِث ، وإنما كانت مربعة ، كما ثمنوا ما ظهر من مربعة القبر وما يلى الحجرة منها باقٍ على تربيعه ، ومربعة القبر هى التى فى نهاية الصفحة الغربية من الحائز الدائر على الحجرة من جهة الشام ، وتعرف بأسطوان مقام جبريل عليه السلام كما سيأتى إيضاحه ، والأسطوان التى دونها هى الملاصقة بالشباك الدائر على الحجرة اليوم ، وهى بين المربعة وبين أسطوان الوفود ؛ فيكون جدار الحجرة على هذا كان فيما بين مربعة القبر والتى يليها

قال ابن زبالة عقب ما قدمناه عنه : واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتكف فى المسجد فى موضع مجلس بنى عبدالرحمن بن الحارث ، وأن عائشة رضى الله عنها كانت تُرَجِّلُ رأسه وهو معتكف فى المسجد وهى فى بيتها ، وكان مالك بن أنس يقول : الجدار من المشرق فى حد القناديل التى بين الأساطين التى فى صفها أسطوان التوبة وبين الأساطين التى تلى القبر ، وأرفه[1] عمر بن عبدالعزيز من ورائها فى الأسطوانة التى تلى القبر

قلت : ما نقله عن مالك صريح فيما قدمناه من أن جدار المسجد الشرقى كان فيما بين الأساطين اللاصقة بالقبر وبين الأساطين المقابلة لها ؛ فيكون فى محاذاة القناديل الآخرة من القبلة إلى الشام فيما بين هذه الأساطين ، ويكون عمر بن

---

(١) الأرفة — بالضم — هى الحد بين الأرضين ، وعدم معرفة المصنف معنى هذه الكلمة كما سيذكره (ص ٣٥٢) دليل على أن قراءتها تصحفت عليه .

عبد العزيز أخره إلى الأسطوان اللاصق بجدار القبر ، وسيأتى مايصرح بذلك من كلام المحاسبي أيضا وأما قوله « واحتجوا إلى آخره » فوجه الاحتجاج أن معتكفه صلى الله عليه وسلم كان لاصقاً بحجرته ، بحيث إن عائشة رضى الله عنها كانت ترجِّل رأسه وهو فى مُعْتَكَفِهِ وهى فى بيتها ، ولهذا أورد ابن زبالة عقبه حديث « كان يَدْنُو منى وأنا حائض فأرجله وهو فى المسجد » ومجلس بنى عبد الرحمن بن الحارث الذى ذكره ابن زبالة لايعرف اليوم، وروى ابن زبالة ويحيى فى بيان معتكفه صلى الله عليه وسلم أشياء سنذكرها إن شاء الله تعالى ، والمناسبُ لما نحن فيه منها : أنه كان للنبى صلى الله عليه وسلم سرير من جريد فيه سَعَفُه يوضع بين الأسطوان التى وُجَاه القبر[1] وبين القناديل، كان يضطجع عليه صلى الله عليه وسلم وقوله «التى وُجاه القبر» يريد به المواجهة له، وهى اللاصقة بشباك الدائر على الحجرة اليوم فى صف أسطوان التوبة ، بل قيل : إنها أسطوان التوبة كما سيأتى ، وهذا مطابق لما ذكره مالك من أن الجدار كان فى حد القناديل المذكورة .

وأسند ابن زبالة أيضاً عن غير واحد من أهل العلم أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ثلاث أساطين عن يمين المنبر وأنت مستقبل القبلة فى موضع معتكف حسن بن زيد الذى كان يعتكف فيه ، ومن الشق الآخر إلى أسطوان التوبة ، وكان ذرعه من المشرق إلى المغرب ثلاثة وستين ذراعا ، وقال عبد الرحمن ابن سعد عن أشياخه : كان خمسين فى خمسين .

قلت : فيكون الحُجَر التى فى شرقى المسجد أدخلت بعد أو بعضها فى الزيادة الآتية أو أنها لم تستقر فى شرقيه إلا بعد ذلك .

ثم قال ابن زبالة : قالوا : وعلامة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم – أى الذى بنى عند مقدمه من مكة – وذكر علامات كانت فى السقف المحترق والفسيفساء التى زالت فلا تعرف اليوم ، ثم قال : وعلامة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بنى عند مَقْدَمِهِ من خيبر قالوا: ترك رسول صلى الله عليه وسلم المسجد من القبلة فى تلك البنية على حده الأول ، وزاد فيه من ناحية المشرق إلى الأسطوان التى دون

(١) وجاه القبر : فى مواجهته

المربعة التي عند القبر، وعلامة تلك الأسطوان أن لها نجافا[1] طالعاً في الرحبة من بين الأساطين، ومن المغرب إلى الأسطوان التي تلي المربعة التي لها نجاف[1] أيضاً من بين الأساطين، وظهر ذلك أي حد المسجد بحجارة، وعبارة يحيى : وقد صمد بحجارة تحت الحصباء، منها أرفة عند الأسطوان التي بين أسطوان التوبة و بين القبر في صف الأسطوان التي لها نجاف، ومن المغرب مثل ذلك بأرفة حجارة في الأرض مبنية، وترك مما يلي الشام لم يزد فيه، انتهى كلام ابن زبالة بحروفه .

وقوله « ومن المغرب مثل ذلك » أي ظهر الحد بأرفة حجارة في الأرض، ولا أدري معنى قوله بأرفة[2] .

وذكر ابن زبالة أيضا في موضع آخر ذَرْعَ مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان في زمنه، يعني ما استقر عليه في آخر الأمر، ثم قال : وحده من شرقي المنبر أربع أساطين، ومن غربيه أربع أساطين، انتهى .

والعجب من ابن النجار فَمَنْ بعده من المؤرخين حيث لم يتعرضوا لهذا، لكن ابن النجار اعتذر في أول كتابه بأنه كان مجاورا بالمدينة، ولم تكن كتبه حاضرة عنده، وذكر ما يقتضي أنه كتب ذلك مما علق بفكره، والمطري جرى على منواله، وابن زبالة ويحيى عمدة في ذلك ؛ فإنهما أقدم مَنْ أرخ للمدينة لأن ابن زبالة هو محمد بن الحسن أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس، ويؤخذ من كلامه أنه وَضَع كتابه في صفر سنة تسع وتسعين ومائة، وأما يحيى فهو من أصحاب أصحابه، وكانت وفاته سنة سبع وسبعين ومائتين عن ثلاث وستين سنة، وأما ابن شبة فكان معاصرا ليحيى وقبله بيسير، ولم أظفر من كتابه بهذا المحل المشتمل على ذكر المسجد، ولو ظفرت به لكان الشفاء ؛ فإنه يوضح الأمور إيضاحا تاما، وهو إمام ثقة، وابن زبالة وإن كان ضعيفا لكن اعتضد بموافقة يحيى له وروايته لكلامه من غير تعقيب .

---

(١) أصل النجاف - بزنة الكتاب - عتبة الباب ؛ فالمراد هنا أن لهذا الأسطوان دكا في الأرض تعتمد عليه وتعرف به

(٢) قد ذكرنا لك أن الأرفة بضم الهمزة الحد الذي تحدبه الأرضون

ثم ظفرتُ في كلام المرجاني نقلا عن المحاسبي بما يوافق كلامه ؛ فهو العمدة عندي .

قال المرجاني : قال الحارث بن أسد المحاسبي : حد المسجد الأول ستة أساطين في عرضه عن يمين المنبر إلى القناديل التي حذاء الخوخة ، وثلاث سَوَارٍ عن يساره من ناحية المنحرف منه ، ومنتهى طوله من قبلته إلى مؤخره حذاء تمام الرابع من طيقان المسجد اليوم : أي في زمنه ، وما زاد على ذلك فهو خارج عن المسجد الأول ، قال — يعني المحاسبي — : وقد روى عن مالك أنه قال : مؤخر المسجد بحذاء عضادة الباب الثاني من الباب الذي يقال له باب عثمان ، أعني العضادة الأخرة السفلى ، وهو أربع طيقان من المسجد ، ثم قال : والروضة ما بين القبر والمنبر ، إلى آخر ما قدمناه عنه .

وقوله « عن يمين المنبر » أي في جهة المشرق ، لما سبق عنه خلاف ما تقدم في كلام ابن زبالة ، فإنه عني يمين مستقبل المنبر ، والطيقان التي ذكرها لها ذكر في كلام ابن زبالة ويحيى كما تقدم ، وهي غير موجودة اليوم ، والباب الثاني من باب عثمان هو المعروف اليوم بباب النساء ؛ فهو صريح في رَدِّ ماتقدم من تحديد جهة الشام بالحجرين الموجودين اليوم في صحن المسجد ، ومؤيد للرواية المتقدمة في الذرع ، وهي رواية مائة ذراع في مائة ذراع ؛ لأنه يقرب من ذلك .

وقد تحصَّلْنا من هذا مع ما تقدم عن المتأخرين على خلاف في نهاية المسجد النبوي من جهة المغرب .

فأحد الأقوال : أنه إلى الأسطوانة التي تلي المنبر من تلك الجهة ، وهو الذي عَوَّلَ عليه ابن النجّار ومن اتبعه .

والثاني : أنه إلى التي تليها ، وهي الثانية من المنبر من تلك الجهة أيضا ، وهما بعيدان .

والثالث : أنه إلى الأسطوانة الثالثة من المنبر فى تلك الجهــة ، وقد اقتضى كلام ابن زبالة أن ذلك حد المسجد قبل زيادة النبي صلى الله عليه وسلم فيــه ، خلاف ما يظهر من كلام المحاسبي .

والرابع : أنه إلى الأسطوانة الرابعة من المنبر ؛ لمـا تقدم من أنه كان على ثلاثة أساطين عن يمين المنبر ؛ فيكون جداره الغربي فى موضع الأسطوانة الرابعة فى صفها من جهة القبلة أسطوان مربع من أسفله رفع عن الأرض بقدر الجلسة ، وفى صفه من جهة الشام أسطوان محراب الحنفية المحدث .

والخامس : أنه إلى الأسطوانة الخامسة من المنبر ؛ لمـا تقدم من أن النبي صلى الله عليه وسلم زاد فيه بعد فتح خيبر من جهة المغرب بقدر أسطوان آخر ، كما يؤخذ مما تقدم ، ولمـا صرح به ابن زبالة كما قدمناه أيضا حيث قال فى حده : وعن غربيه أربع أساطين ؛ فينتهى حده إلى الأسطوانة الخامسة من المنبر ، وهى التى تلى الأسطوانة المذكورة فى جهة المغرب فى صفها ، وهى مربعة من أسفلها بقدر الجلسة أيضا ، وفى صفها من جهــة الشام الأسطوان التى تلى محراب الحنفية من جهة المغرب ، فهاتان المربعتان هما اللتان يتردد فيما يكون منهما فى موازاة حد المسجد النبوى من جهة المغرب ، وقد ذهب تربيعهما فى العمارة المتجددة فى زماننا بعد الحريق ؛ والمربعة الثانية – أعنى الخامسة من المنـبر — هى التى يترجح عندى أيضا ؛ لأن تجاهها فى حائط القبلة طراز آخذ من السقف نازل إلى العصابة السفلى الظاهرية ، لـكنه انقشر بعضه عند إصلاح العصابة العليا وتبييض الجدار فى العمارة التى أدركناها أولا ، وذهب منــه ما كان بين العصابتين ، وبعض ما فوق العليــا ، وبقى منه ما بين العصابة العليــا والسقف ، ثم ذهب بقيته فى الحريق الحادث فى زماننا ، وبقى موضعه أصباغ ملونة فى الجــدار من صناعة الأقدمين ، وقد ذهب ذلك عند هدم الجدار القبلى ؛ فالظاهر أنه علامــة نهاية

المسجد النبوى من هذه الجهـة ، خلاف ما سيأتى عن المطرى فى جَعْـلِهِ علامةً لنهاية زيادة عثمان رضى الله عنه ؛ لوجوه :

الأول : أنى ذَرَعْتُ من الأسطوان التى المنبر إلى الأسطوان المحاذية لهـذا الطراز ؛ فكان ذلك سبعا وثلاثين ذراعا ، فإذا أضفنا ذلك إلى الذّرْع المتقدم فيما بين الأسطوان التى تلى المنبر و بين الحجرة الشريفة ، وهو نحو الستين ذراعا كما تقدم ، قارَبَ ذلك المائة التى تقدمت الرواية بها .

الثانى : أنه يبعد أن يجعل هذا الطراز لزيادة عثمان رضى الله عنـه كما زعمه المطرى ، و يترك التعليم للمسجد الأصلى والاعتناء به أشد . وقد قال ابن زبالة : إن له عـلامات فى الفسيفساء ، والظاهر أن الفسيفساء لما زالت جعل هذا بدلها .

الثالث : أنه سيأتى أن عمر لما زاد فى المسجد جعل عرضه مائة وعشرين ذراعا ، وأنه لم يزد فيه من جهة المشرق شيئا ؛ فيكون نهاية المسجد فى زمنه من جهة المشرق الحجرة الشريفة ، وقد علمت أن من الحجرة الشريفة إلى ما يحاذى الطراز المذكور ينقص عن المـائة ، فـكيف يكون نهاية زيادة عثمان ؟ وعثمان قد زاد أسطوانا من جهة المغرب على زيادة عمر ، فلو كان ذلك الطراز نهاية زيادة عثمان لزم أن يكون عرض المسجد فى زمن عمر نحو التسعين ، ولا قائل به .

الرابع : أنه سيأتى أن عثمان رضى الله عنه لم يزد فى جهة المغرب غير أسطوانة واحدة ، وأن زيادة الوليد من المغرب أسطوانتان ، ولاشك أن من الأسطوانة التى تحاذى الطراز المذكور إلى جدار المسجد الغربى خمس أساطين ، فإذا سقط منها ثلاث أساطين لعثمان رضى الله عنه وللوليد بقى أسطوانتان لزيادة عمر رضى الله عنه ، وهما يقربان من عشرين ذراعا التى زادها عمر رضى الله عنه على المائة كما سيأتى .

الخامس : أن موضع المنبر لم يغير كما سيأتى ، و يبعد كلَّ البعدِ أن يجعل النبى صلى الله عليه وسلم موضع منبره فى طرف مسجده ولا يتوسط أصحابه فى حال قيامه .

السادس : أنه سيأتى أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد شيئا من دار العباس وأن ما بقى منها زاد عثمان رضى الله عنه بعضه ، وما بقى دخل فى دار مَرْوَان بن الحكم . وروى يحيى فى قصة زيادتها ما يصرح بأنها كانت ملاصقة بجدار المسجد النبوى ، بل روى أنه كان لها ميزاب يصب فيه ، وقد نقل يحيى أنها كانت فيما بين الأسطوان المربعة التى تلى دار مروان بن الحكم ، أى والباب الذى يلى دار مروان ابن الحكم ؛ لما تقدم من دخول بعضها فى دار مروان ؛ فوجب أن تكون المربعة المذكورة أول دار العباس وآخر المسجد النبوى .

السابع : ما قدمناه من أن المربعة الغربية إذا أطلقت ، فالمراد بها الأسطوانة التى كانت ركن صحن المسجد فى المغرب عند نهاية المسقف القبلى قبل زيادة الرواقين الآتيين فيه ، وهى المثمنة اليوم ؛ فهى المرادة بما تقدم عن الجمهور من أن المسجد النبوى كان إلى الفرضتين اللتين فى الأسطوانتين اللتين دون المربعتين الغربية والتى فى القبر كما نقله ابن زبالة ، ولا شك أن الأسطوانة الخامسة من المنبر فى جهة المغرب دون المربعة المذكورة ؛ لأن المربعة المذكورة هى السادسة من المنبر ، فوضح أنها المراد بذلك ، فيكون الجمهور على رواية أن المسجد كان مائة فى مائة ، ومما يرجح هذه الرواية أيضا ما تقدم عن المحاسبى من تحديد مؤخر المسجد الأول نقلا عن مالك بمضادة الباب الثانى من باب جبريل — وهو باب النساء — وما سيأتى من أن باب الرحمة — و يعرف بباب عاتكة — لم يغيره عمر رضى الله عنه ، يعنى أنه نقله فأخَّره فقط وجعله فى تجاه الباب الأول ، لأنه زاد فى المسجد من جهة المغرب ، و بين باب الرحمة و بين الحجرين اللذين ذكر أنهما حد المسجد

من جهة الشام تفاوت ظاهر ؛ لتأخره عن موازاتهما كثيرا ، وكأنهما إنما جعلا هناك تميزا لفوهتى بالوعة عندهما الحجران المذكوران هناك ؛ فالذى يترجح فى النقد رواية المائة وما ذكرناه من التحديد ، ويحتمل أن ابن النجار لما رأى اختلاف الروايات أراد الأخذ بالأقل لأنه المحقق فذكر التحديد المتقدم ، وتبعه مَنْ بعده ، على أنه اعتذر فى أول كتابه بغيبة كتبه ، وأن الحفظ قد يزيد وينقص ، ولما اتضح ذلك للمَقَرِّ الشجاعى شاهين الجمالى ناظر الحرم الشريف النبوى وشاد عمائره وشيخ خدامه اتخذ لأعالى الأسطوانة الخامسة من المنبر من صف الأساطين التى فى قبلة المنبر طرازاً متصلا بالسقف منقوشا فيه أن ذلك هو الذى استقر عليه الأمر فى نهاية المسجد النبوى وحده ، فالله تعالى يوفقه للمداومة على حفظ الحدود ، ويلحقه بالمقر بين الشهود .

ويتفرع على ذلك مسألة ذكرها النووى فقال فى شرح مسلم والمناسك وغيرهما : إن الصلاة إنما تتضاعف فى المسجد الذى كان فى زمنه صلى الله عليه وسلم دون بقية الزيادات ، ولم يحك غيره ، لكن الخطيب بن حملة نقل عن المحب الطبرى أن المسجد المشار إليه فى حديث المضاعفة هو ما كان فى زمنه صلى الله عليه وسلم مع ما زيد فيه ، لأخبار وآثار وردت فى ذلك ، واستحسنه ابن حملة على ما ذهب إليه النووى فى كتبه من التخصيص ، مع أن البرهان ابن فرحون نقل فى شرحه لابن الحاجب الفَرْعى أنه لم يخالف فى هذه المسألة غير النووى ، وأن الشيخ محب الدين الطبرى نقل فى كتابه الإحكام أن النووى رجع عن ذلك ، قال : ونقل أبو عبد الله بن فرحون فى شرح مختصر الموطأ أنه وقف على كتاب من كتب المالكية فيه أن مالكا سُئِل عن ذلك فقال : ما أراه عليه السلام أشار بقوله : « فى مسجدى هذا » إلا لما سيكون من مسجده بعده ، وأن الله أطلعه على ذلك ، انتهى .

قلت : أما قوله « إنه لم يخالف فى ذلك إلا النووى » فممنوع ؛ فقد نقل ذلك ابنُ الجوزى فى الوفاء عن ابن عقيل الحنبلى ، وأما ما نقله عن الإحكام للطبرى فقد راجعتها فرأيته ترجم لبيان أن مسجده صلى الله عليه وسلم المشار إليه بالتفضيل هو الموجود فى زمنه مع ما زيد فيه ، وأورد بعضَ الأخبار الآتى ذكرها فى آخر الفصل الثانى عشر ، ثم قال : وقد يتوهم بعضُ مَنْ لم يبلغه ذلك قَصْرَ الفضيلة على الموجود فى زمنه صلى الله عليه وسلم لمكان الإشارة ، وقد وقع ذلك لبعض أئمة العصر ، فلما رويت له ما سبق جَنَحَ إليه وتلقاه بالقبول ، انتهى .

فكأن ابن فرحون فهم أن المراد من قولهم « بعض أئمة العصر » النووى .

وأما ما حكاه عن مالك فقد نقله الأقشهرى فى روضته عن عبد الله بن نافع صاحب مالك عن مالك ، ولفظه فى أثناء كلام : قيل له — أى لمالك — فحدُّ المسجد الذى جاء فيه الخبرُ هو على ما كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم أو على ما هو الآن ؟ قال : بل هو على ما هو الآن ، قال : لأن النبى صلى الله عليه وسلم أَخْبَرَ بما يكون بعده ، وزُوِيَتْ له الأرض فأُرِىَ مشارقَها ومغاربها ، وتحدث بما يكون بعده ، فحفظ ذلك مَنْ حفظه فى ذلك الوقت ، ونسى ذلك من نسيه ، ولولا هذا ما استجاز الخلفاء الراشدون المهديون أن يزيدوا فيه بحضرة الصحابة ولم ينكر عليهم ذلك منكر ، انتهى .

قلت : ومتمسَّكُ مَنْ ذهب إلى التخصيص الإشارة فى قوله « مسجدى هذا » ولعله صلى الله عليه وسلم إنما جاء بها ليدفع توهم دخول سائر المساجد المنسوبة إليه بالمدينة غير هذا المسجد ، لا لإخراج ما سيزاد فيه ، وقد سَلَّم النووىُّ أن المضاعفة فى المسجد الحرام تعم ما زيد فيه ، فليكن مسجد المدينة كذلك ، كما أشار إليه

ابن تيمية ، قال : وهو الذى يدل عليه كلامُ الأئمة المتقدمين وعملهم ، وكان الأمر عليه فى عهد عمر وعثمان رضى الله عنهما ، فإن كلا منهما زاد فى قبلة المسجد ، وكان مقامه فى الصلوات الخمس فى الزيادة وكذلك مقام الصف الأول الذى هو أفضل ما يقام فيه ، ويمتنع أن تكون الصلاة فى غير مسجده أفْضَلَ منها فى مسجده ، وأن يكون الخلفاء والصفوفُ الأول كانوا يصلون فى غير مسجد[ه]، قال : وما بلغنى عن أحد من السلف خلاف هذا ، إلا أن بعض المتأخرين ذكر أن الزيادة ليست من مسجده ، وما علمت له سلفاً فى ذلك .

وسيأتى فى زيادة عمر بن الخطاب ما ورد من الأخبار والآثار المقوية لذلك

ولست مسألة الحلف على أن لا يدخل هــذا المسجد [illegible] من هذا القبيل [illegible]

وأســند يحيى عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وَقَفَ يصلى انتظر أمْرَ الله فى القبلة ، وكان يفعل أشياء مما لم يؤمر بها ولم يُنْهَ عنها من فعل أهل الـكتاب ، قال : فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلِّى ، فأشار له جبريل : يامحمد صَلِّ إلى البيت ، وصَلَّى جبريلُ عليه السلام إلى البيت ، قال : فدَار النبى صلى الله عليه وسلم إلى البيت ، قال : فأنزل الله تعالى « قَدْ نرى تَقَلُّبَ وجهك فى السماء فلنولينك قِبْلَةً ترضاها » إلى « وما الله بِغافل عماتعملون[1] » قال : فقال المنافقون : حَنَّ محمد إلى أرضِهِ وقومِهِ ، وقال المشركون : أراد محمدٌ أن يجعلَنَا له قبلةً ، وأن يجعلنا له وسيلة ، وعرف أن ديننا أهدى من دينه ، وقالت اليهود للمؤمنين : ما صرَفكم إلى مكة وتركتم قبلة موسى ويعقوب والأنبياء ؟ [illegible] ماتوا ما ندرى ،

وعن ابن عمر قال : بينما نحن فى صلاة الصبح بقُبَاء جاءهم رجل فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أُمِرَ أن يستقبل الكعبة ، ألا فاستقبلوها، وكانت قبلة الناس إلى الشام ، فاستداروا وتوجَّهُوا إلى الكعبة ، وهو فى الصحيحَين بلفظ: كانت وجوههم إلى الشام ، فاستداروا إلى الكعبة ، وفى لفظ : كانوا ركوعا فى صلاة الصبح .

وعن عثمان بن محمد بن الأخنس أنه صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه فيه — يعنى فى مسجد القبلتين — الظهر ، فلما صلى ركعتين أمر أن يُوَجه إلى الكعبة، فاستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ، واستقبل الميزاب .

وعنه أيضاً نحوه ، وأن الفريضة كانت الظهر ، وأنها يومئذ كانت أربع ركعات .

وعن سعيد بن المسيب قال : صلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس سبعةَ عَشَرَ شهرا ، وصُرِفت القبلة قَبْلَ بدر بشهرين ، والثبت عندنا أنها صرفت فى الظهر فى مسجد القبلتين .

وفى رواية أخرى عنه : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الله بعد أن قدم المدينة نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ، ثم حولت القبلة قبل بدر بشهرين .

وعن كثير بن عبدالله المزنى عن أبيه عن جده قال: صُرِفت القبلة يوم الاثنين النصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً .

وفى مسلم عن البَرَاء بن عازب : صَلَّيْتُ مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً حتى نزلت الآية التى فى البقرة « وَحَيْثُ ما كنتم فولوا وجوهكم شَطْرَه[1] » . فنزلت بعد ماصلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فانطلق رجل من القوم فمر بناس من الأنصار وهم يصلون ، فحدثهم بالحديث ، فولَّوْا وجوهَهم قبل البيت .

---

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

تاريخ تحويل القبلة

وفى رواية له عنه أيضاً : ستةعشر شهراً ، أو سبعة عشرشهراً ، على الشك .

وعند الزمخشرى : صُرِفت القبلة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سَلِمة — يعنى مسجد القبلتين — وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر ، فتحول فى الصلاة ، واستقبل الميزاب، وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال .

وروى ابن أبى حاتم فى تفسيره من طريق تويلة بنت أسلم قالت : صليتُ الظهر والعصر فى مسجد بنى حارثة ، فاستقبلت مسجد إيلياء ، فصلينا سجدتين : أى ركعتين ، ثم جاءنا مَنْ يخبرنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت الحرام ، فتحول النساء مكان الرجال ، والرجال مكان النساء ، فصلينا السجدتين الباقيتين إلى البيت الحرام .

قال الحافظ ابن حجر : وهذه القصة المرادة بقوله فى الحديث المتقدم « فمر على قوم من الأنصار يصلون فى صلاة العصر نحو بيت المقدس » فهؤلاء القوم هم بنو حارثة ، والمار عباد بن بشر ، ووصل الخبر وقت الصبح إلى أهل قُبَاء ، فلا منافاة بين الحديثين .

وسيأتى فى مسجد القبلتين أن ابن زبالة نقل أن القبلة صُرِفت ونَفَر من بنى سَلِمة يصلون الظهر فى مسجد القبلتين ، فأتاهم آتٍ فأخبرهم وقدصلوا ركعتين فاستداروا حتى جعلوا وجوههم إلى الكعبة ، فبذلك سمى مسجد القبلتين .

قال المجد : فعلى هذا كان مسجد قُبَاء أولى بهذه التسمية .

مدة الصلاة إلى بيت المقدس

وعند أبى القاسم القُشَيرى فى لطائف التفسير : صلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس بعدقُدُومه المدينة مهاجرا ستة عشر شهرا عن قتادة ، وقيل : سبعة عشر شهرا عن ابن عباس ، وقال أنس : كان تسعة أشهر أو عشرة أشهر ، وقال معاذ بن جبل : ثلاثة عشر شهراً استمالةً لقلوب اليهود أن يصلى إلى قبلتهم ربما يرغبون فى دينه ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم كره موافقتهم فى أمر القبلة لما

قالوا : لولا أنَّ ديننا حق لما صلى إلى قبلتنا ، ولما اسْتَنَّ بسنتنا ، فقال صلى الله عليه وسلم لجبريل : وَدِدْتُ أن ربى صَرَفَنى عن قبلة اليهود إلى غيرها ، فقال جبريل: إنما أنا مَلَكٌ عبد ، لا أملك شيئاً ، فَسَلْ ربك ، فصعد جبريل السماء ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصحراء نحو أُحُدٍ يصلى ههنا ركعتين وههنا ركعتين ، ويدعو الله أن يُجيز له فى ذلك ، فلم يزل كذلك يديم النظر إلى السماء ، حتى دخل ناحية أحد ، فأنزل الله تعالى فى رجب بعد زوال الشمس قبل الظهر « قَدْ نَرَى تقلب وجهك فى السماء[1] » الآية ، وصُرِفت القبلة ، وذلك قبل بدر بشهرين ، وفى السير لابن حبان : حولت بعد سبعة عشر شهراً وثلاثة أيام ، وحديث البراء المتقدم رواه ابن خُزَيمة فى صحيحه «ستة عشر شهراً» على الجزم كرواية مسلم الأولى ، وقال الشيخ شرف الدين الدمياطى : حُوِّلت القبلة نصف رجب بعد خمسة عشر شهرا ونصف ، ونقل النووى فى سير الروضة عن محمد بن حبيب الهاشمى أن التحويل يوم الثلاثاء النصف من شعبان من السنة الثانية . ونقل المجد عن ابن حبيب أنها حُوِّلت فى النصف من شعبان فى الركعة الثالثة ، وقيل : فى صلاة العصر . وعند النحاس بعد بضعة عشر شهرا . وعن عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك : صُرِفت فى جُمادى ، قال : وهو أولى الأقوال بالصواب . وقال ابن جرير عن مُعاذ: بعد ثلاثة عشر شهراً من مَقْدَمِهِ المدينة ، قال : وعن أنس عشرة أو تسعة أشهر ، انتهى مانقله المجد .

وقت تحويل القبلة

وقال ابن سعد : يقال : إنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين من الظهر فى مسجده بالمسلمين ، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام ، فاستدار ودار معه المسلمون ، ويقال : زار النبى صلى الله عليه وسلم أمَّ بِشْر بن البَرَاء بن مَعْرور فى بنى سَلِمة وصنعت له طعاما ، وحانت الظهرُ فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه ركعتين ، ثم أمر فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب ، فسمى مسجد

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

القبلتين . قال ابن سعد : قال الواقدى : هذا أثبت عندنا .

أول صلاة إلى الكعبة

وفى الصحيح أن أول صلاة صلاها — أى متوجها إلى الكعبة — صلاة العصر .

قال الحافظ ابن حجر : التحقيقُ أن أول صلاة صلاها فى بنى سَلِمة الظهر ، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوى العصر . قال : وأسانيد الروايات المتقدمة — أعنى رواية ثلاثة عشر شهرا وتسعة عشر شهرا ونحوها — شاذة . قال : وأما رواية الصحيح فطريق الجمع بين رواية سبعة عشر شهرا وستة عشر ، ورواية الشك فى ذلك : أن مَنْ جَزَم بستة عشر لفق من شهر القدوم وشهر التحويل شهرا ، وألغى الأيام الزائدة ، ومَنْ جزم بسبعة عشر شهرا عدهما معا ، ومن شك تردد فى ذلك ، وذلك أن القدوم كان فى شهر ربيع الأول بلا خلاف ، وكان التحويل فى نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح ، وبه جزم الجمهور ، ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس ، وقول ابن حبان : « سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام » مبنىٌّ على أن القدوم كان فى ثانى عشر ربيع الأول .

وقال الربيع : كان النبى صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الهجرة مخيرا فى التوجه إلى بيت المقدس أو الكعبة ، إلا أنه أمَرَه الله بالتوجه إلى بيت المقدس ، فكان التوجه إليه فرضا ، وإن كان مخيرا فيه كالمخير فى كفارة اليمين أىّ واحدٍ اختار فهو فرض عليه ، وقال ابن عباس : بل كان الفرض التوجه إلى بيت المقدس ثم نسخ .

وقال ابن العربى وغيره : نُسِخت القبلة مرتين .

إلى أى جهة كانت الصلاة بمكة قبل الهجرة

وقال ابن رشد فى البيان : ولم يختلف فى ان صلاته صلى الله عليه وسلم كانت بالمدينة إلى بيت المقدس حتى حولت القبلة ، وإنما اختلف فى صلاته بمكة قبل قدومه المدينة ، فروى أنها كانت إلى الكعبة ، وروى أنها كانت إلى بيت المقدس ، وروى أنه كان يصلى إلى بيت المقدس والكعبةُ بين يديه — أى بين الركنين

اليمانين — وحكى ابن عبدالبر الاختلافَ فى صلاته صلى الله عليه وسلم بمكة : هل كانت إلى الكعبة ، أو بيت المقدس ؟ ثم قال : وأحسن من ذلك قول من قال : كان يصلى بمكة مستقبل القبلتين يجعل الكعبة بينه و بين بيت المقدس .

وروى الطبرى وغيره عن ابن عباس قال : لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واليهودُ أكْثَرُ أهلها يستقبلون بيت المقدس أمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم ، فكان يدعو و ينظر إلى السماء فنزلت ، وهو ظاهر فى أن استقبال بيت المقدس كان بِوَحْىٍ ، لا باجتهاد من النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه إنما وقع بعد الهجرة ، لكن أخرج أحمد عن ابن عباس : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة نحو بيت المقدس والكعبةُ بين يديه » فيجمع بأنه لما هاجر أمر بأن يستمر على الصلاة لبيت المقدس .

وروى الطبرى أيضا من طريق ابن جُرَيج قال : صلى النبى صلى الله عليه وسلم أولَ ما صلَّى إلى الكعبة ، ثم صُرِف إلى بيت المقدس وهو بمكة ، وصلى ثلاثَ حِجَج ، وهاجر فصلى إليه بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا ، ثم وَجَّهَهُ الله إلى الكعبة .

كيف حررت قبلة مسجد النبى صلى الله عليه وسلم

وقال ابن النجار : وصلى النبى صلى الله عليه وسلم فيه — أى فى مسجده — إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا ، ثم أمر بالتحول إلى الكعبة ، فأقام رهطا على زوايا المسجد ليعدل القبلة ، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال : يا رسول الله ضَعِ القبلَةَ وأنت تنظر إلى الكعبة ، ثم قال بيده هكذا ، فأماط كلَّ جبل بينه و بينها ، فوضع القبلة وهو ينظر إلى الكعبة لا يَحُولُ دون نظره شىء ،

فلما فرغ قال جبريل عليه السلام هكذا ، فأعاد الجبال والشجر والأشياء على حالها ، وصارت قبلته إلى الميزاب .

وأسند يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن الخليل بن عبد الله الأزدىّ عن رجل من الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام رَهْطاً على زوايا المسجد ليعدل القبلة ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله ، ضَعِ القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة ، ثم قال بيده هكذا ، فأماط كلّ جبل بينه وبين القبلة ، فوضع تربيع المسجد وهو ينظر إلى الكعبة لا يَحُولُ دون نظره شيء ، فلما فرغ قال جبريل عليه السلام بيده هكذا ، فأعاد الجبال والشجر والأشياء على حالها ، وصارت قبلته إلى الميزاب .

وعن نافع بن جُبَير من طرق مرفوعا : ما وضَعْتُ قبلة مسجدى هذا حتى رُفعت إلىّ الكعبةُ فوضعتها أؤمها (١) .

وعن ابن عَجْلاَن قال : وضَع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مسجده وجبريل قائم ينظر إلى الكعبة ، ثم كشف له ما بينه وبينها .

وعن ابن شهاب مرفوعا : ماوضعت قبلة مسجدى هذا حتى فُرِجَ لى ما بينى وبين الكعبة فوضعتها أؤُمها (١) .

وأسند العراقى فى ذيله من طريق أبى على بن شَاذَانَ بسنده عن إبراهيم بن دينار عن مالك بن أنس عن زيد بن أنس عن زيد بن أسلم قال : قال ابن عمر : وضع جبريل عليه السلام القبلَةَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، تفرد به عن مالك ومحمد بن إبراهيم — قلت : وهو ثقة .

وفى العُتْبية : قال مالك : سمعت أن جبريل عليه السلام هو الذى أقام لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة المسجد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد المدينة ، انتهى .

---

(١) أؤمها : أقصدها .

وأسند ابن زبالة عن أبى هريرة قال : كانت قبلة النبى صلى الله عليه وسلم الشام ، وكان مُصَلاَّه الذى يصلى فيه بالناس إلى الشام فى مسجده أن تضع موضع الأسطوان المخلَّق اليوم خَلْفَ ظهرك ثم تمشى إلى الشام ، حتى إذا كنت بيمنى باب آل عثمان كانت قبلته ذلك الموضع .

قال الذهبى : هذه القبلة كانت فى شمالى المسجد ، فلما حولت القبلة بَقِىَ حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفة ، انتهى . والأسطوانة المخلقة هى التى تدعى أسطوان عائشة رضى الله عنها فيما قاله المطرى ، وسيأتى ما نقله ابن زبالة فيها من أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى إليها المكتوبة بضعة عشر يوما بعد أن حولت القبلة ، ثم تقدم إلى مُصَلاَّه الذى وُجَاه المحراب فى الصف الأوسط ، هذا لفظه بحروفه .

وقوله : « وجاه المحراب » يريد المحراب العثمانى الكائن فى جدار القبلة .

وقال المطرى : إن الحائط القبلى — أى الأول — كان مُحاذيا لمصلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لماورد أن الواقف فى مُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون رمانة المنبر الشريف حَذْوَ منكبه الأيمن ، قال : فمقام النبى صلى الله عليه وسلم لم يغير باتفاق ، وكذلك المنبر لم يؤخر عن منصبه الأول : أى من جهة القبلة ؛ لما سيأتى أنه زِيدَ فيه من جهة الشام ، قال : وإنما جعل هذا الصندوق الذى قبالة مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سترة بين المقام وبين الأسطوانات ، انتهى .

وسيأتى فى ذكر الجذع الذى كان يخطب النبى صلى الله عليه وسلم إليه اختلافٌ فى محله : هل هو عن يمين المصلى الشريف أو عن يساره لجهة القبر الشريف ؟

وسيأتى ما عبر به ابن النجار فى حكاية الرواية الأولى حيث قال : كان فى موضع الأسطوانة المخلَّقة التى عن يمين محراب النبى صلى الله عليه وسلم عند الصندوق

والرواية الثانية هى المرادة بما أسنده يحيى عن ابن أبى الزناد وغيره من علماء المدينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذع فى المسجد كان موضعه عند الأسطوانة المُخَلَّقة التى تلى القبر : أى فى جهة القبر التى عن يسار الأسطوانة المخلقة التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى عندها التى هى عند الصندوق ، هذا لفظه ، والغرضُ من إيراده هنا قوله : « التى عن يسار الأسطوانة المخلقة .. إلى آخره » فهذه الأسطوانةُ المشارُ إليها — أعنى التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى إليها — هى التى عن يمين الواقف فى المصلى الشريف من جهة القبلة ، وعلم أن وَضْعَ الصندوق هناك كان من الزمن القديم ، لكنه كان صندوق مصحف كما سيأتى ، ووصفها بالمخلقة لا يشكل عليك بما اشتهر من وصف أسطوانة المهاجرين — وهى أسطوانة عائشة — بالمخلقة ، فالوصف بالمخلقة يطلق على أساطين متعددة كما سنوضحه ، ولهذا اشتمل هذا الكلام على وصف كل من هاتين الأسطوانتين بهذا الوصف .

ونقل المرجانى أن فى العتبية ما لفظه : أَحَبُّ مواضع التنفل فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مُصَلاه حيث العمود المخلق ، انتهى .

وقال ابن القاسم : أَحَبُّ مواضع الصلاة فى مسجده صلى الله عليه وسلم فى النفل العمودُ المخلَّق ، وفى الفرض فى الصف الأول ، قال ابن رشد : فى كون العمود المخلق كان قبلَةَ النبى صلى الله عليه وسلم أو أقرب إلى قبلته صلى الله عليه وسلم قول ابن القاسم وسماعه .

قلت : وهو دال على أن العمود المخلق هو الذى عند المصلىّ الشريف ، ولهذا رَوَى ابنُ وهب عن مالك أنه سئل عن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل له : أى المواضع أحب إليك الصلاة فيه ؟ قال : أما النافلة فموضع مصلاه ، وأما المكتوبة فأول الصفوف ، انتهى . فعبر هنا عن العمود المخلق بمُصَلاه . ورأيت فى جامع العتبية من البيان لابن رشد ما لفظه : قال مالك : ليس العمود المخلق قبلة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقبلة النبى صلى الله عليه وسلم هو حذو قبلة الإمام،

و إنما قدمت القبلة حَذْوَ قبلة النبي صلى الله عليه وسلم سواء .

قال ابن رشد عقبه : وقد مر في كتاب الصلاة عن ابن القاسم أن مُصَلَّى النبي صلى الله عليه وسلم هو العمود المخلَّق، خلاف قول مالك هنا ، انتهى. وقول مالك« و إنما قدمت القبلة» يشير به إلى المحراب الذى فى جدار القبلة بزيادة عثمان رضى الله عنه ، وهذا الذى ذكره يكاد أن يكون قَطْعياً ، وليس مراد ابن القاسم إلا أن العمود المخلق أقرب شيء إلى قبلة النبي صلى الله عليه وسلم فيعرف به ، ولهذا نقل ابن النجار عن مالك ما يقتضى أن الأسطوانة المذكورة علم لمُصَلَّى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : قال مالك بن أنس : أرسل الحجاج ابن يوسف إلى أمهات القُرَى بمصاحف ، فأرسل إلى المدينة بمصحف منها كبير ، وكان فى صندوق عن يمين الأسطوانة التى عملت عَلَماً لمقام النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن زبالة فيما سيأتى عنه : إن الْخَيْزُرَانَ لما أمرت بأن تخلق المسجد أشار عليهم إبراهيم بن الفضل فزادوا فى خَلُوق أسطوانة التوبة والأسطوان التى هى عَلَم عند مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فخلقوهما حتى بلغوا بهما أسفلهما، وزادوا فى الْخَلُوق فى أعلاهما ، انتهى . وقد توهم جماعة أن المرادَ من كلام ابن القاسم ، وما نقل عن مالك ، الأسطوانةُ المعروفة اليوم بالمخلقة ، وهى التى بأوسط الروضة ، وهو مردود ؛ لأن الأسطوانة المذكورة ليست علماً على مصلى الرسول عليه السلام اتفاقاً ، ومنشأ الوهم ظنهم اختصاصها بوصف المخلقة ، وممن اعتقد ذلك الحافظ ابن حجر فقال فى الكلام على قول يزيد بن عبيد « كنت آتى مع سَلَمة بن الأكوع فيصلى عند الأسطوانة التى عند المصحف» ما لفظه : هذا دال على أنه كان للمصحف موضع خاص به ، ووقع عند مسلم بلفظ : يصلى وراء الصندوق ، وكأنه كان للمصحف صندوق يوضع فيه ، قال : والأسطوانة المذكورة حَقَّقَ لنا بعضُ مشايخنا أنها المتوسطة فى الروضة ، وأنها تعرف بأسطوانة المهاجرين ،

وأسرت بها عائشة لابن الزبير ، ثم وجـدت ذلك فى تاريخ المدينـة لابن النجار ، وذكره قبله محمـد بن الحسن فى أخبار المدينـة ، هذا كلام الحافظ ابن حجر ، ومرادُه بمحمد بن الحسن ابنُ زبالة ، وليس فى كلامه ولا فى كلام ابن النجار ما يقتضى أن الأسطوانة التى عنـد الصندوق هى أسطوانة المهاجرين ، إلا من حيث وصف كل منهما بالخلقـة ، فتـوهم اتحادهما ، وليس كذلك ، والله أعلم .

محراب المسجد النبوى ، ومتى صنع ؟

وسيأتى أن المسجد الشريف لم يكن له محراب فى عهده صلى الله عليـه وسلم ولا فى عهد الخلفاء بعده ، وأن أول مَنْ أحْدَثه عمر بن عبد العزيز فى عمارة الوليد ، وزعم الأقشهرى فى روضته أن مصلى النبى صلى الله عليه وسلم فى موضع الصندوق ، وفى موضعه اليوم المحراب المرخم المرتفع عن المصـلى الشريف و بنائه ، فإنه قال ومن خطه نقلت : إنه قيل : إن منبر النبى صلى الله عليـــه وسلم لم يتغير تقديماً ولا تأخيرا ؛ فالزيادة وقعت فى المنبر شماليا لا غير ، وحد المنبر الأصلى اليوم مُساوية مع مصلى الإمام ، ومصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامه فى موضع الصندوق اليوم فهو خارج عن حد المنبر ، انتهى . واستنتج من ذلك أن يكون ما حاذى الصندوق يَمْنَة ويَسْرة ، قال : وهو مما زاده عمر روضة من رياض الجنة ، قال : لآن المصلى الشريف روضة بلا شك ، أى فما حاذاه كذلك ، وهو عجيب لم أر من سبقه إليه ، وما زعمه من أن حد المنبر ــ يعنى من القبلة ــ مساوٍ لمصلى الإمام اليوم ، يريد به أن نهاية مصلى الإمام اليوم مساوية لنهاية المنبر من جهة القبلة ، فإنه صور ذلك بخطه كما ذكرناه ، وكأنه توهم أن مصلاه صلى الله عليه وسلم كان فى محرابٍ بارزٍ عن سَمْتِ المسجد ؛ لأنه جعل ما عن يمينه و يساره من زيادة عمر رضى الله عنه ، ولم يقل به أحد ، مع أن ما زَعَمه من الاستواء لا يشهد له عقـل ولا نقل ؛ لأن المنبر الذى كان فى زمنه هو المنبر الذى كان فى زمن المطرى ، فإنهما متعاصران ، وقد سبق عن المطرى فى الفصل قبله أن بين المنبر والدرابزين الذى

فى القبلة مقدار أربع أذرع وربع ، وأنه اتضح لنا صحة ما قاله ، وذلك هو محل المنبر النبوى كما سنوضحه ، وعرض الصندوق المذكور وما بعده إلى الدرابزين المذكور ذراعان ونصف راجح ، والمنبر الذى أدركناه أولا لم يكن بينه وبين الدرابزين القبلى سوى ثلاثة أذرع ونصف راجحة ، ومع ذلك فحدُّ المنبر متأخر عن حد مصلى الإمام من جهة القبلة بنحو الذراع ، وعلى ما ذكره المطرى — وهو الصواب — يكون متأخرا بأزْيَدَ من ذلك ، وذلك فيما يظهر هو القدر الوارد فيما كان بين المنبر والجدار القبلى ، وأوضح من ذلك فى الرد عليه أن يحيى نقل فى كتابه عن محمد بن يحيى صاحب مالك قال : وجدنا ذَرْعَ ما بين مسجد النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان بِعَهْدِهِ إلى جدار القبلة اليوم الذى فيه المحراب عشرين ذراعا وربعا ، وهذه هى الزيادة التى زيدت بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قال المراغى : وقد اعتبرتُه من وَجْهِ سترة مصلى النبى صلى الله عليه وسلم إلى جدار القبلة فكان كذلك ، وبه يظهر أن المصلَّى الشريف لم يُغير عن مكانه ، وأن الصندوق إنما جعل فى مكان الجدار الأول ، انتهى .

وقد اعتبرت ما ذكره من جدار المسجد القبلى إلى طرف المصلى الشريف المحاذى لطرف صندوق السترة ، فكان ذلك إحدى وعشرين ذراعاً ونصف(١) وربع يرجح قيراطاً ، فإذا أسقط من ذلك عرض الجدار — وهو ذراع ونصف راجح — كان الباقى عشرين ذراعاً وربعاً كما ذكره يحيى ، وقد علمت أن الصندوق المذكور له أصل قديم هناك ، فكيف يكون فى موضع المصلى الشريف ولا ينبه عليه أحد ؟ بل يذكرون ما يدل على خلافه ، بل كيف يمكنون من ذلك ، ويحرمون المسلمين التيمن بمكانه صلى الله عليه وسلم ؟ هذا مما يكاد العقل يُحيله .

---

(١) الصواب عربية أن يقول «ونصفاً وربعاً يرجح قيراطاً» .

وقال النووى فى مناسكه مالفظه : وفى إحياء علوم الدين أنه ـ أى المُصلّى ـ يجعل عود المنبر حذاء منكبه الأيمن ، ويستقبل السارية التى إلى جانبها الصندوق ، وتكون الدائرة التى فى قبلة المسجد بين عينيه ، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قلت : وكأن المراد من استقبال السارية المذكورة جعلها عن جهة اليمين كما عليه وضع المصلى اليوم . وقد ذكر ابن زَبَالة هذه الأسطوانة ثم قال : حدثنى إبراهيم بن محمد عن غير واحد منهم خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك قال : إذا عدلت عنها ـ أى عن الأسطوانة المذكورة ـ قليلا وجَعَلْتَ الجزعة التى فى المقام بين عينيك والرمانة التى فى المنبر إلى شحمة أذنك قُمْتَ فى مَقَام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأن الرمانة المذكورة كانت فى أعلى عمود المنبر النبوى ، ولذا عبر به فى الإحياء .

وسيأتى أنه لما حفر بعد الحريق الثانى لتأسيس المنبر الرخام وجدوا محل المنبر الأصلى شبه حوض من حجر ، وفى جانبيه من المشرق والمغرب فرضتان منقورتان فى الحجر بهما شىء من الرصاص بحيث لا يخفى على مَنْ أحاط عِلماً بصفة المنبر النبوى أنهما محلُّ عَمُوديه كانا محكمين بالرصاص فيهما ، وقد وقعت فى المصلى الشريف مما يلى مؤخرهُ ، وتأملت الفرضة التى مما تلى الروضة فوجدتها فى محاذاة يمينى ، فظهر أنها المرادة .

وأما الجزعة فذكر المطرى أن هذه الجزعة كانت فى المحراب القبلى المقابل المصلى الشريف ، وأنها أزيلت منه ، قال : وما حققه الغزالى عند ذكر المصلى الشريف بقوله « إذا وقف المصلى فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم تكون رُمَّانة المنبر حذو منكبه الأيمن ويجعل الجزعة التى فى القبلة بين عينيه فيكون واقفا فى مصلى النبى صلى الله عليه وسلم إنما كان قبل حريق المسجد ، وقبل أن يجعل هذا

اللوح القائم فى قبلة مصلى النبى صلى الله عليه وسلم : أى فإنه صار يحجب عن مشاهدة ما فى المحراب القبلى ، قال : و إنما جعل بعد حريق المسجد ، قال : وكان يحصل بتلك الجزعة فتنة كبيرة وتشويش على من يكون بالروضة الشريفة من المجاورين وغيرهم .

وذلك أنه كان يجتمع إليها الرجال والنساء ، و يقال : هذه خرزة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت عالية لا تُنَال بالأيدى ، فتقف المرأة لصاحبتها حتى ترق على ظهرها وكتفيها حتى تصل إليها ، فربما وقعت المرأة وانكشفت عورتها ، وربما وقعتا معا .

فلما كان سنة إحدى وسبعمائة جاور الصاحبُ زينُ الدين أحمد بن محمد المعروف بابن حنا المصرى ، فرأى ذلك ، فاستعظمه وأمر بقلع الجزعة ، فقُلعت ، قال : وهى الآن فى حاصل الحرم ، ثم توجه إلى مكة فى أثناء السنة فرأى أيضاً ما يقع من الفتنة عند دخول البيت الحرام ، وتعلق الناس بعضهم ببعض ، وحَمْل النساء على أعناق الرجال للاستمساك بالعروة الوثقى فى زعمهم ، فأمر بقَلْع ذلك المثال ، وزالت تلك البدعة أيضاً، ولله الحمد .

قلت : والظاهر أن هذه الجزعة هى التى ذكرها ابن جُبَير فى رحلته فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة لما قدم المدينة ، قال : رأيت على المحراب مسمارا مُثبتاً فى جداره فيه شِبْهُ حُقٍّ صغير لا يعرف من أى شىء هو يزعمون أنه كأس كسرى ، وشاهدت على رأس المحراب حجرا مربعاً أصفر قدر شبر فى شبر ظاهر البريق والبصيص ، يقال : إنه مرآة كسرى ، والله أعلم بحقيقة ذلك كله ، انتهى .

ثم رأيت فى العِقْدِ لابن عبد ربه ـ وهو أقدم من ابن جُبَير ـ أن على ترس يعنى المحراب العثمانى فضة ثابتة غليظة فى وسطها مرآة مربعة ذكر أنها كانت لعائشة

رضى الله عنها ، ثم فوقه إزار رخام فيه نقوش صفائح ذهب مثمنة فيها جزعة مثل جمجمة الصبى الصغير مسمرة ، ثم تحتها إلى الأرض إزار رخام مُخَلَّق بالخَلُوق فيه الوَتِدُ الذى كان صلى الله عليه وسلم يتوكأ عليه فى المحراب الأول ، انتهى

قلت : وقد سألت عن هـذه الجزعة المتولىَ لأمر حاصل الحرم الشريف وخازِنَ دارِهِ ـ وكان قديم الهجرة ـ وغيرهما، فقالوا : إنه ليس عندهم بالحاصل شئ من ذلك، ولعل ذلك ذهب فيما أخذه الأمير جماز عند كسر حاصل الحرم الشريف ، وقد وسع المحراب القبلى عما كان عليـه وزيد فى طوله بعد هدم الجدار القبلى بعد الحريق الثانى

وقال ابن زبالة : إن ذَرْعَ ما بين المنبر ومقام النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان يصلى فيه حتى توفى صلى الله عليه وسلم أربعة عشر ذراعا وشبرا

قلت : وقد ذرَعْتُ ما بين المنبر الموجود قبل الحريق الثانى وأعلى الحفرة الذى ينزل منه إلى درجتها من ناحية مؤخر المصلى الشريف ، فكان أربعة عشر ذراعا ، وعرض الدرجة شبر راجح ؛ فصح ذلك ، وأما حده من جهة المشرق فسيأتى أن جعله على هذه الهيئة الموجودة اليوم أمر حادث

وقد قال ابن زبالة : إن ذَرْعَ ما بين مُصَلَّى النبى صلى الله عليه وسلم من مسجده الأول و بين أسطوان التوبة سبع عشرة ذراعا ، وأسطوان التوبة فى جهة المشرق ، وقد ذَرَعْتُ ما بينها و بين درجة الحفرة الشرقية فـكانت ست عشرة ذراعا ، فعلمنا بذلك أن المصلى الشريف فى جانب الحفرة الغربى ، وأن مايلى المشرق منها ليس منه ، و يشهد له ما سبق من كلام مالك والإحياء لذكرها السارية التى عندها الصندوق ، بل فى خط الأقشهرى فى مصنفه فى الزيادة ضبط قول ابن زبالة فيما بين المصلى الشريف وأسطوان التوبة تسع عشرة ذراعا ـ بتقديم التاء على السين ـ وقد ذرعت مابين طرف أسطوان التوبة الشرقى و بين طرف الحفرة

الغربى فكان كذلك

ونقل الأقشهرى أيضا عن أبى غسان أحَدِ أصحاب مالك أن مابين الحجرة الشريفة ومقام النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان يقوم فيه ثمانية وثلاثون ذراعا ، وأن مابينه و بين المنبر الشريف مثل ما سبق عن ابن ز بالة ، وقد اختبرت ما بين طرف الحفرة الغربى ورُخَام جدار الحجرة الشريفة فكان ثمانية وثلاثين ذراعا ، فعلمنا أن المحافَظَ عليه فى حد المصلى الشريف هو طرف الحفرة الغربى ، ولم تكن هذه الحفرة فى الزمن القديم ، ولهذا قال المجد : حكى ابنُ النجار الإجماعَ على أن المصلى الشريف لم يغير بتقديم وتأخير ، و إنما غيرت هيئته فى هذا العصر الأخير بجعل المصلى شبه حفير أو حوض صغير منخفض عن موقف المأمومين نحو ذراع بسبب ترخيمه وتكاثر الرمل المفروش به الروضة

قلت : وهو الآن شبه حوض مربع ينزل إليه بدرجة طولُه ذراعان ونصف وثمن ، وعرضه ذراعان ونصف ونصف ثمن ، لكن زاد وافى طوله فى العمارة الحادثة بعد الحريق أرجح من نصف ثمن ذراع ونحوه فى العرض

قال البدر ابن فرحون وغيره : وما زال العلماء الأئمة يتَحَرَّجون من ذلك ، وفى أيام القاضى السراج ــ وهوأول قاض ولى لأهل السنة ــ فمن بعده كانت ترفع تلك الحفيرة بالرمل حتى تزول الكراهة ، إلى أيام الشرف الأسيوطى ، فأراد طَمْسَ الحفرة أو رَفْعَهَا و إزالة الخشب المنقوش أمامها الآتى ذكره ، فقام عليه بعض الناس من الخدام ، واستعانوا عليه بالأشراف ، فكف وانتقل عن المحراب ، وصار يصلى إلى الأسطوانة التى تقابل أسطوانة الوفود ــ أى من مقدم الروضة ــ ولزمها إلى أن مات ، وصار من الفقهاء مَنْ يرفع الكراهة بما يحصل من القرب إلى مقامه صلى الله عليه وسلم وموضع قدمه ، وهذه نزغة ؛ فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الموقف سواء ، فمن خالف سنته بالهوى فقد غوى

قلت : وهذه الحفرة بعيدة من موقف النبى صلى الله عليه وسلم لعلو الأرض ؛ لما سيأتى عن البدر ابن فرحون أنهم وجدوا عند تجديد المنارة التى بباب السلام باب مروان وتحصيب المسجد الشريف القديم بعد حَفْر قامة ، ولما اتضح لنا فى العمارة الآنى ذكرها ؛ فقد اعتبرتُ أرضَ الحجرة الشريفة وأرضَ المسجد ، فكان بينهما من التفاوت ذراعان ونصف وأزيد ، لكن مقتضى ما ظهر من الرخام الذى وصفه ابنُ زبالة حول المنبر ومشاهدتنا لما انكشف منه فيما بين المنبر والأساطين التى خلفه عدم بعض أرض هذه الحفرة من محل الموقف الشريف فى ذلك العصر ؛ لأن نسبة ما بين هذه الحفرة والرخام المذكور أقل من نصف ذراع ، وقد حققتُ مسألة انخفاض المصلى الشريف فى كتابى الموسوم « بكشف الجلباب والحجاب عن القدوة فى الشباك والرحاب » ولم يتحرر لى ابتداء ترخيم المصلى الشريف وجعله على هذه الهيئة ، وسماه ابنُ جُبَيْر فى رحلته بالروضة الصغيرة ، وقال : إن الإمام يصلى بالروضة الصغيرة المذكورة إلى جانبها الصندوق ، وقال قبل ذلك فى وصفها : وبإزائها لجهة القبلة عمود مطبق يقال : إنه على بقية الجذع الذى حَنَّ للنبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق ، انتهى .

ولم يذكر فيها ترخيما ولا انخفاضا ، مع ذكره لذلك فى المحل الذى عليه المنبر كما سيأتى ، والظاهر أن حدوث انخفاض المصلى الشريف بما حوله تجدد بعد الحريق الأول ، وقد اقتضى رأى متولى العمارة الحادثة بعد الحريق الثانى أن يخفض أرض المسجد حتى تكون مساوية للمصلى الشريف ، فقطع من الأرض نحو ذراع ؛ فكانوا يجدون طبقة من التراب ، وتليها طبقة من الرمل، حتى وصلوا إلى الأرض المساوية للمصلى الشريف ، وظهر لهم الرخام الذى كان عليه المنبر الشريف بعد حفر نحو نصف ذراع ، وحصل بذلك إزالة هذه البدعة ، ولله الحمد والمنة .

وكان فى قبلة المصلى الشريف صندوق خشب بديع الصنعة يعلوه محراب قد

أُمْتِج الصناع فيه نتائج مبدعة من صنعة النجارة ، والمحرابُ المذكور شبه باب نَقَنْطر لموضع لطيف على ظهر الصندوق المذكور مكتوب فى داخله أمام مُسْتَقْبِلِه بعد البسملة آية الكرسى(١) ، وعلى ظاهر الباب المقنطر بعد البسملة « قد نَرَى تَقَلُّبَ وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها(٢) » الآية ،وفيه صنعة عجيبة وصبغ باللازَوَرْدِ وتَذْهِيبٌ عجيب يشغل الخاطر ، ويفرق القلب الحاضر ؟ إذ لا قَلْبَ أجمع وأعلى وأرفع من قلب سيد الأنام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد قال فى شأن الخميصة من أجل تلك الأعلام « اذهبوا بخميصتى(٣) هذه إلى أبى جَهْم وائتونى بأنبجانية أبى جهم ، فإنها ألهتنى آنفا عن صلاتى » وسيأتى أنه لما قال عمر بن عبدالعزيز بعد زخرفة المسجد لعمرو بن عثمان رضى الله عنه : بناؤنا أحسن أم بناؤكم ؟ فقال له : بنيناه بناء المساجد ، و بنيتموه بناء الكنائس

وقال مالك فيما نقله عنه صاحب التبصرة : كره الناسُ ما فعل فى قبلة المسجد بالمدينة من التزاويق؛ لأنه يشغل الناس فى صلاتهم، وأرى أن يُزَالَ كل ما يشغل الناس عن الصلاة ، وإن عَظُمَ ما كان أنفق فيه فالله تعالى يبعث لهذا المصلى الشريف مَنْ يزيل عنه هذه الزخارف و يسويه كما كان فى زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد أُدْعِمَ(٤) هذا المحراب الخشبى من ورائه بدعامة شبه التاج العظيم حتى اتصل بالدرابزين الذى بين الأساطين فى قبلة الروضة ، وبرز عنها ، وجعل فى أعلاه وعن يمينه وشماله مع امتداد الروضة مغارز لفرخات القناديل المسماة بالبزاقات تسرج فى ليالى الزيارات ، وفى داخله كسوة جليلة من الحرير من جنس كسوة الحُجْرة الشريفة ذات طراز منسوج ، وقد احترق ذلك كله فى الحريق الثانى الآتى ذكره ، وذلك بعد تمام هذا التأليف ، فاقتضى رأى متولى العمارة الحادثة بعد ذلك إبداله بمحراب مُرَخَّم فى دعامة تبنى فى محل الصندوق المذكور ، فحفروا هناك

---

(١) هى الآية ٢٥٥ من سورة البقرة (٢) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

(٣) الخميصة : ثوب مخطط من خز أو صوف ، وقيل : الأسود المخطط خاصة .

(٤) فى المطبوعات «وقد أوهم» تطبيع .

لأساسها نحو القامة ، فوجدوا هناك قبرا بدا لحده مسدودا باللبِن أخرجوا منه بعض العظام ، ووجدوا الأقدمين لما أسسوا الأسطوانة التي عنده حرفوا أساسها عنه قليلا ، فتركوه على حاله ، وأسسوا للمحراب المذكور ، ورخّموه بالرخام الملوّن ترخيما بديعا فيه صبغ ذهبي وغيره ، وهو أبهى منظرا من الأول ، وجعلوا أرض المحراب المذكور مرتفعة قليلا على المصلى الشريف ؛ لأنه إنما جعل في محل الصندوق الذي كان أمام المصلى الشريف ، فليتنبه لذلك ، والله أعلم .

تنبيهات — الأول : قال البخاري في صحيحه « باب قدركم ينبغي أن يكون بين المصلى والسترة » ثم روى عن سهل بن سعد قال : كان بين مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين الجدار ممر الشاة ، ثم روى عن سَلَمة — يعني ابن الأكوع — قال : كان جدار المسجد عند المنبر ما كادت الشاة ، تجوزها : أي المسافة ، وهي ما بين المنبر والجدار ، وقوله في الحديث الأول « كان بين مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » أي مقامه في صلاته ، وكذا هو في رواية أبي داود ، وقوله « و بين الجدار » أي جدار المسجد مما يلي القبلة كما صرح به من طريق ابن غسان في الاعتصام ، ومنه يعلم ما في قول النووي في شرح مسلم : يعني بالمصلى موضع السجود ، والحديث الثاني رواه الإسماعيلي بلفظ : كان المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بينه و بين حائط القبلة إلا قدر ما تمر العنز . قال الكرماني في بيان مطابقته للتبويب : إن ذلك من حيث إنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم بجنب المنبر : أي ولم يكن لمسجده محراب ، فيكون مسافة ما بينه وبين الجدار نظير ما بين المنبر والجدار ، فكأنه قال : الذي ينبغي أن يكون بين المصلى وسترته قدر ما كان بين منبره صلى الله عليه وسلم وجدار القبلة

قلت : وكأنّ الكرماني بنى ذلك على ما عهده في غالب المساجد من أن مصلى الإمام يكون إلى جانب المنبر ، وقد تقدم بيانُ ما بينهما من المسافة وحكايةُ الإجماع على أنه لم يغير ، وأيضا فلا يلزم من كونه صلى الله عليه وسلم كان يصلى

إلى جانب المنبر أن يكون بينه و بين الجدار نظير ما بين المنبر والجدار كما لا يخفى، وأوضح مما ذكره — كما قال الحافظ ابن حجر — ما ذكره ابن رشد من أن البخارى أشار إلى حديث سعد بن سهل الذى فى باب الصلاة على المنبر فإن فيه أنه صلى الله عليه وسلم « قام على المنبر حين عمل ، وصلى عليه » فاقتضى ذلك أن ما بين المنبر والجدار يؤخذ منه موضع قيام المصلى .

قلت : لكن يلزم من ذلك التأخر عند السجود ؛ لأن ذلك المقدار لا يتأتى فيه السجود ، وقد ثبت رجوعه صلى الله عليه وسلم القَهْقَرَى[1] من أجل السجود لما صلى على المنبر لعدم تأتِّيه عليه .

وقال ابن بطال : هذا أقل ما يكون بين المصلى وسترته ، يعنى قدر ممر الشاة ، وقيل : أقل ذلك ثلاثة أذرع ؛ لحديث بلال أن النبى صلى الله عليه وسلم « صلى فى الكعبة و بينه و بين الجدار ثلاثة أذرع » كما فى الصحيح، وجمع الداودى بأن أقله ممر الشاة، وأكثره ثلاثة أذرع ، وجمع بعضهم بأن الأول فى حال القيام والقعود ، والثانى فى حال الركوع والسجود ، قاله الحافظ ابن حجر .

قلت : و يلزمه التأخر عن موقفه الأول عندهما كما قدمناه ، وهو متعين ؛ إذ لا يتأتى السجود فى أقل من ثلاثة أذرع ، ولهذا كان حريم المصَلِّى الذى يكون بينه و بين سترته ثلاثة أذرع عندنا .

وقال ابن الصلاح : قدروا ممر الشاة بثلاث أذرع[2] .

قال الحافظ ابن حجر : ولا يخفى ما فيه .

قلت : الظاهر أن البخارى إنما أورد حديث سلمة المشتمل على بيان ما بين المنبر والجدار ليستدل به على مقدار ممر الشاة ، فإن ما بينهما كان معلوما عندهم ، وقد تقدم عن العتبية أنه كان بينهما قدر ما يمر الرجل منحرفا ، والذى اقتضى حمل

---

(١) رجع القهقرى : أى إلى خلف .

(٢) هذا نوع آخر من الجمع بين حديث ممر العنز وحديث ثلاث الأذرع وملخصه أن العبارتين مترادفتان ، لكنه ليس بمسلم ، كما أشار إليه ابن حجر ، وأوضحه المؤلف بعده .

ابن الصلاح ممر الشاة على ما ذكره أن ذلك هو القدر الذى يتأتى فيه السجود مع الاستمرار فى الموقف .

وقد قال البغوى : استحبّ أهلُ العلم الدنُوَّ من السترة بحيث يكون بينه و بينها قدر إمكان السجود ، وكذلك بين الصفوف ، وقد ورد الأمر بالدنو من السترة مع بيان حكمة ذلك ، وهو ما رواه أبو داود وغيره مرفوعا : « إذا صلى أحدكم إلى سترة فَلْيَدْنُ منها لا يقطع[1] الشيطان عليه صلاته » ، قال الحافظ ابن حجر: وهو حديث حسن ، والله أعلم .

التنبيه الثانى — فى العُودِ الذى كان فى المصلَّى الشريف .

روينا فى كتاب يحيى عن مصعب بن ثابت قال : طلبنا علم العود الذى كان فى مَقَامِ النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم نقدر على أحد يذكر لنا فيه شيئا ، قال مصعب : حتى أخبرنى محمد بن مسلم بن السائب صاحب المقصورة قال : جلس إلىَّ أنسُ بن مالك ، فقال : تدرى لم صُنِعَ هذا العود ؟ وما أسأله عنه ، فقلت : لا والله ما أدرى لم صنع ، فقال أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَضَعَ عليه يمينه ثم يلتفت إلينا فيقول : اسْتَوُوا، واعدلوا صفوفكم .

وعن أنس بن مالك قال : لما سُرِقَ العودُ الذى كان فى المحراب فلم يجده أبو بكر حتى وجده عمر رضى الله عنهما عند رجل من الأنصار بقُبَاء قد دُفن فى الأرض أكلته الأَرَضَةُ ، فأخذ له عودا ، فشقه فأدخله فيه ، ثم شَعَبه[2] ، فرده فى الجدار ، وهو العود الذى وضعه عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى القبلة ، وهو الذى فى المحراب اليوم باقٍ فيه .

وعند أبى داود عن محمد بن أسلم صاحب المقصورة قال : صَلَّيْتُ إلى جنب أنس بن مالك يوما فقال : هل تدرى لم صنع هذا العود ؟ فقلت : لا والله ،

(١) يقطعها بالمرور فى المكان المتروك ، أو يحمل من يمر فيها فيكون مروره قاطعاً للصلاة .

(٢) شعبه : أصلحه .

قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليه فيقول : « استووا واعدلوا صفوفكم » .

قلت : سيأتى فى الكلام على الجذع أن الأسطوانة المتقدم ذكرها التى هى عَلَمَ المصلّى الشريف كان بها خشبة ظاهرة محكمة بالرصاص ، يقول الناس : إنها من الجذع الذى حَنَّ للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأن المطرى قال : إن الأمر ليس كذلك ، و إن العز ابن جماعة أمر بإزالتها ، فأزيلت عام خمس وخمسين وسبعمائة .

قال المجد : ورأى بعضُ العلماء أن إزالتها كانت وهما منهما ، وذلك أن إتقان هذه الخشبة ، وترصيصها بين حجارة الأسطوان و إبرازها لم يكن سُدًى[1] ، و إنما شاهد الحالِ يشهدُ بأنه كان من عمل عمر بن عبد العزيز ؛ فالظاهر أنه كان من الجذع .

قلت : بل الظاهر أنها ليست منه ؛ إذ لم ينقل بقاء شىء منه ، بل الظاهر أنها من هذا العود المذكور ؛ لما قدمناه فيه ، ولما سيأتى عن ابن النجار .

وقول الزينى المراغى : « إن احتمال ذلك كان يمكن تسليمه قبل حريق المسجد ، أما بعده فردود ؛ لأنه بقى من حريق المسجد بقايا خشب كثيرة كما سنحققه » .

وقول المؤرخين : « إنه لم يبق ولا خشبة واحدة » مردود ؛ فقد شاهدت عند إزالة هَدْم الحريق من الحجرة الشريفة ما لا يحصى من أطراف الخشب المحترق ، حتى ميزاب الحجرة الشريفة رأيته من عَرْعَر[2] فيما أظن احترق بعضُه و بقى منه قَدْرُ الذراع ، وأخذ الناسُ كثيرا من تلك الأخشاب ، واتخذ متولى العمارة وغيره منها سُبَحاً كثيرة ، وعبارة ابن النجار صريحة فيما ذكرناه من كون العود المذكور كان بالأسطوانة المذكورة ، فإنه ترجم عليه بقوله : « ذكر العود الذى

---

(١) لم يكن سدى : أى لم يكن بغير سبب ، وفى بعض النسخ « لم يكن أسداً » تحريف ، وفى المطبوعات « لم يكن سداً » خطأ فى الكتابة .

(٢) العرعر ـ بفتح العينين وسكون الراء بينهما ـ شجر السرو ، وذكر المجد أنها فارسية .

فى الأسطوانة التى عن يمين القبلة » ، ثم روى عن أهل السير خبر مُصْعَب بن ثابت المتقدم .

وشُيُوعُ أن تلك الخشبة من الجذع قـديم ، فقد قال ابن جُبَيْر فى رحلته : إن بإزاء الروضة — يعنى المصلى الشريف منها — لجهة القبلة عمودا مطبقا يقال: أنه على بقية الجذع الذى حَنَّ للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقطعة منه وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس و يبادرون للتبرك بلَمْسِها ومسح خدودهم فيها ، وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق ، انتهى .

واستفيد منه أيضا أن وضع الصندوق هناك كان قبل حريق المسجد فى زمنه ، وسبب الشيوع المذكور فى تلك الخشبة ما سيأتى من أن الجذع كان قريبا من محل الأسطوانة المذكورة ؛ فالظاهر أن الخشبة المذكورة كانت قريبا منـه فى الجدار ، فجعلت فى تلك الأسطوانة لقربها من المحل الأول ؛ فقد روى يحيى أيضا عن أنس ابن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان يَسْتَمْسك بعود كان فى القبلة ، ثم يلتفت عن يمينه وعن شماله ، فإذا استوت الصفوف كبر » .

وروى ابن زبالة عن عمرو بن مسلم قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم حين أَسَنَّ قد جُعِلَ له العود الذى فى المقـام ، إذا قام فى الصلاة توكأ عليه ، قال : ثم ألصق إليه عود معه ، وروى أيضا هو ويحيى من طريقه عن مسلم بن خباب قال: لما قدم عمر رضى الله عنه القبلة فَقَدَ العود الذى كان مغروسا فى الجدار ، فطلبوه ، فذُكر لهم أنه فى مسجد بنى عمرو بن عَوْفٍ أخذوه فجعلوه فى مسجدهم ، فأخذه عمر فرده إلى المحراب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة أمسكه بكفه يعتمد عليه ، ثم يلتفت فى شقه الأيمن فيقول : عدِّلوا صفوفكم ، ثم يلتفت إلى الأيسر فيقول مثل ذلك ، ثم يكبر للصـلاة ، وذلك العود من طَرْفَاء الغابة (١) .

(١) الطرفاء : اسم لأربعة أنواع من الشجر : أولها الأثل ، وواحدته طرفاءة ، وطرفة ، وبها لقب طرفة بن العبـد البكرى ، وفى الشعراء أربعـة غيره سموا بهذا الاسم .

هل مصلاه صلى الله عليه وسلم على عين القبلة أو جهتها ؟

التنبيه الثالث — أسند يحيى عقب ما تقدم عن ابن عباس قال : كنت أرى صفحة خد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمنى فى مسجده يَتَيَامن .

وعن عروة : كان الزبير بن العوام وأناسٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيامنون ويقولون : إن البيت يتهامى ، قال يحيى : وسمعت غير واحد من مشايخنا ممن يقتدَى به يقول : المنبر على القبلة .

قلت : لعلَّ ما ذكره من التيامن فى غير المصلّى الشريف ، والذى ذكره أصحابنا أنه لا يجتهد فى محراب النبى صلى الله عليه وسلم لأنه صواب قطعا ؛ إذ لا يُقَرُّ على خطأ ؛ فلا مَجَال للاجتهاد فيه حتى لا يجتهد فى اليَمْنَةِ واليَسْرَة ، بخلاف محاريب المسلمين ، سيما وقد تقدم أنه وضعه وجبريل يؤمُّ به البيت ، والمراد بمحرابه صلى الله عليه وسلم مكان مُصلاَّه ، فإنه لم يكن فى زمنه صلى الله عليه وسلم محراب ، نعم إن ثَبتَ تيامنه صلى الله عليه وسلم فى مكان مصلاه فما نقله متجه ، ويؤيده أن الدكة التى ظهرت فى محل المنبر ووجد فيها آثار قوائم المنبر النبوى كما سيأتى متيامنة ، ولذا حرَّضْتُ على بقائها على ماوجدت عليه فبقيت على حالها ، إلا أنهم وضعوا المنبر عليها غيرَ متيامن فصار محرفا عنها ، وعبارة النووى فى التحقيق : وكل موضع صلى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وضبط موقفه تعين ، ولا يجتهد فيه بتيامن ولا تياسر ، انتهى .

وقال الشيخ محب الدين الطبرى فى شرح التنبيه ، ومن خطه نقلت : إن قيل محرابه صلى الله عليه وسلم على عين الكعبة ؛ إذ لا يجوز فيه الخطأ ، فيلزم مما قلتم أنه لا يصح صلاة من بينه وبينه من أحد جانبيه أكثر من سَمْت الكعبة إلا مع الانحراف .

قلنا : من أين لكم أنه على عين الكعبة ؟ فيجوز أن يكون ذلك ولا خطأ بناء على أن الفرض (١) الجهة ، نعم إن روى فى الصحيح أنه نصب على العين فنقول :

(١) يريد أن فرض الاستقبال فى الصلاة هو جهة القبلة ، وهو قول من أقوال معتبرة للفقهاء ، والثانى أن الفرض هو عين القبلة ، والثالث الفرق بين من يصلى عند الكعبة فيتعين عليه الاتجاه إلى عينها ، ومن يصلى بعيداً ففرضه جهتها .

مقتضى الدليل ما ذكرتموه على القولين ، أما على العين فظاهر ، وأما على الجهة فإنما ذلك عند عدم المشاهدة ، وهذا المحراب منزل منزلة الكعبة فمشاهدُهُ كمشاهدِ ها ، إلا أن إجماع الصحابة رضى الله عنهم على بناء مسجد النبى صلى الله عليه وسلم واسعا وصلاتهم فى أقطاره من غير أن ينقل الانحرافُ عنهم دليلٌ على طَرْدِ حكم البعد فى كل مكان ، سواء تحقق صَوْبُ عين الكعبة أم لا ، توسعة وتعميما للحكم ، وتحقيقاً للقول بأن فرض البعيد هو الجهة مطلقا ، ولا أعلم أحدا تكلم فى هذه المسألة ، والظاهر فيها ما ذكرته ، انتهى .

وفيه نظر ، بل صلاة مَنْ بينه و بين المصلى الشريف أكثر من سَمْت الكعبة صحيح ، واعتبار العين من غير انحراف لما تقرر من أن المسامتة تصدق مع البعد،ألا ترى أن الدائرة إذا عظمت اتسعت الخطوط فيُسَامت الخطُّ الخارجُ من جبين المصلى الكعبَةَ ظناً ، وهو المكلف به فى البعد ، نعم هذا يقتضى جواز الاجتهاد بالتيامن والتياسر لمن بينه و بين المصلى الشريف أكثر من سمت الكعبة إلا أن ينقل عدمه عن الصحابة فى زمنه صلى الله عليه وسلم مع إقراره صلى الله عليه وسلم لهم على ذلك ، والله أعلم .

قد تم — بمعونة الله تعالى وحسن توفيقه — الجزء الأول من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » تأليف العلامة المحقق ، والمؤرخ المدقق ، نور الدين على السمهورىّ ، أحد علماء القرن العاشر الهجرى ، و يليه — إن شاء الله تعالى — الجزء الثانى منه ، وأوله «الفصل الرابع ، فى خبر الجذع الذى كان يخطب إليه النبى صلى الله عليه وسلم – إلخ » نسأل الله الذى بيده تتم الصالحات أن يعين على إكماله ، بمنه وفضله ؛ إنه لامعين سواه ، ولا يوفق للخير غيره .